

جامعة
الملك سعود
King Saud University



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الملك سعود
كلية التربية
قسم الدراسات الإسلامية



بمؤتمرات

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

The International Conference on Mercy in Islam

الجزء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أسباب تحصيل رحمة الله في السنة النبوية (جمعاً ودراسة)

إعداد:

د. نوال عمر باسعد



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الرحمة في تعاليم الإسلام واضحة وضوح الشمس في وضوح النهار، والعلاقة بين الإسلام وبين الرحمة علاقة تلازم، لأن من أسماء الله الحسنى: الرحمن الرحيم، فرحمة الله ﷻ واسعة، وسعت المسلم والكافر، والبر والفاجر، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، والإنسان والحيوان والجماد.

وقد جاءت النصوص النبوية تؤصل الرحمة تطبيقاً، وتعاملاً وخلقاً، وبراً وإحساناً، حتى مع الذبيحة التي تذبح، ولا غرابة فهو نبي الرحمة، وقد وصف بالرحمة قبل بعثته، وبشرت الرسالات السابقة بوصفه بهذا. ولرحمة الله الواسعة أسباب تستجلب بها، ووسائل يتعرض بها العبد لرحمة الله، وقد أظهرها الشارع وبينها للناس سواء كانت أسباباً متعددة النفع للناس، أو متعددة النفع للنفس فقط، وفيها يظهر التلازم بين الرحمة وبين الإسلام، رداً على مروجي شبهة التلازم بين الإرهاب والإسلام.

وقد تم اختياري لهذا الموضوع: (أسباب تحصيل رحمة الله في السنة

النبوية، جمعاً، ودراسة^(١) لهذه الأسباب التي تستجلب بها رحمة الله بالعبد، مع التقيد بوسائل بيّنة واضحة في السنة النبوية^(٢).

هدف البحث:

تأصيل خلق الرحمة في التعامل من خلال نصوص شرعية، حثت على أعمال وأفعال لها طابع الرحمة ومستجلبة لرحمة الله.

المحور المختار:

الرحمة في السنة النبوية.

منهج البحث:

سيجمع البحث بين المنهج الاستقرائي، والتحليلي، حيث يتم جمع الأحاديث التي نصت على أسباب تحصيل رحمة الله في السنة النبوية^(٣).

- (١) لأن الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل إلا في أحدها هي: إما شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو شيء ناقص يتمه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه. ينظر: رسائل ابن حزم (٢/ ١٨٢)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٣٨)، وما هذا البحث إلا من قبيل جمع المتفرق لأسباب تحصيل رحمة الله في السنة النبوية من جهة، ومن جهة أخرى دراستها واستنباط الفوائد منها، وهنا يكمن جديد البحث.
- (٢) وهو قيد أخرج موضوع: (أسباب تحصيل رحمة الله في القرآن الكريم) منعاً للإطالة وهي كثيرة منها:

١. الاستغفار لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا سَتَّغْفِرُونَكَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦].
 ٢. طاعة الله ورسوله قال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣١].
 ٣. التقوى واتباع الكتاب والسنة لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].
 ٤. الاستماع إلى القرآن، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٥٤].
 ٥. الصبر عند البلاء مع الاسترجاع لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦-١٥٧].
 ٦. الإحسان، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].
 ٧. الصدقة والإيمان، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَانًا غَدَّ عَلَى اللَّهِ وَوَصَلَّتْ الرَّسُولَ إِلَىٰ آلِهَا قُرْبَةً لَهُمْ سَأَلَتْهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [التوبة:٤٩٩].
- (٣) فالبحث قائم على استقراء الأحاديث التي بلفظ: (رحم الله فلانا) أو ما دار حولها، مما يرتبط برحمة الله سواء كان على سبيل الخبر أو الدعاء، فدعاء النبي ﷺ ليس كدعاء أحد، وهو مظنة الإجابة، وقد قال ابن حجر في فتح الباري ج/٤ ص/٣٠٧: ”(رحم الله رجلاً): يحتمل الدعاء، =



= ويحتمل الخير“. فالشرط أو الفعل المرتبط بالرحمة هو سبب من أسباب رحمة الله على سبيل الرجاء، ومع انتفاء الموانع، فإذا توافرت الأسباب وانتفت الموانع ترتب الأثر إن شاء الله. والسؤال الذي يطرح نفسه ويبرز (مشكلة البحث): هل دعاء النبي ﷺ لهم بالرحمة مجاب على سبيل التحقيق والقطع أو لا؟ والجواب يظهر جلياً بعد القيام بالإجراءات التالية (إجراءات هذه الدراسة) وهي:

أ. تتبع النصوص والأحاديث النبوية التي يظهر فيها عدم الإجابة، وهي قليلة في جنب النصوص التي تظهر إجابة دعاء النبي ﷺ.

ب. توجيهها المستتب من أقوال العلماء. فبالنظر للنصوص الأتية وجدت التالي:

أولاً: ما أخرج مسلم في صحيحه في كتاب الفتن وأشراف الساعة باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٢١٥/٤) ج (٢٨٩٠) بلفظ: (أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ أَنْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالْفَرْقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِيهَا»، فالشاهد: (فمنعنيها)، ووجه الدلالة: يظهر أن هذا الدعاء المحدد: (أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ) منع النبي ﷺ إجابته، ولعل الحكمة تكمن في بقاء سنة من سنن الله الكونية وهي: سنة المدافعة بين الحق مع الباطل، وجاء التصريح بمنع هذا الدعاء على سبيل التخصيص والتحديد لا على العموم. وهذا المعنى أشار إليه ابن الجوزي في قوله «والبأس: الشجاعة والشدة في الحرب. والمراد ألا يقتل المسلمون، وإنما يقع قتالهم على الدنيا، لأنهم قد اجتمعوا في الدين». ينظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢٤٩/١) وقال الطيبي: «وفيه: أن الأنبياء مستجابو الدعوة إلا في مثل هذا». ينظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) (٣٦٢٨/١١).

ثانياً: ما أخرج البخاري في صحيحه في كتاب المغازي في «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» (آل عمران: ١١٨) (٩٩ / ٥) ج (٤٠٧٠) بلفظ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَتَنَزَلَتْ الْآيَةُ». ووجه الدلالة فيه: أنه نزل عتاب من الله ﷻ على أمر مخصوص في دعائه ﷻ على هؤلاء بنزول هذه الآية، ثم إن هؤلاء الذين آيس النبي ﷺ من إسلامهم آمنوا وحسن إسلامهم، فظهرت لنا الحكمة من العتاب، فلم يكن يعلم النبي ﷺ الغيب بإسلامهم بعد ذلك، وقد ذكر الطبري في تفسيره: «وذكر أن الله عز وجل إنما أنزل هذه الآية على نبيه محمد ﷺ: لأنه لما أصابه بأحد ما أصابه من المشركين، قال كالأيس لهم من الهدى أو من الإنابة إلى الحق: (كَيْفَ يَفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ)، وهذا يظهر أن العتاب نزل من الله في قوله: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» على هذا الدعاء بالذات، فكان أيضاً من باب التخصيص والتحديد لا العموم لاسيما أنهم بعد ذلك آمنوا وحسن إسلامهم.

ثالثاً: ما أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مجابة (٦٧/٨) ج (٦٢٠٤) بلفظ: «لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبى دعوتي شفاعاً لأمتي في الآخرة».

ووجه الدلالة: أن لكل نبي دعوة واحدة عامة للأمة أو عليها، مستجابة على سبيل القطع، فأخرها للآخرة، وهذا على سبيل الدعاء العام لأمة محمد ﷺ له دعوة واحدة، مجابة للأمة عامة، فأخرها في الآخرة، وهذا لا يدخل فيه الأدعية الخاصة لأناس محددين، ولا يستلزم منه أنه ليس له إلا دعوة واحدة مجابة فقط، =

= فالمتبع لأغلب دعاء النبي ﷺ يجد الإجابة مقترنة بدعواته، كدعائه لابن عباس: (اللهم فقهِه في الدين)، أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء (٤١/١) ج (١٤٢) وغيره كثير.

وقد قال ابن حجر في فتح الباري (٩٥/١١): «قَدْ اسْتَشْكَلَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ بِمَا وَقَعَ لكَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْمَجَابَةِ، وَلَا سِيَمًا نَبِيًّا ﷺ وَظَاهِرُهُ أَنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً فَقَطْ، وَالْجَوَابُ أَنَّ الْمَرَادَ بِالْإِجَابَةِ فِي الدَّعْوَةِ الْمَذْكُورَةِ الْقَطْعُ بِهَا، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ دَعَوَاتِهِمْ فَهُوَ عَلَى

ثم سأتبع المنهج التالي:

١. تخريج الأحاديث والآثار الواردة في موضوع البحث، بعزوها إلى مصادرها من كتب السنة، كالصالح والسنن والجوامع، والمسانيد وغيرها ما أمكن.
٢. إذا كان الحديث في البخاري ومسلم أو في أحدهما يتم الاقتصار على ذلك غالباً، وإلا تم تخريجه من كتب الأحاديث المعتمدة الأخرى ما أمكن.
٣. نقل حكم العلماء على الحديث ما لم يكن في الصحيحين.

رَجَاءُ الْإِجَابَةِ، وَقِيلَ: لِكُلِّ مَنْهُمْ دَعْوَةٌ عَامَّةٌ مُسْتَجَابَةٌ فِي أُمَّتِهِ إِمَّا بِأَهْلَائِهِمْ وَإِمَّا بِنَجَاتِهِمْ» فالحديث خصص دعوة عامة واحدة تخص الأمة ولا يعني هذا رد إجابة بقية دعوته ﷺ .
وفي قول ابن حجر في فتح الباري (٩٥/١١): «وَأَمَّا الدَّعَوَاتُ الْخَاصَّةُ فَمِنْهَا مَا يُسْتَجَابُ، وَمِنْهَا مَا لَا يُسْتَجَابُ». تعقبه العيني في عمدة القاري (٢٧٧/٢٢) قائلا: «لَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ فِي حَقِّ نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُقَالَ: مِنْ دَعَوَاتِهِ مَا لَا يُسْتَجَابُ، وَالْمَعْنَى الَّذِي يَلِيْقُ بِحَالِهِمْ أَنْ قَالَ: مِنْ دَعَوَاتِهِمْ مَا يُسْتَجَابُ فِي الْحَالِ، وَمِنْهَا مَا يُؤَخَّرُ إِلَى وَقْتِ أَرَادَهُ اللَّهُ ﷻ» .
ولعله يقصد: ما نص الشرع على عدم إجابته في النصوص السابقة، وهي قليلة جداً في جنب ما استجاب الله له، ولم يقصد على سبيل العموم لقوله في فتح الباري (٩٥/١١): «قَدْ اسْتَشْكَلَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ بِمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الدَّعَوَاتِ الْمَجَابَةِ، وَلَا سِيَّمَا نَبِينَا ﷺ» .
وختلاصة الأمر:

أولاً: أن من دعا له النبي ﷺ بالرحمة، فقد عرض نفسه لرحمة الله، لأنه لا يدعي ﷺ، إلا مع توافر الأسباب، ومع انتفاء الموانع، فإذا توافرت الأسباب وانتفت الموانع ترتب الأثر إن شاء الله، فإن كان إجابة دعاء المؤمنين على حسب ما في قلوبهم من إيمان، وبما في أعمالهم من اتباع، والأنبياء أكمل الناس، وأرجى من ترجى إجابة دعوتهم، فرجاؤهم الذي تعبد لهم الله به، وهم أنبياء أقوى من رجاء غيرهم؛ لأنهم أكمل الناس في كل باب من أبواب الدين.
ثانياً: أن الله تعبدنا بتجري إجابة دعاء الملائكة لنا، فقد أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الأذان، باب فضل صلاة الجماعة (١٣١/١) ح (٦٤٧) حديثاً بلفظ: (إِذَا تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، لَا يَخْرُجُهُ إِلَّا الصَّلَاةَ، لَمْ يَخْطِ خَطْوَةً، إِلَّا رَفَعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى، لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّيْ عَلَيْهِ، مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ أَرْحَمَهُ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظِرَ الصَّلَاةَ)، وقد قال ابن بطال: «فمن كان كثير الذنوب وأراد أن يحطها الله عنه بغير تعب فليقتنم ملازمة مكان مصلاه بعد الصلاة ليستكثر من دعاء الملائكة واستغفارهم له، فهو مرجو إجابته لقوله: ﴿وَلَا يَسْمَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقد أخبر عليه السلام أنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه، وتأمين الملائكة إنما هو مرة واحدة عند تأمين الإمام ودعاؤهم لمن قعد في مصلاه دائماً أبداً ما دام قاعداً فيه، فهو أحرى بالإجابة». ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩٥/٢). فكيف برجاء إجابة دعاء النبي ﷺ لنا، وأختم في هذه المسألة بقول ابن حجر: «يحتمل الدعاء، ويحتمل الخبر». ينظر: فتح الباري ج٤/ص٣٠٧، وقد قاله أيضاً العراقي ينظر: تحفة الأحوذ ج٢/ص٤١٧ .



٤ . بيان غريب الحديث من كتب اللغة وغريب الحديث .

٥ . عمل فهارس عامة كفهرس المراجع والمصادر وفهرس الموضوعات .

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة ومطلبين وخاتمة .

المقدمة: وتشتمل على أهمية البحث، وأهداف البحث ومنهج البحث،
وخطة البحث

المطلب الأول: أسباب تحصيل رحمة الله متعدية النفع للناس .

المسألة الأولى: الرحمة بالخلق عامة

المسألة الثانية: الاستحلال من المظالم

المسألة الثالثة: تبليغ الأحاديث النبوية للناس

المسألة الرابعة: الصبر عند الأذى

المسألة الخامسة: السماح في البيع والشراء والقضاء

المسألة السادسة: الصدقة على المحتاج

المسألة السابعة: قول كلمة الحق .

المسألة الثامنة: الحراسة في الجهاد .

المسألة التاسعة: إعانة الوالد ولده على بره

المسألة العاشرة: الحياء المحمود .

المسألة الحادية عشرة: نصره النبي ﷺ

المسألة الثانية عشرة: إيقاظ الأهل لقيام الليل

المسألة الثالثة عشرة: تغسيل المرأة زوجها وتكفينه

- المسألة الرابعة عشرة: الاجتماع على تلاوة القرآن ومذاكرته
- المسألة الخامسة عشرة: الحمد بعد العطاس
- المسألة السادسة عشرة: عيادة المريض
- المسألة السابعة عشرة: الإيثار وإكرام الضيف
- المطلب الثاني: أسباب تحصيل رحمة الله متعدية النفع للنفس.
- المسألة الأولى: الصلاة قبل العصر أربعاً
- المسألة الثانية: الصلاة على النبي ﷺ .
- المسألة الثالثة: الحلق والتقشير.
- المسألة الرابعة: قيام الليل.
- المسألة الخامسة: المسارعة إلى الصلاة.
- المسألة السادسة: الالتجاء إلى الله.
- المسألة السابعة: عدم مسح الحصى في الصلاة.
- المسألة الثامنة: الدعاء.
- المسألة التاسعة: أزمنة تنزل الرحمات.
- المسألة العاشرة: الخوف من الله.
- المسألة الحادية عشرة: انتظار الصلاة على طهارة في المسجد.
- الخاتمة: وتتضمن أهم نتائج البحث والتوصيات.
- فهرس المصادر والمراجع.



المطلب الأول أسباب تحصيل رحمة الله متعددة النفع للناس

المسألة الأولى الرحمة بالخلق عامة

اهتم الإسلام بنشر معنى التراحم بين الخلق أجمعين، بل جعلها بين جميع طبقات المجتمع، مسلمهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، وصغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، حتى مع الحيوان والجماد.

وجعل من أهم أسباب تحصيل رحمة الله: الرحمة بالخلق، للحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ) (١). وكذا ما أخرجه الترمذي في سننه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحْمُ شُجْنَةٌ (٢) مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ) (٣).

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين ج/٤/ص ٣٢٢ ح(١٩٢٢) وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) شجنة: بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون، وجاء بضم أوله وفتحها، الشجنة عروق الشجر المشتبكة، والشجن بالتحريك واحد الشجون، وهي: طرق الأودية ومنه قولهم: «الحديث ذو شجون» أي: يدخل بعضه في بعض وقوله من الرحمن أي: أخذ اسمها من هذا الاسم، وقيل الشجنة: الشعبة من الشيء. ينظر: لسان العرب ج ١٣/ص ٢٣٢ النهاية في غريب الأثر ج ٢/ص ٤٤٧، فتح الباري ج ١٠/ص ٤١٨.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة باب ما جاء في رحمة المسلمين ج/٤/ص ٣٢٢ ح(١٩٢٤) وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح».

قال ابن حجر: ”ومقتضاه أن رحمة الله تختص بمن اتصف بالرحمة وتحقق بها“^(١). قال المباركفوري: ”الراحمون لمن في الأرض: من آدمي وحيوان محترم، بنحو شفقة وإحسان ومواساة «يرحمهم الرحمن» أي: يحسن إليهم ويتفضل عليهم، والرحمة مقيدة باتباع الكتاب والسنة وإقامة الحدود والانتقام لحرمة الله لا ينافي كل منهما الرحمة، (أرحموا من في الأرض)“، قال الطيبي: ”أُتِيَ بصيغة العموم ليشمل جميع أصناف الخلق، فيرحم البر والفاجر، والناطق والبهم، والوحوش والطيور“^(٢). قال المناوي: ”فإن كان لك شوق إلى الرحمة من الله، فكن رحيماً لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك، والفقير بمالك، والكبير والصغير، بشفقتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك، ورفع غضبك، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقه، فكل ما يفعله من خير دق أو جل فهو صادر عن صفة الرحمة“^(٣).

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: (أرسلت ابنة النبي صلى الله عليه وسلم إليه إن ابناً لي قبض، فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عندة بأجل مسمى، فلتصبر، ولتحتسب»، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبي ونفسه تتقعق^(٤) - قال: حسبته أنه قال كأنها شن^(٥) - ففاضت

(١) ينظر: فتح الباري ج٣/ص١٥٨.

(٢) ينظر: تحفة الأوحدي ج٦/ص٤٢.

(٣) ينظر: فيض القدير ج٤/ص٤٢.

(٤) نفسه تتقعق أي: كلما صارت إلى حال لم تلبث أن تصير إلى حال أخرى تقرب من الموت لا تثبت على حالة واحدة، والقعقة: حكاية صوت الشن اليابس إذا حرك شبه البدن بالجلد اليابس الخلق وحركة الروح فيه بما يطرح في الجلد من حصة ونحوها. ينظر: شرح السيوطي لسنن النسائي ج٤/ص٢٢.

(٥) الشن - بفتح الشين المعجمة وتشديد النون -: السقاء البالي، والجمع شنان، وشبه النفس بنفس الجلد وهو أبلغ في الإشارة إلى شدة الضعف. ينظر: عمدة القاري ج٨/ص٧٤ بتصرف.



عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ فَقَالَ: (هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءَ) (١).

وقرن النبي ﷺ بين من نزع الرحمة من قلبه وبين الشقاء، للحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: (لَا تَنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ) (٢).

ودعا ﷺ لمن يرفق بالمسلمين، ودعا على من يشق عليهم قائلًا: (اللَّهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشَقُّ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ) (٣).

المسألة الثانية الاستحلال من المظالم

إن الظلم من أسوء المعاصي وأشدّها عقوبة عند الله، فقد حرّم الله ﷻ الظلم على نفسه، وتوعد الله الظلمة بالوعيد الشديد، فالتحلل من المظالم يكون بطلب العفو والمغفرة ممن ظلمهم، قبل فوات الأوان ولا يكلف الأمر عنئًا ولا مشقّة، مع التنازل عن الكبرياء، واستشعار التواضع والرحمة، وقد حذر رسول الله ﷺ الظالم في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه ج/١ ص ٤٣١ ح (١٢٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين ج/٤ ص ٢٢٣ ح (١٩٢٣) وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن».

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم ج/٣ ص ١٤٥٨ ح (١٨٢٨).

دَرَّهُمْ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرٍ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحَمَلَ عَلَيْهِ^(١).

بل جعل الإسلام الاستحلال من المظالم سبباً من أسباب تحصيل رحمة الله، للحديث الذي أخرجه الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا كَانَتْ لِأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ فِي عَرْضٍ أَوْ مَالٍ، فَجَاءَهُ فَاسْتَحَلَّهُ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ وَلَيْسَ تَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ حَمَلُوهُ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ)^(٢). قال المناوي: "فيتأكد الاعتناء بذلك رجاء للفوز بدعوة المصطفى ﷺ"^(٣).

المسألة الثالثة تبليغ الأحاديث النبوية للناس

من أشرف المهام في الحياة تبليغ ميراث النبوة: (العلم الشرعي)، وهو اصطفاء من الله ﷻ لمن يسلك هذه المهمة، ويزيده رسول الله ﷺ شرفاً بدعاء خاص لكل من يبلغ الأحاديث النبوية للحديث الذي أخرجه الحاكم في مستدركه عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرَبٌّ حَامِلٌ فَتَقَهُ لَا فَتَقَهُ لَهُ، وَرَبٌّ حَامِلٌ فَتَقَهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ)^(٤).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المظالم، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحلها له هل يبين مظلمته ج ٢/ص ٨٦٥ ح (٢٤١٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ج ٤/ص ٦١٢ ح (٢٤١٩) قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وابن حبان في صحيحه ج ١٦/ص ٣٦٢ ح (٧٣٦٢).

(٣) ينظر: التيسير بشرح الجامع الصغير ج ٢/ص ٣٢.

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين ج ١/ص ١٦٣ ح (٢٩٦) وقال: «حَدِيثُ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ مِنْ شَرَطِ الصَّحِيحِ، وَسَكَتَ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَانَ فِي صَحِيحِهِ ج ١/ص ٢٧٠ ح (٦٧) وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ (٤١/٢) وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (١٢٨/١): «رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَفِيهِ: مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ الْكُوفِيُّ، ضَعَفَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ، وَمَشَاهُ ابْنِ مَعِينٍ.»

المسألة الرابعة الصبر عند الأذى

الابتلاء بأذية الناس سنة من سنن الله في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، والصبر عليه من علامات قوة الإيمان، فقد قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. وأثبت رسول الله ﷺ للصابر الخيرية^(١)، فقد جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله قال: قسم النبي ﷺ قسماً، فقال رجل: (إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَغَضِبَ، حَتَّى رَأَيْتُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ: (يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ)^(٢). فجعل من أسباب الدعاء برحمة الله على موسى صبره على الإيذاء ليعلمنا: أن من أسباب تحصيل رحمة الله الصبر على الأذى^(٣).

(١) للحديث الذي أخرجه ابن ماجه في سننه في ج٢/ص١٢٢٨ ح(٤٠٢٢) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم). وقال المباركفوري في تحفة الأحوذى ج٧/ص١٧٧: (رواه ابن ماجه بإسناد حسن). وأخرجه الترمذي في سننه في كتاب صفة القيامة والرقائق باب (بدون عنوان) ج٤/ص٦٦٢ ح(٢٥٠٧) بلفظ: (المسلم إذا كان مخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) وقال المناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير ج٢/ص٤٥٢: «بإسناد حسن».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الدعوات باب قول الله ﷻ: (وصل عليهم) ج٥/ص٢٢٢٣ ح(٥٩٧٧).

(٣) ويؤيد معنى أن الصبر على الابتلاء يستوجب رحمة الله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [١٦] أَوْلَيْتِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْتِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٧﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧]، وقد أشار إلى هذا المعنى أيضا ابن علان في دليل الفالحين قائلا: «استفهام إنكار فهو في معنى: ما يعدل أحد (إذا لم يعدل الله ورسوله ثم قال)، مبيناً أن الصفح عن عثرات اللئام سنة قديمة في الأنبياء والمرسلين ﷺ: (يرحم الله موسى) أتى به مع أن الأكثر من هديه في الدعاء: أي: عند ذكر أحد من الأنبياء، أن يبدأ بنفسه فيقول مثلاً: غفر الله لنا ولفلان، اهتماماً بشأنه لأنه ذكر في مقام المدحة له والتأسي به (قد أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا) أي: من أذى السفهاء والجهال له فقالوا: إنه آثر، وذلك منهم غاية العتو» ينظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي (١/٢٢٠). فكان الصبر مع الصفح جعله يترحم على موسى ﷺ متأسيًا به.

المسألة الخامسة السماحة في البيع والشراء والقضاء

السماحة نابعة عن طيب في النفس، ولين في الجانب، وهي ذلة على المؤمنين دون ضعف، وصدق في التعامل دون غبن، بها تصفو القلوب، ويسود الوثام، ويسعد الأنام، وهي ليست شعاراً براقاً يرفع في وقت دون وقت، بل هي خلق سام يتسع حتى يتجاوز الإنسان، إلى الحيوان والنبات، ولقد وسعها الشرع في التعامل حتى في البيع والشراء والقضاء، وجعلها سبباً من أسباب تحصيل رحمة الله للحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى)^(١).

قال ابن حجر: ”رحم الله رجلاً“: يحتمل الدعاء، ويحتمل الخبر، وقد استفاد العموم من تقييده بالشرط، قوله: «سمحاً» - بسكون الميم وبالمهملتين - أي: سهلاً وهي صفة مشبهة تدل على الثبوت، فلذلك كرر أحوال البيع والشراء والتقاضي، والسمح: الجواد، يقال سمح بكذا: إذا جاد، والمراد هنا: المساهلة، قوله: «وإذا اقتضى» أي: طلب قضاء حقه بسهولة وعدم إلحاف. وفيه الحض على السماحة في المعاملة واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة والحض على ترك التضييق على الناس، في المطالبة وأخذ العفو منهم^(٢).

قال الكرمانى: ”ظاهره الإخبار لكن قرينة الاستقبال المستفاد من إذا تجعله دعاء، وتقديره: رحم الله رجلاً يكون كذلك“^(٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف ج ٢/ص ٧٣٠ ح (١٩٧٠).

(٢) ينظر: فتح الباري ج ٤/ص ٢٠٧ بتصرف.

(٣) ينظر: فتح الباري ج ٤/ص ٢٠٧.

المسألة السادسة الصدقة على المحتاج

إن الصدقة تطفئ غضب الرب، وتدفع عن ميتة السوء^(١)، وتقي من النار^(٢)، والمتصدق في ظل صدقته يوم القيامة^(٣)، وهي دواء وعلاج لقسوة القلب^(٤)، وهي أيضاً سبب من أسباب تحصيل رحمة الله للحديث الذي أخرجه الحاكم في مستدركه عن علقمة بن رمثة أنه قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى البحرين ثم خرج رسول الله ﷺ في سرية وخرجنا معه، فنعس رسول الله ﷺ، ثم استيقظ فقال: (رَحِمَ اللَّهُ عَمْرًا) قَالَ: فَتَدَاكِرْنَا كُلَّ إِنْسَانٍ اسْمُهُ عَمْرُو، فَتَعَسَ ثَانِيًا فَاسْتَيْقَظَ، فَقَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ عَمْرًا»، ثُمَّ نَعَسَ الثَّلَاثَةَ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ، فَقَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ عَمْرًا» فَقُلْنَا: مَنْ عَمْرُو يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ»، قَالُوا: مَا بَالُهُ؟ قَالَ: «ذَكَرْتُهُ إِنْ كُنْتُ إِذَا نَدَبْتُ النَّاسَ إِلَى الصَّدَقَةِ، فَجَاءَ بِالصَّدَقَةِ فَأَجَزَلُ فَأَقُولُ لَهُ: مَنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: مَنْ عِنْدَ اللَّهِ، وَصَدَقَ عَمْرُو إِنْ لَعَمْرُو خَيْرًا كَثِيرًا» قَالَ زُهَيْرٌ: «فَلَمَّا كَانَتِ الْفِتْنَةُ قُلْتُ: (إِتْبَعْ هَذَا الَّذِي قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ مَا قَالَ فَلَمْ أَفَارِقْهُ)^(٥).

(١) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة ج ٣/ص ٥٢ ح (٦٦٤) بلفظ: (إن الصدقة لتطفئ غضب الرب، وتدفع عن ميتة السوء) قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار ج ٢/ص ٧٠٢ ح (١٠١٦) بلفظ: (من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمره فليفعل).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين ج ٢/ص ٥١٧ ح (١٢٥٧) بلفظ: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عدل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق في المساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالك ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه).

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٢٦٣ ح (٧٥٦٦) عن أبي هريرة أن رجلاً شكاً إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له: (إن أردت تليين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٨/ص ١٦٠: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٥) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين ج ٣/ص ٥١٥ ح (٥٩١٦) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

المسألة السابعة قول كلمة الحق

مسؤولية الكلمة في الإسلام منهج ربّي رسول الله ﷺ المسلمين عليه، فجعل انتقاء الطيب من القول أو الصمت علامة الإيمان^(١)، فالكلمة قد ترفع العبد درجات، وقد تهوي به في جهنم^(٢)، ومن حفظ لسانه كان له هذا ضماناً بالجنة^(٣)، وجعل رسول الله ﷺ قول كلمة الحق سبباً من أسباب تحصيل رحمة الله للحديث الذي أخرجه الترمذي عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا)^(٤). فدعاء الرسول ﷺ له بالرحمة لقوله كلمة الحق.

المسألة الثامنة الحراسة في الجهاد

الحراسة في سبيل الله لها فضل كبير عند الله، فحراسة ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلاً ويصام نهارها^(٥)، والعين الحارسة يحرم الله عليها النار^(٦)، وهو رباط في سبيل الله^(٧) وللحارس دعوة خاصة من

- (١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان ج٥/ص٢٣٧٦ ح (٦١١٠) بلفظ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت).
- (٢) للحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان ج٥/ص٢٣٧٧ ح (٦١١٢) بلفظ: (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفع الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوي بها في جهنم).
- (٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان ج٥/ص٢٣٧٦ ح (٦١٠٩) بلفظ: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة).
- (٤) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب ج٥/ص٦٢٣ ح (٣٧١٤). قال أبو عيسى: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه".
- (٥) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين ج٢/ص٩١ ح (٢٤٢٦) بلفظ: (يقول حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلاً ويصام نهارها) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
- (٦) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ج٤/ص١٣٤ ح (١٧٢٥٢) بلفظ: (وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج٥/ص٢٨٧: «رواه أحمد ورجال أحمد ثقات».
- (٧) للحديث الذي أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ج٨/ص٩٠ ح (٨٠٥٩) =



رسول الله ﷺ برحمة الله ﷻ له، فالحراسة في سبيل الله سبب من أسباب
تحصيل رحمة الله، ويؤيده الحديث الذي أخرجه الحاكم في مستدركه عن
عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (رَحِمَ اللَّهُ حَارِسَ الْحَرَسِ)^(١).
وقال المناوي: ”رحم الله حارس الحرس -بفتح الحاء والراء- اسم الذي
يحرس، والحارس: الحافظ“^(٢).

المسألة التاسعة

إعانة الوالد ولده على بره

حقوق الأبناء كثيرة في الإسلام، منها إعانة الوالد ولده على بره،
وقد جعلها رسول الله ﷺ من أسباب تحصيل رحمة الله، للحديث الذي
أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه عن الشعبي، قال: قال رسول الله ﷺ:
(رَحِمَ اللَّهُ وَالِدًا أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بَرِّهِ)^(٣).

قال المناوي: «رحم الله والدًا أعان ولده على بره بتوفيقه ما له عليه
من الحقوق، فكما أن لك على ولدك حقًا، فلولدك عليك حق، فمتى كان
الوالد غاويًا جافيًا، جر الولد إلى القطيعة والعقوق»^(٤).

= بلفظ: (من رابط ليلة حارسًا من وراء المسلمين كان له مثل أجر من خلفه ممن صام وصلى).

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٥/ص ٢٨٩: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات».

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين ج ٢/ص ٩٥ ح (٢٤٢٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) ينظر: فيض القدير ج ٤/ص ٢٥.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه ج ٥/ص ٢١٩ ح (٢٥٤١٥) قال الحافظ العراقي: «وسنده ضعيف»

ينظر: المغني عن حمل الأسفار ج ١/ص ٥٣٠، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (٣٦٤/١):
«رواية الشعبي مرسلًا».

(٤) ينظر: فيض القدير ج ٤/ص ٢٩.

المسألة العاشرة الحياء المحمود

الحياء مصدر الأخلاق الحسنة، ومفتاح للخير^(١)، وعلامة من علامات الإيمان^(٢)، وهو سبب من أسباب تحصيل رحمة الله للحديث الذي أخرجه الترمذي عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: (رَحِمَ اللَّهُ عُمَانَ تَسْتَحْيِيهِ الْمَلَائِكَةُ)^(٣). قال المباركفوري: «أي: تستحي منه، وكان أحياء هذه الأمة»^(٤). وقال النووي: «فيه فضيلة ظاهرة لعثمان وجلالته عند الملائكة، وأن الحياء صفة جميلة من صفات الملائكة»^(٥).

المسألة الحادية عشرة نصرة النبي ﷺ

نصرة النبي ﷺ من أهم علامات الإيمان، وهي دليل محبته، وقد دعا رسول الله ﷺ لمن نصره وذب عنه بالرحمة من الله ﷻ، للحديث الذي أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده عن ابن مسعود: (أَنَّ النَّسَاءَ كُنَّ يَوْمَ أُحُدٍ خَلَفَ الْمُسْلِمِينَ يُجْهَزْنَ عَلَى جَرْحَى الْمُشْرِكِينَ فَلَوْ خَلَفَتْ يَوْمَئِذٍ رَجَوْتُ أَنْ أَبْرَأَ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِّنَّا يُرِيدُ الدُّنْيَا حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مِنْكُمْ

- (١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب عدد شعب الإيمان ج ١/ص ٦٤ ح (٣٧) بلفظ: (الحياء خير كله).
- (٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان ج ١/ص ١٧ ح (٢٤) بلفظ: (أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال رسول الله ﷺ: دعه فإن الحياء من الإيمان).
- (٣) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب ج ٥/ص ٦٢٣ ح (٣٧١٤). قال أبو عيسى هذا: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»: وقال الشيخ الألباني: «ضعيف جداً». ورواه الطبراني في المعجم الصغير (٩٥/١).
- (٤) ينظر: تحفة الأحمدي ج ١٠/ص ١٤٩.
- (٥) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٥/ص ١٦٩.

مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴿١﴾
[آل عمران: ١٥٢] فَلَمَّا خَالَفَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَصَوْا مَا أَمَرُوا بِهِ، أُفْرِدَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي تِسْعَةِ سَبْعَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ
عَاشِرُهُمْ فَلَمَّا رَهَقُوهُ قَالَ: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا)، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ
مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ سَاعَةً حَتَّى قُتِلَ فَلَمَّا رَهَقُوهُ أَيضًا، قَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ
رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَا حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ^(١).

وقد دعا رسول الله للأنصار، لأنهم نصره، للحديث الذي أخرجه
ابن ماجه في سننه عن عمرو بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: (رَحِمَ
اللَّهُ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ)^(٢).

قال المناوي: ”وهذا دعاء، أو خبر، وذلك لما لأصولهم من القيام في
نصرة الدين، وإيواء المصطفى ومن معه، حال شدة الخوف والضيق
والعسرة، وحمائتهم له حتى بلغ أوامر ربه وأظهر الدين، وأسس قواعد
الشريعة، فعادت مآثرهم الشريفة على أبنائهم وذرياتهم، ومن ثم أكد
الوصية بهم“^(٣).

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ج١/ص٤٦٣ ح٤٤١٤ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج٦/
ص١١٠: ”رواه أحمد، وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط“، وأخرج مسلم في صحيحه في كتاب
الجهاد والسير باب غزوة أحد ج٣/ص١٤١٥ ح١٧٨٩) عن أنس بن مالك: (أن رسول الله ﷺ أفرّد
يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهقوه قال: من يردهم عنا وله الجنة، أو هو
رفيقي في الجنة؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضاً فقال: من يردهم عنا
وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى
قتل السبعة فقال رسول الله ﷺ لصاحبه: (ما أنصفنا أصحابنا).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه في فضائل أصحاب رسول الله، باب فضل الأنصار ج١/ص٥٨ ح١٦٥)
والطبراني في المعجم الكبير ج١٧/ص١٢ ح٢. وقال المناوي في فيض القدير ج٤/ص٢٢: «ورواه
عنه أيضاً الطبراني، وفيه كثير بن عبد الله بن عمرو المزني وهو: ضعيف، وقد حسن له الترمذي
وبقية رجاله ثقات».

(٣) ينظر: فيض القدير ج٤/ص٢٢.

المسألة الثانية عشرة إيقاظ الأهل لقيام الليل

الاجتماع على الطاعة من أكثر العوامل التي تبعد الفتور عن العبد، فانفراد المسلم بها دون عون أو مشاركة قد يؤدي إلى فتوره، لأن الشيطان يكون عليه أقوى، فهو مع الواحد، ومع الاثنين أبعد^(١)، لهذا رغب في الاجتماع على الطاعة، وأكثر الناس قرباً من الرجل زوجته، لذا جاءت سنة إيقاظ الأهل لقيام الليل من باب التعاون على الطاعة والخير، وبشر رسول الله من يفعلها بالرحمة من الله ﷺ للحديث الذي أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ)^(٢). قال العظيم آبادي: "وأيقظ امرأته: بالتبنيه أو الموعدة، وفي معناها: محارمه، فإن أبت أي: امتنعت لغلبة النوم وكثرة الكسل، نضح أي: رش في وجهها الماء، والمراد التلطف معها، والسعي في قيامها لطاعة ربها مهما أمكن، وفي قوله: «رحم الله امرأة قامت من الليل» أي: وفقت بالسبق فصلت وأيقظت زوجها، وفي الترتيب الذكري إشارة لطيفة لا تخفى، وفيه بيان حسن المعاشرة وكمال الملاطفة والموافقة"^(٣).

(١) للحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه في كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة ج/٤/ص ٤٦٥ ح(٢١٦٥) بلفظ: (وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد من أراد بعبوحة الجنة فيلزم الجماعة، من سرتة حسنته وسأته سيئته فذلك المؤمن)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين ج/١/ص ٤٥٢ ح(١١٦٤) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». وأخرجه ابن حبان ج/٦/ص ٢٠٦ ح(٢٥٦٧).

(٣) ينظر: عون المعبود ج/٤/ص ١٢٥.



المسألة الثالثة عشرة

تغسيل المرأة زوجها وتكفينه^(١)

خص النبي ﷺ الدعاء بالرحمة من غسلته زوجته للحديث الذي أخرجه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا غَسَلَتْهُ امْرَأَتُهُ، وَكَفَّنَ فِي أَخْلَاقِهِ)^(٢)، قَالَتْ: فَفَعَلَ ذَلِكَ بِأَبِي بَكْرٍ غَسَلَتْهُ امْرَأَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ الْأَشْجَعِيَّةُ وَكَفَّنَ فِي ثِيَابِهِ الَّتِي كَانَ يَبْتَدِلُهَا^(٣).

قال المناوي: "غسلته امرأته وكفن في أخلاقه، أي: ثيابه التي أشرفت على البلى"^(٤). والحكمة في ذلك: ستر الميت، وهذا ما أشار إليه أبو داود في سننه في ترجمة الحديث الذي في غسل رسول الله بعد موته في قوله: باب في ستر الميت عند غسله، وأورد تحته حديثاً عن عائشة: (لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا غَسَلَهُ إِلَّا نِسَاؤُهُ)^(٥). وقال الشوكاني: "فيه متمسك لمذهب الجمهور، أي: في جواز غسل أحد الزوجين للآخر"^(٦).

المسألة الرابعة عشرة

الاجتماع على تلاوة القرآن ومذاكرته ومجالس الذكر

القرآن الكريم كتاب مبارك، ومن بركته أن الله جعل الاجتماع على

- (١) قال ابن المنذر: «أجمع أهل العلم على أن المرأة تغسل زوجها إذا مات، وقال: أحمد ليس فيه اختلاف بين الناس» ينظر: المغني ج٢/ص٢٠١.
- (٢) منه الثوب الخلق أي: البالي ينظر: لسان العرب ج٢/ص٥٨٩. النهاية في غريب الأثر ج٢/ص٣٤٧.
- (٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٣٩٧ ح (٦٤٥٦). وقال: «هذا إسناد ضعيف»، وقال الذهبي: «إسناده ضعيف فيه الحكم بن عبد الله تركوه» ينظر: فيض القدير ج٤/ص٢٦. ورمز السيوطي في الجامع الصغير (٤٣٠/١) بحسنه، وليس بصواب.
- (٤) ينظر: التيسير بشرح الجامع الصغير ج٢/ص٢٢.
- (٥) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الجنائز، باب في ستر الميت عند غسله ج٢/ص١٩٦ ح (٣١٤١).
- (٦) وقال ابن حجر في تلخيص الحبير ج٢/ص٢٣٦: «رواه أبو داود وإسناده صحيح». ينظر: عون المعبود ج٨/ص٢٨٨.

تلاوته سبباً من أسباب تحصيل العبد على رحمة الله، للحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (وَمَا أَجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)^(١).

وقال النووي: "الرحمة قيل: المراد بالسكينة هنا الرحمة، وقيل: الطمأنينة والوقار هو أحسن، وفي هذا دليل لفضل الاجتماع على تلاوة القرآن في المسجد"^(٢).

ومن أسباب تحصيل الرحمة مذاكرة القرآن للحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة قالت: (سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي سُورَةِ اللَّيْلِ، فَقَالَ: يَرْحَمُهُ اللَّهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْتُ أَنْسِيْتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا)^(٣).

وترجم أبو داود للحديث تحت باب في رفع الصوت بالقراءة، كأنه يشير إلى أن رفع الصوت بالقرآن سبب من أسباب تحصيل العبد على رحمة الله^(٤). قال النووي: "وفيه الدعاء لمن أصاب الإنسان من جهته خيراً وإن لم يقصده ذلك الإنسان"^(٥).

وتحصيل رحمة الله حتى بالحرص على مجالس الذكر عامة للحديث

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ج٤/ص٢٠٧٤ ح (٢٦٩٩)

(٢) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ج١٧/ص٢١ بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن، باب نسيان القرآن وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا ج٤/ص١٩٢٢ ح (٤٧٥١).

(٤) للحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة ج٢/ص٣٨ ح (١٣٢١) عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن، فلما أصبح قال رسول الله ﷺ: (يرحم الله فلاناً كأي من آية أذكرنيها الليلة كنت قد أسقطتها) والحديث صحيح أخرجه البخاري كما سبق تخريجه.

(٥) ينظر: عون المعبود ج٤/ص١٤٨.



الذي أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده عن أنس بن مالك قال: (كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ إِذَا لَقِيَ الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقُولُ: تَعَالَ نُؤْمِنُ بِرَبِّنَا سَاعَةً، فَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِرَجُلٍ، فَغَضِبَ الرَّجُلُ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَرَى إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ يُرَغَّبُ عَنْ إِيْمَانِكَ إِلَى إِيْمَانِ سَاعَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (يَرَحِمُ اللَّهُ ابْنَ رَوَاحَةَ إِنَّهُ يُحِبُّ الْمَجَالِسَ الَّتِي تَبَاهَى بِهَا الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)^(١).

المسألة الخامسة عشرة الحمد بعد العطاس

تشميت العاطس بعد حمده لله ﷻ سنة نبوية، وهي حق من حقوق المسلم على المسلم إذا حمد الله، ومعنى التشميت: الدعاء له بالرحمة^(٢)، وقد بوب البخاري في كتاب الأدب: باب تشميت العاطس إذا حمد الله^(٣). وقال ابن حجر معلقاً على الترجمة: ”أي: مشروعية التشميت بالشرط المذكور“^(٤). فقد جعل الحمد بعد العطاس سبباً من أسباب الحصول على رحمة الله بالدعاء له بها، للحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ قال: (عَطَسَ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَشَمَّتَ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الْآخَرَ فَقِيلَ لَهُ فَقَالَ هَذَا حَمِدَ اللَّهُ وَهَذَا لَمْ يَحْمَدِ اللَّهُ)^(٥).

وقد أخرج الترمذي في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ج٣/ص٢٦٥ ح(١٣٨٢٢). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج١٠/ص٧٦: ”رواه أحمد وإسناده حسن“.

(٢) ينظر: فتح الباري ج١٠/ص٦٠٦.

(٣) ينظر: صحيح البخاري ج٥/ص٢٢٩٧ باب رقم (٢٤).

(٤) ينظر: فتح الباري ج١٠/ص٦٠٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب اللباس، باب لا يشميت العاطس إذا لم يحمد الله ج٥/ص٢٢٩٨ ح(٥٨٧١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعُطَّاسَ وَيَكْرَهُ التَّائِبَ﴾، فَإِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَحَقُّ عَلَى كُلِّ مَنْ سَمِعَهُ أَنْ يَقُولَ: يَرْحَمَكَ اللَّهُ، وَأَمَّا التَّائِبُ فَإِذَا تَتَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ، وَلَا يَقُولَنَّ هَاهُ هَاهُ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ يَضْحَكُ مِنْهُ^(١).

قال النووي: "شمته وسمت عليه إذا دعوت له بخير، وكل داع بالخير فهو مشمت، وشرطه أن يسمع قول العاطس: الحمد لله"^(٢) وقال أيضاً: "وأما لفظ التشميت فقول: يرحمك الله، وقيل: يقول الحمد لله يرحمك الله"^(٣).

المسألة السادسة عشرة عبادة المريض

اهتم الإسلام بالمرضى وأعطاهم حقوقاً كثيرة^(٤)، بل جعل من أسباب الحصول على رحمة الله عبادة المريض للحديث الذي أخرجه المقدسي عن أبي موسى: دخل على الحسن بن علي يعوده، فقال له علي: أذاً رأيتنا، أم عائداً لابن أخيك، قال: لا بل جئت عائداً، فقال علي: أما إني سمعته يعني النبي ﷺ يقول: (مَنْ عَادَ مَرِيضًا خَاصًّا فِي الرَّحْمَةِ، فَإِذَا جَلَسَ غَمْرَتَهُ الرَّحْمَةَ)^(٥). وقد أخرج أحمد في مسنده عن كعب بن مالك قوله: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ عَادَ مَرِيضًا خَاصًّا فِي الرَّحْمَةِ، فَإِذَا جَلَسَ عِنْدَهُ اسْتَقْعَ فِيهَا، وَقَدْ اسْتَقَعْتُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الرَّحْمَةِ)^(٦).

- (١) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب الأدب، باب ما جاء كيف تشميت العاطس ج ٥/ص ٨٧ ح (٢٧٤٧) قال أبو عيسى: «هذا حديث صحيح».
- (٢) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٤/ص ٣٢.
- (٣) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٨/ص ١٢٠.
- (٤) دليل أن في صحيح البخاري كتاباً كاملاً اسمه كتاب المرضى.
- (٥) أخرجه المقدسي في الأحاديث المختارة ج ٢/ص ٤٠٨ ح (٧٩٤)، وقال محقق الكتاب: «إسناده حسن».
- (٦) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ج ٣/ص ٤٦٠ ح (١٥٨٢٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٢/ص (٢٩٧): «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط وإسناده حسن».

المسألة السابعة عشرة الإيثار وإكرام الضيف

الإيثار أعلى مراتب العطاء. هو: تقديم الغير على النفس، وحفظها
الدينية ورغبة في الحفظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد
المحبة، والصبر على المشقة^(١)، وهذا لا يكون إلا اختياراً^(٢).

والإيثار سبب من أسباب الحصول على رحمة الله، ويؤيده ما أخرجه
البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَنِي الْجَهْدُ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ
شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ،
فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ:
لَا مَرَاتِهِ ضَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلَّا
قُوْتُ الصَّبِيَّةِ، قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصَّبِيَّةُ الْعِشَاءَ، فَنَوْمِيهَمْ، وَتَعَالَى فَأَطْفَنِي
السَّرَاجَ، وَنَطَوِي بَطُونَنَا اللَّيْلَةَ، فَفَعَلْتُ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
فَقَالَ: لَقَدْ عَجَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ ضَحِكَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]^(٣).



(١) ينظر: تفسير القرطبي ج ١٨/ص ٢٦.
(٢) ينظر: مدارج السالكين ج ٢/ص ٢٩٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير باب ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، الخصاصة:
الفاقة ج ٤/ص ١٨٥٤ ح (٤٦٠٧).

المطلب الثاني

أسباب تحصيل رحمة الله متعددة النفع للنفس

المسألة الأولى

الصلاة قبل العصر أربعاً

خص النبي ﷺ من صلى سنة العصر أربع ركعات بالدعاء له بالرحمة من الله، للحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: (رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعًا)^(١). وقد يكون خبراً عما يؤول إليه المصلي من رحمة الله له، وقد قال العراقي: "يحتمل أن يكون دعاء وأن يكون خبراً"^(٢).

المسألة الثانية

الصلاة على النبي ﷺ

من مكانة رسول الله عند الله ﷻ أن الله ﷻ يصلي عليه، والملائكة، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب].

قال ابن كثير: "والمقصود من هذه الآية أن الله ﷻ أخبر عباده بمنزلة

(١) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في الأربع قبل العصر ج/٢ ص ٢٩٥ (٤٣٠) وقال أبو عيسى: «هذا حديث غريب حسن».

(٢) ينظر: تحفة الأحوذى ج/٢ ص ٤١٧.



عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر ﷺ أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً^(١).

ومن ثمرات الصلاة على النبي ﷺ الرحمة من الله للمصلي عليه، للحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه، عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَبْغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ)^(٢). وكذا ما أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا)^(٣)، وقال الترمذي: "وروي عن سفيان الثوري، وغير واحد من أهل العلم، قالوا: صلاة الرب: الرحمة، وصلاة الملائكة: الاستغفار. وقيل معنى صلاة الله على نبيه: ثناؤه عليه عند ملائكته، ومعنى صلاة الملائكة عليه: الدعاء له"^(٤).

المسألة الثالثة

الحلق والتقصير

التحلل من الإحرام في الحج والعمرة يكون بالحلق أو التقصير، وقد خص النبي ﷺ المحلقين بالدعاء لهم بالرحمة ثلاثاً، ودعا للمقصرين

- (١) ينظر: تفسير ابن كثير ج ٢/ص ٥٠٨.
- (٢) وهي ثمرات كثيرة منها: كفاية الهم وغفران الذنب، للحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه ج ٤/ص ٦٣٦ ح (٢٤٥٧) بلفظ: (إِذَا تَكْفَى هَمَّكَ وَيَغْفِرُ لَكَ ذَنْبَكَ)، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح».
- (٣) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة ج ١/ص ٢٨٨ ح (٢٨٤).
- (٤) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ ج ٢/ص ٣٥٥ ح (٤٨٥) قال أبو عيسى: «حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح».
- (٥) ينظر: فتح الباري ج ١١/ص ١٥٥.

مرة واحدة في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: (اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْمُحَلِّقِينَ، قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَالْمُقَصِّرِينَ، وَقَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي نَافِعٌ: رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، قَالَ: وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ: حَدَّثَنِي نَافِعٌ، وَقَالَ فِي الرَّابِعَةِ: وَالْمُقَصِّرِينَ)^(١).

قال العيني: « هذا الدعاء الذي وقع من النبي ﷺ بالتكرار للمحلقين، وإفراد الدعاء للمقصرين»^(٢). وقال أيضاً: «وفيه ما يدل على أفضلية الحلق، لأنه أبلغ في العبادة وأدل على صدق النية في التذلل لله، لأن المقصر مبق على نفسه من زينته التي قد أراد الله ﷻ أن يكون الحاج مجانباً لها»^(٣).

المسألة الرابعة قيام الليل

جعل الله قيام الليل سبباً من أسباب دخول الجنة^(٤)، قال تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(١٧) [السجدة]. ويعرض صاحبه للنفحات الإلهية، ويكون سبباً للحصول على رحمة الله، للحديث الذي أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ»^(٥).

- (١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الحج، باب الحلق والتقصير (١٧٤/٢) ح (١٧٢٧).
- (٢) ينظر: عمدة القاري ج ١٠/ص ٦٤.
- (٣) ينظر: عمدة القاري ج ١٠/ص ٦٤.
- (٤) للحديث الذي أخرجه الترمذي في كتاب القيامة والرقائق تحت باب (بدون ترجمة) ج ٤/ص ٦٥٢ ح (٢٤٨٥) بلفظ: (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا والناس نيام تدخلون الجنة بسلام) وقال أبو عيسى: «هذا حديث صحيح».
- (٥) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٢٤٧ ح (٧٣٦٢) وقال صاحب عون المعبود ج ٤/ص ١٢٦ =



المسألة الخامسة المسارعة إلى الصلاة

التعجيل في الطاعات والمسارعة والمسابقة فيها سمة من سمات المؤمنين، وهي من صفات عباد الله المقربين، ومن أهم أبواب الطاعات المحافظة على الصلاة في وقتها، مع التعجيل على الصلاة في أول وقتها للحديث الذي أخرجه الطبراني في معجمه عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي عَبْدَ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ كَانَ أَيْنَمَا أَدْرَكَتَهُ الصَّلَاةُ أَنَاخَ»^(١). فالنبي ﷺ دعا لعبدالله بن رواحة بالرحمة لحرصه على أداء الصلاة في أول وقتها.

قال المناوي: "وصلى محافظة على أدائها أول وقتها، وفيه: أنه يسن تعجيل الصلاة أول وقتها"^(٢). وقال أيضا: "كان أينما أدركته الصلاة وهو سائر على بغيره أناخ بغيره، وصلّى محافظة على أدائها أول وقتها"^(٣).

المسألة السادسة الالتجاء إلى الله

الالتجاء إلى الله مستراح الضعيف لاستعانته بالقوي، وواحة التعب

= (وفي إسناده محمد بن عجلان وقد وثقه الإمام أحمد ويحيى بن معين وأبو حاتم الرازي واستشهد به البخاري وأخرج له مسلم في المتابعة وتكلم فيه بعضهم). وهذا الحديث بدون زيادة قيام الليل مع إيقاظ الأهل الذي ورد بأسانيد صحيحة - كما سبق ذكره - فقد أخرج الحديث بهذه الزيادة الحاكم في مستدركه على الصحيحين ج/١ ص ٤٥٢ ح (١١٦٤) وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه". وأخرجه ابن حبان ج/٦ ص ٣٠٦ ح (٢٥٦٧). أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج/١٢ ص ٣٢٢ ح (١٣٢٤١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج/٩ ص ٢١٦: «رواه الطبراني وإسناده حسن».

(٢) ينظر: التيسير بشرح الجامع الصغير ج/٢ ص ٣٠.

(٣) ينظر: فيض القدير ج/٤ ص ١٩.

من مكابدة الحياة، وأمان الخائف المهموم، وقد ارتبطت رحمة الله بالفرار إليه والالتجاء إليه، ويؤيد هذا المعنى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يَرَحِمُ اللَّهُ لَوْطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثْتُ يَوْسُفَ، ثُمَّ أَتَانِي الدَّاعِيَ لِأَجْبَتُهُ^(١)). قال ابن حجر: "إلى ركن شديد أي: إلى الله ﷻ"^(٢). وقال النووي: "فالمراد بالركن الشديد هو الله ﷻ"^(٣).

المسألة السابعة

عدم مسح الحصى في الصلاة

مسح الحصى في الصلاة ينافي الخشوع والخضوع والسكينة التي لا بد من توفرها في الصلاة، لذا جاء النهي عن مسح الحصى للحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: (إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا يَمْسَحِ الحَصَى، فَإِنَّ الرَّحْمَةَ تَوَاجِهُهُ^(٤)).

قال المناوي في قوله: «فإن الرحمة تواجهه»: "أي: تنزل به وتقبل عليه، فلا يمسح حال الصلاة الحصى ونحوه الذي بمحل سجوده، لأن الشغل بذلك لعب لا يليق بمن شملته الرحمة، ولأنه ينافي الخشوع والخضوع، ويشغل المصلي عن مراقبة الرحمة المواجهة له، فيفوته حظه منها، وقدم التعليل زيادة في تأكيد النهي، وتبهيهاً على عظم ثواب ترك العبث في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ﴾ ج ٢/ص ١٢٢٩ ح (٣٢٠٧)

(٢) ينظر: فتح الباري ج ٦/ص ٤١٥.

(٣) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ج ٢/ص ١٨٤.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه باب ما جاء في كراهية مسح الحصى في الصلاة ج ٢/ص ٢١٩ ح (٣٧٩)

قال أبو عيسى: «حديث أبي ذر حديث حسن». وأخرجه ابن حبان في صحيحه ج ٦/ص ٤٩ ح (٢٢٧٣).



الصلاة، وإعلاماً للمصلي بعظمة ما يواجهه فيها، فكأنه يقول: لا ينبغي لعاقل يلقي تلك النعم الخطيرة بهذه الفعلة الحقيرة^(١).

المسألة الثامنة

الدعاء

الدعاء عبودية في الإسلام^(٢)، وفيها يتذوق العبد لذة الخضوع والمسكنة بين يدي الكريم، فهي استعانة من عاجز ضعيف بقوي قادر، واستغاثة ملهوف برب كريم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٤]. ومن رحمته بعبده الداعي أنه أخذ ثمرة دعائه لا محالة، للحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْعُو بِدُعَاءِ اللَّهِ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ مَا سَأَلَ أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهُ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَجِمَ)^(٣). وبالدعاء تفتح أبواب الرحمة، للحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ فَتَحَ لَهُ مِنْكُمْ بَابَ الدُّعَاءِ فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَمَا سُئِلَ اللَّهُ شَيْئًا يَعْني أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُسَأَلَ الْعَافِيَةَ)^(٤)، وقال رسول الله ﷺ: (الدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ، وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِالدُّعَاءِ)^(٥).

- (١) ينظر: فيض القدير ج/١ ص ٤١٤ بتصرف.
- (٢) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة البقرة ج/٥ ص ٢١١ ح (٢٩٦٩) بلفظ: (الدعاء هو العبادة) قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح».
- (٣) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب الدعوات باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ج/٥ ص ٤٦٢ ح (٣٢٨١)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر القرشي وهو ضعيف في الحديث ضعفه بعض أهل العلم من قبل حفظه»، وقال ابن حجر في فتح الباري ج ١/١ ص ١٤١: «أخرجه الترمذي بسند لين، وصححه الحاكم فوهم».
- (٤) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب الدعوات، باب بدون العنوان بعد باب فضل التوبة والاستغفار (٥٥٢/٥) ح (٣٥٤٨).
- (٥) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين (١/٦٧٠) ح (١٨١٥) وأخرجه الترمذي في سننه =

المسألة التاسعة أزمة تنزل الرحمات

أولاً: شهر رمضان

من حكمة الله ﷻ أن فاضل بين خلقه زماناً ومكاناً، ففضل بعض الأمكنة على بعض، وفضل بعض الأزمنة على بعض، ففضل في الأزمنة شهر رمضان على سائر الشهور، واختص هذا الشهر بفضائل عظيمة ومزايا كبيرة، فهو الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وهو شهر التوبة والمغفرة^(١)، وتكفير الذنوب والسيئات^(٢)، وشهر تفتح أبواب الجنة^(٣) فيه وتغلق أبواب النار، وتصفد فيه الشياطين، وتفتح فيه أبواب الرحمة، للحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا كَانَ رَمَضَانُ فَتُحْتَّ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَغُلِقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ)^(٤).

قال النووي: ”ويكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو وأن الشياطين يقل إغواؤهم، وإيذاؤهم ليصيرون كالمصفيدين، ويكون تصفيدهم عن

= في كتاب الدعوات، باب بدون العنوان بعد باب فضل التوبة والاستغفار ج/٥ ص ٥٥٢ ح (٣٥٤٨) قال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر القرشي، وهو ضعيف في الحديث ضعفه بعض أهل العلم من قبل حفظه».

(١) للحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان ج/١ ص ٢٢ ح (٣٨) بلفظ: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه).

(٢) للحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصيام باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنب الكبائر ج/١ ص ٢٠٩ ح (٢٢٢) بلفظ: (ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر).

(٣) للحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ج/٣ ص ١١٩٤ ح (٢١٠٢) بلفظ: (إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان ج/٢ ص ٧٥٨ ح (١٠٧٩).



أشياء دون أشياء ولناس دون ناس، ويؤيد هذه الرواية الثانية فتحت أبواب الرحمة^(١).

ثانياً: يوم عرفة.

جعل الله في الليالي والأيام مواسم للخيرات، وأزمنة للطاعات، تزداد فيها الحسنات، وتكفر فيها السيئات^(٢)، ومنها يوم عرفة الذي أكمل الله فيه الملة، وأتم به النعمة^(٣). ويوم تنزل فيه الرحمة للحديث الذي أخرجه مالك عن طلحة بن عبيد الله بن كريب أن رسول الله ﷺ قال: (مَا رَوَى الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ، وَلَا أَدْحَرُ، وَلَا أَحْقَرُ، وَلَا أَعْيَظُ مِنْهُ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا يَرَى مِنْ تَنْزُلِ الرَّحْمَةِ، وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ)^(٤).

ثالثاً: يوم الجمعة.

إن يوم الجمعة عيد الأسبوع، وخير يوم طلعت عليه الشمس^(٥)، ويوم تكفر فيه السيئات، فالجمعة للجمعة كقارة لما بينهما^(٦)، وفيه ساعة

- (١) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ج٧/ص١٨٨.
- (٢) للحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس ج٢/ص٨١٩ ح(١١٦٢) بلفظ: (عن صوم يوم عرفة فقال: يكفر السنة الماضية والباقية).
- (٣) ففي الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ج١/ص٢٥ ح(٤٥) عن عمر بن الخطاب أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: أي آية؟ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة.
- (٤) أخرجه مالك في موطأه ج١/ص٤٢٢ ح(٩٤٤)، وقال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار ج٢/ص٢٢: «وهو مرسل صحيح وإبراهيم بن أبي عبلة معدود في ثقات التابعين، سمع أنس بن مالك وغيره وطلحة بن عبيد الله بن كريب أيضاً تابعي ثقة وكريب.»
- (٥) للحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجمعة باب فضل يوم الجمعة ج٢/ص٥٨٥ ح(٨٥٤) بلفظ: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة).
- (٦) للحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجمعة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتبت الكبائر ج١/ص٢٠٩ ح(٢٢٢) بلفظ: (الصلوة الخمس والجمعة إلى الجمعة كقارة لما بينهن، ما لم تغش الكبائر).

إجابة^(١)، يفتح فيها باب الرحمة، للحديث الذي أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن سلامة بنت أقيما قالت: (كنت عند عائشة في نسوة فسمعتها تقول: (إِنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِثْلُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّ فِيهِ لَسَاعَةً يُفْتَحُ فِيهَا بَابُ الرَّحْمَةِ فَقُلْنَا: أَيُّ سَاعَةٍ هِيَ؟ فَقَالَتْ: حِينَ يُنَادِي الْمُنَادِي بِالصَّلَاةِ)^(٢).

المسألة العاشرة الخوف من الله

الخوف من الله ﷻ يورث رحمة الله ﷻ، وهذا ثابت في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد ﷺ عن النبي ﷺ: (أَنَّ رَجُلًا كَانَ قَبْلَكُمْ، رَغَسَهُ^(٣) اللَّهُ مَالًا، فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حُضِرَ: أَيُّ أَبِ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَإِذَا مِتُّ فَأَحْرَقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُونِي فِي يَوْمِ عَاصِفٍ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكُ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ)^(٤).

قال الخطابي: ”قد يستشكل هذا فيقال: كيف يغفر له وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى؟ والجواب: أنه لم ينكر البعث وإنما جهل

- (١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة ج/١ ص/٢١٦ ح(٨٩٢) بلفظ: (أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله ﷻ شيئاً إلا أعطاه إياه).
- (٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ج/١ ص/٤٧٣ ح(٥٤٧٠) بسند ضعيف لجهالة سلامة بنت أقيما، ونبل بنت بدر ينظر: إكمال الإكمال (تكملة لكتاب الإكمال لابن ماكولا) (١٤٨/١)
- (٣) الرغس: النماء والكثرة والخير والبركة. ينظر: لسان العرب ج/٦ ص/١٠٠، وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر ج/٢ ص/٢٢٨ «أي: أكثر له منهما وبارك له فيهما، والرغس: السعة في النعمة، والبركة والنماء». وقال ابن حجر في فتح الباري ج/٦ ص/٥٢١ «أي: كثر ماله»، وقال النووي في شرح على صحيح مسلم ج/١٧ ص/٧٥: «أي: أعطاه مالا وبارك له فيه».

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء، باب حديث الغار ج/٣ ص/١٢٨٢ ح(٣٢٩١).



فظن أنه إذا فعل به ذلك لا يعاد، فلا يعذب، وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه إنما فعل ذلك من خشية الله^(١).

وقال ابن حجر: "وكان في زمن الفترة فلم تبلغه شرائط الإيمان، وأظهر الأقوال أنه قال ذلك في حال دهشته وغلبة الخوف عليه حتى ذهب بعقله لما يقول، ولم يقله قاصداً لحقيقة معناه، بل في حالة كان فيها كالغافل والذاهل، والناسي الذي لا يؤاخذ بما يصدر منه"^(٢).

المسألة الحادية عشرة

انتظار الصلاة على طهارة في المسجد

انتظار الصلاة على طهارة، وعدم الحدث يعرض المسلم لرحمة الله، فيسخر الله الملائكة للدعاء له بالرحمة، فقد ورد حديثاً أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (الملائكة تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، مَا لَمْ يُحَدِّثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ)^(٣).

وكذا ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَفِي سُوقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ: إِذَا تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً، إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى، لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ، مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ

(١) ينظر: فتح الباري ج/٦ ص ٥٢٢.

(٢) ينظر: فتح الباري ج/٦ ص ٥٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة، باب الحدث في المسجد ج/١ ص ١٧١ ح (٤٢٤).

مَا أَنْتَظِرَ الصَّلَاةَ^(١). فكان انتظار الصلاة على طهارة سبباً من أسباب
تحصيل رحمة الله.

وقال ابن بطال: "من أراد أن تحط عنه ذنوبه من غير تعب، فليفتتم
ملازمة مصلاه بعد الصلاة، ليستكثر من دعاء الملائكة، واستغفارهم له، فهو
مرجو إجابته، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]"^(٢).



(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجماعة والإقامة، باب فضل صلاة الجماعة ج/١/
ص ٢٣٢ ح (٦٢٠).
(٢) ينظر: عمدة القاري ج٤/ص ٢٠٤.

الخاتمة

- الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وبعد .

أهم النتائج المستخلصة:

- تنوع أسباب تحصيل رحمة الله ﷻ المثبتة في السنة النبوية، سواء متعدية النفع للغير، أو للنفس .
- من أهم أسباب تحصيل رحمة الله الرحمة بالخلق عامة: مسلمهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، وصغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم .
- الاجتماع على تلاوة القرآن ومجالس الذكر سبب من أسباب الحصول على رحمة الله .
- من أسباب التعرض لرحمة الله الصبر، والسماحة، والإيثار، والعيادة، والتشميت للعاطس، وكلها تدور في فلك التعامل مع الناس بصورة راقية، وإعطائهم حقوقهم .
- الأسباب المتعدية النفع للنفس كأسباب لتحصيل رحمة الله: كقيام الليل، والإيواء إلى ركن شديد، والمصارعة إلى الصلاة، وانتظار الصلاة، هي مقوية للعلاقة بين العبد وربّه، وفيها معنى المسابقة .

أهم التوصيات المقترحة:

- قيام دورات خاصة على مستوى كافة القطاعات التعليمية، ينشر فيها ثقافة: (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء).
- ربط المناهج الدراسية بدراسة صور الرحمة في الإسلام التي أصلها النبي ﷺ تطبيقاً.
- توجيه وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، لتسليط الضوء على أسباب تحصيل رحمة الله.
- إقامة معارض علمية في المدارس، والجامعات، لإظهار الارتباط بين الرحمة والإسلام.
- تحفيز البحث العلمي في إبراز المنهج النبوي في تربية الناس على التراحم.



فهرس المصادر والمراجع

- ١ . الأحاديث المختارة، تأليف: أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، دار النشر: مكتبة النهضة الحديثة مكة المكرمة - ١٤١٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش.
- ٢ . الإكمال (تكملة لكتاب الإكمال لابن ماكولا) تأليف: محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع، أبو بكر، معين الدين، ابن نقطة الحنبلي البغدادي، تحقيق د. عبدالقيوم عبد رب النبي، دار النشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى ١ .
- ٣ . تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، تأليف: محمد عبدالرحمن ابن عبدالرحيم المباركفوري أبو العلا، دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت.
- ٤ . تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، تأليف: جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، دار النشر: دار ابن خزيمة - الرياض - ١٤١٤هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الله بن عبدالرحمن السعد .
- ٥ . تفسير القرآن العظيم، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠١ (تفسير ابن كثير).
- ٦ . تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير، تأليف: أحمد بن علي ابن حجر أبو الفضل العسقلاني - المدينة المنورة - ١٣٨٤ - ١٩٦٤، تحقيق: السيد عبد الله هاشم اليماني المدني.
- ٧ . الجامع لأحكام القرآن، تأليف: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار النشر: دار الشعب - القاهرة (تفسير القرطبي).

٨. التيسير بشرح الجامع الصغير، تأليف: الإمام الحافظ زين الدين عبدالرؤوف المناوي، دار النشر: مكتبة الإمام الشافعي - الرياض - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، الطبعة: الثالثة.
٩. الجامع الصحيح المختصر، تأليف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار النشر: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.
١٠. الجامع الصحيح سنن الترمذي، تأليف: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت -، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
١١. رسائل ابن حزم الأندلسي، تأليف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦ هـ)، دار النشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة: ٢، ١٩٩٠، تحقيق: إحسان عباس.
١٢. سنن ابن ماجه، تأليف: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، دار النشر: دار الفكر - بيروت -، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.
١٣. سنن أبي داود، تأليف: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار النشر: دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد.
١٤. سنن البيهقي الكبرى، تأليف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، دار النشر: مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ١٤١٤ - ١٩٩٤، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا.
١٥. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، تأليف: شرف الدين الحسين بن عبدالله الطيبي، تحقيق: د. عبدالحميد هندواوي، دار النشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.



١٦. شرح السيوطي لسنن النسائي، تأليف: السيوطي، دار النشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب - ١٤٠٦-١٩٨٦، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة.

١٧. شرح صحيح البخاري لابن بطلال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ) تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

١٨. صحيح مسلم، تأليف: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٣٩٢، الطبعة: الطبعة الثانية، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.

١٩. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، تأليف: بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٠. عون المعبود شرح سنن أبي داود، تأليف: محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٥م، الطبعة: الثانية.

٢١. فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.

٢٢. فيض القدير شرح الجامع الصغير، تأليف: عبدالرؤوف المناوي، دار النشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر - ١٣٥٦هـ، الطبعة: الأولى.

٢٣. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تأليف: مصطفى بن عبدالله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة، دار النشر: مكتبة المثنى - بغداد، تاريخ النشر: ١٩٤١م.

٢٤. كشف المشكل من حديث الصحيحين، تأليف: جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، دار النشر: دار الوطن - الرياض.

٢٥. لسان العرب، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار النشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى.
٢٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تأليف: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار النشر: دار الريان للتراث/ دار الكتاب العربي - القاهرة، بيروت - ١٤٠٧.
٢٧. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تأليف: محمد ابن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٣٩٣-١٩٧٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي.
٢٨. المستدرك على الصحيحين، تأليف: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١هـ-١٩٩٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا.
٢٩. مسند أبي عوانة، تأليف: الإمام أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الاسفرائيني، دار النشر: دار المعرفة - بيروت.
٣٠. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تأليف: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، دار النشر: مؤسسة قرطبة - مصر.
٣١. المصنف في الأحاديث والآثار، تأليف: أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة الكوفي، دار النشر: مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: كمال يوسف الحوت (مصنف ابن أبي شيبة).
٣٢. المعجم الأوسط، تأليف: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار النشر: دار الحرمين - القاهرة - ١٤١٥، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني.
٣٣. المعجم الكبير، تأليف: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، دار النشر: مكتبة الزهراء - الموصل - ١٤٠٤ - ١٩٨٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.



٣٤. المغني عن حمل الأسفار، تأليف: أبو الفضل العراقي، دار النشر: مكتبة طبرية - الرياض - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: أشرف عبدالمقصود.
٣٥. المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، تأليف: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة: الأولى.
٣٦. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تأليف: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاوي، المحقق: محمد عثمان الخشت، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٣٧. موطأ الإمام مالك، تأليف: مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبغي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، مصر تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.
٣٨. النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، دار النشر: المكتبة العلمية - بيروت - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي.



الرحمة في القرآن المجيد الاستفانار إنمोजना

إعداد:

د. محمد الأمين محمد سيلان^(١)

عضو هيئة التدريس في كلية الدراسات الإسلامية
جامعة الأمير سونكلا في جنوب تايلاند (فرع فطاني)

(١) الجامعية من الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، كلية الشريعة.
المجستير من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، قسم الفقه وأصوله.
الدكتوراه من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، قسم الفقه وأصوله.



المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وله الحمد والشكر أن اشتق اسمه من الرحمة، ولتكون اسماً من أسمائه الحسنى، وصفة من صفاته العليا، وله المجد أن اصطفى آخر رسله، وجعله رحيماً بأئمة جمعاء، وله المنّة أن ملأ كتابه العزيز برحماته وغفرانه للذنوب، ولو أراد أذكى واحد في العالم أن يعدّ رحمات الله، لنفد حبر قلمه، ولن يستطع إلى ذلك سبيلاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ نَعُدُّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾ [النحل]. لقد أنعم الله الخالق البارئ على مخلوقاته بشتى أنواع: النعم ظاهراً وباطناً، اعترف بها من اعترف، وجدها من جحد، ومنها: رحمة الله ﷻ على العباد بالاستغفار في كتابه العزيز، فليتأمل المتأمل القارئ لكتاب الله ﷻ: أنه ﷻ قد ألهم كل أنبيائه ورسله طلب الاستغفار. والهدف من هذا البحث إبراز مفهوم الرحمة في القرآن العظيم، مع توضيح العلاقة المتينة بين الاستغفار والرحمة في كتاب الله المجيد، وأن الاستغفار أمر رباني وجهه إلى رسله، من أولهم إلى خاتمهم، ﷺ. وقد انتهج الباحث في تناول جزئيات هذه الورقة المنهج الاستقرائي والتحليلي، لسرد بعض النصوص القرآنيّة المتعلقة بالعنوان، والنصوص الأخرى الموضحة لها. ويتضح من البحث أن كثيراً من الناس

مرضى بأنواع متعددة من الأمراض، ويقفون عاجزين عن علاجها، مع وجود علاج رباني معهم؛ ولكن كثيراً من الناس لا يستشعرونه. وعليه، يتم تناول هذه الورقة في المطالب الآتية بإذن الله ﷻ.



المطلب الأول التعريف بمصطلحات البحث

أولاً: تعريف الرحمة لغةً واصطلاحاً:

أ. تعريف الرحمة لغةً:

الرَّحْمَنُ والرَّحِيمُ اسمان جليلان لله ﷻ، ومشتقان من الرحمة التي تدل في مألوف اللغة على الرقة، والشفقة، والرأفة، والعطف، وفي هذا يصرح ابن فارس رحمه ما نصه: «يقال من ذلك رحمه يرحمه، إذا رَقَّ له، وتعطف عليه، والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى. والرحم: علاقة القرابة، ثم سميت رحم الأنثى رحماً من هذا؛ لأن منها ما يكون ما يرحم ويرق له من ولد^(١)». وفي هذا الصدد يقول جل شأنه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

والآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، د. ط، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ج ٢، ص ٤٩٨؛ محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط ١، د. ت)، ج ١٢، ص ٢٣٠؛ محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، د. ط، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ص ٢٦٧.

نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ [الأنعام].

ب. معنى الرحمة اصطلاحاً:

لقد عرّف أهل العلم رحمهم الله الرحمة بتعريفات عديدة، وبتعبيرات مختلفة، لكن المراد لا يختلف كثيراً عن المعنى اللغوي عند التأمل، ومن تلك التعريفات ما يلي:

التعريف الأول - تعريف ابن القيم رحمته -: «الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك»^(١)

التعريف الثاني - تعريف ابن عاشور رحمته -: «رقة في النفس، تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه»^(٢) وهناك تعريفات أخرى للفظ الرحمة؛ لكن المضمون واحد، وإن اختلف التعبير.

يلاحظ على هذه التعريفات السابقة الذكر ما يلي:

أولاً: يشير تعريف الإمام ابن القيم رحمته إلى تعريف الرحمة في حق الله تعالى نوعاً ما، بدليل أن ابن القيم يضرب مثلاً على رحمة الله للعبد: «ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به؛ ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه ولا يعلم إحسانه

(١) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، ابن قيم الجوزية، إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد الفقي، (بيروت: دار المعرفة، ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ج٢، ص٢٧٤.

(٢) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتوير، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ط٢، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ج٢٦، ص٢١.

إليه بابتلائه وامتحانه^(١)». وكما يفهم أن ابن القيم يقصد رحمة الإنسان أيضاً في هذا التعريف؛ لكن يلاحظ أن التعريف يركز أكثر على رحمة البشر بعضهم ببعض، ومن ذلك قول ابن القيم رحمة الله: «فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم، والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره^(٢)».

ثانياً: يفهم من تعريف ابن عاشور رحمة الله أنه أراد بهذا التعريف، تعريف الرحمة في حق الأدميين، وليس تعريف الرحمة في حق الله رحمة الله؛ لأن الله رحمة الله يرحم ويفضل على الإنسان بنعم كثيرة دون أن يتعدى عليه أحد. والله رحمة الله أعلم بالصواب.

ويستخلص من هذه التعريفات: أن العلماء رحمهم الله ركزوا على تعريف رحمة الإنسان، ولعله يمكن أن يُلتَمَس لهم العذر، بأن تعريف رحمة الله كان معروفاً لديهم بالسليقة، فلم يحتاجوا إلى تعريفها. والله رحمة الله أعلم.

وعلى ضوء ما سبق: أرى أن تُعرف رحمة الله: بأنها صفة من صفات الله رحمة الله، يوصل بها المنافع والمصالح وجميع أنواع الخيرات إلى مخلوقاته. ومن أنواع رحمة الله رحمة الله بالإنسان: مغفرته للعبد المذنب، وقبول توبة التائب بعد ارتكابه أنواع كثيرة من المعاصي، وقبول إسلام الكافر بعد مدة طويلة في تمرده وكفره بالله رحمة الله.

ومن رحمته رحمة الله: رحمة الأم بولدها، والأب بولده، والدابة بولدها كذلك.

(١) ابن القيم، إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، ج٢، ص٢٧٤.

(٢) ابن القيم، إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، ج٢، ص٢٧٤.

ثانياً: تعريف الاستغفار لغة واصطلاحاً:

أ. تعريف الاستغفار لغةً:

كلمة الغفر والمغفرة لها معان عدة عند أهل اللسان؛ لكن المعنى الذي يعني هنا، ويتناسب مع موضوع الورقة، هو أن الغفر أو المغفرة أو الغفران: بمعنى التغطية والستر على الذنوب، والعضو عنها، يقال: غفر الله ذنوبه، أي سترها.

ومن الأدعية المشروعة بعد قضاء الحاجة: ”غفرانك^(١)“. بمعنى أطلب الغفران من الله ﷻ. فإن الله ﷻ الذي يسر قضاء الحاجة للإنسان، فحُق له أن يطلب منه الغفران والستر؛ لأن من قدرته ﷻ أن يعذب الإنسان حتى عند قضاء الحاجة، وكونه ﷻ سهلاً ويسراً له ذلك، فهو رحمة من الله، ولطف منه بالإنسان. ويقال: ”غفر الشيب بالخضاب أي غطاه بالخضاب“. وقال ابن سيده: ”غفر المتاع في الوعاء يغفره غفراً: إذا أدخله فيه، وستره، وأوعاه^(٢)“.

والغفران والمغفرة من الله ﷻ أن يصون العبد من أن يمسه العذاب^(٣). وصون الله ﷻ للعبد من العذاب، رحمة وفضل منه ﷻ.

وأنشد سيبويه رحمه الله:

استغفر الله ذنباً لست مُحصيه رَبِّ العبادِ إليه القولُ والعملُ^(٤).

(١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله، صحيح البخاري، باب آمن الرسول بما أنزل إليه، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ”إِصْرًا عَهْدًا وَيُقَالُ غُفْرَانُكَ مَغْفِرَتُكَ فَأَغْفِرْ لَنَا“، ج ١، ص ٥٤؛ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: ٢٥٩٦٤، ج ٥٥، ص ٧٣.

(٢) إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط ج ١، ص ٦٥٦. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِصْرًا عَهْدًا. وَيُقَالُ: غُفْرَانُكَ مَغْفِرَتُكَ فَأَغْفِرْ لَنَا

(٣) محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، (دار الهداية، د. ط، د. ت)، ج ١٣، ص ٢٤٦.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، م، ص ٢٦.

في ظل من عنت الوجوه له ملك الملوك ومالك الغفر^(١).

ب. الاستغفار اصطلاحاً:

قال أبو جعفر الطبري رحمته الله في تفسير المغفرة بأن: «الغفران» و«المغفرة»، الستر من الله على ذنوب من غفر له، وصفحه له عن هتك ستره بها في الدنيا والآخرة، وعفوه عن العقوبة عليه^(٢).

الملاحظ من تعريف أبي جعفر رحمته الله أن تعريف المغفرة في اللغة العربية وفي الاصطلاح لا يختلفان. والعلم عند الله تعالى.

وقال ابن القيم رحمته الله: «الاستغفار إذا ذكر مفرداً يراد به التوبة مع طلب المغفرة من الله سبحانه، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، والستر لازم لهذا المعنى^(٣)».

يفهم من نص الإمام ابن القيم رحمته الله، أن الاستغفار والتوبة إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. وعليه، فإن محو الذنوب وحتى أثره يزال عن العبد المذنب، وإضافة إلى وقاية الله من الشرائر، فهذا من أعلى الرحمة من الله سبحانه بالإنسان.

لطيفة من كلام الإمام ابن القيم رحمته الله قوله: «إزالة أثره»، يفهم من هذا بأن أثر الذنوب قد يكون سبباً مانعاً وحاجباً من الحصول على خيري الدنيا والآخرة للإنسان المذنب، فإزالة آثار الذنوب عن الإنسان عين الرحمة على الإنسان.

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٢٨٥.

(٢) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل

القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ج٦، ص١٢٨.

(٣) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين،

تحقيق: محمد حامد الفقي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ج١، ص٣٠٧؛

عبدالنعم محمود، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، (دار الفضيلة دون مكان النشر، والتاريخ)،

ج١، ص١٥١.

المغفرة: هي أن يستر القادر القبيح الصادر ممّن تحت قدرته. لذا إذا ستر العبد عيبَ سيده مخافة عتابه، لا يقال: غفر له، بل ستر سيده^(١).

ولما كان الله ﷻ قادرًا على أن يستر الذنوب عن المذنب مع جلالته قدرته على عقابه وعذابه والانتقام منه، فإن ذلك الأمر يُعدُّ رحمة جليلة منه ﷻ بالإنسان المذنب.



(١) السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحنفي الجرجاني، التعريفات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م)، ص ٢٨٦.

المطلب الثاني استغفار الأنبياء والرسل ﷺ

بمشيئة الله ﷻ سأقوم في هذا المطلب، بعرض استغفار الأنبياء والمرسلين والتعليق عليها، حسب ورود أسمائهم ﷺ في القرآن العظيم، وبحسب ترتيب المصحف العثماني، وكذلك سأبذل قصارى جهدي: أن أذكر الأنبياء والرسل مرتباً حسب النبوة والرسالة قدر الإمكان والاستطاعة. وذلك على النحو الآتي:

أولاً: استغفار النبي آدم أبي البشر ﷺ:

فإن الله ﷻ خلق أبانا آدم، وخلق منه زوجه -حواء- ﷻ، وأسكنهما الجنة، ووعدهما الخلود فيها، ونهاهما وحذرهما من الأكل من الشجرة؛ لكنَّ قدرَ الله أن يُوسوس لهما الشيطان، فأكلا من تلك الشجرة، فاعتبر ذلك الأكل معصيةً لله ﷻ، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، وبعد ما تيقن آدم ﷺ من مخالفة أمر بارئ، وبدا عليه أثرُ معصية خالقه، فزع إلى طلب المغفرة والتوبة من الله ﷻ. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]. ولَمَّا تَأَكَّدَ آدم ﷺ بأن تناول تلك الشجرة كان معصيةً لله ﷻ زاد خوفاً ووقوع الخسارة عليهما، بدليل حكاية الله ﷻ عن نبيه آدم وزوجته -حواء- ﷻ. قال الله

(١) لعلماء التفسير كلام مفصل حول تلك الكلمات، التي قالها آدم ﷻ، لكن المقام قد لا يتسع لسردها، وحتى لا أخرج عن لب الموضوع.

تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّوْ تَعَفَّرْنَا لَرَّوْ تَعَفَّرْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) [الأعراف: ٢٣]. ويدعم أبو جعفر الطبري رحمته الله هذا بتفسيره قائلاً: «وهذا خبرٌ من الله جل ثناؤه عن آدم وحواء فيما أجاباه به، واعترافهما على أنفسهما بالذنب، ومسألتهما إياه المغفرة منه والرحمة^(١)». وقال محمد بن كعب: «عملتُ سوءاً، وظلمتُ نفسي، فارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم^(٢)». يعني قال آدم أبو البشر عليه السلام هذا الدعاء.

واستحضر آدم عليه السلام قول الله ووعدته للعباد، وتيقن آدم بأن الله تعالى: ﴿لَا يُخَلِّفُ الْأَمْعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وأن من عمل عملاً سيئاً، ثم تاب منه واستغفر الله، فإن الله تعالى يغفر له، فهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠) [النساء]. فعلم آدم عليه السلام بأنه قد عمل خطيئة، وظلم نفسه، ثم تذكر رحمة الله ومغفرته ففزع إلى طلب المغفرة منه تعالى.

وكانت نهاية الأمر لما وقع لآدم عليه السلام هو الهبوط إلى الأرض^(٣)؛ لذا قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

اعترف آدم وزوجه عليهما السلام بالعصيان، وعرفا أن أثر المعصية قد عاد عليهما، حيث بدت عورة كل واحد منهما للآخر، وعسرَ عليهما مشقة إيجاد ما يستر عوراتهما، وعند ذلك جزما بأنهما يكونان من الخاسرين إن لم يغفر الله لهما؛ ولهذا استسلما استرحاماً واستغفارا من الله تعالى^(٤).

(١) الطبري، جامع البيان، ج ١٢، ص ٣٥٧.

(٢) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م)، ج ١، ص ٣٢٤-٣٢٥.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٢٩٩. يعني أمر الله تعالى أن يهبط آدم، وحواء عليهما السلام، وإبليس، والحية إلى الأرض.

(٤) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٨، ص ٥٢.



يستخلص فيما دار بين آدم عليه السلام وخالقه ﷻ، من أكل الشجرة بسبب وسوسة الشيطان لهما - هو وزوجه-، بعد نهي الله لهما عن الاقتراب إلى تلك الشجرة، وبعد أن شعر آدم وزوجه من مخالفة الله وعدم طاعته، هرولا إلى طلب الاستغفار والرحمة من الله ﷻ، فهذا يُعلم أبناء آدم عليه السلام، أنه على الإنسان والعبد المذنب أن يُسرع إلى طلب مغفرة الله ورحمته، بعد ارتكاب ذنب من الذنوب. وأيضًا، هذا يدل على عظم الاستغفار؛ لأنه يجعل الإنسان يستشعر بالعبودية أكثر فأكثر، ويرجو رحمة الله ﷻ بعد الاستغفار من الذنوب. والله ﷻ أعلم وأحكم.

ثانياً: استغفار النبي نوح عليه السلام:

النبي نوح عليه السلام دعا أمته ألف سنة إلا خمسين عاماً، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المنكوت]، ولما كذبوه، ولم يتبعوا أمره، فأعقم الله نساءهم أربعين سنة، وأهلك كل ما عندهم؛ لكن لم يقنط النبي نوح عليه السلام من رحمة ربه، بل طلب من قومه أن يستغفروا ربهم، لأنه كان غفارًا، وسيمدهم بأموال وبنين، وفي هذا يحكي الإمام القرطبي، عن مقاتل: لما كذب قوم نوح زمانًا طويلًا حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نساءهم أربعين سنة، فهلكت مواشيهم وزروعهم، فصاروا إلى نوح عليه السلام، واستغاثوا به فقال لهم نوح عليه السلام: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾. ويستأنس بتوجيه وإرشاد الحسن البصري رحمته الله للذين اشتكوا إليه. اشتكى أربعة رجال إلى الحسن البصري. الأول: من الجدوبة أو القحط، أي قلة إنزال المطار، والثاني: من الفقر، والثالث: من الولد، أي أن يرزقه الله ولدًا، والرابع: من جفاف البستان. فقال الحسن البصري لكل واحد منهم: أن يستغفر ربه، وتعجبوا من إجابة الحسن البصري رحمته الله، فقال لهم الحسن:

ما قلت من عندي شيئاً، وقد قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح].

محل الشاهد: أن نوحاً عليه السلام يعلم مع يقينه السابق أن الاستغفار سبب لرفع القحط والجذب، وسبب مجيء الولد، ونجاح المواشي؛ لذا لجأ نوح وأمر قومه بطلب الاستغفار من الله تعالى؛ لأن بالاستغفار يحل كل المشكلات الأخروية، فضلاً عن الحوائج الدنيوية. ولا أعتقد أن هناك من ينكر أن الولد، أو المطر، ونمو المواشي ليس من ضمن الرحمة^(١).

وفي هذا الصدد قال ابن كثير رحمته الله في تفسير الآية: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾: أي إذا تبتم واستغفرتموه كثر الرزق عليكم، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد^(٢).

ويُفهم من هذا أن الاستغفار مفتاح السعادة، وعلاج لكل شيء، يصيب العبد في هذه الدنيا، من قحط المطر، وقلة الرزق، والعقم. ويُفهم من ذلك أيضاً، أنه إذا توفرت هذه الأشياء لأي إنسان في الدنيا، فإنه في أتم الرحمة من الله تعالى؛ لذلك لم يقل نوح عليه السلام شيئاً آخر لقومه إلا طلب الاستغفار؛ ولأن الذنوب حاجز قوي بين العبد وبين آماله، وإذا رُفِع ذلك المانع يرحم ذلك الإنسان بشتى أنواع الرحمة في هذه الحياة الدانية قبل الآخرة الباقية.

ولما يئس نوح عليه السلام من قومه، أمره الله أن يصنع الفلك، وكان قومه إذا مروا به استهزأوا به، وسخروا منه؛ لكن مع ذلك كله بعد قيام نوح عليه السلام بصنع الفلك طلب من قومه الركوب فيها؛ لكن لعنادهم أبوا الركوب، ففي

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٧، ص٥٤.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٢٤، وما بعدها بتصرف.

هذا المقام استشعر نوح عليه السلام رحمة الله وغفرانه للعصاة؛ فلماذا قال الله حاكياً عن نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ أَرَأَيْتُمْ لِي رَبِّي لَعَنُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٤١) [هود]. فناسب المقام ذكر غفران الله ورحمته بالعباد؛ لأنه قادر أن يهلكهم جميعاً بسبب عصيانهم للنبي نوح عليه السلام.

لطيفة في الآية الكريمة: إن الله تعالى عبّر عن نون التوكيد ولام القسم في هذه الآية، وهذان يدلان على دوام مغفرة الله ورحمته بالعباد، وتأكد وقوعهما من الله تعالى (١).

ثالثاً: استغفار النبي هود عليه السلام:

النبي هود عليه السلام دعا قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبادة؛ لكن قومه لم يستمعوا له، بل عصوه، واتبعوا أهواءهم، ولما رأى النبي هود عليه السلام من قومه كثرة المعصية، طلب منهم أن يستغفروا خالقهم، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَيَقَوْمٍ أَسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُؤْوُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ﴾ (٥٢) [هود].

قال أبو جعفر رضي الله عنه: «الاستغفار هو الإيمان بالله في هذا الموضع؛ لأن هوداً عليه السلام إنما دعا قومه إلى توحيد الله، ليقض لهم ذنوبهم (٢)» ولا تعارض بين تفسير الطبري رضي الله عنه للآية، وبين موضوع هذه الورقة؛ لأن الإنسان إذا آمن بربه ووقر الإيمان في قلبه، فمن ثم يستغفر ربه إذا أذنب، أو خالف أوامر الله. وأيضاً، لا يصدر الاستغفار إلا من المؤمنين أو المؤمنات، ويكون الاستغفار سبباً شرعياً لحصول خير الدنيا والآخرة.

وكان الله تعالى يقول لقومه: إن آمنتم بالله، وتبتم من كفركم، أرسل لكم

(١) هذا فمهي للآية الكريمة، ولم أرجع إلى أي مرجع أو مصدر في ذلك؛ لذلك لم أشير إلى أي مرجع، ومن دأبي إذا نقلت نصاً أو تصرف في النص أن أشير إلى المصدر؛ لكن إذا لم أشير إلى أي شيء معناه أن ذلك الكلام من كلامي أو تعليقي على الآية.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ١٣، ص ٢٥٨.

قطر السماء في وقت حاجتكم إليه، وأحيي بلادكم من الجذب والقحط، وأرزقكم بالمال والولد^(١). وهذه رحمة الله للعبد، وخاصة العبد المحتاج إلى هذه الأشياء، وأحق الناس بتقدير هذه النعم -نعمة المطر-هم الفلاحون؛ لكن قوم هود عليه السلام جحدوه، وأصرّوا على عبادة آلهتهم، التي كانوا يعبدونها، ولما وقع أمر الله -عذاب الله- بقوم هود، أهلكهم الله جميعاً، إلا النبي هوداً والمؤمنين به، وذلك برحمة من الله ﷻ.

محل الاستشهاد: أن هوداً عليه السلام عرف قيمة الاستغفار ومنزلته عند الله ﷻ؛ لذلك لم يطلب من قومه إلا الاستغفار، وأن الاستغفار سبب لحصول جميع أنواع الرحمة في الدنيا والآخرة.

وأمر نبي الله هود عليه السلام قومه: «بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون من الأعمال، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ عليه شأنه وقوته^(٢)».

ويقول الإمام البغوي رحمته الله في تفسير هذه الآية الكريمة إن الله ﷻ: «حبس عنهم القطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم فلم يلدن، فقال لهم هود عليه السلام: إن آمنتم أرسل الله عليكم المطر، فتزدادون مالاً، ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت، فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد. وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة البدن^(٣)». كلام نفيس ووجيه، عرف النبي هود عليه السلام أن هذه النعم والرحمة تحصل بسبب الاستغفار؛ فلذلك أمر قومه بالاستغفار. والله ﷻ أعلم بالصواب.

يستخلص ممّا سبق أن النبي هوداً عليه السلام، استأنف الحوار مع قومه

(١) ينظر: المصدر نفسه.

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج٤، ص٣٢٩.

(٣) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، (دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)، ج٤، ص١٨٢؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٥١.



يطلب الاستغفار، وعرف هود أن الاستغفار سبب للحصول على الغيث، والأولاد، والقوة؛ لأن قومه كانوا بحاجة ماسة إلى هذه الأشياء، فأمرهم هود عليه السلام بالسبب، ولما لم يطيعوه وقع بهم ما أراد الله تعالى، ثم نجا الله تعالى النبي هوداً ومن كان معه من المؤمنين برحمة ونعمة منه تعالى.

رابعاً: استغفار النبي صالح عليه السلام:

عطف الله تعالى الأمر نفسه من النبي نوح وهود إلى النبي صالح عليه السلام، وهو الأمر بتوحيد الله تعالى بالعبادة، فكأن ما حصل لنوح وهود حصل ذلك الشيء نفسه للنبي صالح عليه السلام. وفي هذا يقول الله تعالى مخبراً عن نبيه صالح: ﴿وإلى ثمود آخاهم صليحاً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أشاكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروهم ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾ [هود: ٦٦]؛ لكن قوم صالح عليه السلام كذبوه، وأخذوا يمينون عليه، واستمروا على ما هم عليه من المعاصي وعبادة الطاغوت، حتى نزل بساحتهم عذاب الله، عند ذلك نجا الله النبي صالحاً والمؤمنين به، برحمة من الله تعالى، وفي هذا يقول الله في نهاية قصة صالح: ﴿فلما جاء أمرنا نجحنا صليحاً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ [هود: ٦٦].

وأخذ صالح عليه السلام ينصح قومه، ويذكرهم بعذاب الله تعالى، ثم وضح لهم بأن الاستمرار على المعاصي استعجال بالسيئة، وأن السيئة مآلها إلى عذاب الله، وأن الحسنه والرحمة تحصلان للإنسان بسبب الاستغفار، لذلك قال الله تعالى: ﴿قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنه لولا ستغفرون الله لعلكم ترحمون﴾ [النمل: ٤٦].

يستخلص من هذا أن النبي صالحاً عليه السلام، أمر أمته بتوحيد الله، والاستغفار، وأكد لهم بأن الله قريب ومجيب دعوة المضطر إذا دعاه، كما قال الله في البقرة: ﴿فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ [البقرة: ١٨٦]،

ثم ربط النبي صالح عليه السلام، الاستغفار بالحسنة والرحمة، فهذا يوحي إلى أهمية الاستغفار في قلوب هؤلاء الأنبياء عليهم السلام.

خامساً: استغفار النبي إبراهيم عليه السلام:

كان خليل الله إبراهيم عليه السلام، حليماً، ورحيماً؛ وحريصاً على إيمان أبيه بالواحد الأحد الصمد. وقد بين الله ﷻ أنه لا يجوز لأي نبي من الأنبياء أن يستغفر للمشرك. وقبل أن يقول قائل بأن نبي الله إبراهيم قد استغفر لأبيه مع نهي الله عن ذلك، بين الله ﷻ سبب استغفار إبراهيم لأبيه، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة].

لقد أمر جل شأنه التآسي بالأنبياء والرسل عليهم السلام. لكن لما كان الاستغفار غير لائق لغير المسلم، استثناه الله من التآسي بنبيه إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث قال الله مخبراً عن خليله إبراهيم: ﴿ لَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [المتحنة: ٤].

يفهم من هذه الآيات العظيمة، بأن خليل الله إبراهيم عليه السلام كان حريصاً على إيمان أبيه؛ لذلك لم يعد أباه بأي شيء أعظم عنده من الاستغفار. وأيضاً، استخدام لام القسم ونون التوكيد في الآية دليل على التزام وحث إبراهيم على الاستغفار لأبيه. ويفهم أيضاً أن الأنبياء والرسل كانوا واقفين عند حدود الله ﷻ؛ فلذلك لما بين الله لخليله إبراهيم عدم جواز الاستغفار لغير المسلم، ترك الاستغفار لأبيه طاعة لأمر الله ﷻ. وبتعبير آخر: إن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه قبل نهيهِ عنه، أو قبل نسخ الاستغفار للمشرك، وفي هذا يقول الله ﷻ حاكياً عن خليله: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم]. وبعد نهيهِ عن الاستغفار، غير الضمير، حيث ورد في أمل إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء]. والله ﷻ أعلم بالصواب.



يستخلص من موقف خليل الله إبراهيم عليه السلام هاهنا أنه وعد أباه بالاستغفار، وهذا يدل على مكانة الاستغفار عنده، وأن الوعد يجب الوفاء به^(١)، وأن الأنبياء والمرسلين والصالحين كانوا يقفون عند حدود الله، وأنه يجب على كل مسلم أن يقدم أوامر الله على أمر أي واحد، وخاصة إذا خالف أمر المخلوق أمر الله ﷻ، فهذا من باب التأسى بالأنبياء عليهم السلام.

سادساً: استغفار النبي يعقوب عليه السلام:

النبي يعقوب عليه السلام، كان يحب يوسف عليه السلام حباً جماً، حتى لم يكن بوّده عليه السلام أن يتعد عنه يوسف عليه السلام، ولما لاحظ إخوة يوسف ذلك طلبوا من أبيهم أن يخرج معهم يوسف، فلم يرحب يعقوب بالطلب؛ لكن لما ألحوا عليه ووعدوه بوعد وثيق، سمح لهم يعقوب أن يخرج معهم يوسف، ليرتع ويلعب على حد قولهم، فحصل ما أشار إليه يعقوب عليه السلام قبل أن يغادروا. ومع ذلك كله لم يقنط يعقوب من رحمة الله ﷻ، وإنما صبر على فقد يوسف عليه السلام، وبعد تحقق كل ما أخبر به يعقوب، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦] مزيدة للتأكد، اعترفوا بذنوبهم وخطئهم، وعندئذ، سألوأ أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله ﷻ. ووعدهم بالاستغفار في المستقبل. وهذا يدل على أن يعقوب كان يلازم الاستغفار^(٢)، ويفهم من هذا أيضاً أن أبناء يعقوب عرفوا منه أنه يستغفر الله دائماً. وفي هذا يخبرنا الله عن طلب إخوة يوسف الاستغفار من أبيهم قائلاً ﷻ وتقدست أسماءوه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف].

الواقعة أو القصة واضحة للجميع ومعروفة؛ لكن محل الاستشهاد

(١) عندي بحث خاص في موضوع «الوفاء بالوعد»، فناقشت فيه آراء الفقهاء المتقدمين والعلماء المعاصرين. وتمت موافقة مجلة وحدة الأمة في الهند على نشر هذا البحث، وقريباً سينشر بإذن الله ﷻ.

(٢) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتوير، ج ١٢، ص ١١٧.

هاهنا أن إخوة يوسف لم يطلبوا شيئاً آخر من أبيهم بعد اقرار هذه الجريمة إلا الاستغفار. ومن ناحية أخرى، فإن يعقوب عليه السلام وافق على الطلب، هذا يشعركنا بأن الاستغفار كان شيئاً عظيماً في قلوب الأنبياء والمرسلين. وأيضاً، أكد يعقوب عليه السلام لأبنائه بعد ارتكاب هذه الخطيئة، بأن الله ﷻ يغفر الذنوب مع تعمد الإنسان على الذنب، ويرحم العباد؛ لأن يعقوب عليه السلام نبه أبناءه قبل خروجهم بيوسف عليه السلام.

يستخلص من موقف يعقوب مع الاستغفار، أنه عليه السلام كان ملازماً للاستغفار، قبل أن يحصل ما حصل بين أبنائه، وكذلك يفهم من هذا الدرس ثقة أبنائه به -يعقوب- حيث إنهم سألوا أباهم أن يستغفر الله لهم. وأيضاً، على من أخطأ في حق أي شخص أن يتحلل منه، كما أن يعقوب وعدهم بالاستغفار من الله ﷻ. حتى ورد بأن يعقوب عليه السلام أحر الدعاء إلى وقت السحر، أو سحر ليلة الجمعة؛ لأن ذلك الوقت أقرب للإجابة، أو أنه أحر الدعاء ليوافق ليلة عاشوراء^(١).

لقد نص الإمام البغوي رحمته الله على دعاء يعقوب عليه السلام: «فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسحر، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله ﷻ، وقال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف، وقلة صبري عنه، واغفر لأولادي ما أتوا إلى أخيهم يوسف، فأوحى الله ﷻ إليه أني قد غفرت لك ولهم أجمعين^(٢)».

سابعاً: استغفار النبي يوسف عليه السلام:

قد واجه النبي يوسف عليه السلام، ابتلاءات كثيرة في حياته، وذلك بقدر الله

(١) الطبري، جامع البيان، ج١٦، ص٢٦١؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٢٦٢؛ البغوي، معالم التنزيل، ج٤، ص٢٧٧؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٢٤٩؛ عبدالرحمن بن ناصر ابن عبدالله السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص٤٠٥.

(٢) البغوي، معالم التنزيل، ج٤، ص٢٧٧.



وقضائه عليه من إخوته ومن امرأة العزيز، ولقد حصل ما حصل بينه وبينها، لكن الله ﷻ عصمه، ثم برأه من كيدها ومن كانت معها من النسوة، وعلى الرغم من ذلك كله تواضع يوسف، ورجا رحمة الله وغفرانه، وفي هذا يقول ﷻ مخبراً عن يوسف (عليه السلام): ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف]. وأمر الله ﷻ امرأة الملك أن تستغفر الله ﷻ من الذنب الذي ارتكبته، كما أنه ﷻ أمر يوسف ألا يتابع هذه القضية وأن يعرض عنها، وفي هذا الصدد يقول الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف]. وابتلاء يوسف من قبل إخوته واضح في السورة نفسها، ومكّن الله ليوسف في الأرض بعد إهانته من إخوته، وصار ذا مكان عال عند الملك، وأقرب الناس إليه، بل أصبح هو أمين خزائن الملك، وهذا تحقيق لما رآه في المنام. وإخوته الذين أهانوه ورموه في قعر الجب، هم الذين تذللوا عنده، ليجدوا قوت يومهم، ولما أخبرهم يوسف بما جرى بينه وبينهم، استحيوا واعترفوا بذنبيهم وخطيئتهم؛ لكن مع ذلك كله لم يمتن يوسف (عليه السلام)، بل طمّنهم وآمل لهم مغفرة الله ورحمته ﷻ بهم. وفي هذا يقول الله ﷻ مخبراً عن تسليية يوسف لأخوته: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف]. كأن يوسف (عليه السلام) يقول لا لوم عليكم، فالذي حصل بيننا كان من قدر الله وقضائه، وسيغفر الله لكم ما حصل منكم.

يلاحظ في قصة يوسف (عليه السلام) مع امرأة الملك، ومع إخوته كذلك، أن مدار الأمر ونهايته هو طلب الاستغفار من الله ﷻ، فإن الله ﷻ أمر امرأة الملك أن تطلب المغفرة من الله ﷻ من الذنب الذي اقترفته، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية الاستغفار ومكانته عند الله الخالق البارئ الغفار. ومن جهة أخرى، فإن يوسف (عليه السلام) عندما فتنته المرأة لعله وقع في ذنب (١)

(١) ظاهر هذه الآية الكريمة، قد يفهم منه أن يوسف (عليه السلام) هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما هممت هي =

فُحِقَ له أن يستغفر الله من ذلك؛ فلذلك حكى الله عن يوسف عليه السلام قوله: ﴿وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيْ إِنَّ رَبِّيْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٥١) (١) فهذه الآية الكريمة دليل جلي على أن يوسف عليه السلام رجا مغفرة الله ورحمته لنفسه أولاً ولغيره ثانياً. وأيضاً، لم يوبخ يوسف إخوته على فعلهم، وإنما هدأهم وذكّرهم بمغفرة الله لهم ورحمته بهم، وفعلاً حصل ما تمنى لهم يوسف عليه السلام؛ حيث إنهم سألوا أباهم أن يطلب المغفرة لهم من الله تعالى، ووفى أبوهم -يعقوب عليه السلام- بالوعد.

يخلص من موقف يوسف عليه السلام مع الاستغفار ثلاث وفقات. الوقفة الأولى: إنه عليه السلام تمنى مغفرة الله لنفسه، بعد عصمة الله له من كيد النسوة. والوقفة الثانية: أمر الله تعالى امرأة الملك العزيز أن تطلب المغفرة منه تعالى، والوقفة الثالثة: بعد الصنع الذي صنعه إخوة يوسف رجوا مغفرة الله لهم ورحمته تعالى بهم. والله تعالى أعلم وأحكم.

ثامناً: استغفار النبي شعيب عليه السلام:

دعا النبي شعيب عليه السلام، قومه إلى توحيد الله تعالى، كالأنبياء من قبله

= به منه؛ ولكن القرآن العظيم بيّن براءته عليه السلام. ينظر: عبدالرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم مسنداً عن الرسول صلى الله عليه وآله والصحابة والتابعين، ج ٨، ص ٢٢٦؛ الشنقيطي، أضواء البيان، ج ٢، ص ٢٠٥.

(١) ملاحظة: لقد اختلف أهل العلم رحمهم الله تعالى في سياق هذه الآية الكريمة، إلى القسمين: الفريق الأول: رحمهم الله قالوا: إن القائل هو يوسف عليه السلام لئبراً نفسه أمام العزيز. ينظر: الطبري، جامع البيان، لقد أورد الطبري عليه السلام أحاديث كثيرة حول هذا الموضوع، لدعم القول بأن هذا من كلام يوسف عليه السلام، ج ١٦، ص ١٤٢؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ذكر القولين كذلك؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ذكر كذلك القولين، لكن يبدو أنه يرجح أن هذا الكلام هو كلام امرأة العزيز، ج ٤، ص ٢٩٥؛ محمد رشيد رضا، مجلة المنار، ج ٢٤، ص ٢٣.

وقال الفريق الآخر: هذا كلام امرأة العزيز، لتبرأ نفسها عند زوجها أن يوسف عليه السلام استعصم، ولم يقع ما أرادت هي منه. ينظر: البغوي، معالم التنزيل، ج ٤، ص ٢٣١؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ذكر القولين فيه، ج ٩، ص ٢٠٩؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ورجح عنده أنه كلام امرأة العزيز، ج ٤، ص ٢٩٥؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني، الفتاوى الكبرى، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عبدالقادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٤٠٨هـ - ١٩٨٧م)، ج ٥، ص ٢٦٢؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ترجح عنده أنه كلام امرأة العزيز، ج ٢، ص ٧٩؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٠.



ﷺ، ثم حذرهم من خطورة نقصان الكيل والوزن؛ لكن قومه كذبوه وأصرّوا على عبادة الأصنام التي كانوا يعبدونها هم وآباؤهم من قبل نبوته ﷺ، واعتقدوا أن لهم خياراً وحقاً أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون. ثم نبههم شعيب ﷺ بما أصاب أمماً قبلهم، مثل: قوم نوح، وقوم هود، نتيجة تكذيب نبيّهم. وبعد كل هذه التمهيدات سأل شعيب ﷺ أمته أن يتوبوا إليه توبةً نصوحاً ثم يستغفروا الله من ذنوبهم وعصيانهم له؛ لأن الله ﷻ متّصف بالرحمة والمغفرة. وفي هذا يقول الله ﷻ مخبراً عن طلب استغفار شعيب لقومه: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ١٠]، ولما بلغ شعيب رسالة ربه ﷻ، وأدّى الأمانة، فلم يستجب له قومه حتى يؤس منهم. وعند ذلك وقع عذاب الله عليهم؛ لكن الله ﷻ بعدله وإنصافه نجى شعيباً وكل من آمن برسالته. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لِنَجِّنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

يُستخلص من موقف شعيب ﷺ مع قومه، أنه قام بمهمّته تجاه قومه من الأوامر، مثل: الاستغفار والتوبة. والنواهي مثل: تطفيف الكيل والميزان، والبخس فيهما بالغش والنقصان، ثم نبههم لما حصل للأمم قبلهم، لما عصوا رُسُلهم، وذلك ليتدبروا ويعتبروا؛ لأن العاقل من يتعظ بغيره، لكنهم لم يفقهوا هدف شعيب ﷺ، حتى جاءهم عقاب الله فأهلكهم الله ﷻ، ونجا شعيباً ﷺ والمؤمنين معه.

تاسعاً: استغفار النبي موسى ﷺ:

سأل نبي الله موسى ﷺ ربه المغفرة عدة مرات لنفسه ولغيره، فقد سأل المغفرة لنفسه ولأخيه هاورن، لما رجع من مناجاة الله ﷻ، ووجد أن السّامري قد أضل قومه من بعده، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ

أَعْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ [الأعراف].
وأيضاً، عندما اختار موسى سبعين رجلاً لميقات ربه، ثم وقع عليهم عذاب الله عندئذٍ تضرع موسى إلى الله ﷻ، ودعاها ألا يهلكهم بفعل غيرهم، ثم أردف ذلك بطلب المغفرة من الله. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُهُمْ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ نُضِلُّ بِهَا مَن نَّشَاءُ وَتَهْدِي مَن نَّشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٠﴾ [الأعراف].

وأيضاً، لما استغاث موسى ﷺ رجل من شيعته على عدوِّهما، فأراد موسى نصرته، وقدّر الله أن قتل موسى عدوِّهما بغير قصد منه، ثم ندم على هذا الفعل ندماً كبيراً. وعنده، اعترف موسى الكليم ﷺ بظلم نفسه، ثم أعقبه بطلب المغفرة من الله ﷻ، وفيه يخبرنا الله ﷻ عنه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ [القصص]. وهذا، في غاية الاعتراف بالخطأ، ثم سأل موسى مغفرة الله ورحمته؛ لأنه ﷻ قد اتصف بالغفران والرحمة.

وفي موضع آخر، أمر الله ﷻ موسى ﷺ بالصبر والمغفرة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ [غافر]. ويلاحظ هنا، أن هذا الأمر بالاستغفار هو أمر من الله ﷻ لكليمه موسى ﷺ، والأمر يقتضي الوجوب.

وخلاصة القول في استغفار النبي موسى ﷺ، أنه استغفر الله ﷻ لنفسه خاصة عندما قتل نفساً، ولنفسه ولأخيه هارون ﷺ حينما رجع من ميقات ربه، وقد أضل السامري قومه من بعده، كما أنه ﷺ طلب استغفار الله ﷻ لنفسه ولقومه، لما أوشك بهم عذاب الله، وكذلك أمره الله ﷻ بالصبر على أداء قومه، وطلب المغفرة من الله ﷻ.



عاشراً: استغفار النبي داود عليه السلام:

لما خص الله حكم سليمان بالثناء ﴿فَفَهَمْنَهَا سُلَيْمَنٌ وَكَلَّأَ أَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، دون حكم داود استشعر داود، وتيقن أنه قد ظلم نفسه، فاستغفر الله ثم وقع راکعاً لله تعالى، فغفر الله له ذلك الخطأ^(١) وفي هذا الصدد يقول الله تعالى عن النبي داود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص].

يتأسى بنبي الله داود عليه السلام، أن الإنسان إذا أصاب ذنباً، عليه أن يتوضأ ويتقرب إلى ربه بصلاة خاصة، وهي صلاة التائبين والنادمين والمستغفرين، والعازمين على عدم العودة إلى مثل ذلك الفعل في الحياة. يستخلص من استغفار النبي داود عليه السلام، أنه عندما وقع في خطأ، رجع إلى خالقه وتذلل له، فاستغفر الله تعالى، فغفر الله له.

الحادي عشر: استغفار النبي سليمان عليه السلام:

لقد فتن الله النبي سليمان عليه السلام بفتنة فاستغفر ربه. والفتنة^(٢) تأتي بسبب معصية الشخص لخالقه، أو من غير سبب، فتكون الفتنة عندئذ ابتلاء من الله، لمعرفة قدر إيمان ذلك الإنسان، وصبره على القضاء والقدر. فنبى الله سليمان لما عرف أن الله قد ابتلاه طلب المغفرة من الله تعالى، ثم طلب منه تعالى أن يمنحه ملكاً لا يؤتیه أحداً من بعده، فاستجاب الله دعاءه برحمته ومنته على سليمان عليه السلام.

- (١) هناك كلام كثير جداً عند أهل العلم رحمهم الله في تفسير هذه الآية. وقال القرطبي: «ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به هاهنا ملكان»، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٥، ص ١٦٥، وقال ابن كثير، «يقصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله تعالى فإن القرآن حق وما تضمنه فهو حق أيضاً»، وقال أيضاً: «إن الأقوال فيها جلها من الإسرائيليات». تفسير القرآن العظيم، ج ٧، ص ٦٠.
- (٢) لقد اختلف المفسرون في تعيين هذه الفتنة التي حصلت لسليمان، وبعضها للخرافات أقرب. ولمعرفة تفاصيل القصة، ينظر: الطبري، جامع البيان، ج ٢١، ص ١٩٧؛ البغوي، معالم التنزيل، ج ٧، ص ٩٤؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٧، ص ٦٨؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٣، ص ١٥٥.

فَيُتَعَلَّمُ مِنْ هَذَا، أَنْ الِاسْتِغْفَارَ سَبَبٌ عَاجِلٌ لِإِجَابَةِ الدَّعَوَاتِ. وَبِتَعْبِيرٍ آخَرَ: فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اسْتِغْفَرَ رَبَّهُ، وَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ، ثُمَّ دَعَا اللَّهَ بَعْدَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ سَيَجِيبُ دَعْوَتَهُ؛ لِأَنَّ الذُّنُوبَ أَوْ الْمَعَاصِيَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ لِاسْتِجَابَةِ الدَّعَوَاتِ. وَفِي هَذَا يَحْكِي اللَّهُ ﷻ عَنْ نَبِيِّهِ سَلِيمَانَ ﷺ قَوْلَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص].

يَلِاحِظُ فِي الْآيَةِ أَنَّ سَلِيمَانَ ﷺ قَدَّمَ الِاسْتِغْفَارَ، قَبْلَ أَنْ يَذْكَرَ مَا يَتِمَّنَاهُ وَيَرْجُوهُ مِنَ اللَّهِ ﷻ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ، وَآتَاهُ مُلْكًا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﷺ. فَهَذَا دَلِيلٌ جَلِيٌّ أَنَّ تَأْثِيرَ الِاسْتِغْفَارِ يَرْجِعُ إِلَى نِيَّةِ الْمُسْتَغْفِرِ. وَاللَّهُ ﷻ أَعْلَمُ، وَهُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ.

الثَّانِي عَشْرَ: اسْتِغْفَارَاتُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ:

تَتَوَعَّدُ اسْتِغْفَارَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَبَعْضُهَا مِنْ أَوْامِرِ اللَّهِ ﷻ لَهُ، وَبَعْضُهَا اسْتِغْفَارُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمَّتِهِ، وَبَعْضُهَا اسْتِغْفَارٌ لِلْمُسْلِمِينَ بِشَكْلِ عَامٍ، وَيَدْخُلُ فِيهِ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ ضَمْنًا؛ لِأَنَّهُ ﷺ هُوَ قُدُوتُنَا، وَمَخْرَجُنَا مِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ، فَفِي هَذَا الْمَقَامِ سَأَكْتَفِي بِسَرْدِ النَّوْعِ الْأَوَّلِ فَقَطْ.

اسْتِغْفَارُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ لَهُ: حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالِاسْتِغْفَارِ فِي مَوَاقِفَ مُخْتَلِفَةٍ، وَإِلَيْكُمْ بَعْضُهَا مِنْهَا:

1. اسْتِغْفَارُ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمُنَافِقِينَ: لَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ ﷻ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَنَّ طَلِبَ الْمَغْفِرَةِ لِلْمُنَافِقِينَ أَوْ عَدَمَ الطَّلِبِ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ سَوَاءٌ؛ لِأَنَّهُ مَهْمَا وَصَلَ عَدَدَ الطَّلِبَاتِ، فَلَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ الطَّلِبَاتِ، وَحَتَّى لَوْ وَصَلَتْ إِلَى سَبْعِينَ مَرَّةً. وَالتَّعْلِيلُ الْإِلَهِيُّ هُوَ: أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﷻ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَلَا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَفِي هَذَا يَقُولُ اللَّهُ ﷻ:



مبيناً خطورة النفاق، وعدم قبول الاستغفار للمنافقين: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠) [التوبة] (١).

محل الشاهد: أن الله ﷻ استخدم لفظ الاستغفار حتى في حق المنافقين، مع سبق علمه ﷻ أنهم لن يؤمنوا به ولا برسوله ﷺ. وإن كانت صيغة الاستغفار في هذه الآية تدل على التسوية في حقيقة الأمر؛ لكن تستأنس هاهنا. والله ﷻ أعلم بالصواب. ووقفت مع هذه الآية الكريمة:

الوقفة الأولى: لا يجوز استعمال مفهوم المخالفة في هذه الآية، حتى عند الجمهور القائلين بمفهوم المخالفة. بمعنى لا يجوز شرعاً أن يقول قائل: إن النبي محمداً ﷺ لو استغفر أكثر من سبعين مرة لاستجاب الله دعاءه.

والوقفة الثانية: أن الإسلام أو الإيمان بالله ﷻ وبرسوله ﷺ شرط قوي في استجابة الدعوات، وأن الصلاة والاستغفار لغير مسلم لا يوجد عليه أي أثر إيجابي.

والوقفة الثالثة: أن «أو» الواردة في الآية الكريمة لا يفهم منها أنها للتخيير؛ لأنه لا يستقيم هاهنا أن يستعمل النهي مع الأمر والإباحة، مع قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٢).

(١) لقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في عبدالله بن أبي ابن سلول. فأراد النبي المزيد في الاستغفار، فبين الله له وصرح له بأنه حتى لو زاد على سبعين مرة فلن ينفعه شيئاً، إذن تكون آية سورة المنافقين التي تقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَأْذُكُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٥) سواءً عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم، وجاءت هذه الآية تأكيداً وتأييماً لباقي المنافقين. ينظر: عبدالرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التاويل بالمشهور، ج ٥، ص ١٢٧؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ١٦٤.

(٢) ينظر في ذلك: الإمام عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمى الدمشقي الشافعي، =

والوقففة الرابعة: شفقة النبي ﷺ بأتمته ورحمته بهم، رجل لم يؤمن به في حال حياته وبعد مماته يستغفر له. وهذا في أعلى قمة من الرحمة بالأمة الإسلامية.

والوقففة الخامسة: لا يُفهم في الآية أن ذكر «السبعين» للتحديد، وإنما هي من أساليب العرب في كلامها، تذكر السبعين في مبالغة كلامها^(١).

٢. استغفار النبي محمد ﷺ بأمر الله ﷻ لعباد الله جميعاً؛ وعلى ظاهر الآية: أن الله ﷻ أمر نبيه محمداً ﷺ أن يخبر الناس بأنه ﷻ يغفر ذنوب العباد ويرحمهم. وفي هذا يقول الله ﷻ معلماً نبيه ﷺ واصفاً نفسه جل شأنه بالغفران والرحمة: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ربه: «فجعل الرحمة صفة له مذكورة في أسمائه الحسنی، وأما العذاب والعقاب فجعلهما من مفعولاته غير مذكورين في أسمائه^(٢)». ولما تعرض الشيخ عبدالله بن جبرین رحمة الله عليه لهذه الآية في شرح الطحاوية قال: «فالآية الأولى فيها الرحمة، حتى لا يغلب على العاصي اليأس، والآية الثانية فيها الخوف؛ حتى لا يغلب على قاسي القلب ونحوه التساهل بالمعاصي ونحوها^(٣)» وقوله تعالى: ﴿وَأَن رَّبِّكَ

= تفسير العز بن عبدالسلام تفسير القرآن، تحقيق الدكتور عبدالله بن إبراهيم الوهبي، (بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ج١، ص٤٢٧؛ عماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكنيا الهراسي، أحكام القرآن لكنيا الهراسي، ج٣، ص٧٦؛ شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الألويسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج٧، ص٣١٩؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٠، ص١٦٤؛ عبدالمجيد الشيخ عبدالباري، الروايات التفسيرية في فتح الباري، (وقف السلام الخيري، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م)، ص٨٢.

(١) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص١٨٨.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣، ص٤٥٢.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٥٧؛ الشيخ عبدالله بن جبرین، شرح العقيدة الطحاوية، ص٣١٣.



لذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿ [الرعد: ٦]، وأمثال هذه الآية كثيرة في كتاب الله ﷻ، لا يتسع المقام لذكرها.

٣. قل يا محمد اللهم اغفر لنا وارحمنا؛ لأنك أرحم الراحمين. يعني إن كان هناك من يرحم العباد، أو الأم بولدها، فإن رحمة الله ﷻ أعلى وأعظم من ذلك كله؛ ولأن أرحم من أسماء التفضيل. ويقول الله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَأَرْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون]. ولذا لما فسر الشيخ أبو بكر الجزائري هذه الآية قال حفظه الله ورعا: «أي أمر الله ﷻ رسوله أن يدعو بهذا الدعاء: رب اغفر لي وارحمي، واغفر لسائر المؤمنين، وارحمهم أجمعين، فأنت خير الغافرين والراحمين^(١)»

٤. لقد أمر الله نبيه ﷺ أن يطلب مغفرةً من الله ﷻ للمؤمنين الذين يطلبون منه ﷻ الإذن لبعض شؤونهم، مثل: الغزوات، أو الجمععات، أو أي أمر جامع للرسول فيه غرض^(٢)، إن كان الرسول ﷺ يرى ذلك، ويوافق على ذلك الإذن، ثم أعقب الله ﷻ الأمر بالاستغفار. لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَدْرُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَدْرَوْكَ لَبِغَضٍ شَأْنِهِمْ فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور].

المشهد في الآية العظيمة، أن الله ﷻ أمر رسوله بالمغفرة للمؤمنين. وأيضاً، وصف نفسه جل شأنه بغفران ورحمة عامة كما قد اختتم الله هذه الآية بصفتين عظيمتين وهما: ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهاتان صفتان نكرتان، تدلان على العموم والشمول، بمعنى أن الله ﷻ يغفر الذنوب جميعاً لمن أراد.

(١) الشيخ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ج ٣، ص ٤٣.

(٢) لكيا الهراسي، أحكام القرآن لكيا الهراسي، ج ٤، ص ٤٩.

٥. أَعْلَمَ اللَّهُ ﷻ النَّبِيَّ مُحَمَّدٌ ﷺ بِإِفْرَادِ اللَّهِ ﷻ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ مَبَاشِرَةً بِأَمْرِهِ ﷻ بِالِاسْتِغْفَارِ لِنَفْسِهِ أَوَّلًا، ثُمَّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالْمُؤْمِنَاتِ ثَانِيًا، وَالنَّصَّ الْقُرْآنِي يَقُولُ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد].

يلاحظ في هذه الآية الكريمة مكانة الاستغفار عند الله ﷻ؛ حيث إنه ﷻ قرن الاستغفار بالتوحيد، وعلى لسان نبيه ﷺ أيضًا. وكذلك يجد المتأمل في هذه الآية أمرين عظيمين من الله ﷻ: الأمر بالتوحيد، ثم الأمر بالاستغفار، وكما يقول الأصوليون رحمهم الله: إن الأمر يقتضي الوجوب^(١) إذا لم يصرفه صارف. وهذان الأمران وإن كانا موجّهين إلى الرسول ﷺ في الحقيقة والأصالة؛ لكن جميع المؤمنين والمؤمنات يدخلون فيها ضمناً. كأن الله ﷻ يقول: يا عباد الله، ويا أيها الناس وعلى رأسكم محمد، اعلموا أن الله ﷻ واحد لا شريك له، ثم استغفروا لذنوبكم^(٢). وقد عثرت على شيء مما يشهد لهذا الموقف، وهو مروى أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلك الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، وهم يحسبون أنهم مهتدون^(٣)».

ومن اللطائف القرآنية أن الله ﷻ قد أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل؛ فلذا قد بوّب الإمام البخاري رضي الله عنه باباً بعنوان: العلم قبل

(١) ينظر: علي بن محمد الأمدي أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: د. سيد الجميلي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٤هـ)، ج ٢، ص ١٤٢.

(٢) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦، ص ٢٤٢؛ الجزائري، أسير التفاسير، ج ٤، ص ٩١. لقد فصل الإمام القرطبي القول في تأويل هذه الآية. يرجع إليه.

(٣) أخرجه ابن عاصم في السنة (٩، ١٧)، وأبو يعلى (١٢٣/١ رقم ١٣٦)، = قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٢/١١٦ رقم ٥٥٦٠): موضوع، وأنظر: جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التأويل بالمتثور، ج ٩، ص ١٩٥.



القول والعمل، ثم سرد هذه الآية المذكورة آنفاً، وغيرها من الآيات القرآنية^(١).

٦. لقد نادى ﷺ نبيه محمداً ﷺ في حالة مجيء المؤمنين إليه للبيعة أن يقبل بيعتهن؛ لكن بعد أن يتأكد ﷺ منهن ستة أشياء: عدم الشرك بالله ﷻ، وعدم السرقة، وعدم الزنا، وعدم قتل الأولاد، وعدم البهتان، وعدم معصية الرسول في الدين، ثم أعقب الله ﷻ هذه الكبائر بالاستغفار، كما في الآية القرآنية: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَرْفِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [المتحنة]. قد يفهم من هذه الآية أن الإنسان لو وقع في كبيرة، ثم استغفر الله ﷻ قد يغفر وقد لا يغفر له إن لم يتب، وأما إذا تاب وصدق في توبته؛ غُفر له جميع الذنوب، حتى الكفر فضلاً عن الكبائر؛ لأن الله تعالى ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. أو يفهم من الآية: أن المؤمنات إذا وقين بهذه العقود، فإن الله سيغفر لهن ما سلف في الجاهلية. والله ﷻ أعلم وأحكم.

٧. ولقد أمر الله ﷻ نبيه ورسوله محمداً ﷺ بالتسبيح، ثم أردفه مباشرة بطلب الاستغفار، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٢﴾﴾ [النصر]. وفي هذا ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان النبي ﷺ فيما يكثر أن يقول قبل أن يموت: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك^(٢)».

(١) البخاري، صحيح البخاري، ص ١١٩؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ٨٨.

(٢) الكيا الهراسي، أحكام القرآن، ج ٥، ص ٣٥.

هنا قرن الله ﷻ التسبيح بالاستغفار، فهذا يوتي مكاناً خاصاً للاستغفار في قلوب المؤمنين، وأيضاً لحديث عائشة أن المصطفى ﷺ كان يكثر بهما في آخر عمره. فناسب المقام الاستغفار؛ لأنَّ النبي ﷺ عاش بعد نزول هذه السّورة-النّصر- ثمانين يوماً^(١).

لطيفة: إن رسول الله ﷺ استأذن الله ﷻ في الاستغفار لأمه، فلم يأذن له بذلك، فدمعت عيناه رحمة لها من النار^(٢).

يستخلص من استغفار النبي محمد ﷺ أن الله ﷻ قد استخدم صيغة الأمر في الاستغفار للمناققين على لسان الرسول ﷺ، وإن كان قد سبق في علمه ﷻ ألا يغفر لمن مات على غير الإسلام، وكذلك أمر الله النبي ﷺ الاستغفار لنفسه ﷺ، ثم للمؤمنين والمؤمنات، كما أنه أمر النبي محمدًا ﷺ أن يطلب مغفرةً للذين يتخلفون عن الغزوات بعد إذنه ﷺ لهم، وكذلك قد قرّن الاستغفار بتوحيده ﷻ، كما أنه قرّن الاستغفار بالتسبيح، فهذه الأوامر بالاستغفار وغيرها من آي القرآن العظيم، توتي مكاناً عالياً ورفيعاً للاستغفار والمستغفرين بالأسحار.



(١) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢٠، ص٢٣٣.

(٢) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٢١. أمثال هذا الحديث كثيرة وكثيرة، لكن المقام لا يتسع للتفصيل فيه.

المطلب الثالث

الاستغفار الوارد في القرآن الكريم من غير الأنبياء

لقد نطق القرآن الكريم بصيغ كثيرة من الاستغفار، بعضها على ألسن الأنبياء، وبعضها من أدعية الملائكة للمؤمنين، وصيغ أخرى من المسلمين أنفسهم، وقد استعرضت شيئاً من استغفار الأنبياء والمرسلين فيما سلف، وهنا سأكتفي بسرد بعض الآيات القرآنية بخصوص هذا المطلب الثالث إن شاء الله ﷻ^(١):

لقد أمر الله ﷻ حجيج بيته الحرام، أن يستغفروا الله ﷻ في عرفات؛ لأنه ﷻ غفور رحيم، كما سبقت الإشارة على أن النكرة تفيد العموم والشمول، معنى ذلك أن الله ﷻ يغفر ذنوب حجيج بيته المحرم جميعاً؛ ولأن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، ولا يتصور الجنة لمن عليه الذنوب، وإن دخل النار، فلن يخلد فيها بإذن الله ﷻ. والآية القرآنية خير دليل على استغفار الحجاج، قوله تعالى: ﴿ تُمْ أْفِيضُوا مِّنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة].

ولقد أشار المولى ﷻ إلى أمنيات المؤمنين به ﷻ، والمهاجرين في سبيل الله والمجاهدين في سبيل إعلاء كلمته، أنهم يتوقعون رحمة ربهم بعد هذه

(١) سأوجز الكلام في هذا المطلب مراعاة لضوابط المؤتمر الموقر في تحديد عدد الصفحات المسموحة في الكتابة.

الأعمال الخالصة لوجه الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ غفور للذنوب ورحيم بالعباد. ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فحُق لهذه الأصناف الثلاثة أن يرجوا رحمة الله ومغفرته؛ لأن البشر معرضون للخطأ دومًا، وقد يخلص المؤمن نيته لله ﷻ من بدء العمل؛ لكن قد يوسوس عليه الشيطان، فيقع في بعض المخالفات الشرعية، وكذلك المهاجر والمجاهد. والله ﷻ أعلم وأحكم.

ولقد دعا المؤمنون خالقهم ﷻ بدعوات طيبات، ومنها: عدم المؤاخظة بالنسيان والخطأ، وتكليف بما لا يطاق، والنصرة على الأعداء الغاصبين الظالمين. وعلى إثر هذه الأدعية سألوا الله ﷻ العفو والمغفرة والرحمة، فهذا يوحي إلى أن الإنسان مهما بلغت درجته في العبادة لا يأمن على نفسه؛ لأن الحي لا يأمن على نفسه. ويقول الله ﷻ مخبرًا عن دعاء الصالحين والراغبين لرحمة الله ومغفرته: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وقد أعلن المؤمنون إيمانهم بالله ﷻ، وعلى الرغم من ذلك كله طلبوا مغفرةً من الله لذنوبهم والوقاية من النيران، وقال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٦]، ثم نبأنا الله شيئاً من دأبهم وسماتهم أنهم: ﴿ الصَّكِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧]، فهذه الآية تعلمنا بأن الاستغفار وإن كان مناسباً في أي وقت؛ لكن من أنسب الأوقات أن يكون في وقت السحر؛ لأنه وقت من أوقات الإجابة، ويبعث هؤلاء مع ذكر الله ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٨]، والعلم عند الله ﷻ.



وقد اشترط الله ﷻ في حبه اتباع نبيه ورسوله محمد ﷺ، كما في ظاهر الآية، بمعنى أن من كان يحب الله حقاً فعليه حب الرسول ﷺ، ولهذا من ادعى أنه يحب الله سبحانه ولا يحب الرسول ﷺ أو لا يحب بعض الأحاديث الثابتة عنه ﷺ فليس يحب الله فإنما هذا حب الكاذبين. ويقول الله ﷻ مخبراً عن هذا الحب المقيد والمشروط: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران]. فكان جزاء هذا الحب أن الله ﷻ سيغفر لمن تحقق فيه هذا الشرط؛ لأن الله غفور ورحيم. وحقيقة، هذا موقف رهيب لمن يتأمل معان القرآن العظيم ويتدبرها.

ويُربينا الله ﷻ على حسن الظن به ﷻ: لأنه خلقنا، وهو أعلم بنا من أنفسنا، يعلم أننا سنقع في السيئات والظلم؛ فلذلك بشرنا بهذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء]. فهذا علاج رباني لأي واحد من البشر اقترب سوءاً أو ظلم نفسه، فعليه أن يفرغ إلى طلب المغفرة من الله ﷻ، وسيغفر الله له؛ لأن الله ﷻ يغفر الذنوب، ويرحم العباد بعد ظلمهم.

ولقد بين الله فضيلة صحبة النبي ﷺ وأهمية الاستغفار في مواطن كثيرة، وخاصة في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لَكُمْ لِيُغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال]. وقد عبر الله عن اسم الفاعل في الآية ﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾؛ لأن الفاعل أقوى من المفعول⁽¹⁾. فإذا كان سبب نجات المذنب من العذاب وعقاب الله هو صحبة النبي ﷻ، فنعمت الصحبة هذه، وكذلك عظمت مكانة الاستغفار عند الله ﷻ؛ حيث إنه ﷻ قد علّق وربط عدم التعذيب بهذين الشئيين العظيمين. وهناك أحاديث وآثار كثيرة بخصوص هذا الباب، لكن المقام لا يسعها. ومنها ما يلي: قال علي بن أبي

(1) عبدالرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد، كتاب أسرار العربية، تحقيق: د. فخر صالح قدارة، (بيروت: دار الجيل، ط 1، 1995م)، ص 88؛ أبو الحسن محمد بن عبدالله الوراق، علل النحو، تحقيق: محمود جاسم محمد الدرويش، (الرياض: مكتبة الرشد، ط 1، 1999م)، ص 269.

طالب عليه السلام: «ما ألهم الله عبداً الاستغفار وهو يريد أن يعذبه». وقال أيضاً: «العجب ممن يهلك ومعه النجاة، قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار»^(١). وقال قتادة رضي الله عنه: «القرآن يدلکم على دائکم ودوائکم، أما داؤکم فالذنوب، وأما دواؤکم فالاستغفار»^(٢).

وقد قدم الله مغفرته ورحمته، قبل ذكر السبب في قوله تعالى: ﴿وَرُبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨]. فهذا دليل جلي أن رحمة الله ومغفرته وسعت السماوات والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وهناك فريقان متعاكسان في يوم التغابن، فريق في السعير، وآخر في الجنان، وفريق النار أخذوا يعتذرون إلى الله تعالى بظلمهم في الدنيا، ويطلبون العودة إلى الدنيا للعمل الصالح، وبالمقابل فإن فريق الجنة آمنوا بالله في الدنيا وعملوا الصالحات، ثم طلبوا رحمة الله ومغفرته في الدارين، فهل يستويان، فالجواب: لا بد أن يكون بلا، يعني لا يستوي الفريقان. وفي هذا يقول الله تعالى عنهما: ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَبْنَا عَٰلِينَآ سَفُوتِنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْرَبْنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون].

ولقد برأ الله تعالى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن الفرية والتهمة التي ألقاها الشيطان في قلوب بعض المسلمين^(٣)، ولما تحقق وتأكد أبو بكر من

(١) إسماعيل البروسوي، تفسير روح البيان، (بيروت لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م)، ١٠/٢٠٥-٢٠٦.

(٢) صالح أحمد الشامي، المهذب من إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، (دمشق: دار القلم، د. ط، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص ٢٦٥.

(٣) لقد ذكر ابن سيرين رضي الله عنه أن يتيمين كانا في بيت أبي بكر رضي الله عنه، أحدهما مسطح بن أثاثة وكان من الذين خاضوا في الإفك، ينظر: الكليا الهراسي، أحكام القرآن، ج، ص ١٠٨؛ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، د. ت)، ج ٥، ص ٤٨٥.



تبرئة ابنته ﷺ حلف ألا يحسن إلى مسطح بن أثاثة ابن خالته بعدما خاض مع الخائضين في عرض ابنته، فأنزل الله آية مبيناً ومخيراً بين أمرين، الخيار الأول: إما أن يواصل إحسانه إلى مسطح وينفق عليه، كما كان يفعله من قبل، والخيار الثاني: إما أن يتوقف عن الإحسان إليه، ولا يغفر الله له. وطبعاً فضل عفو الله ومغفرته على انقطاعه من كان تحت رعايته؛ لذا قال الله ﷻ ناهياً ومرغباً في طلب المغفرة والعفو من المقاطعة: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور]. وعند ذلك قال أبو بكر ﷺ: والله إني لأحب أن يغفر الله لي^(١)، فتقهقر عن يمينه وحنت، وردّ نفقة مسطح عليه. ويلاحظ هنا أن الله ﷻ لما خير أبا بكر الصديق ﷺ بين الأمرين، اختار مغفرة الله ورحمته؛ لأنه يعرف معنى الاستغفار حق المعرفة، ويعرف أن الله ﷻ لا يخلف الميعاد.

وهناك بشرى ربانية لنبيه ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ ولأمته من بعده؛ حيث إنه ﷺ قد بين أن سعة مغفرته ورحمته للمستغفرين، والآيات القرآنية في هذا الشأن كثيرة جداً، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر]. وهذا غفران شامل وعام. وفي آيات أخر بين الله ﷻ أن رحمته واسعة، كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وفي آي أخر مع أن سعة رحمته ومغفرته، ولكنه شديد العقاب^(٢). كقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

(١) ينظر: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج ٨، ص ٢٠٨؛ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، الكشف والبيان، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م)، ج ٧، ص ٨١؛ شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج ١٢، ص ٢٨٢؛ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ج ١، ص ٢٦٨.

(٢) ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان، ج ٢، ص ٢١٦. وهو من المعاصرين الذين فصلوا في هذا الشيء حسب علم الباحث.

لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿ [الرعد:6]، ولا أطيل النفس في هذه الجزئية، حتى لا أخرج عن مقصود الورقة.

فإن حملة العرش الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويلتزمون بما يؤمرون، فإنهم يدعون للمؤمنين المخلصين لله ﷻ بالمغفرة والرحمة والنجاة من النيران. وعلة هذا الطلب، لأن رحمة الله ﷻ واسعة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ [غافر]. فهذا، شرف على شرف، شرف دعوة الملائكة للمؤمنين بالاستغفار والرحمة، وشرف مكانة الاستغفار عند الملائكة المقربين.

وفي موضع آخر، أرشد الله ﷻ المؤمنين على الداء والدواء، ذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد، فإن بعض الأزواج، والأولاد عدوٌ لأولياء أمورهم؛ لكن ما أنزل الله داءً إلا وأنزل معه دواءً، فإن دواء هذه الأمراض الأسرية هو العفو والصفح والغفران عمّا سلف وكان، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ [التغابن]، فقابل الله هذا العمل الطيب بمغفرته ورحمته لذلك الشخص، الذي قال عندما سمع هذه الآية: سمعاً وطاعةً. ولا تساوي مغفرة الله ورحمته بعفو الإنسان وغفرانه عن غيره من البشر. فهنيئاً لمن غفر الله له، ورحمه برحمته الواسعة.

وخلاصة الأمر أن المؤمنين من أمة محمد ﷺ استغفروا الله في مواقف مختلفة، على صعيد عرفات بعد أداء أعظم العبادات التي هي عبادة الحج، وكذلك بعد الهجرة والغزوات، واستغفرت الملائكة للمؤمنين كذلك، وقد بشر الله المؤمنين التائبين أنه ﷻ يغفر لهم الذنوب جميعاً،



كما أن الله ﷻ أرشدنا إلى داء ودواء، والداء هو عدواة بعض الأولاد والأزواج، والدواء هو العفو والصفح عنهم، وقابل الله هذا العمل بغفرانه هو ﷻ لذلك الشخص.



الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، أحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً أن مَنْ عَلَيَّ بتناول بعض جزئيات هذا الموضوع، وإن كنت لم أوفه حقه الحقيقي لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله. فعليه، حاولت قدر الإمكان والاستطاعة أن أتناول بعض هذا الموضوع الممتع. وأقول بكل صراحة وحقيقة: إنني سعيد بهذا الموضوع، وكيف لا؟ لأن المعيشة مع كتاب الله ﷺ من أجل العبادات وأعظم القربات. وها أنا الآن أضع رحالي في آخر محطة من محطات هذه الورقة، ولأودعها بذكر أهم النتائج، وهي على النحو الآتي:

أهم نتائج البحث:

١. لقد تبين لي في هذه الورقة أن الاستغفار قد يطلق ويراد به الستر والتغطية والتجاوز عن السيئات.
٢. الرحمة والشفقة والرأفة واللطف كلمات مترادفات في لسان العرب.
٣. الاستغفار أمر رباني، لقد أمر به ﷺ الأنبياء والمرسلين من لدن أول الأنبياء إلى آخر الأنبياء والمرسلين، وكذلك أمر الشارع الحكيم سائر المسلمين والمسلمات بالاستغفار لقضاء الحوائج، فهذا دليل واضح على أهمية الاستغفار في شرائع الله ﷺ.



٤ . لقد عرفت من خلال هذا البحث أن ملازمة الاستغفار تعالج جميع المعاناة منها على سبيل المثال: مشكلة عقم النساء، وقلة الأرزاق، والغيث...، كما أمر به النبي نوح قومه، والنبي شعيب أمته، وغيرهما من الأنبياء.

٥ . الاستغفار سبب في تأخير عمر الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح].

٦ . الاستغفار مع جلالة قدره عند الله ﷻ وفي قلوب المؤمنين؛ لكنه غير مقبول لغير المسلمين والمشركين، كما أن الاستغفار لا ينفع مع من توفي على غير الدين الإسلامي.

٧ . الاستغفار يؤثر حسب نية المستغفر، أي كل ما يهتم الإنسان ويتمناه في دنياه وآخرته، سيعالجه الاستغفار بإذن الله الأحد الصمد.

ولا يفوتي في هذه اللحظة إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للمملكة العربية السعودية على وجه العموم، وعلى وجه الخصوص لجامعة الملك سعود على تنظيم هذا اللقاء العلمي القيم، وجزاكم الله خير ما يجزي به عباده المحسنين المخلصين. والله ﷻ أرجو أن يتقبل مني صالح أعمالي، ويتجاوز عن أخطائي وزلاتي.

هذا، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وعلى آله بيته وعلى كل من سار على نهجه إلى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وإن كنت قد وفقت في هذا العمل فمن الله ﷻ. وإن حصل عكس ذلك، فمني ومن نزع الشيطان، وأستغفر الله تعالى وأتوب إليه.



فهرس المصادر والمراجع:

١. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، الجوزية، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد الفقي، (بيروت: دار المعرفة، ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).
٢. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحراني، الفتاوى الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م).
٣. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، التحرير والتتوير، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ط٢، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م).
٤. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، د. ط، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م).
٥. ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، سنن ابن ماجه، محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر، د. ط، د. ت).
٦. ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط١، د. ت).
٧. أبو الحسن، محمد بن عبدالله الوراق، علل النحو، تحقيق: محمود جاسم محمد الدرويش، (الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م).
٨. أبو سعيد، عبدالرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيدالله، كتاب أسرار العربية، تحقيق: د. فخر صالح قدارة، (بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩٥م).

٩. إسماعيل البروسوي، تفسير روح البيان، (بيروت لبنان: دار إحياء التراث العربي، د. ط، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م).
١٠. الأمدي، علي بن محمد أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: د. سيد الجميلي (بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٤هـ).
١١. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، (دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م).
١٢. الجرجاني، السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحنفي، التعريفات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م).
١٣. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، د. ط، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م).
١٤. الزبيدي، محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (دار الهداية، د. ط، د. ت).
١٥. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م).
١٦. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، د. ت).
١٧. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي أبو جعفر، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م).

١٨. الشامي، صالح أحمد، المهذب من إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، (دمشق: دار القلم، د. ط، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م).
١٩. عبدالباري، عبدالمجيد الشيخ، الروايات التفسيرية في فتح الباري، (وقف السلام الخيري، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م).
٢٠. عبدالمنعم محمود، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، (دار الفضيلة د. ط، د. ت).
٢١. عز الدين، عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمي الدمشقي الشافعي، تفسير العز بن عبدالسلام تفسير القرآن، تحقيق: الدكتور عبداللّه ابن إبراهيم الوهبي، (بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م).
٢٢. القرطبي، أبو عبداللّه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م).
٢٣. النيسابوري، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، الكشف والبيان، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م).



الرحمة
وعلاقتها بزيادة الإيمان ونقصانه
من خلال
السنة النبوية الصحيحة

إعداد:

محمد أنور عز الدين علي الشيباني



مقدمة

الحمد لله على جميل فضله، والشكر له على كريم عدله، والفضل له وحده لتوفيق المؤمنين لمعرفته والإيمان به، رحمة منه سابغة عليهم، وكملاً لغناه عنهم، يرحمهم وهو مستغن عنهم، فله وحده المن والفضل، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، أكمل الخلق رحمة، أدبه ربه فأحسن تأديبه، فكان بأبي هو وأمي ونفسي رحمة للعالمين، وبعد:

اقتضت حكمة الله ﷻ أن يمتحن عباده برسالاته، وهذا من كمال رحمته بهم، فلا يعرض أحد لثواب ولا عقاب، إلا بعد أن يمتحنه، فإما أن يستجيب فينجو، وإما أن يعرض فيهلك؛ ولهذا كانت رسالة الإسلام وبعثة النبي العدنان ﷺ رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فالإسلام دين عقيدة ورسالة وسلوك، وأركان الإسلام مبنية على هذه العناصر الثلاثة، ورسالة الله لعباده لرحمتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فصاروا بفضلهم ورحمته موحدين، بعد أن كانوا مشركين، وصاروا بفضلهم ورحمته طائعين بعد أن كانوا عاصين، وصاروا بفضلهم ورحمته مصلحين بعد أن كانوا مفسدين.

وعند التأمل فإن الرحمة معنى لطيف في الإنسان، جانب منه يفطر

عليه طبيعة، وجانب آخر يكتسب بتهديب الديانة، ومن لطائف مسائل الباب، أن هناك علاقة بين اتساع القلب لهذا المعنى الجليل، وبين استجابته لأوامر التنزيل، وليس هذا من جانب الصدف، ولا تكلف في العلم من غير هدف، بل هو التأمل للنصوص، والغوص في معانيها، وتلمس مقاصدها، ولا شك أن هذا يتمثل حقيقة في شخص بشري، وهو جناب الرسول النبي ﷺ، وسنته ﷺ غاية في تمثيل الرحمة بالخلق، وهو أكمل وصف للمؤمنين، تجسد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، وكمل إيمانه بقوله ﷺ: «أَمَا وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَتَقَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ»^(١)، وقوله: «قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَنْتَقَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَصْدَقُكُمْ، وَأَبْرُكُكُمْ»^(٢)، فكان شرعاً للحكيم الخبير، لأن يرحم من يرحم، فرأيت أن هناك علاقة بين رحمة المرء وإيمانه، بل إن الأمر يتوقف عليه الإيمان زيادة ونقصاً، واقتصرت على دراسة المسألة من السنة النبوية الشريفة، سائلاً المولى جل في علاه التوفيق والسداد، وهو وحده ولي ذلك والقادر عليه.

وسنة النبي ﷺ القولية منها والفعلية تفيض بالشواهد على هذا، بل إن أصل الرسالة المحمدية هو رحمة من الله لعباده، فكانت أصلاً لكل خير جاء به عبد، يرحم نفسه فينجو، ويرحم غيره فينجو ويُنجي، ولعل من أبرز من وقفت عليه جمع مادة الموضوع شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي الحنفي (ت ٩٥٣هـ)، في كتابه: الأربعين في فضل الرحمة والراحمين.

ولعله من المناسب تفصيل المسألة؛ لأنها متشعبة بين مسائل الاعتقاد

- (١) أخرجه مسلم في الصحيح، في كتاب الصيام، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته، برقم (١١٠٨) (٧٧٩/٢)، من حديث أم سلمة ﷺ.
- (٢) أخرجه البخاري في الصحيح، في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب نهي النبي ﷺ على التحريم إلا ما تعرف بإباحته، وكذلك أمره، برقم (٧٣٦٧) (١١٢/٩)، ومسلم في الصحيح، في كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران، برقم (١٢١٦) (٨٨٢/٢)، من حديث جابر ﷺ.

والسنة النبوية، وهي مسألة دقيقة، يتحرى الباحث من خلال الخوض فيها الوقوف على دقيقة، طالما دارت في نفسه، فتتاغم ما كان في نفسي مع بعض محاور المؤتمر الأول عن الرحمة، الذي تنظمه مشكورة مأجورة جامعة الملك سعود رحمه الله، وهو المحور الأول: تأصيل خلق الرحمة في الإسلام، في بندها الثاني وهو: (الرحمة في السنة النبوية)، أهدف من خلالها إلى تسليط الضوء على عظيم مكانة الرحمة، وعلاقتها بزيادة الإيمان ونقصانه، انتهجت فيها المنهج التحليلي، وهذا شرف عظيم لمثلي على قلة بضاعته، أن يسهم بإثراء فكرة المؤتمر وموضوعه، عسى الله تعالى أن يعفو عني ويرحمني، فذلك رجائي ومأمولي، فبدا لي جمع هذا الجمان، ونظم هذا الزبرجد في عقد فريد، وخطة ثنائية، على النحو الآتي:

المبحث الأول: منزلة الرحمة وأثرها على العقيدة من خلال السنة النبوية الصحيحة:

المطلب الأول: رسالة الدين للبشرية رسالة رحمة.

المطلب الثاني: إضاءات نبوية على عقيدة المؤمن وتأثرها بالرحمة.

المبحث الثاني: آثار الرحمة في زيادة الإيمان ونقصانه وتطبيقاتها من الآثار الصحيحة:

المطلب الأول: الإشارات النبوية لزيادة الإيمان ونقصانه، وعلاقته بالرحمة.

المطلب الثاني: دراسة تحليلية تطبيقية لحديث النبي ﷺ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَلْيَنُ قُلُوبًا، وَأَرْقُ أَفْئِدَةً».

الخاتمة: وتشمل أهم النتائج والتوصيات.



المبحث الأول منزلة الرحمة وأثرها على العقيدة من خلال السنة النبوية الصحيحة

كتب الله ﷻ على نفسه الرحمة، قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ قُلْ لِلَّهِ كُنُوزٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: ١٢]، فرحمته شملت الموجودات كلها، وبها قامت السموات والأرض ومن فيهن، فقد وسعت كل شيء، والرب وسع كل شيء رحمة وعلماً، فوصلت رحمته إلى حيث وصل علمه، فليس موجود سوى الله ﷻ إلا وقد وسعته رحمته وشملته، وناله منها حظ ونصيب، ولكن المؤمنون اكتسبوا أسباباً استوجبوا بها تكميل الرحمة ودوامها، والكفار اكتسبوا أسباباً استوجبوا بها صرف الرحمة إلى غيرهم^(١).

المطلب الأول رسالة الدين للبشرية رسالة رحمة

لا شك أن أعظم رحمة رحم الله ﷻ عباده هي رسالة آخر الأنبياء، وأعظم البشر، سيدنا ونبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فأصل الرسالة رحمة العالمين، وكل فروعها

(١) ينظر: مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة، ص (٢٦٠).

وتشريعاتها منبثقة عن هذا الأصل العظيم، فليس من الغرابة أن تكون هذه الرحمة سبباً لدخول جنة الله تعالى، وكسب رضاه.

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين قال: «إني لم أُبعث لعناً، وإنما بُعثت رحمةً»^(١). وفي غير الصحيح، قال رضي الله عنه: «يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة»^(٢).

وهذا غاية في الظهور؛ إذ المقام مقام انتقام وتشفي، فهؤلاء المشركون آذوه في نفسه وأصحابه، ولكنه رضي الله عنه رحمة مهداة للعالمين، فلا يصدر عنه إلا ما يوافق ذلك، فرسالته رضي الله عنه أعظم رحمة؛ إذ لا يتصور خير إلا بها، والخير كل الخير في اتباعها، فאלلهم لك الحمد على نعمة الإسلام، واللّه نسأل أن يثبتنا على دينه حتى نلقاه.

ومن لطيف ما وقفت عليه شاهداً على ذلك من حديث جابر رضي الله عنه، قال: لَمَّا رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ رضي الله عنه مَهَا جِرَةَ الْبَحْرِ، قَالَ: «أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟»، قَالَ فَنِيَّةٌ مِنْهُمْ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِيْنِهِمْ، تَحْمَلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتَى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتْفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قَلْبَتَهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ التَّفَتَّتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غَدْرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرِكَ عِنْدَهُ غَدًا، قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ رضي الله عنه: «صَدَقْتُ، صَدَقْتُ، كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعْفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟»^(٣). (يقدس الله) أي: يطهرهم من الدنس

(١) كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، برقم (٢٥٩٩) (٤/٢٠٠٦).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٠٥٤٨) (١٣/٤٠٨)، والحاكم في المستدرک، برقم (١٠٠) (١/٩١)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرطهما، فقد احتجا جميعاً بمالك بن سعير، والتفرد من الثقات مقبول»، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني. السلسلة الصحيحة (١/٨٨٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، =

والآثام^(١). وبالله ما أعجب هذا؛ فقد جاءت السنة مصدقة لهذه العجوز الحبشية، وهي لم تر النبي ﷺ ولم يرها، إلا أن شاهدنا في أن رسالة النبي ﷺ جاءت بالناموس الإلهي، الذي يرحم الضعيف، ويأخذ له من القوي حتى يرضى، وأن ذلك حقيق بأن يرضي الجبار في علاه، وإذا تسلط القوي على الضعيف، وانعدمت الرحمة في القلوب، ولم ينتصف لأصحاب الحقوق حل بالأمة السخط، فكيف يقدهسها الله ﷻ. وقد ضيعت حقوق ضعيفها، وانعدمت الرحمة بينها.

المطلب الثاني

إضاءات نبوية على عقيدة المؤمن وتأثرها بالرحمة

عندما تأملت في سنة النبي ﷺ وجدتها مليئة بشواهد رحمته بأتمته، وعظمة شفقته بالعالمين، تحقق فيه وصف ربه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ولكن منهجية البحث تقتضي التركيز على جزئياته، وإبراز مسألته، وهي علاقة الرحمة بالعقيدة.

شعب الإيمان وعلاقتها بالرحمة:

الحديث عن الإيمان مرتبط أصالة بالوحيين، ودرجته في القلب الذي هو محله لا يعلمها إلا الله ﷻ، وقد جاءت السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بما يدل على سمو أصحاب القلوب الرحيمة،

= برقم (٤٠١٠) (١٣٢٩/٢)، وابن حبان في الصحيح، كتاب القضاء، باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من معونة الضعفاء وأخذ مالهم من الأقوياء، برقم (٥٠٥٨) (٤٤٣/١١). قال الألباني: "صحيح لغيره". التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٣٤٢/٧).

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٤٨٦/٢).



وعلو منزلتهم، وهي رفعة حسية ومعنوية في حين، ولكي يظهر لنا هذا المعنى ابتداءً ننظر في كلام المعصوم، حيث قسّم الإيمان إلى شعب، وذكر لنا طائفة منها في حديث أبي هريرة المتفق عليه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(١). (شعبة) خصلة، والشعبة واحدة الشعب، وهي أغصان الشجرة، وهو تشبيه للإيمان وخصاله بشجرة ذات أغصان، لا تتكامل ثمرتها إلا بتوفر كامل أغصانها. و(الحياء) صفة في النفس تحمل على فعل ما يحمد، وترك ما يذم عليه ويعاب^(٢).

يقول ابن رجب: "فأشار إلى أن خصال الإيمان منها قول باللسان، ومنها ما هو عمل بالجوارح، ومنها ما هو قائم بالقلب، ولم يزد في شيء من هذه الروايات على هذه الخصال". وقال -أيضاً-: "أهل الحديث والسنة عندهم أن كل طاعة فهي داخلة في الإيمان، سواء كانت من أعمال الجوارح أو القلوب أو من الأقوال، وسواء في ذلك الفرائض والنوافل، هذا قول الجمهور الأعظم منهم"^(٣).

وقال ابن حجر: "قوله شعبة بالضم أي قطعة، والمراد الخصلة أو الجزء، قوله: والحياء. هو بالمد، وهو في اللغة: تغير وانكسار، يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وقد يطلق على مجرد ترك الشيء بسبب، والترك إنما هو من لوازمه، وفي الشرع خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق؛ ولهذا جاء في الحديث الآخر: «الحياء خير كله»^(٤)، فإن

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، برقم (٩) (١١/١). ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٥٨) (٦٣/١).

(٢) ينظر: تعليق مصطفى البغا على البخاري، (١١/١).

(٣) فتح الباري (١/ ٢٣، ٢٤).

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٦٠) (١/ ٦٤).



قيل: الحياء من الغرائز، فكيف جعل شعبة من الإيمان؟ أجيب بأنه قد يكون غريزة، وقد يكون تخلقاً، ولكن استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلم ونية، فهو من الإيمان لهذا، ولكونه باعثاً على فعل الطاعة وحاجزاً عن فعل المعصية، ولا يقال رب حياء يمنع عن قول الحق أو فعل الخير؛ لأن ذلك ليس شرعياً، فإن قيل: لم أفرد بالذكر هنا؟ أجيب بأنه كالداعي إلى باقي الشعب، إذ المحيي يخاف فضيحة الدنيا والآخرة، فيأتمر وينزجر، والله الموفق^(١). ويا له من كلام موفق، تأملته مراراً، واعتيت به تكراراً، فبلغت منه إلى مأربي، فلا مزيد عليه. وقد ذكر ﷺ أن ابن حبان اجتهد في عدّ هذه الشعب وقسمها إلى ثلاثة أقسام، وعد من أعمال القلب أربعاً وعشرين خصلة، وجعل الرحمة منها، ومن أعمال اللسان سبع خصال، ومن أعمال البدن ثمان وثلاثين خصلة. وعلى هذا فإن أعمال القلب وحده تتصدر بقية الشعب عظمة وعداً، التي منها الرحمة.

ومما يزيد هذا الأمر وضوحاً ما قاله الشيخ ابن سعدي: ”وهذا صريح أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه، فجمع في هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته، وهو قول لا إله إلا الله اعتقاداً، وتألهاً، وإخلاصاً لله، وبين أدناه، وهو إماطة العظم والشوكة وكل ما يؤذي عن الطريق، فكيف بما فوق ذلك من الإحسان. وذكر الحياء -والله أعلم- لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح، كما به يتحقق كل خلق حسن، وهذه الشعب -المذكورة في هذا الحديث- هي جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. وهذا -أيضاً- صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه. ومن المعلوم أن الناس

= وعنده -أيضاً- بلفظ: “الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ”. وعندهما -الشيخان- بلفظ: «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ». البخاري، كتابي الأدب، باب الحياء، برقم (٦١١٧)(٢٩/٨). عن عمران بن حصين رضي الله عنه.
(١) فتح الباري (٥٢/١).



يتفاوتون فيها تفاوتاً كثيراً. فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقد خالف الحس، مع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى^(١).

والذي خلصت إليه بعد تأمل: أن خصال الإيمان وشعبه، كثير منها ينبع من الرحمة، إما بالنفس، وإما بالخلق، وأعني بالخلق كل ما عدا النفس من خلق الله ﷻ، فالكون والأرض والسماء والنبات والدواب والجن والإنس، كلهم يدخل في هذا، فمن يتصور إزالة شوكة من طريق الناس، إلا وهو يرحم من يتأذى بوخزها، ومن يتصور رفع غصن اعترض ممشى البشر والدواب، إلا وهو يرحم الخلق من تعثرهم به، ومن يتصور إطعام قطعة، إلا وهو يرحمها من جوعة تؤذيها، وقد تميتها، وشعبة الحياء كذلك، فهي تستجمع خصال الرحمة والشفقة بالخلق، فتتولد هذه الصفة، بل وينتج عنها كل ما هو خير.

فإذا كانت الشعب تتفاوت في درجاتها، فإن تحصيل الشعبة الواحدة كذلك تتفاوت في درجاتها، فأهل الإيمان يتفوقون أن من كمل إيمانه كأبي بكر الصديق رضي الله عنه، هو أفضل من أدى حق لا إله إلا الله، وهي أفضل شعب الإيمان، فكان لازماً القول: إن أبا بكر الصديق هو أفضل الأمة؛ لأنه أفضل من حقق التوحيد، وهكذا بقية الخصال، فمن حقق خصلة الرحمة، وبلغ الغاية في تحصيل معناها الشرعي، فإنه بلا شك يكون أفضل ممن هو دونه في تحصيل ذلك، وهذا ما سيظهر تباعاً في تتبع الأدلة الشرعية، من السنة المرضية، والفضائل السنية، والطرائق السلفية.

ومن أعظم شواهد ذلك: أن المرء يرحم رحمة، وذويه، ويرحم العامة، فيكون ذلك سبباً في دخوله الجنة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا تَحَابُّوا عَلَيْهِ؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ تَحَابُّوا، وَالَّذِي نَفْسِي

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، ص (٥٨).

بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَرَاحَمُوا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلْنَا رَحِيمًا. قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدِكُمْ وَلَكِنْ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ، رَحْمَةُ الْعَامَّةِ»^(١). وفي رواية عند البيهقي: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْكُمْ إِلَّا رَحِيمٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلْنَا رَحِيمًا. قَالَ: «لَيْسَ رَحْمَةً أَحَدِكُمْ نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، حَتَّى يَرَحِمَ النَّاسَ»^(٢).

فرحمة العامة سبب لدخول الجنة، وليت شعري إنها مسألة غائبة عن الكثيرين، وتلك الرحمة تتبع من محلها وهو القلب، وهو محل الإيمان، فإن امتلاً الوعاء رحمة، نبع بالإيمان، فأثر في كل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال، ولعمري كم من عبادة صبغها صاحبها بغلظة كدرت صفوها، ولعلها أذهبت أجرها كاملاً، أما رأيت أن النبي ﷺ رأى عمر رضي الله عنه يطوف البيت، فقال له: «يَا عُمَرُ إِنَّكَ رَجُلٌ قَوِيٌّ، لَا تَزَاحِمُ عَلَى الْحَجَرِ، فَتَوُدِّي الضَّعِيفَ، إِنَّ وَجَدْتَ خَلْوَةً فَاسْتَلِمَهُ، وَإِلَّا فَاسْتَقْبَلْهُ فَهَلْ وَكَبِّرْ»^(٣). وقال في الصلاة: «أَقِيمُوا الصُّفُوفَ، وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ، وَسُدُّوا الْخَلَلَ، وَلِينُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ»، قال أبو داود: ”معنى: ولينوا بأيدي إخوانكم: إذا جاء رجل إلى الصف فذهب يدخل فيه، فينبغي أن يلين له كل رجل منكبيه، حتى يدخل في الصف“^(٤).

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، في كتاب القضاء، باب حكم الحاكم في داره، برقم (٥٩٢٨) (٤١٤/٥)، والحاكم في المستدرک، في كتاب البر والصلة، برقم (٧٣١٠) (١٨٥/٤). وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذهبي: «صحيح». وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رجاله رجال الصحيح». قال في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٥/٥١٦): «رواه النسائي في الكبرى من طريق الليث بن سعد، عن ابن الهادي به. وله شاهد من حديث ابن عمر، رواه البزار في مسنده، وأصله في صحيح مسلم وأبي داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة». وهو الحديث الذي يقول فيه ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تَوَدُّوا، وَلَا تَوَدُّوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدْلِكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ». صحيح مسلم رقم (٥٤) (٧٤/١).

ورواه أبو يعلى عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَضَعُ اللَّهُ رَحْمَتَهُ إِلَّا عَلَى رَحِيمٍ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلْنَا يَرَحِمُ. قَالَ: «لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدِكُمْ صَاحِبُهُ، يَرَحِمُ النَّاسَ كَافَّةً». المسند برقم (٤٢٥٨) (٢٥٠/٧). قال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رجاله وثقوا، إلا أن ابن إسحاق مدلس»^(٥). (١٨٧/٨).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٠٥٤٨) (٤٠٨/١٣)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند برقم (١٩٠) (٣٢١/١)، وعبد الرزاق في مصنفه، برقم (٨٩١٠) (٣٦/٥)، والبيهقي في الكبرى، برقم (٩٢٦١) (١٣٠/٥). وقال الزرقاني: «مرسل جيد الإسناد». شرح الزرقاني على الموطأ (٤٥٦/٢). وقال الألباني: «صححه الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والذهبي». مناسك الحج والعمرة، ص (٢١).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، برقم (٦٦٦) (١٧٨/١)، وأحمد في المسند برقم (٥٧٢٤) (١٧/١٠). قال الألباني: «إسناده صحيح». صحيح سنن أبي داود (٢٤٣/٣).



وهكذا حال من يرحم الصغير فيدينه ويقبله، أو يربّت عليه ويكرمه، أو يلعب معه ويرفعه، وهذه أحوال تدل على صفاء قلوب أصحابها ونقاوتها، فاستحقت رحمة ربها ومولاها. ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسِ التَّمِيمِيِّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ»^(١). وعندهما -أيضا- في رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: تَقْبَلُونَ الصَّبِيَّانَ؟ فَمَا نُقْبِلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْ أَمَلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»، وعندهما -أيضا- في رواية عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ». ومثله ما رواه عبدالله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قَالَ: «مَنْ لَمْ يَرْحَمِ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ حَقَّ كَبِيرِنَا فَلَيْسَ مِنَّا»^(٢). قال في عون المعبود: ”(ويعرف) بالجزم (حق كبيرنا) أي بما يستحقه من التعظيم والتبجيل (فليس منا) أي من أهل سنتنا وقيل: أي من خواصنا، وهو كناية عن التبرئة“^(٣).

وعنه -أيضا- قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ»^(٤). قال في تحفة الأحوذى: «قوله:

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، برقم (٥٩٩٧) (٧/٨)، ومسلم في الصحيح كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، برقم (٦٥) (١٨٠٧/٤).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (٤٩٤٣) (٢٨٦/٤)، والترمذي في السنن في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، برقم (١٩١٩) (٢٢١/٤)، وقال: «حسن صحيح». وأحمد في المسند برقم (٦٧٣٣) (٣٤٥/١١). عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ﷺ.
(٣) عون المعبود (١٩٦/١٣).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (٤٩٤١) (٢٨٥/٤)، والترمذي في السنن في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، برقم (١٩٢٤) (٢٢٣/٤)، واللفظ له، وقال: «حسن صحيح»، وأحمد في المسند برقم (٦٤٩٤) (٣٣/١١).

(الراحمون) لمن في الأرض من آدمي وحيوان محترم، بنحو شفقة وإحسان ومواساة، (يرحمهم الرحمن) أي يحسن إليهم، ويتفضل عليهم، والرحمة مقيدة باتباع الكتاب والسنة^(١)، فإقامة الحدود والانتقام لحرمة الله، لا ينافي كل منهما الرحمة، «ارحموا من في الأرض» قال الطيبي: أتى بصيغة العموم، ليشمل جميع أصناف الخلق، فيرحم البر والفاجر، والناطق والبهم، والوحوش والطيور، انتهى. وفيه إشارة إلى أن إيراد (مَنْ) لتغليب ذوي العقول، لشرفهم على غيرهم، أو للمشكلة المقابلة بقوله «يرحمكم من في السماء»، وهو مجزوم على جواب الأم، رأي الله ﷻ، وقيل: المراد من سكن فيها وهم الملائكة، فإنهم يستغفرون للمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]. وقد روي بلفظ: «ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء»^(٢)، والمراد بأهل السماء الملائكة، ومعنى رحمتهم لأهل الأرض دعاؤهم لهم بالرحمة والمغفرة، كما قال تعالى: (ويستغفرون) لمن آمن، (الرحم شجنة) بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون وجاء بضم أوله وفتح رواية ولغة، وأصل الشجنة: عروق الشجر المشتبكة، والشجن بالتحريك واحد الشجون، وهي الأودية، ومنه قولهم: الحديث ذو شجون، أي يدخل بعضه في بعض، (من الرحمن) أي أخذ اسمها من هذا الاسم، كما في حديث عبد الرحمن بن عوف في السنن مرفوعاً: «أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا مِنْ اسْمِي»^(٣)، والمعنى أنها أثر من آثار الرحمة مشتبكة بها، فالقاطع لها منقطع من رحمة الله ﷻ. وقال الإسماعيلي: ”معنى الحديث:

(١) هذا قيد عزيز، تنضبط به كل أعمال الشرع، وخلق الرحمة منها، فليتنبه فإنه غاية في الأهمية.

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم (٦٤٩٤) (٣٢/١١)، والحاكم في المستدرک، برقم (٧٢٧٤) (١٧٥/٤)، وقال: «وهذه الأحاديث كلها صحيحة، وإنما استقصيت في أسانيدنا بذكر الصحابة

ﷺ، لئلا يتوهم متوهم أن الشيخين ﷺ لم يهملوا الأحاديث الصحيحة»، ووافقه الذهبي. أخرجه الترمذي في السنن، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم، برقم (١٩٠٧) (٣٧٩/٣).



أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن فلها به علقه، وليس معناه: أنها من ذات الله تعالى الله عن ذلك، ذكره الحافظ في الفتح^(١).

تدمع العين، ويفيض الفؤاد رقة ورحمة، لموت حبيب، أو نصرة مؤمن، أو وجل من مكروه قد يقع عليه، فتغسل هذه الدموع القلب بماء الرحمة، وتذيب أدرانها بغسل الرأفة. ففي حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ صَبِيًّا لِأَحَدِي بَنَاتِهِ، وَنَفْسُهُ تَقَعَّقُ، كَأَنَّهَا فِي شَنْ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ قَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ، جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرَحِّمُ اللَّهُ مِنَ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ»^(٢).

يرحم المؤمن أخاه، ويعطف عليه، ويتودد له، فيكتمل بهذا بناء الإيمان، ويقوى جدار الإسلام، ويظهر رحمته لأخيه عناية بأموره، واهتماماً بشؤونه، بل يظهر عليه العي والتعب لضعفه ومرضه، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»^(٣). قال النووي: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم إلى آخره، هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاقد في غير إثم ولا مكروه»^(٤).

ويا لله كم هي شقاوة من نزعت الرحمة من قلبه، يشقى في الدنيا فتلازمه القسوة والجفاء، وفي الآخرة فيُسلب رحمة الرحمن الرحيم،

(١) (٤٣/٦).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاقدهم، برقم (٢٥٨٦)(٤/١٩٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، برقم (٧٣٧٧)(٩/١١٥)، ومسلم في الصحيح كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، برقم (٩٣٢)(٢/٦٣٥).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٦/١٣٩).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ الصَّادِقَ، الْمَصْدُوقَ رضي الله عنه صَاحِبَ هَذِهِ الْحُجْرَةِ يَقُولُ: «لَا تُنَزِعُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ»^(١). قال في عون المعبود: ”(لا تنزع) بصيغة المجهول، أي لا تسلب الشفقة على خلق الله، ومنهم نفسه التي هي أولى بالشفقة والمرحمة عليها من غيرها، بل فائدة شفقتة على غيره راجعة إليها: لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، (إلا من شقي) أي كافر أو فاجر، يتعب في الدنيا، ويعاقب في العقبى“^(٢).

وقال في تحفة الأحمدي: ”(إلا من شقي) قال الطيبي: لأن الرحمة في الخلق رقة القلب، والرقة في القلب علامة الإيمان، فمن لا رقة له لا إيمان له، ومن لا إيمان له شقي، فمن لا يرزق الرقة شقي. انتهى“^(٣). قال بعض أهل العلم: ”أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم أرحم الأمم في الدنيا، ولهذا سمي نبي الرحمة، فمن نزع الرحمة من قلبه خشي عليه أن لا يكون من أمته“^(٤). ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ”نفع العباد بالإحسان إليهم يدل على الرحمة“^(٥).

فرحمة الخلق تستجلب بها رحمة رب الخلق، ورحمة العباد يستدل بها لرحمة رب العباد. عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «أَرْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَأَغْفِرُوا يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَيَلْ لَأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيَلْ لِلْمَصْرِيِّينَ، الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا، وَهُمْ يَعْلَمُونَ»^(٦).

(١) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (٤٩٤٢) (٢٨٦/٤)، والترمذي في السنن في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، برقم (١٩٢٣) (٣٢٣/٤)، وقال: «هذا حديث حسن». وأحمد في المسند برقم (٨٠٠١) (٣٧٨/١٣).

(٢) (١٩٦/١٣).

(٣) (٤٢/٦).

(٤) الأربعين في فضل الرحمة والراحمين، لابن طولون الصالحي، ص (٣٠).

(٥) التدمرية، ص (٣٤).

(٦) أخرجه أحمد في المسند، برقم (٦٥٤١) (٩٩/١١)، والبخاري في الأدب المفرد، برقم (٣٨٠)، ص (١٥١)، وصححه الألباني.



والرحمة - كذلك - سبب عظيم لمغفرة الذنوب الكبائر، فضلاً عن الصغائر، بل رحمتك لمخلوقات الله كلها يكفر من السيئات، ويحط الخطيئات، حتى الحيوان والشجر. أخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبَيْتِهَا، فَدَلَّعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَفَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغَفِرَ لَهَا». وفي لفظ عنه عند مسلم - أيضاً -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرُكْبَتَيْهَا، فَدَلَّعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَفَزَعَتْ مُوقِهَا، فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغَفِرَ لَهَا بِهِ»^(١).

ومثله في المعنى عن أبي هريرة رضي الله عنه - أيضاً -: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَانزَلَ بئراً، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأُ خَفَهُ، ثُمَّ أَمْسَكُهُ بِيَدِي، ثُمَّ رَقِي، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفِرَ لَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^(٢).

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "في الحديث الحث على الإحسان إلى الناس؛ لأنه إذا حصلت المغفرة بسبب سقي الكلب فسقي المسلم أعظم أجراً. واستدل به على جواز صدقة التطوع للمشركين، وينبغي أن يكون محله إذا لم يوجد هناك مسلم، فالمسلم أحق، وكذا إذا دار الأمر بين البهيمة والأدمي المحترم، واستويا في الحاجة، فالأدمي أحق"^(٣).

(١) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، برقم (٢٢٤٥)، (١٧٦١/٤).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، برقم (٢٣٦٣) (١١١/٣)، ومسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، برقم (٢٢٤٤)، (١٧٦١/٤).

(٣) أصول الإيمان، ص (٥٠).

والعكس بالعكس، فمن شقاوة عبد أن يقسو على حيوان، فيجيعه حتى يموت، أو يسيء له بما لا يؤلف غالباً لمثله، وفي هذا المعنى حديث عظيم عن أسماء بنت أبي بكر: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى صَلَاةَ الْكُسُوفِ، فَقَالَ: «دَنَّتْ مِنِّي النَّارُ، حَتَّى قُلْتُ: أَيُّ رَبِّ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَإِذَا امْرَأَةٌ، حَسَبْتُ أَنَّهُ قَالَ: تَخْدِشَهَا هَرَّةٌ، قَالَ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا». وفي رواية عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ»، قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهِ أَعْلَمُ: «لَا أَنْتِ أَطْعَمْتَهَا وَلَا سَقَيْتَهَا حِينَ حَبَسْتِهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتَهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»، قال الزهري: "ذلك، لئلا يتكل رجل، ولا يبأس رجل" (١).

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "ومعنى قول الزهري أنه لما ذكر الحديث الأول خاف أن سامعه يتكل على ما فيه من سعة الرحمة وعظم الرجاء، فضم إليه حديث الهرة الذي فيه من التخويف ضد ذلك، ليجتمع الخوف والرجاء" (٢).

بل إن رحمة البهيمة عند ذبحها من علامات الإيمان، فعن معاوية ابن قرة، عن أبيه: أَنَّ رَجُلًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آخِذْ الشَّاةَ فَأَذْبَحْهَا فَأَرْحَمْهَا. قَالَ: «وَالشَّاةُ فَإِنْ تَرَحَّمَهَا يَرَحِّمَكَ اللَّهُ» مرتين (٣).

ومثله حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، قال: ثِنْتَانِ حَفَظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شُفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» (٤).

- (١) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، برقم (٢٣٦٤) (١١٢/٣)، ومسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، برقم (٢٢٤٢)، (١٧٦٠/٤).
- (٢) أصول الإيمان، ص (٥١).
- (٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، برقم (٣٧٣)، ص (١٩٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٠٥٥٦) (١٣/١٣)، وقال الألباني: "صحيح".
- (٤) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة، برقم (١٩٥٥)، (١٥٤٨/٣).



وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَحِمَ وَلَوْ ذِيحَةَ عَصْفُورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وفي السياق ذاته عن عبد الله بن عمر: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِحَدِّ الشَّفَارِ، وَأَنَّ يُوَارَى عَنِ الْبَهَائِمِ، وَإِذَا ذَبَحَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَجْهَزْ»^(٢).

وبهذا، فإن الأمة عرفت حقوق الإنسان والحيوان، وانضبط ذلك بضوابط الشرع، فالحيوان يرجو خيراً من المؤمن، والنبات وكل شيء -كذلك-، وهذا هدي المؤمنين، من لدن نزول الوحي وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكان عدي بن حاتم رضي الله عنه يَفْتُ الخبز للنمل، ويقول: "إِنَّهِنَّ جَارَاتٌ، وَلَهِنَّ حَقٌّ"^(٣)، وكان صالح بن كيسان يكسر لهرة له يطعمها، ثم يفت لحمامات له، أو لحمام له يطعمه^(٤).

ومن كرائم هذا الباب وأروعها، ما قد يسطره مؤمن رحيم، جافت الشقاوة قلبه وروحه، فيقدم نداء رحمة قلبه على نداء جسده وحاجته لأمس مقومات حياته، فيطعم وهو في أمس الحاجة للطعام، ويسقي وهو في أمس الحاجة للسقاء، ويتعب وهو في أمس حاجة للراحة، ويا لها من رحمة وسعت عباد الله الرحماء، ولعل نفحة من هذه النفحات تصادف قبولاً من عند الله، فتكون سبباً في سعادة لا شقاء بعدها أبداً.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، برقم (٧٩١٥) (٢٣٤/٨)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٠٥٥٩) (١٣/٤١٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رجاله ثقات"، وقال الألباني: "حسن". صحيح الجامع (١٠٧٤/٢).

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن، كتاب الذبائح، باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، برقم (٣١٧٢) (٢/١٠٥٩)، وأحمد في المسند، برقم (٥٨٦٤) (١٠/١٠٥). قال الألباني: "صحيح السند". السلسلة الصحيحة (٣٥٧/٧).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، (٤٢١/١٣)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٤/٢١٩٠). وذكره النووي في تهذيب الأسماء واللغات بصيغة الجزم، (١/٣٢٨).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، (٤٢١/١٣).



فمن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: جَاءَتْنِي مَسْكِينَةٌ تَحْمَلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطَعَّمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتْ التَّمْرَةَ، الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ»^(١).

يقول أحمد بن صالح: "رأيت الخير كله في رقة القلب والرحمة، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ورأيت الشر كله في اثنتين: في الفظاظة، وغلظ القلب، وذلك قول الله عز وجل: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأُنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]"^(٢).



(١) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات، برقم (٢٦٣٠)، (٢٠٢٧/٤).

(٢) أخرج الأثر البيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٠٥٤٧) (١٣/٤٠٧).

المبحث الثاني آثار الرحمة في زيادة الإيمان ونقصانه وتطبيقاتها من الآثار الصحيحة

المطلب الأول الإشارات النبوية لزيادة الإيمان ونقصانه وعلاقته بالرحمة

معنى الإيمان ثبت بدلالة الكتاب والسنة، وأنه يزيد وينقص، ويقوى ويضعف. وهذه المسألة لا تقبل الاشتباه بوجه من الوجوه لا شرعاً، ولا حساً، ولا واقعاً. فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين: أحدهما: تحقيق الإيمان وفروعه، والتحقق بها علماً وعملاً، وحالاً.

والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة. ويداوي ما قصر من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته. فتحقيق الإيمان وتقويته، يكون بمعرفة أسباب زيادة الإيمان، والقيام بها. وأما السعي في دفع ما ينافيه ويضاده، فيكون بمعرفة أسباب نقصه والحذر من الوقوع فيها^(١).

(١) ينظر: التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، ص(٦٨)، وزيادة الإيمان ونقصانه، عبدالرزاق العباد، ص(١٦٦).

روي عن أبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم: "أن الإيمان يزيد وينقص" ^(١)، وعن عُمَيْرِ بْنِ حَبِيبِ الْخَطَمِيِّ رضي الله عنه قال: "الإيمان يزيد وينقص، قيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه" ^(٢). وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول لأصحابه: "هلموا نَزِدْ إيماناً، فيذكرون الله عز وجل" ^(٣). ويروى عن علي رضي الله عنه: "إن الإيمان يبدو لمُظَّةً في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللُّمُظَّة" ^(٤)، اللُّمُظَّة: مثل النُّكْثَةِ من البياض أو نحوها ^(٥).

قال مالك بن دينار: "الإيمان يبدو في القلب ضعيفاً ضئيلاً كالْبَقْلَةِ، فإن صاحبه تعاوده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وأماط عنه الدَّغْلَ وما يضعفه ويوهنه، أو شك أن ينمو أو يزداد، ويصير له أصل وفروع، وثمره وظل إلى ما لا يتأهى حتى يصير أمثال الجبال، وإن صاحبه أهمله ولم يتعاوده جاءه عَنَزٌ فتنفتها، أو صبي فذهب بها، وأكثر عليها الدَّغْلَ فأضعفها أو أهلكها أو أبيضها، كذلك الإيمان". وقال خَيْثَمَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «الإيمان يَسْمَنُ فِي الْخِصْبِ، وَيَهْزِلُ فِي الْجَدْبِ،

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن، باب في الإيمان، برقم (٧٤) (٢٨/١)، وقال الألباني: "ضعيف جداً، لكن الآثار بهذا عن السلف مستقيمة في كتب السنة، وقد روي مرفوعاً ولا يصح". ضعيف سنن ابن ماجه (١٤٦/١).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (٥٥) (١٥٤/١)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (٣٠٣٢٧) (١٦٠/٦).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الإيمان، ص (٤١)، والآجري في الشريعة (٥٨٤/٢).

(٤) رواه البخاري في التاريخ الكبير (١٥٤/٥)، وابن أبي شيبة في الإيمان، ص (١٩)، والخلال في السنة (٥٦/٥)، والبيهقي في شعب الإيمان ولفظه: قال علي رضي الله عنه: "إن الإيمان يبدو لمُظَّةً بِيَضَاءٍ فِي الْقَلْبِ، فَكَلِمًا أَزْدَادَ الْإِيمَانَ عَظْمًا أَزْدَادَ ذَلِكَ الْبِيَضِ، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ أَبْيَضَ الْقَلْبُ كُلُّهُ، وَإِنِ النَّفَاقُ يَبْدُو لِمُظَّةً فِي الْقَلْبِ، فَكَلِمًا أَزْدَادَ النَّفَاقَ عَظْمًا أَزْدَادَ ذَلِكَ سَوَادًا، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ النَّفَاقَ اسْوَدَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ، وَإِيمَ اللَّهِ، لَوْ شَقَقْتُمْ عَنْ قَلْبِ مُؤْمِنٍ لَوَجَدْتُمُوهُ أَبْيَضَ، وَلَوْ شَقَقْتُمْ عَنْ قَلْبِ مَنَافِقٍ لَوَجَدْتُمُوهُ اسْوَدَّ". قال -يعني الراوي-: "وَاللُّمُظَّةُ هِيَ الذُّوقَةُ، وَهُوَ أَنْ يَلْمِظَ الْإِنْسَانُ بِلِسَانِهِ شَيْئًا يَسِيرًا: أَي يَتَذَوَّقُهُ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ يَدْخُلُ مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، ثُمَّ يَتَسَعَّ فِيهِ فَيَكْتَرُ". وقال المحقق: رجاله ثقات. (١١٤/١).

(٥) ينظر: الإيمان، ابن تيمية، ص (١٧٧)، ولسان العرب (٤٦١/٧)، مادة (لمظ).



فخصَّبه العمل الصالح، وجَدَّبه الذنوب والمعاصي، وقيل لبعض السلف: يزداد الإيمان وينقص، قال: نعم، يزداد حتى يصير أمثال الجبال، وينقص حتى يصير أمثال الهباء^(١).

ولهذا، فإن أكمل المؤمنين إيماناً أوسعهم رحمة، فالرسول ﷺ أعظم الناس إيماناً، فكان أكثرهم رحمة، وأرفقهم بالخلق، ويليه من هذه الأمة صاحبه الصديق، فكان بشهادة الصادق له أنه أرحم الأمة بالأمة.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهَا فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهَا حَيَاءُ عُمَانَ، وَأَعْلَمُهَا بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَقْرَبُهَا لِكِتَابِ اللَّهِ أَبِي، وَأَعْلَمُهَا بِالْفَرَائِضِ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»^(٢).

ولابن القيم كلام في غاية النفاسة، حيث يقول: «ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى كان أكمل المؤمنين إيماناً أعظمهم رحمة، كما قال ﷺ في أصحاب رسوله ﷺ: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رِحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ» [الفتح: ٢٩]. وكان الصديق رضي الله عنه من أرحم الأمة، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»، وكان أعلم الصحابة باتفاق الصحابة، كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلمنا به، يعني النبي ﷺ»^(٣)، فجمع الله له بين سعة العلم والرحمة.

وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته، وقد وسع ربنا كل شيء

(١) الإيمان، ص (١٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن، في أبواب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي، وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، برقم (٣٧٩٠) (١٣٥/٦)، وابن ماجه في السنن، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضائل زيد بن ثابت، برقم (١٥٤) (٥٥/١)، وأحمد في المسند، برقم (١٢٩٠٤) (٥٢٥/٢٠)، والحاكم في المستدرک، رقم (٥٧٨٤) (٤٧٧/٣)، وقال: «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: «صحيح». صحيح الجامع، ص (٢١٦).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، برقم (٣٩٠٤) (٥٦/٥)، ومسلم في الصحيح، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، برقم (٢٣٨٢) (١٨٥٤/٤).



رحمةً وعلماً . فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علماً، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه، والعبد لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يسعى فيما يضرها ويؤلمها، وينقص حظها من كرامته وثوابه، ويبعدها من قربه، وهو يظن أنه ينفعها ويكرمها، وهذا غاية الجهل والظلم، والإنسان ظلوم جهول، فكم من مكرم لنفسه بزعمه، وهو لها مهين، ومرفه لها، وهو لها متعب، ومعطيها بعض غرضها ولذتها، وقد حال بينها وبين جميع لذاتها، فلا علم له بمصالحها التي هي مصالحها، ولا رحمة عنده لها، فما يبلغ عدوه منه ما يبلغ هو من نفسه. فقد بخسها حظها، وأضاع حقها، وعطل مصالحها، وباع نعيمها الباقي، ولذتها الدائمة الكاملة، بلذة فانية مشوبة بالتنغيص، إنما هي كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، وليس هذا بعجيب من شأنه، وقد فقد نصيبه من الهدى والرحمة. فلو هُديَ ورحم لكان شأنه غير هذا الشأن، ولكن الرب ﷻ أعلم بالمحل الذي يصلح للهدى والرحمة. فهو الذي يؤتيها العبد. كما قال عن عبده الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، ﴿إِذْ أَوْىءَ الْفَتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشْدًا﴾ [الكهف: ١٠]“^(١).

وروى البزار عن أنس مرفوعاً: «أَرْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ: جُمُودُ الْعَيْنِ، وَقَسَاءُ الْقَلْبِ، وَطُولُ الْأَمَلِ، وَالْحَرَصُ عَلَى الدُّنْيَا»، «ثَلَاثٌ مَّنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَوْجَبَ الثَّوَابَ، وَاسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ: خُلِقَ يَعْشُقُ بِهِ فِي النَّاسِ، وَوَرَعَ يَحْجِزُهُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَحَلِمٌ يَرُدُّ بِهِ جَهْلَ الْجَاهِلِ»^(٢). قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ”فالخصال الأولى تدل على زيادة الإيمان وقوته، والأربعة الأخر تدل على ضعفه ونقصانه“^(٣).

(١) إغاثة اللهفان من مصاديد الشيطان (٢/ ١٧٣).

(٢) أخرجه البزار في المسند، برقم (٦٤٤٢، ٦٤٤٣) (١٣/ ٨٧).

(٣) الإيمان، ص (١٧٩).



المطلب الثاني

دراسة تحليلية تطبيقية لحديث النبي ﷺ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَلَيْنَ قُلُوبًا، وَأَرْقُ أَفئِدَةً»

الآثار الواردة فيها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «رَأَسُ الْكُفْرِ نَحْوُ الْمَشْرِقِ، وَالْفَخْرُ وَالْخِيَلَاءُ فِي أَهْلِ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ، وَالْفَدَّادِينَ أَهْلُ الْوَبْرِ، وَالسَّكِينَةَ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ»^(١).

وَعَنْ عُقَبَةَ بْنِ عَمْرٍو أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ نَحْوَ الْيَمَنِ فَقَالَ: «الْإِيمَانُ يَمَانٌ هَا هُنَا، أَلَا إِنَّ الْقَسْوَةَ وَغَلْظَ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ، عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الْإِبِلِ، حَيْثُ يَطَّلَعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ فِي رَبِيعَةٍ، وَمُضَرَ»^(٢).

وفي رواية عنه عند البخاري، قَالَ: «الْإِيمَانُ هَا هُنَا. وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْيَمَنِ، وَالْجَفَاءُ وَغَلْظُ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الْإِبِلِ، مِنْ حَيْثُ يَطَّلَعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ رَبِيعَةً، وَمُضَرَ».

وفي رواية أخرى، قَالَ: «مَنْ هَا هُنَا جَاءَتِ الْفِتْنُ، نَحْوَ الْمَشْرِقِ، وَالْجَفَاءُ وَغَلْظُ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلُ الْوَبْرِ، عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ، فِي رَبِيعَةٍ، وَمُضَرَ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، برقم (٣٣١٠) (١٢٧/٤)، ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، برقم (٨٥) (٧٢/١).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، برقم (٣٣١٠) (١٢٧/٤)، ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، برقم (٨٥) (٧٢/١).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب المناقب، باب (دون أن يسميه)، برقم (٣٤٩٩، ٣٤٩٨) (١٧٣/٥).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، أَضَعَفُ قُلُوبًا، وَأَرْقُ أَفْتَدَةً، الْفَقَهُ يَمَانٌ وَالْحَكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ». وفي لفظ مسلم: «جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَرْقُ أَفْتَدَةً، الْإِيمَانُ يَمَانٌ، وَالْفِقْهُ يَمَانٌ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ»^(١).

وفي رواية أخرى عنده: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَضَعَفُ قُلُوبًا، وَأَرْقُ أَفْتَدَةً، الْفِقْهُ يَمَانٌ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ».

وفي أخرى عنده -أيضًا-: «الْإِيمَانُ يَمَانٌ، وَالْكَفْرُ قَبْلَ الْمَشْرِقِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالْفَخْرُ وَالرِّيَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْخَيْلِ وَالْوَبْرِ».

وفي أخرى: «جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَرْقُ أَفْتَدَةً، وَأَضَعَفُ قُلُوبًا، الْإِيمَانُ يَمَانٌ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ، السَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالْفَخْرُ وَالْخِيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ، أَهْلِ الْوَبْرِ، قَبْلَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ».

وفي أخرى: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَلْيَنُ قُلُوبًا، وَأَرْقُ أَفْتَدَةً، الْإِيمَانُ يَمَانٌ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ، رَأْسُ الْكُفْرِ قَبْلَ الْمَشْرِقِ».

وفي أخرى: «وَالْفَخْرُ وَالْخِيَلَاءُ فِي أَصْحَابِ الْإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَصْحَابِ الشَّاءِ». وكل هذه روايات لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «غَلِظُ الْقُلُوبِ، وَالْجَفَاءُ فِي الْمَشْرِقِ، وَالْإِيمَانُ فِي أَهْلِ الْحِجَازِ»^(٢).

فهذه جملة من الروايات لحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمعتها لتأملها وتحليلها،

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، برقم (٤٢٨٨) (١٧٣/٥)، ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، برقم (٨٢) (٧١/١).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، بأرقام (٨١ - ٩٢).



للوقوف على مسألة البحث، وهو جانب تطبيقي بعد أن أصلنا للجانب النظري، ولعل الإمام مسلماً بحسه العالي، وفقهه الراقي، تنبه لمنزلة رحمة أهل الإيمان، وتفاضلهم فيه، فبوب باباً في صحيحه في تفاضل أهل الإيمان فيه^(١)، وجاء فيه بأحاديث أبي مسعود وأبي هريرة وجابر رضي الله عنهم، بما يعني أن هذه الأحاديث تتفق جميعاً في وضع مقياس دقيق، وميزان حساس للإيمان، وليس هو من عمل ظاهر من أعمال الجوارح من صلاة أو صوم أو ذكر، بل هو شيء يلامس شغاف القلب، ويخالط مهجته، عبر عنه ببعض أظهر مظاهره، وهي قسوة الطبع، وغلظ القلب، وهي مظاهر ملموسة لمن ضعف الإيمان في قلبه، وهذا ما يجعلنا نجزم بتلازم الإيمان مع رحمة القلب، ورقة الفؤاد، فالإيمان متأصل بمنطوق الوحي في أهل الرقة، وأصحاب الرأفة، ومنتفي بمفهومه عن أصحاب الغلظة، وأدعياء القسوة.

وهذه الروايات المباركات، جاءت ببيان مسألة بحثنا، بياناً شافياً؛ ولهذا أتيت بها على اختلاف ألفاظها، فبعضها أقرب من بعض في بيان شاهد للبحث؛ وقد استوقفتني كثيراً؛ لما لها من كبير وقع على أهل الإيمان، وبالغ أثر على نفسي، فكم كنت أتأمل فيها، ولكن دون تودة، أما وهي من صميم البحث، فإني أستعين الله على حسن فهمها، وبيان مرادها ولطائفها، ولبيان ذلك أفصل القول إلى مسائل:

المسألة الأولى:

شهادة النبي ﷺ بالإيمان لأهل اليمن^(٢): فهذه شهادة عظيمة لمن

(١) حتى وإن كانت تبويبات الصحيح ليست من صنيع الإمام نفسه، إلا أنه لا يبعد أبداً أن يكون هذا مراده، خصوصاً إذا أتت هذه التبويبات الرائقة، والعناوين الفائقة من جهيد تحرير بالفقه والحديث كالإمام النووي، فهي نور على نور.

(٢) اختلف في مفهوم أهل اليمن هنا، هل هم أهل اليمن، ممن سكن اليمن، أو هم الأنصار، أو هم أهل الحجاز من أهل مكة والمدينة. ينظر: فتح الباري (٩٩/٨)، وشرح النووي على مسلم (٢٢/٢).

يُستحقها، فالنبي ﷺ أعطى وسامًا غاليًا، بل لعله أغلى وسام يمنح لمخلوق، ألا وهو الإيمان، ولن أتوقف عند معاني الإيمان، بل سأقف على أهم مظاهره عند هؤلاء، فروايات الحديث الشريف نصت على سر هذه الشهادة العظيمة، بل أوضحت بما لا يدع مجالاً للشك، أن سبب هذه الشهادة هو: لين قلوبهم، ورقة أفئدتهم، وهذا ما يفسر رواية: (وَأَضْعَفُ قُلُوبًا)، فهم قوم رقيقة قلوبهم، لينة أفئدتهم، بما يجعلها ضعيفة قريبة لقبول الحق، ومحبة رحيمة لأهله، لا يصدر عنها إلا ما يتفق والرحمة والشفقة، والضعف لكل ما يُحب، والنفرة من كل ما يُبغض ويُستهجن ويُستقبح، قال الحافظ ابن حجر: ”ومعنى الحديث وصف الذين جاؤوا بقوة الإيمان وكماله، ولا مفهوم له“^(١)، وقال النووي: ”إنه ﷺ وصفهم بما يقضي بكمال إيمانهم، ورتب عليه الإيمان يمان، فكان ذلك إشارة للإيمان إلى من أتاه من أهل اليمن، لا إلى مكة والمدينة، ولا مانع من إجراء الكلام على ظاهره، وحمله على أهل اليمن حقيقة؛ لأن من اتصف بشيء، وقوي قيامه به، وتأكد اطلاعه منه، ينسب ذلك الشيء إليه، إشعارًا بتميزه به، وكمال حاله فيه، وهكذا كان حال أهل اليمن حينئذ، في الإيمان وحال الوافدين منه في حياة رسول الله ﷺ، وفي أعقاب موته كأويس القرني، وأبي مسلم الخولاني، وشبههما ممن سلم قلبه، وقوي إيمانه فكانت نسبة الإيمان إليهم لذلك؛ إشعارًا بكمال إيمانهم من غير أن يكون في ذلك نفي له عن غيرهم، فلا منافاة بينه وبين قوله ﷺ: «الإيمان في أهل الحجاز»، ثم المراد بذلك الموجودون منهم حينئذ، لا كل أهل اليمن في كل زمان، فإن اللفظ لا يقتضيه، هذا هو الحق في ذلك، ونشكر الله ﷻ على هدايتنا له، والله أعلم“^(٢).



(١) فتح الباري (٩٩/٨).

(٢) شرح النووي على مسلم (٣٣/٢).

ويا لها من لفتة كريمة، ونفيسة غالية، تلك التي علمنا إياها المعصوم ﷺ، عندما أخبر بمقدمهم عليه، أرشد إلى وصفهم، وعرف بهم بما ينعتهم، فقال: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، أَضْعَفُ قُلُوبًا، وَأَرْقُ أَفْتَدَةً»، فبين وأرشد لأهم ما بلغهم تلك المنزلة العظيمة من الإيمان، وأنها سبب استجابتهم وخشيتهم واستكانتهم، قال الحافظ ابن حجر: «وسبب الثناء على أهل اليمن إسراعهم إلى الإيمان»^(١)، ويقول الإمام النووي: «وأما وصفها باللين والرفقة والضعف، فمعناه أنها ذات خشية واستكانة، سريعة الاستجابة والتأثر بقوارع التذكير، سالمة من الغلظ والشدة والقسوة، التي وصف بها قلوب الآخرين»^(٢).

وهو إرشاد للمسلمين بلازم الوصف، وتحبيب لأهل الملة بكمال الخصال، التي فيها الرحمة والرفقة والضعف، وهو تلازم وثيق، ومقصد من مقاصد الشريعة عميق، فمن عظم منه اللين والرحمة وجعلها في محلها المشروع، وبضوابطها المشروعة، عظم الإيمان في قلبه، فما رحمته ورأفته إلا لإيمانه بربه، وما إيمانه بربه إلا للين قلبه، ورقة طبعه ورحمته. قال العيني: "قوله: (أضعف قلوباً) ذكر فيما مضى أئين قلوباً؛ لأن الضعف عبارة عن السلامة من الغلظ والشدة والقسوة، التي وصفت بها قلوب الآخرين، واللين عبارة عن الاستكانة، وسرعة الإيجاب، والتأثر بقوارع التذكير"^(٣)، ويقول الحافظ ابن حجر: "وقوله: (أرق أفئدة)، أي إن غشاء قلب أحدهم رقيق، وإذا رق الغشاء أسرع نفوذ الشيء إلى ما وراءه"، وقال -أيضاً-: "قال الخطابي: قوله: (هم أرق أفئدة، وألين قلوباً)؛ أي لأن الفؤاد غشاء القلب، فإذا رق نفذ القول، وخلص إلى ما وراءه، وإذا غلظ بعد

(١) فتح الباري (٣٥٢/٦).

(٢) شرح النووي على مسلم (٣٤/٢).

(٣) عمدة القاري (٣٢/١٨).

وصوله إلى داخل، وإذا كان القلب ليناً علق كل ما يصادفه“، وقال العيني -كذلك-: ”فإذا صادف القلب شيئاً علق به، أي: إذا كان ليناً“^(١).

بل إنَّ ذلك انعكس على سلامة فطرهم، ونقاوة فهمهم، وصفاء قلوبهم، ففاضت بالحكمة، ونبتت بالخير، فصدقت لهجاتهم، ونبتت طباعهم، حتى نضحت الحكمة، فكل إناء بما فيه ينضح، وإذا أُشربت الفقه والعلم، وجدت قلوباً خصبه، ونفوساً زكية، وأرضاً متعطشة، فأورثت فهماً عميقاً، وعلماً دقيقاً، فسادت بين الأقران، وارتفعت بين الأصحاب والخلان. وهي ثمرة عظيمة من ثمار رحمة القلوب، ورقة الأفتدة، نسأل الله من فضله العميم.

المسألة الثانية:

شهادة النبي ﷺ بالكفر على أهل المشرق أهل الغلظة والجفاء: وهي شهادة عظيمة - أيضاً -، قال ﷺ: «الإيمانُ يمانُ، والكُفْرُ قِبَلَ المَشْرِقِ»، وقال: «مَنْ هَا هُنَا جَاءَتِ الفِتْنُ، نَحْوَ المَشْرِقِ»، وقال في حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «غَلِظَ القُلُوبِ، وَالجَفَاءُ فِي المَشْرِقِ، وَالإِيمَانُ فِي أَهْلِ الحِجَازِ»، وعبر بالمقابلة لبيان حال الكفر وأهله، بعد أن بين حال الإيمان وأهله، فأهل الإيمان أهل رقة ورأفة ورحمة، وأهل الكفر على النقيض، فهم أهل غلظة وجفوة وقسوة، فالجفاء في الطبع، أثر على استجابتها للحق، واستكانتها لأمر الرب ﷻ، فقسست قلوبهم، وعميت أبصارهم، وتكبرت على استجابتها، لما يصلحها من أمر الرسل عليهم السلام، فكل أهل الكفر والعصيان، غلاظ قلوبهم، شديد بأسهم، أنفت طباعهم عن ضعفها وانكسارها لمولاها، ورحمة خلقه من ضعفائهم، فكتب الله عليهم الشقاء بشقاوتهم وغلظتهم.

قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر: ”أما قوله ﷺ: «رأس الكفر نحو

(١) فتح الباري، لابن رجب الحنبلي (٢٥٢/٦). وفتح الباري، لابن حجر (١٠٠/٨)، وعمدة القاري (٣٢/١٨).

المشرق»، فمعناه أن كفر أهل المشرق، وهم ذلك الوقت فارس وما وراءهم من العجم، وكلهم لا كتاب له ولا شريعة، ومن كان كذلك فكفره أشد الكفر؛ لأنه لا يقرب نبي ولا برسول، ولا كتاب له ولا شريعة، ولا يدين بدين يرضاه الله ﷻ^(١). وقال -أيضاً-: "أما قوله: رأس الكفر نحو المشرق فهو أن أكثر الكفر وأكبره كان هناك"^(٢). وهذا أسلوب منفر من حالهم، مرغّب في البعد عن أوصاف الغلظة والجفاء، فالكفر والغلظة مقترنان.

المسألة الثالثة:

الإيمان وأهل الغنم: ومن أخص مسائل الباب وأدقها مسألة الإيمان وعلاقته بأهل الغنم خاصة، وما يمتهنه الإنسان عامة، أو ما يحيط به من بيئته، فهل لهذا أثر على الإيمان؟ يأتي الجواب منه ﷻ فيقول في الحديث: «السَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالْفَخْرُ وَالْخِيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ، أَهْلُ الْوَبَرِ، قَبْلَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ»، ويقول: «وَالْفَخْرُ وَالْخِيَلَاءُ فِي أَصْحَابِ الْإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَصْحَابِ الشَّاءِ».

فأهل الإيمان أهل سكينه ووقار، وهكذا أهل الغنم على ما يتعلمونه من صبر وتؤدة وتواضع ورقة، يقول الحافظ ابن حجر: "قوله: (السكينة في أهل الغنم) أي الوقار أو الرحمة أو الطمأنينة، مأخوذ من سكون القلب"، وقال -أيضاً-: "والسكينة تطلق على الطمأنينة والسكون والوقار والتواضع"^(٣).

وعلى العكس تماماً في أهل الوبر، ففيهم من الخيلاء والكبر والفخر ما يجعلهم قساة أجلافاً، يقول النووي: "وأما قوله ﷻ: (الفخر والخيلاء)، فالفخر هو الافتخار، وعد المآثر القديمة تعظيماً، والخيلاء الكبر واحتقار

(١) الاستذكار (٤٩٩/٨).

(٢) التمهيد (١٤٢/١٨).

(٣) فتح الباري (١٣٢/١)، (٣٥٢/٦).

الناس، وأما قوله: (في أهل الخيل والإبل الفدادين أهل الوبر)، فالوبر وإن كان من الإبل دون الخيل، فلا يمتنع أن يكون قد وصفهم بكونهم جامعين بين الخيل والإبل والوبر، وأما قوله ﷺ: «والسكينة في أهل الغنم»، فالسكينة: الطمأنينة، والسكون على خلاف ما ذكره من صفة الفدادين»^(١).

ويقول ابن حجر: "وقال أبو العباس: الفدادون هم الرعاة والجمالون، وقال الخطابي: إنما ذم هؤلاء لاشتغالهم بمعالجة ما هم فيه عن أمور دينهم، وذلك يفضي إلى قساوة القلب، قوله: (أهل الوبر) بفتح الواو والموحدة، أي ليسوا من أهل المدر؛ لأن العرب تعبر عن أهل الحضر بأهل المدر، وعن أهل البادية بأهل الوبر، واستشكل بعضهم ذكر الوبر بعد ذكر الخيل، وقال: إن الخيل لا وبر لها، ولا إشكال فيه؛ لأن المراد ما بينته"^(٢).

ومن هنا فإن الله هياً أنبياءه للرسالة، ووطأهم للدعوة إليها، فقدر لهم بحكمته رعي الغنم، ومخالطة الشاء، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيضَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»^(٣). قال الحافظ ابن حجر: "قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم؛ ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره، كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها، مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبوا كسرهما ورفقوا

(١) شرح النووي على مسلم (٣٤/٢).

(٢) فتح الباري (٣٥٢/٦).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، برقم (٢٢٦٢) (٨٨/٣).

بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة؛ لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعي الغنم؛ وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها؛ ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر، لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها، وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمنته عليه، وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «فَتَخَرَ أَهْلُ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْفَخْرُ وَالْخَيْلَاءُ فِي أَهْلِ الْإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ»، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُعِثَ مُوسَى لِبَلِيَّةٍ وَهُوَ يَرَعَى غَنَمًا عَلَى أَهْلِهِ، وَبُعِثْتُ أَنَا وَأَنَا أَرَعَى غَنَمًا لِأَهْلِي بِجِيَادٍ»^(٢).

قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر: "وأما أهل الخيل والإبل فهم الأعراب أهل الصحراء، وفيهم التكبر والتجبر والخيلاء، وهي الإعجاب والفخر والتبختر، وأما أهل الغنم فهم أهل سكينة وقلة أذى، وقلة فخر وخيلاء، على ما قال النبي ﷺ فهو الصادق في خبره ﷺ، وأما قوله: الفدادين فكان مالك يقول: الفدادون هم أهل الجفاء، وهم أهل الخيل والوبر، يريد بالوبر الإبل، وهو كما قال مالك، قال أبو عبيد: هم الفدادون بالتشديد، وهم الرجال، والواحد فداد، وقال الأصمعي: هم الذين تعلق أصواتهم في حروثهم ومواشيهم وما يعالجون منها"^(٣).

ويقول ابن بطال: "خص الغنم من بين سائر الأشياء حُضًّا على

(١) فتح الباري (٤/٤٤١).

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم (١١٩١٨) (٤٠٩/١٨). وصححه الشيخ الألباني. السلسلة

الصحيحة (٧/٥٠٠).

(٣) التمهيد (١٨/١٤٣).

التواضع، وتبنيهاً على إثارة الخمول وترك الاستعلاء والظهور، وقد رعاها الأنبياء والصالحون، وقال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم»، وأخبر أن السكينة في أهل الغنم^(١).

وقال الباجي: «وقوله ﷺ: «والسكينة في أهل الغنم»، يحتمل -والله أعلم- أن يكون ذلك على وجه التعرف بهم، ويحتمل أن يكون ذلك سبب سكينتهم لضعفها، وقلة استعانة أهلها بها في محاربة عدو ومناوئته، فرغبوا في المسألة، وتخلقوا بالسكينة والوقار، والكف عن الأذى^(٢).

ولهذا جعل الله ﷻ البركة والنماء في الغنم، والسكينة والوقار في أهلها، فهم أهل طمأنينة بالإيمان، ووقار ورفعة وتواضع بصفاته، ومن ذلك الحديث: «الإيلُ عزٌّ لأهلها، والغنمُ بركةٌ، والخيرُ معقودٌ في نواصي الخيلِ إلى يومِ القيامةِ»^(٣).

المسألة الرابعة:

الإيمان وعلاقته برقة القلب: بعد التطواف مع ألفاظ الحديث وحكمه وأحكامه، لا بد من تمعك الذهن، وتمحيض النظر، وتمحيص القول، لمسألة الحديث الأصيلة، وهي سبب اختياري لهذا الحديث العظيم، والإطالة في سرد رواياته وطرقه، وتأمل أقوال العلماء والشراح، لعلي أظفر بضالتي، وإذ بها في مرمى سهمي، سهلة المنال، غضة طرية، فسبب ورود الحديث يفتح بابها، ويمهد طريقها؛ إذ جاء وصف صنف من المؤمنين، بأخص خصالهم، مادحاً لها، معظماً لشأنها، حاثاً على لزومها، والاهتداء بها.

فالنبي الكريم ﷺ جلى أوصاف أهل اليمن عند مقدمهم عليه، فهم

(١) شرح صحيح البخارى لابن بطلال (٧١/١).

(٢) المنتقى شرح الموطأ (٢٩٠/٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب التجارات، باب اتخاذ المشية، برقم (٢٣٠٥) (٢/٧٧٣)، عن عروة البارقي. وصححه الشيخ الألباني. صحيح الجامع الصغير (١/٥٣٥).

أهل إيمان وفقه وحكمة، يشتركون في شيء واحد، وهو القاسم المشترك الذي تبوؤوا به هذه المكانة العلية، وهو الرحمة العظيمة، التي حوت قلوبهم، فنبلت بها طباعهم، وركت لها أفئدتهم، وهذا بيت قصيدنا، فعظم الرحمة في قلوبهم، هو ما جعلهم يتميزون بالبرقة واللين، وجاء الوحي من السماء بتصديق هذا وبيان فضله، وإثبات درجة عالية من الإيمان والفقه والحكمة، ولا شك أن رأفة قلوبهم تجعل منهم محطاً لشفقتهم بالخلق، ورحمتهم بالعباد، وهكذا تتحقق فيهم سبل الهداية من ناحية علاقتهم بالخالق وهي الأصل، وعلاقتهم بالمخلوق وهي فرع عنها، فكان الأصل وفرعه منبثقاً عمّ وقر في القلب من الرحمة، بل يعظم ثبوت الإيمان بالله ﷻ بقدر ما يقر في القلب من الرحمة والرأفة.

هذا أولاً - أعني من حيث سبب ورود الحديث-، أما من جهة أخرى: فإنه ﷺ فرق بين أهل الإيمان والكفر، فحدد أقواماً بعينهم من هؤلاء وهؤلاء، ولكن البحث يتجه تجاه الأوصاف لكل منهما، فوصف أهل الإيمان بما يقتضي الرحمة والرأفة، فهم رقيقة أفئدتهم، لينة قلوبهم، فكل أفعالهم وأقوالهم تصدر عن رحمة ورأفة، إذا عرض عليهم أمر الله أخذوه بجانب الاستكانة والاستجابة، وإذا عرضت عليهم مصالح الخلق وأحوالهم صدرت تصرفاتهم بالرحمة والرأفة، فإذا رأوا يتيمًا مسحوا على رأسه، وإذا رأوا أرملة أو مسكينًا جبروا كسرهم، وسدوا عوزَه، حَمَمَ اللهُ قلوبهم، وكساها بالرحمة والشفقة، وحرّم عليها الغل والحدق والحسد، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كُلُّ مَحْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ»، قَالُوا: صَدُوقِ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مَحْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيٍ، وَلَا غِلٍّ، وَلَا حَسَدٍ»^(١).

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، برقم (٤٢١٦) (١٤٠٩/٢). وصححه

وإذا تشربت القلوب غلظة وقسوة صدرت الأفعال والأقوال بما يوجب
النفرة من الحق، والجفوة للخلق، بل إن ذلك سبب للطغيان والكبر
والغطرسة المفضية للتكبر للحق، والفظاظة مع الخلق، كما في حديث
حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ
بَأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ
بَأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عَتَلٍ، جَوَّازٍ مُسْتَكْبِرٍ». وفي رواية لمسلم: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ
بَأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ جَوَّازٍ زَنِيمٍ مُتَكَبِّرٍ»^(١). وفي رواية عن عبد الله بن عمرو بن
العاص رضي الله عنه عند أحمد: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّازٍ مُسْتَكْبِرٍ، جَمَاعٍ
مَنَاعٍ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الضُّعْفَاءُ الْمَغْلُوبُونَ»^(٢)، يقول النووي: «(كل ضعيف
متضعف) ضبطوا قوله (متضعف) بفتح العين وكسرهما المشهور الفتح،
ولم يذكر الأكثرون غيره، ومعناه يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون
عليه؛ لضعف حاله في الدنيا، يقال: تضعفه واستضعفه، وأما رواية
الكسر، فمعناها: متواضع متذلل خامل، واضع من نفسه، قال القاضي:
وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها وإخباتها للإيمان، والمراد أن
أغلب أهل الجنة هؤلاء، كما أن معظم أهل النار القسم الآخر، وليس
المراد الاستيعاب في الطرفين»^(٣).

وقال النووي -أيضاً-: «قوله ﷺ في أهل النار: (كل عتل جواظ
مستكبر)، وفي رواية (كل جواظ زنيم متكبر)، أما العتل بضم العين والتاء،
فهو الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: الجافي: الفظ الغليظ،

الشيخ الألباني، السلسلة الصحيحة (٢/٦٢٢).

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب تفسير القرآن، باب: (عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ) (الظلم: ١٣)،
برقم (٤٣٨٨) (١٥٩/٦). ومسلم في الصحيح كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها
الجبَّارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٥٣) (٤/٢١٩٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم (٧٠١٠) (١١/٥٨٥). وصححه الشيخ الألباني، السلسلة الصحيحة
(٤/٣٢١).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٧/١٨٦).

وأما الجواظ بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة، فهو الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم، المختال في مشيته، وقيل: القصير البطين، وقيل: الفاخر بالخاء، وأما الزنيم، فهو الدعي في النسب، الملتصق بالقوم وليس منهم، شبه بزئمة الشاة، وأما المتكبر والمستكبر فهو صاحب الكبر، وهو: بطر الحق وغمط الناس^(١).

ومن ناحية أخرى فإن مهنة الإنسان تتطبع بداخله، فتؤثر في طبعه، فأهل الحضرة، ومن يعملون برعي الغنم، يكتسبون رقة في الطبع، ولين في الانفعالات، وسرعة في الاستجابة للحق، ومحبة أهله، وأهل البدو ورعي الإبل فيهم من طبعها، من الجفاء والغلظة، فهم أهل قسوة وغلظة، وأبعد عن السكينة والوقار، أقرب من الكبر والأنفة والاستعلاء، وقمن بقوم هذا وصفهم الاعتراض على الأوامر، والتكل للزواج، وهذا هو قوله ﷺ: «وَالْفَخْرُ وَالْخِيَلَاءُ فِي أَصْحَابِ الْإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَصْحَابِ الشَّاءِ».

وعلى هذا فإن علاقة الإيمان بالرحمة علاقة طردية، بمعنى أن الرحمة إذا ملئت القلب انعكس على إيمانه إيجاباً، وهذا بأعلى المنازل، وإذا ما نزع الرحمة من قلب فإن الإيمان ينزع عنه - كذلك -، وهذا بأوضاع المنازل وأشقاها، وأحطها وأدناها، وهو مشاهد لمن وفقه الله ﷻ، أسأل الله بأسمائه وصفاته أن يوفقنا لرضاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.



الخاتمة

أهم النتائج:

- رسالة الله رحمة للعالمين، وأرحم عباد الله بعباد الله هم رسل الله ﷺ.
- الصحابة رضي الله عنهم حملوا لواء الرسالة، فأكسبهم الله حظاً عظيماً من صفاتها، فكانوا أرحم عباد الله بعد رسل الله ﷺ.
- يتلازم الإيمان والرحمة تلازماً حقيقياً، مثلت السنة النبوية الشريفة ذلك بياناً شافياً.
- زيادة الإيمان ونقصانه عقيدة من عقائد المسلمين الصحيحة، دلت السنة النبوية المطهرة على ارتباطها برحمة القلب.
- غلظة الطبع، وقسوة القلب، من صفات أهل الكفر والزيغ، ورقة الطبع، ورأفة القلب من صفات أهل الإيمان.
- العاقبة العظمى في الدنيا للرحماء، وفي الآخرة للرحماء، فإنما يرحم الله من عباده الرحماء.
- ما نزل خير، ولا عمَّ فضل، إلا بالرحمة.
- الرحمة رسالة الله ﷻ للأولين والآخرين.

أهم التوصيات:

- الدعوة للتفكير في نصوص السنة النبوية المطهرة، والتأمل في معانيها، وفتح المجال للبحث العلمي الممنهج.
- فتح المجال لبحوث السنة التحليلية، وتشجيع الباحثين لطرق مواضيعها.
- التركيز على الجانب الإعلامي، وإبراز محاسن السنة النبوية المطهرة في مجالاتها المختلفة.
- الدفاع عن دور الإسلام في إصلاح البشرية، وإشغال العامة بمثل هذه المواضيع الهادفة.
- مضاعفة جهود المؤسسات الدعوية والعلمية، والصروح العلمية كالجامعات، وكلياتها المتخصصة في علوم الشريعة في إبراز رسالة الإسلام بسماحته ورحمته.
- جانب الرحمة من أكثر ما يستعمله الغرب لإبراز محاسن حضارته ونهضته، وهو في الحقيقة غشاء رقيق تتكشف عورته أمام نور الإسلام الساطع، فعلى أهله مهمة بالغة الأهمية، غاية في النبل، وهي إبراز أصالة ديننا الحنيف في الرحمة بالعالمين، فأصل رسالة نبينا ﷺ الرحمة للعالمين أجمعين.



فهرس المصادر والمراجع:

١. الأربعين في فضل الرحمة والراحمين، شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
٢. أصول الإيمان، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي (ت ٢٠٦هـ)، تحقيق: باسم فيصل الجوابرة، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ.
٣. الإيمان، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٤. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى العلوي، ومحمد البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.
٥. زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، عبدالرزاق بن عبد المحسن البدر، الناشر: مكتبة دار القلم والكتاب، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٦. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين الخُسْرُو جردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
٧. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي،



تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة،
الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٨. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري
(ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار إحياء
التراث العربي، بيروت.

٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل
العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبدالرحمن بن رجب
السلامي، البغدادي (ت ٧٩٥هـ)، تحقيق: مجموعة من الباحثين،
الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، الطبعة: الأولى،
١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

١١. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن
تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن
قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة النبوية،
١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

١٢. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل
الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار
الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

١٣. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى
ابن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي،
بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

المظاهر الدلالية والاشتقاقية للرحمة في القرآن الكريم

إعداد:

د. محمد الحسن مختار بلال

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية

جامعة الإمام المهدي - السودان



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فبقراءتي للقرآن الكريم والسنة المشرفة لفت نظري كثرة ذكر كلمة (الرَّحمة)، فرجعت إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فوجدت حشداً من الآيات التي تناولت الرَّحمة ودلالاتها ومشتقاتها، كما وإنَّها جاءت عند المفسرين وأهل اللغة بمعان ودلالات متعددة على حسب ما يقتضيه السياق القرآني مما راق لي أن أنحى هذا المنحى في دراستي هذه.

فإن وفقت فذلك فضل من الله وتوفيقه، وإن أخفقت فمني ومن الشيطان، وأسأل الله ﷻ أن يوفقنا في خدمة كتابه الجليل.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى الآتي:

1. تقصي المظاهر الدلالية والاشتقاقية للرَّحمة في القرآن الكريم من خلال التعرف على أهمية هذه المفردة، وما لها من قيم ومعانٍ في الإسلام.

٢. بيان دلالة كل صيغة من تلك الصيغ، كدلالتها على المبالغة والثبوت، أو الاشتراك، وما أشبه ذلك.

٣. ذكر جماليات التعبير القرآني في العدول عن الصيغ القياسية إلى إحدى هذه الصيغ ومقارنتها بما ورد من نفس مادتها على الصيغة القياسية، مثل: الرحمن، الرحيم، الراحم، الرحمة، الرحم، الرحمة.

٤. الرجوع إلى أمهات الكتب في الصرف واللغة والتفسير لمعرفة ما قال أهل العلم في دلالات هذه الصيغ؛ لتكون لهذه الدراسة أصولٌ تقوم عليها، ومستندٌ يعضد ما تنتجه وتذهب إليه.

مشكلة الدراسة:

تتحصّر مشكلة الدراسة في السؤال الرئيس التالي: ما هي المظاهر الدلالية والاشتقاقية للرحمة في القرآن الكريم؟

ويتفرع منه سؤالان:

أ. ما المعاني التي يدل عليها مصطلح الرحمة ومشتقاته في القرآن الكريم؟

ب. ما اتجاهات وآراء المفسرين واللغويين حول المظاهر الدلالية والاشتقاقية للرحمة في القرآن الكريم؟

أهمية الدراسة:

تتبع أهمية الدراسة من كون الرحمة كلمة جامعة مانعة، جاءت في القرآن بعدة اشتقاقات وبوجوه كثيرة من المعاني، ولا شك أن مجيئها حاوية لشتى المعاني دلالة على عظمتها، وخطورة شأنها ومكانتها الرفيعة عند المولى ﷺ ونبيه الكريم، وقد جاءت هذه الدراسة لتتقصّى هذا الأمر.



منهج الدراسة

للإيفاء بمتطلبات الدراسة استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد على وصف الظاهرة.



المحور الأول تعريف لفظي الدلالة والاشتقاق

أولاً: تعريف علم الدلالة في اللغة:

هو العلم الذي يختص بدراسة ظاهرة معينة، والوقوف على ماهيتها وجزئياتها، وما يتعلق بها، دراسة موضوعية. والدلالة لغة: مصدر الفعل دلّ، وهو من مادة (دل)، التي تدلّ فيما تدلّ على الإرشاد إلى الشيء والتعريف به، ومن ذلك "دله على الطريق، أي سده إليه" وفي التهذيب دلت بهذا الطريق، دلالة: عرفته، ثم إن المراد بالتسديد: إراءة الطريق^(١). ومن المجاز "الدالّ على الخير كفاعله"، "ودله على الصراط المستقيم"^(٢).

وفي الاصطلاح عرّفها الجرجاني ٨١٦هـ: "هي كون الشيء بحالة، يلزم من العلم به، العلم بشيء آخر، الشيء الأول هو الدال، والثاني المدلول" وهذا معنى عام لكل رمز إذا علم، كان دالا على شيء آخر، ثم ينتقل بالدلالة من هذا المعنى العام إلى معنى خاص بالألفاظ باعتبارها من الرموز الدالة^(٣). وترتبط دلالة لفظ "الدلالة" في الاصطلاح بدلالته في اللغة، حيث انتقلت اللفظة من معنى الدلالة على الطريق، وهو معنى حسي، إلى معنى الدلالة على معاني الألفاظ، وهو معنى عقلي مجرد،

(١) محمّد بن محمّد بن عبدالرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة الكويت، ج ٢٨ ص ٤٩٧ ٤٩٨.

(٢) أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م ص ١٣٤.

(٣) فريد عوض حيدر، علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٥ م، ص: ١١.



ويعرف بعضهم بأنه دراسة المعنى أو العلم الذي يدرس المعنى أو ذلك الفرع من علم اللغة، الذي يتناول نظرية المعنى، أو ذلك الفرع، الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز، حتى يكون قادراً على حمل المعنى.^(١)

ثانياً: تعريف الاشتقاق في اللغة:

من شقَّ الغرس ونحوه شقَّقاً: مال في جريه إلى جانب، فهو أشقُّ وهي شقَّاءٌ. شاقَّه: خالفه وعاداه. وفي التنزيل العزيز: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقَّوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر] تشقق: تصدع، وبدأت شقوقه،. الشقُّ: مصدر قولك شققْتُ العود شقّاً. الشقُّ: الصدع البائن؛ وقيل: غير البائن، وقيل: هو الصدع عامة، والشقُّ: الصبح. وشق الصبح يشق شقاً إذا طلع، وشقائق النعمان: نبت، واحدها شقيقة، سميت بذلك لحمرتها على التشبيه بشقيقه البرق، والشقُّ: الشقيق الأخ وجملة أشقاء: يقال هو أخي وشقُّ نفسي؛ النساء شقائق الرجال، أي نظائرهم وأمثالهم في الأخلاق والطباع. واشتقاق الشيء بيانه من المرتجل، واشتقاق الكلام: الأخذ فيه يميناً وشمالاً.^(٢)

وفي الاصطلاح أخذ كلمة من كلمة بشرط أن يكون بين الكلمتين تناسب في اللفظ والمعنى وترتيب الحروف؛ مع تغاير في الصيغة، كما تأخذ (اكتب) من (يكتب) وهذه من (كتب)، وهذه من (الكتابة)^(٣). الاشتقاق في علوم العربية: صوغ كلمة من أخرى على حسب قوانين الصرف.^(٤)



(١) د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب ص ٢٦-٢٧-٢٨-٢٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٧١١ هـ-١٢١١ م) ... طبعة دار المعارف، مادة شقق.

(٣) مصطفى الغلاييني جامع الدروس العربية، ي(١٢٠٢-١٢٦٤هـ) المكتبة التوفيقية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ج١، ص ١٥٠.

(٤) إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبدالقادر، محمد النجار، المعجم الوسيط مؤسسة الصادق للنشر والتوزيع، مادة شقق.

المحور الثاني معنى الرحمة لغة

قال الجوهري: الرَّحْمَةُ: الرَّقَّةُ والتَّعَاطُفُ^(١). وقال ابن منظور: والرَّحْمَةُ في بني آدم عند العرب رِقَّةُ القلب وعطفه^(٢). ومنها الرَّحِمُ: وهي علاقة القرابة، ثم سُمِّيَتْ رَحِمُ الأُنثَى رَحِمًا من هذا، لأنَّ منها ما يكون ما يُرَحِمُ وَيُرَقِّقُ له من ولد^(٣). وقد تطلق الرحمة، ويراد بها ما تقع به الرحمة كإطلاق الرحمة على الرزق والغيث^(٤). الرحمة: رحم بكسر الحاء بيت منبت الولد ووعاؤه في البطن، والرحم أسباب القرابة، وأصلها الرحم التي هي منبت الولد، والرحم موضع تكوين الجنين ووعاؤه في البطن^(٥). قال ابن الأثير: ذو الرحم هم الأقارب، والرحمة في بني آدم عند العرب، رقة القلب وعطفه ورحمة الله: عطفه وإحسانه. قال عملس بن عقيل:

فإمَّا إذا عَضت بك الحرب عَضَةً فَإِنَّكَ مَعْطُوفٌ عَلَيْكَ رَحِمُهُ^(٦)

- (١) زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) مختار الصحاح، تحقيق، يوسف الشيبخ محمد: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا ط ٥، ٤٢٠هـ / ١٩٩٩م / انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢ / ٤٩٨.
- (٢) ابن منظور لسان العرب، ٧١١هـ - ١٣١١م) ... طبعة دار المعارف.. ج ١٢ ص ٢٣٠.
- (٣) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ج ٢، ص ٤٩٨.
- (٤) لسان العرب، ج ١٢ ص ٢٣٠.
- (٥) إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، المعجم الوسيط، مؤسسة الصادق للنشر والتوزيع، ط ٥، ص ٣٢٥.
- (٦) لسان العرب، باب الرءاء، مادة، رح م.

قال عكرمة: في قوله ﷺ (إبتغاء رحمة من ربك... الخ، أي المغفرة، ومعنى الرحمة الرزق، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧) [الأنبياء] ﴿وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرًا﴾ (١) [هود] أي عطفًا وصنعًا ﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرَفٌ فَإِنَّا قُلُوبُ اللَّهِ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (٢) [يونس: ٢١] أي حيًّا وخصبًا بعد مجاعة.

وقال الإمام الغزالي في تعريف الرحمة كلمة شاملة: "والرحمة تستدعي مرحومًا ولا مرحوم إلا هو محتاج، ورحمة الله تامة عامة، أما تمامها من حيث إرادة قضاء حاجات المحتاجين وقضاءها، وأما عمومها، فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق، وعم الدنيا والآخرة وتناول الضرورات والحاجات والمزايا الخارجية عنها، وهو الرحيم المطلق حقًا" (١). عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «الرحم معلق بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله» (٢). صلة الرحم هي مبرة للأهل والأقارب والإحسان إليهم (٣). وقيل معنى الرحمة: الرأفة، والرحمة: العلم والحكمة، كما ورد في سورة الكهف ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٤) [الكهف: ٦٥] أي العلم والحكمة، فقد ورد تفسير لطيف لكلمة الرحمة في تفسير الإمام الطبري ضمن تفسيره للآية القرآنية ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢] وأيضًا جاء في تفسير القرطبي ضمن الآية نفسها: في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول

(١) أبو حامد الغزالي: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ط عام ١٤١٠هـ ١٩٨٩م، بعناية

شركة زليل للصناعات المحدودة، جدة، المملكة العربية السعودية، ص ١٤ - ١٥.

(٢) أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم، صحيح مسلم دار إحياء التراث العربي - بيروت، ٤/ ١٩٨١ برقم ٢٥٥٥.

(٣) أحمد طاحون، الكوكب المنير في أدب النفس والضمير، ط ١، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م، مكتبة التراث

الإسلامي، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ص ١٠٨.

اللَّهُ ﷻ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ فِي كِتَابٍ عَلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ: أَنْ رَحْمَتِي تَغْلِبُ عِقَابِي»^(١) ففي ابن كثير: كما ثبت في الصحيحين من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»^(٢).

ولا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى، من حيث إن معناه لا يصح إلا له، إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة، والرحيم يستعمل في غيره، وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَنَّهُوَا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٢] وقال في صفة النبي ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة] وقيل: إن الله تعالى هو رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة، وذلك أن إحسانه في الدنيا يعمُّ المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختصُّ بالمؤمنين، وعلى هذا قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] تتبها أنها في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين^(٣).

معنى الرحمة اصطلاحاً

الرَّحْمَةُ رِقَّةٌ تَقْتَضِي الْإِحْسَانَ إِلَى الْمَرْحُومِ، وَقَدْ تَسْتَعْمَلُ تَارَةً فِي الرِّقَّةِ الْمَجْرَدَةِ، وَتَارَةً فِي الْإِحْسَانِ لِمَجْرَدِ عَنِ الرِّقَّةِ^(٤) وقيل: (هي رقة في

- (١) محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، ط القاهرة ج ١، رقم الحديث ٢٤٩٤ حديث متفق عليه، انظر: صحيح مسلم ٧١٤٧ والسنة لابن أبي عاصم ٦٠٩، وسنن ابن ماجه ١٨٩.
- (٢) صحيح بخاري (١٢٠/٩ رقم ٧٤٠٤)، ط دار طويق النجاة، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط ١٤٢٢هـ. وصحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، حديث متفق عليه، رقم الحديث ٢٧٥٢، ج ٢ ص ١٠٣.
- (٣) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، ص ٢٤٧. وانظر: جمهرة اللغة لابن دريد، دار الكتب العلمية، ط ٢٠٠٥م ١٤٢٦هـ، ج ١، ص ٦٠٥.
- (٤) الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن ج ١، ص ٢٤٧.



النفس، تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه^(١). الرحمة رقة في القلب يلامسها الألم حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر وجود الألم عند شخص آخر أو يلامسها السُرور حينما تدرك الحواس أو يتصوّر الفكر وجود المسرّة عند شخص آخر^(٢). والرّحمة كمال في البشرية، تجعل المرء يرقُّ لألم الخلق فيسعى لإزالتها، كما يسعى لمواساتهم لأخطائهم، فيتمنى لهدايتهم ويلتمس أعدارهم.

الرّحمة صورة من كمال الفطرة، وجمال الخلق، تحمل صاحبها على البرّ، تهبُّ عليه في الأزمات نسيماً عليلاً تترطب معه الحياة، الرّحمة سبب واصل بين الله وبين عباده به أرسل رسله إليهم، وأنزل كتبه عليهم، وبها هداهم، وبها يسكنهم دار ثوابه، وبها يرزقهم ويعافهم وينعم عليهم. الرّحمة ليست حناناً لا عقل معه، وليست شفقة تتكرّر للعدل والنظام، كلابل إنّها خلق يرعى الحقوق كلّها، الطيب يمزق اللحم ويبتز العضو، وما يفعل ذلك إلا رحمة بالمريض وعلاجه^(٣).



(١) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتوير الدار التونسية للنشر ج٢٦ ص ٢١.
(٢) عبدالرحمن الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار العلم ط٥: ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م ج٢ ص ٣.
(٣) سليمة قدير، معنى الرحمة والثقافة لغة واصطلاحاً، الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد باكستان.

المحور الثالث

بيان المعاني المتعددة للرحمة عند مفسري القرآن الكريم

للرحمة في القرآن الكريم قيمة عظيمة وواسعة، فلا تكاد تجد قضية تتناولها القرآن إلا وكانت الرحمة علتها ومقصدها، سببها وغايتها، ولو أمكن استبدال اسم الدين الإسلامي بكلمة أخرى لكانت كلمة الرحمة هي الكلمة الأولى، ولكان اسم الدين هو دين الرحمة. حسبنا أن نذكر طرفاً من هذه المعاني على حسب ما يقتضيه السياق القرآني^(١)، والآن نأتي إلى تفصيل معاني الرحمة بمشيئة الله ﷻ:

المعنى الأول: منبت الولد ووعاؤه في البطن

معنى الرحمة منبت الولد ووعاؤه في البطن، فالرحم من الرحمة في مبناها، ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد] فحري أن يستقيم معها في معناها، وقال الرسول الله ﷺ: قال تعالى: (أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته)^(٢). (وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

(١) جريدة المعرفة: جريدة يومية تصدر عن وزارة التعليم، المملكة العربية السعودية: (من مفاهيم الرحمة في القرآن) عمران نزال: تاريخ النشر ١٩/٨/١٤٣١هـ - ٢٠١٠/٧/٣١م.

(٢) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، جامع الترمذي (٢٥٦هـ) حديث قدسي، رقمه ١٩٠٧ دار الكتب العلمية، باب صلة الرحم وتقطيعها، ص ١٨٢٦.

عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْ خَلْقِهِ، قَالَتْ الرَّحْمُ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضِينَ أَنْ أَسْلَمَ مِنْ وَصْلِكَ، وَأَقْطَعُ مِنْ قَطْعِكَ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَهُوَ لَكَ»^(١).

المعنى الثاني: الرحمة تعني القرابة والقربى:

المعنى الثاني للرحمة، فهو القرابة والقربى والدنو في النسب، كما تقول: بيني وبينه قرابة، قال ابن سيده: قارب الشئ داناه، وتقارب الشيطان تدانيا^(٢). إِنَّ الْقَرِيبَ جُزْءٌ مِنْ قَرِيْبِهِ، مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ، مَتَّصِلٌ بِهِ، لِذَا كَانَ لَهُ حَقُّ الرِّعَايَةِ وَالصَّلَةِ وَالْبِرِّ، لِذَا أَوْصَى الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ بِرِعَايَةِ الْأَهْلِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَالْوَفَاءِ بِحَقُوقِهِمْ، وَلِنَتَدَبَّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾^(٣) [النساء] فإذا تماسكت الأسر، وتأنفت العشائر والقبائل، وعمهم الحب والإخاء، سعدوا، وانتظمت أمورهم، فتعود ثمرات ذلك على الأمة، فتقوى شوكتها، وترتفع رايته، وتنعم بالتآخي والتراحم والتعاطف بين أبنائها^(٤). قد بين لنا الرسول ﷺ ذلك بقوله: «يا أمّة محمد، والذي بعثني بالحق، لا يقبل الله صدقة من رجل، وله قرابة محتاجون إلى صلته، ويصرفها إلى غيرهم، والذي نفسي بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة»^(٥)، وفي ثواب الصدقة على القريب يقول ﷺ: «أفضل

(١) صحيح بخاري (١٣٤/٦ رقم ٤٨٢٠)، ومسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ، رقم الحديث ٢٥٥٦، حديث قدسي منفق عليه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي: دار إحياء التراث العربي بيروت، باب صلة الرحم وتقطيعها، ص ٤٦٤٠.

(٢) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى (المتوفى: ٤٥٨هـ) المخصص: تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت ط ١١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م ص ١٢٢.

(٣) سليمة قدير، معنى الرحمة والثقافة لغة واصطلاحاً.

(٤) سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق محمد الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م الحديث رقم ٨٨٢٨، ص ٩٠٦٠ والحديث ضعفه الزباني في السلسلة الضعيفة

..(٣٢٣٠ رقم ٣٤٢/٧)

الصدقة على ذي رحم كاشح، أي القريب غير الوفي المبغض لأهله، وفي ذلك دواء للنفوس، جمع للقلوب بالإحسان والرعاية والبر»^(١).

المعنى الثالث: الرحمة تعني الرقة والرفق:

الرقة ضد القسوة والشدة، والرفق الضعف يقول الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَا وَكُنْتَ فَظًّا عَلِيظًا الْقَلْبَ لِأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ومنه قول الشاعر:

لم تلق في عظمها وهنا ولا رققا

يقال للأرض اللينة: رقت الأرض رقاً، والرفق ضد العنف، والرفق لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل والأيسر في الأمور، لأن الرفق محمود، وبه يحقق المرء المقاصد، وينجح في عمله، ويستقر في حياته، ويكسب محبة الناس وتقديرهم بخلاف العنف والغضب والشدة، إذ العنف يكون ثمرة الغضب والفظاظة، جاء عن عائشة رضي الله عنها، أن الرسول ﷺ قال لها: «يا عائشة أرفقي، فإن الله إذا أراد بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق»^(٢) وفي الحديث الذي رواه ابن عمر: «ما أعطى أهل بيت الرفق إلا نفعهم»^(٣) وعن عائشة رضي الله عنها «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» وقال ﷺ في أهل الحلم والرفق: «والمسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم»^(٤) كذلك يوجهنا النبي ﷺ إلى جانب كريم من جوانب الآداب

- (١) المرجع نفسه، ص ١٠٤.
(٢) الجامع الصحيح لمحمد إسماعيل البخاري، طبعة دلهي ١٩٣٦م، باب الرفق، حديث مرفوع رقمه ٦٢٥٦ ص ٥٨١٣.
(٣) المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل ط ١٤٠٤ - ١٩٨٣، السلسلة الصحيحة للألباني، رقم الحديث ١٣٢٦١، انظر: شعب الإيمان، البيهقي، الحديث رقم ٦٥٥٨.
(٤) البيهقي، السنن الكبرى، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م حديث صحيح رواه: أحمد، وأبو داود، والنسائي، والحاكم: من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقمه، ٢٨٨.



الإسلامية، وقد عنى الإسلام عناية واضحة بالدعوة إلى الرحمة بالصفار والرفق بهم، والعناية بتربيتهم باللين، وبوسائل التحبيب والترغيب.

المعنى الرابع: الرحمة تعني العطف

ظهر في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ومعنى العطف الانصراف، عطف يعطف عطفًا، أي انصرف، ورجل عطوف وعطاف: الذي يحمي المنهزمين، وعطف عليه يعطف عطفًا: رجع عليه يكره أوله بما يريد، وتعطف عليه وصله وبره، قال الليث: العطاف، الرجل الحسن الخلق، فعطفه فتعطف: حناه وأماله، العطاف: الرداء والطيلسان، كل ثوب تعطفه أي تردى به فهو عطاف^(١) قال مجاهد: بلغني أنه إذا تراءى المحبان فضحك أحدهما للآخر وتصافحا تحاتت خطاياهما كما تحاتت الورق من الشجر، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] هكذا فالتعاطف والتراحم واجب بين المسلمين، قد جاء في خطبة الوداع: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا...»^(٢) في الحديث الذي رواه أبو موسى: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا»^(٣) فهى النبي عن سوء الظن بالمسلم السالم في دينه وعرضه، وعن كل سبب يؤدي إلى القطيعة بين المسلمين، وإثارة العداوات والحزازات والشكوك بينهم في قوله ﷻ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا ولا تتاجشوا، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عبادا لله إخوانًا»^(٤). قد أمر الله المسلمين بالاجتماع على

(١) سليمة قدير، معنى الرحمة والثقافة لغة واصطلاحًا.

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، سنن الدارمي، تحقيق: نبيل بن هاشم بن عبد الله الغمري آل باعلوي، دار البشائر الإسلامية، ط١، حديث صحيح، رقمه، ١٩١٦.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، حديث مرفوع، رقمه ٦٢.

التساند والتآزر والتساعد، ونهاهم عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين السابقين، كما أمر الله عباده بتذكر نعمه وأعظمها نعمة، الإسلام، واتباع النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

صار أهل الإسلام بفضل الدين إخواناً في العقيدة، كل واحد منهم يتوخى مصالح أخيه، ويؤازره، ويناصره ويعينه، فهم متعاضدون لحماية عقائدهم ومقدساتهم، كان بين قبائل العرب في يثرب وغيرها حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة، وأحقاد طال بسببها تحاسدهم وتقاتلهم وكثرت الوقائع بينهم، فلما جاء الإسلام دخل فيه الناس أفواجا صاروا إخواناً متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى.

المعنى الخامس: الرحمة تعني الرزق

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْىءَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠١] والرزق معروف، والأرزاق نوعان: ظاهرة للأبدان كالأقوات، وباطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم، والرزق ما ينتفع به، والجمع أرزاق، والرزق العطاء.

المعنى السادس: الرحمة تعني المطر:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] قال الطبري: (الرحمة) التي ذكرها جل ثناؤها في هذا الموضع: المطر. ومن هذا القبيل قوله ﷺ: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٥٠].

وقد سمي المطر رزقا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥].



المعنى السابع: وتعني الجنة:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أُبْضِتْ أَجْسُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران] يعني في الجنة ما كثون فيها أبداً، لا يبغون عنها حولاً، ففي رحمة الله: أي في جنته وإكرامه خالدون باقون، الرحمة هي الجنة، مسكن المؤمن ومأواه، وهدف المسلم وممرماه، هذا هو المنزل الذي ينتظر الوافدين إليه، قال رسول الله ﷺ: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين»^(١) أمّا عن درجات الجنة، فجاء قوله ﷺ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صليت عليّ فاستلوا الله لي الوسيلة»، قالوا يا رسول الله: ما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا»^(٢)، عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ مِئَةٌ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْفَرْدُوسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةٌ، وَمِنْهَا تَفْجُرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةِ، وَمَنْ فَوْقَهَا يَكُونُ الْعَرْشُ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ»^(٣).

المعنى الثامن: الرحمة تعني السعة:

الله ﷻ ذو رحمة واسعة، فقد وسعت رحمته ﷻ كل شيء، ووسع ﷻ كل شيء رحمة وعلماً، قال ﷻ: ﴿وَأَكْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا لِإَيْتِكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتَبُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف] وقال ﷻ:

- (١) حديث متفق على صحته من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقد أخرجه (البخاري ٣٠/٢) ح (١٨٩٩)، و(مسلم ٧٥٨/٢) ح (١٠٧٩). ولفظ البخاري: "إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين" ولفظ مسلم "إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وفي لفظ (الرحمة) - وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين".
- (٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م، حديث مرفوع، رقمه ٧٥٤٤.
- (٣) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، أبواب الجنة، باب ما جاء في صفة درجات الجنة، حديث مرفوع، رقمه ٤٣٣١.

﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر] وقال تبارك اسمه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد] وقال عز من قائل: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢].

المعنى التاسع: الرحمة تعني الإحسان:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنبِئِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي﴾ [هود: ٢٨] الإحسان هو ضد الإساءة، وقيل: الإحسان المراقبة وحسن الطاعة، فإن من راقب الله أحسن عمله، قد جاء ذكر الإحسان في القرآن في مواضع تارة مقرونة بالإيمان، وتارة مقرونة بالتقوى والعمل الصالح، على سبيل المثال^(١): ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف] وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة] وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١٢٢﴾﴾ [لقمان].

المعنى العاشر: الرحمة تعني النبوة:

الرَّحْمَةُ بمعنى (النبوة)، من ذلك قوله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ يُخْصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، قال علي بن أبي طالب ﷺ: يختص برحمته: أي: بنبوته، خص بها محمداً ﷺ. وهذا على المشهور في تفسير (الرحمة) في هذه الآية^(٢). ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي﴾

(١) سليمة قدير، معنى الرحمة والثقافة لغة واصطلاحاً.

(٢) من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم: رحمة الهداية.. رحمة العلم.. رحمة التمكين. (مجلة

المعرفة) عمران نزال ٢٠١٠-٠٧-١٩ ٢١/١٩٣١/٨/١٤٣١.



[هود: ٢٨]، أي: نبوة، ورسالة. وقد أثبت الله ﷻ هذا المعنى في ذكره لمهمة الرسول ﷺ بالرحمة للعالمين كافة، بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

المعنى الحادي: الرحمة تعني القرآن الكريم:

الرحمة بمعنى (القرآن)، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] (الرحمة) في هذه الآية القرآن، حيث يقول صاحب تفسير المنار: قل يا أيها الرسول لجميع الناس بفضل الله ورحمته، وهو ما جاءهم من الله من الهدى وهو القرآن، وبذلك فليفرحوا، فإن القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ خير مما يجمعون من حطام الدنيا، وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة^(١).

المعنى الثاني عشر: الرحمة تعني: العلم والبيان

لقد خصَّ الله ﷻ سورة في القرآن الكريم باسمه الرَّحْمَن، وابتدأها باسمه أيضاً، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۙ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن] وفيما ذكره أهل اللغة فيما مضى أن الرحمن صيغة مبالغة في الرحمة، والحقيقة أنها أيضاً صيغة شمول واستغراق في الرحمة، بحيث تشمل كل ما خلقه الله من شيء، من إنسان وشمس وقمر ونجم وشجر وسماء وأرض و نار وجنة وغيرها، فكل ما ذكره الله ﷻ من مخلوقاته في سورة الرحمن، والذي أعقبه بالسؤال: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الرحمن]، تذكيراً بنعمه وآلائه، إنما خلقه بحقيقة واحدة، هي حقيقة الرحمة، التي كتبها الله على نفسه، بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الرحمن]، وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه].

ونرى أن في تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ

(١) مصحف المدينة، المصحف الميسر: الإصدار الرابع: تفسير الآية ص ٢١٥.

الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾، دلالة على أن الله عَلَّمَ القرآن قبل أن يخلق الإنسان، وبما أن الإنسان أحد مخلوقات الله ﷻ، التي شملها رحمته العامة، فإن الآيات ذكرت أهم ميزة تعود بالرحمة على الإنسان، وهو رحمة العلم والبيان، فالإنسان ليس أول المخلوقات ولا آخرها، بل إن خلق الشمس والقمر والسَّمَوَات والأرض سابق على خلق الإنسان، وأنَّ الله لما خلق السَّمَوَات والأرض وضع الميزان، والميزان هو معيار العدل والاتزان لكل ما خلقه الله، فمن رحمة الله ﷻ إمساكه لخلقه باتزان وعدل، فالسَّمَوَات والأرض محكومة بقانون الاتزان، وهذا من معنى قول الله ﷻ في سياق الآيات الأولى من سورة الرحمن بقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن].

المعنى الثالث عشر: الرحمة تعني التمكين:

وقد أمر الله ﷻ الإنس والجن بالسُّجود للرحمن، لأنه برحمته خلقهم، وأمدَّهم بأسباب الحياة والتمكين، وسخر لهم ما في السَّمَوَات والأرض، وقد جعل لهم الإيمان والكفر اختياراً إرادياً مستولاً^(١)، فقال ﷻ في سورة الكهف: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف] فمن آمن أو كفر فهو في رحمة الرَّحْمَنِ في الدنيا، فلا يمنع عن الكافر الحياة ولا العيش ولا الغذاء، وأمَّا من يؤمن فقد أدخل نفسه بإيمانه برحمة الله الرَّحِيم في الدُّنْيَا والآخرة معاً، أي أن اسم الله الرَّحِيم مختص بالرحمة بالمؤمنين، وعلى ذلك شواهد القرآن الكريم الكثيرة^(٢) ومنها قول الله تعالى: ﴿فَلْتَقِنْ

(١) من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم: رحمة الهداية.. رحمة العلم.. رحمة التمكين. (مجلة المعرفة) عمران نزال ٢٠١٠-٠٧-١٩٣١/٨/١٩٤٣١.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام ابن جرير الطبري ١٣/ج ٢٧/١٤٩.

ءَادَمَ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْتَ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ [البقرة]، فهنا الدعاء من نبي الله آدم عليه السلام، وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ [البقرة: ١٢٨] الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (١).

المعنى الرابع عشر: تعليم للمؤمنين أن يدعوه باسم الغفور الرحيم:

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ [يوسف]، فهذه الآية على لسان نبي الله يعقوب عليه السلام (٢)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغْفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ [الفصص]، على لسان رسول الله موسى عليه السلام.

وهكذا فإن الأنبياء والمرسلين والمؤمنين يدعون الله باسمه الرحيم، بل إن الله تعالى يدعو عباده أن يدعوه باسمه الرحيم الخاص بهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ [الزمر]، فالمؤمنون يدعون الله تعالى باسمه الرحيم ليميزوا أنفسهم عن باقي مخلوقات الله تعالى التي تشملها رحمة الرحمن، بينما المؤمنون تشملهم رحمة الرحمن خلقاً وتكويناً، مثل غيرهم من البشر والنبات والجماد والحيوان، وتخصهم رحمة الرحيم بإيمانهم ودعائهم وتوبتهم واستغفارهم وعبادتهم وصلاتهم وزكاتهم وصومهم وحجهم، وكل

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص ٣٤٧.

(٢) من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم: رحمة الهداية.. رحمة العلم.. رحمة التمكين. (مجلة المعرفة) عمران نزال ٢٠١٠-٢٠٧-١٩٣١/٨/١٩٤٣١.

عمل صالح، فقال تعالى: ﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة].

المعنى الخامس عشر: الرحمة تعني النصر:

وظهر ذلك في قوله ﷺ: وينصر عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم: ٤-٥].

وعلى الجملة، فإن لفظ (الرحمة) من الألفاظ العامة والشاملة، التي يدخل في معناها كل خير ونفع يعود إلى الإنسان في دنياه وآخرته؛ ومن هنا فلا غرابة أن نجد في كتب التفسير من يفسر لفظ (الرحمة) في موضع بمعنى من معانيه، ويفسره آخر بمعنى آخر، ويحكم ذلك كله في النهاية سياق الكلام وعلم المفسر.



المحور الرابع مشتقات الرحمة في القرآن، وأثر ذلك في اتّساع المعاني

إنّ كثرة الأسماء على مسمى واحد لا شكّ تدلُّ على عظمة المسمى وبعده مكانته، فالله ﷻ له تسع وتسعون اسمًا وصفة، سورة الفاتحة لها سبعة أسماء لذا سميت بالسبع المثاني، يوم القيامة وردت في القرآن بعدة ألفاظ، لما كان لهذا اليوم من عظمة وشأن في نفوس العباد، كما أن العرب أطلقت عدة أسماء لل سيف والخيّل والإبل والأسد ونحوها لأنها رأت أنّها ذات أثر وقيمة في نظرها، وكذا الحال في لفظ (الرَّحمة)، فإنّ دلالات هذه اللفظة كما قدّمها نصوص قرآنية عديدة باشتقاقاتها المختلفة، التي طاولت الأربع مئة اشتقاق، امتدت حتى غطت مساحات كبيرة أفضت إلى معانٍ أخرى تجاوزت الدلالة اللفظية والاصطلاحية أيضًا، كلُّ هذا حملته آيات، دلت سياقاتها لما تجاوز البعد اللغوي والاصطلاحي للفظ رحمة. مما زادت في إثراء اللغة واتّساع المعنى، ومن الصيغ التي وردت به في القرآن الكريم: صيغة فعْلان وفعيل، مثل الرَّحْمَن الرَّحِيم، وصيغة (فَعْلَة) بفتح الفاء وسكون العين مثل رحمة، (فَعِل) بفتح الفاء وكسر العين، مثل رَحِم، وصيغة (أفعل فاعلين) أرحم الراحمين، وصيغة (فُعْلا) بضم الفاء وسكون العين مثل رُحْمًا وصيغة (مَفْعلة) مثل مرحمة، سوف أتناول كلّ صيغة على حدة، لنرى لما لهذه الكلمة من معانٍ جامعة مانعة.

أولاً: صيغة (فعالان فعيل) الرحمن الرحيم

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، فالأولى على وزن (فعالان)، التي تدلُّ على الصفات المتجددة، نحو: عطشان وجوعان وغضبان، بخلاف صيغة (فعيل)، فإنه يدلُّ على الثبوت، نحو كريم بخيل وطويل، فإنَّ هذه الصفات ثابتة^(١) وقال آخر المعنى نفسه، إذ ذكر أنَّ صيغة (فعالان) في كثرة الشيء وعظمته، ولا يلزم منه الدوام، والرَّحِيمُ بمعنى دائم الرَّحمة، لأنَّ صيغة فعيل تستعمل في الصفات الدائمة^(٢) ونحوها ثالثاً يرى أنَّ الصيغتين (الرَّحْمَنُ والرَّحِيمُ) أنَّهما وصفان بنيا للمبالغة، بعد نقله إلى (فعل) بضم العين، وقدم الرحمن لأنه أبلغ^(٣).

ولا يخفى على أحدٍ أيضاً التقارب في المعنى بين الرَّحْمَنُ والرَّحِيمُ، والعلماء لهم تفصيلات كثيرة وآراء متعددة في الفرق بين اللفظين^(٤). وكان من الممكن أن يجمع الله مع صفة الرَّحمة صفة أخرى من صفاته، كالعظيم أو الحكيم أو السميع أو البصير، وكان من الممكن أن يجمع مع الرَّحمة صفة أخرى تحمل معنى آخر يُحَقِّقُ توازناً عند القارئ؛ بحيث لا تطفئ عنده صفة الرَّحمة؛ وذلك مثل: الجَبَّارُ أو المنتقم أو القهَّار، ولكن الجمع بين هاتين الصفتين المتقاربتين في بداية كلِّ سور القرآن الكريم يعطي الانطباع الواضح جداً، وهو أنَّ الرَّحمة مُقدِّمة بلا منازع على كلِّ الصِّفات الأخرى، وأنَّ التعامل بالرَّحمة هو الأصل الذي لا ينهار أبداً، ولا يتداعى أمام غيره من الأصول.

ويؤكِّد هذا المعنى ويظهره أنَّ أوَّل السُّور التي نراها في ترتيب القرآن

- (١) التعبير القرآني د. فاضل السامرائي، بيت الحكمة، بغداد، ١٩٨٧، ص ٣٨.
- (٢) د. محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط١: ١٩٨١، ص ١٠-١١.
- (٣) جمال الدين الفاكهي: شرح الحدود النحوية، تحقيق محمد الطيب إبراهيم، دار النفايس، بيروت، لبنان: ط١ ١٩٩٦م ص ٣٣.
- (٤) أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩م بكتابة أبوابه ورُفِّم أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي وقام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، ص ٣٥٨-٣٥٩.



الكريم^(١)، وهي الفاتحة، قد افتتحت بالبسملة - وفيها صفتا الرحمن الرحيم - كبقية السور، ثم نجد فيها صفتي الرحمن الرحيم قد تكررتا في السورة ذاتها، وهذا التصدير للقرآن الكريم بهذه السورة بالذات له دلالاته الواضحة أيضاً، وكما هو معلوم فسورة الفاتحة هي السورة التي يجب على المسلم أن يقرأها في كل ركعة من ركعات صلاته كل يوم، ومعنى ذلك أن المسلم يُرَدِّد لفظ الرحمن مرتين على الأقل، ويُرَدِّد لفظ الرحيم مرتين على الأقل، فهذه أربع مرات يتذكر فيها العبد رحمة الله في كل ركعة من ركعات الصلاة، وهذا يعني ترديد صفة الرحمة في كل يوم ثمان وستين مرة في خلال سبع عشرة ركعة تُمثِّل الفروض التي على المسلم؛ مما يُعْطِي تصوُّراً جيداً لمدى الاحتفال بهذه الصفة الجليلة: صفة الرحمة.

معنى "الرحمن" المنعم بجلال المنعم، ومعنى "الرحيم" المنعم بدقائقها، وبعضهم يقول: إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة، تشمل الكافرين مع غيرهم، والرحيم هو المنعم بالنعمة الخاصة بالمؤمنين. وكل هذا تحكم في اللغة مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقاً، فصفة الرحمن تدل على كثرة الإحسان الذي يعطيه سواء كان جليلاً أو دقيقاً.

أمَّا صيغة "فعلان" تدل على وصف "فعلى" فيه معنى المبالغة كفعال وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة: كعطشان وغرثان وغضبان، وأمَّا صيغة فاعل فإنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة: كالأخلاق والسجايا في الناس: كعليم وحكيم وحليم وجميل. والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ في الحكاية عن صفات الله ﷻ التي تلو عن مماثلة صفات المخلوقين. فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي إفاضة النعم

(١) ترتيب سور القرآن الكريم توقيفي، بمعنى أن الله أوحى لرسوله أن يرتب القرآن هذا الترتيب الذي بين أيدينا اليوم، مع أن الآيات والسور نزلت بترتيب مختلف. انظر: أبو عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٦٠.

والإحسان، ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان^(١) وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة. وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر، ولا يكون الثاني مؤكداً للأول، فإذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلاً، لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً. لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وإن كان كثيراً، فعندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله ﷻ ويرضيه ﷻ، ويعلم أن لله صفة ثابتة هي الرحمة التي عنها يكون أثرها، وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين، ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول، ليقوم برهاناً عليه. قول قد سبق العلامة ابن القيم إلى مثل هذه التفرقة، ولكنه عكس في دلالة الاسمين الكريمين. قال: وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى بديع، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به ﷻ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، وكأن الأول الوصف والثاني الفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفة ذات له ﷻ، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، أي صفة فعل له ﷻ، فإذا أردت فهم هذا، فتأمل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة] ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة. ورحيم هو الراحم برحمته. قال ﷺ: هذه النكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تتجل لك صورتها.^(٢)

وقال في كتاب آخر عند ذكر الاسمين الكريمين: وكرر أذاناً (أي إعلماً) بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته، وروي عن ابن عباس^(٣) أنه قال: الرحمن: ذو الرحمة، والرحيم: الراحم لعباده، وقيل

(١) الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا: تفسير المنار، الهيئة المصرية للكتاب، ج ١، ص ٤٠.

(٢) الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا: تفسير المنار، الهيئة المصرية للكتاب، ج ١، ص ٤١.

(٣) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، كنيته أبو عباس، مات بالطائف سنة ٦٨ هـ، وقيل ٧٠ هـ، =



إنه قال: رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، والرحمن اسم خاص، والرحيم اسم عام، ولذلك قدم الرحمن على الرحيم، فقيل: بسم الله الرحمن الرحيم^(١) ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾. ولم يجئ رحمن بعباده، ولا رحمن بالمؤمنين، مع ما في اسم الرحمن الذي هو على وزن (فعلان) من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه للموصوف به، ألا ترى أنهم يقولون: غضبان للممتلئ غضبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملئ بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول المراد منه. إن هذه الأمثلة تؤيد ما قاله الأستاذ الإمام من أن صيغة (فعلان) تدل على الصفة العارضة، ولا تدل على الدائمة، فاحتيج إلى صيغة أخرى تدل على الصفة الثابتة الدائمة، وهي صيغة (فعليل)، فهذا أقوى ما قيل في نكتة الجمع بين الاسمين الكريمين بالصيغتين. ويليه دلالة أحدهما على الرحمة بالقوة، والآخر دلالته عليها بالفعل، وهذا معنى آخر ألم به هذان الإمامان، وذكر بعضهم أنه لا يجوز أن يجمع الرحمن بالرحيم إلا لله ﷻ^(٢) وأنه جائز أن يقال: (رجل رحمان) كما قيل: (رجل رحيم)، وأكثر العلماء على القول الأول وهو الصواب، لأن (فعلان) أشد مبالغة من (فعليل) كما يقال: غضبان للممتلئ غضبًا، وعطشان للممتلئ عطشًا، وكذلك الرحمن: ذو النهاية في الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، وكل اسم كان على طريقة الفعل أشد انعدالًا كان في المدح أبلغ، فرحمن أشد انعدالًا عن طريقة الفعل من رحيم، فلذلك كان أبلغ^(٣). (ولكن ابن القيم جعل لفظ الرحيم هو الدالُّ على الرحمة بالفعل بدليل الآيتين

= وقبره هناك مشهور يزار، انظر: ترجمته في مشاهير علماء الأنصار: ص ٩، وحلية الأولياء ج ١:

ص ٣١٤ - ٣٢٩ وطبقات ابن سعد: ج ٢ ص ٣٦٥، وانظر: قوله في تنوير المقياس ص: ٢٠.

(١) أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي: اشتقاق أسماء الله، تحقيق د. عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان، ط ٢: ٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ٤٠.

(٢) ابن سيده: المخصص، ط ١ مطبعة بولاق القاهرة، ١٣١٧ - ١٣٢١هـ: ج ١٧ ص ١٥١.

(٣) أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي: اشتقاق أسماء الله، ص ٤٠.

اللتين أوردتهما، ولفظ الرَّحْمَن هو الدالُّ عليها بالقوة لعدم تعلق مثل ذلك الظرف به^(١)، وهو قوي. وعكس محمد عبده) وجعل ذلك من مدلول الصيغة باللزوم.

ثانياً: (فعل) رحمة

الرَّحْمَة صورة من كمال الفطرة وجمال الخلق، تحمل صاحبها على البرِّ، وتهبُّ عليه في الأزمات نسيماً عليلاً تترطبُّ معه الحياة، وتأنس له الأفتدة. في الحديث الصحيح: (جعل الله الرحمة مئة جزء، أنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)^(٢).

وربنا ﷻ متصفٌ بالرحمة صفةً لا تشبه صفات المخلوقين، فهو أرحم الرَّاحمين، وخير الرَّاحمين، وسعت رحمته كلَّ شيء، وعمَّ بها كلَّ حي، وملائكة الرحمة - وهي تدعو للمؤمنين - أثتت على ربها، وتقربت إليه بهذه الصفة العظيمة^(٣)، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، وفي الحديث القدسي: (إن رحمتي تغلب غضبي) مخرَّج في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَأَرْحَمَ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون]، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

والرَّحْمَة رحمة الله ﷻ، كما وصفها النصُّ القرآني، في الحقيقة المطلقة التي نصَّت على أن «.. ورحمتي وسعت كلَّ شيء» هذه الرَّحْمَة ما أبقت شيئاً خارج دائرتها إلا ووسَّعته، ذلك أن «شيء» التي جاء لتحدد ما

- (١) الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا: تفسير المنار ص ٤١.
- (٢) محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، صحيح البخاري دار ابن كثير ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، ج ٥: حديث صحيح رقمه ٥٦٥٤ ص ٢٢٢٦.
- (٣) خطبة الجمعة في المسجد الحرام بمكة المكرمة لفضيلة الشيخ: صالح بن حميد بتاريخ: ١٥-١-١٤٢٣هـ التي تحدث فيها فضيلته عن: الرحمة في الإسلام.

اشتملت عليه سعة هذه الرحمة، جاءت «مطلقة» مفتوحة على الاتجاهات كلها، والمكونات جميعها، والأبعاد بما يمكن أن تصل اليه، من هنا كانت الرحمة «المفتاح» الرئيس القادر على فتح باب.. بل أبواب الجنة، وحين نقف أمام هذه الحقيقة الثابتة، نقع على حقيقة دلالات الكثير العديد من ألفاظ «الرحمة» أيًا كانت الصيغة التي جاءت عليها هذه اللفظة وأيًا كانت اشتقاقاتها، التي تبقى دومًا تأخذ بيد من شملته إلى النهاية التي قدراتها الله ﷻ لمن شملتهم رحمته «جنة الخلد».

في الآية التاسعة من سورة غافر، نقرأ نصًا قدم بعدًا آخر من أبعاد تحملها دومًا «الرحمة» أو أي من مشتقات الفعل الجذر الذي جاءت منه «الرحمة» يقول ﷻ: ﴿ وَفَهُمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٩].

بداية نقرأ هنا بوضوح، إن اجتناب السيئات والوقاية منها إنما يتأتى على أساس من رحمة الله ﷻ، ويترتب على هذه الرحمة الفوز العظيم الذي هناك إجماع على انه الفوز بدخول الجنة والنجاة من النار، ثم بعد هذا نستشرف الفضاء الذي جاء فيه هذه الآية لنكتشف أنها إنما كانت إضاءة إضافية على سماء هذا الفضاء الذي عبق بأيتين كريمتين عظيمتين حملت فضلا كبيرا عظيما من الله ﷻ للفتنة المؤمنة تقول الآيتان: ﴿ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَفَهُمُ عَذَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧]، ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [غافر: ٧-٨].

هي مهمة أوكلمها الله ﷻ لحملة عرشه ومن حول العرش، بداية التسبيح بحمد الله على أسس من إيمان، ثم الاستغفار لمن آمن ولمن تاب، سائلين

اللَّهُ أن يقيهم عذاب الجحيم، وان يدخلهم الجنة ليس هم فقط، فهم يشفعون أيضاً لمن صلح من الآباء والأزواج والأبناء وحتى الذرية، تأكيداً لحكمة الله ﷻ وعزته في عطائه، ثم جاءت القيمة المضافة لهذا كله، ما حملته الآية الأخيرة من رجاء بحماية وتحصين من السيئات هذه الحماية، التي كانت شكلاً من أشكال الرحمة المفضية إلى الفوز العظيم.

ثالثاً: صيغة (فعل) رحم

نقرأ هنا صيغة أخرى من صيغ «الرحمة»، كما نقلتها نصوص قرآنية، صيغة تقدم شكلاً آخر جديداً من أشكال دلالات الرحمة في إطار ما يمكن استيعابه من حقائق اتساع الرحمة، هذا الاتساع الذي اتسعت معه دلالات لفظة «الرحمة» وما كان من اشتقاقات قدمتها اللغة العربية، التي سمت حتى قدرت على استيعاب أبعاد النص الإلهي، الذي حمل العقيدة والشريعة الإسلامية بخيار من الله ﷻ. (١) هذه الصيغة هي «رحم الله»، نجدها على امتداد كتاب الله ﷻ في مواقع أربعة، على اختلاف بسيط:

الأول: ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جِبَلٍ يَّصِئُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

الثاني: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود].

الثالث: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: ٥٢].

الأخيرة: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ

(١) مقال منشور بصحيفة الرأي اليومية - جريدة يومية عربية سياسية تصدر عن المؤسسة الصحفية الأردنية، تاريخ النشر ١٧ / ١ / ٢٠١٢ م.



مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ [الدخان].

بداية نلاحظ هنا أن "رحم" كما نقلتها الآيات السابقات جاءت في إطار استثناء مما سبقها من تقرير حقيقة ثم نلاحظ إن هذه الحقيقة السابقة جاءت في إطار موقف لا ينبئ بخير ففي آية هود الثالثة والأربعين أبانت أن أولئك الذين كان مصيرهم على غير مصير ابن نوح، إنما عصموا من أمر الله الذين كان الغرق كانوا ممن «رحم» وكذا كان الأمر عند الآية ١١٩ من هود أيضاً هذه الآية التي تبين السبب فيما قرر الله ﷻ في الآية ١٢٠ قبلها، والتي أوضحت أن الله ﷻ قادر على أن يجعل الناس أمة واحدة، لكن جعلهم على الهيئة التي هم عليها، فكان أن دب الخلاف بينهم، إلا من "رحم ربك"، ومثل هذا نجده في آية سورة يوسف، حين حملت حقيقة "إن النفس لأماراة بالسوء" لكنها استثنت من هذا النوع من النفوس ما "رحم" ربي، ثم جاءت أخيراً الآية ٤٢ من سورة الدخان، لتحمل النتيجة التي ترتبت على ما نقلته الآيتان ٤٠، ٤١، اللتان ذكرتا بيوم القيامة، الذي هو موعد الكون كله، وعنده لن يكون بمقدور "مولى" أن يغني أو يشفع عن "مولى" ومولى بدلالاتها المتسعة تعني النصير من الأهل والأقارب، "إلا" وإلا هذه استثنت من الحقيقة السابقة، وجاءت نتيجة أراها الله لما تقدم، إلا من "رحم" الله، ذلك لأنه "العزیز الرحيم" (١).

صيغة (أفعل فاعلين) أرحم الراحمين

وهي صفة دالة على المشاركة والزيادة، نحو: أفضل، أعلم، وأكثر، وله ثلاث حالات: حالة يكون فيها لازماً للإفراد والتذكير، وذلك في صورتين: أحدهما أن يكون بعده (من) جارة للمفضول، كقوله: «زيد أفضل

(١) مقال منشور بصحيفة الرأي اليومية - جريدة يومية عربية سياسية تصدر عن المؤسسة الصحفية الأردنية، تاريخ النشر ١٧/١/٢٠١٢م.

من عمرو، والزيدان أفضل من عمرو، والزيدان، والزيدون أفضل من عمرو، وهند أفضل من عمرو، والهندان أفضل من عمرو، والهندات أفضل من عمرو، ولا يجوز غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا ﴾ [يوسف: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ﴾ [التوبة: ٢٤]. فأقره في الآية الأولى مع الاثنين، وفي الثاني مع الجماعة. الثانية أن يكون مضافاً إلى نكرة، فتقول: زيد أفضل رجل، والزيدان أفضل امرأة، والهندات أفضل امرأتين، والهندات أفضل نسوة، وحالة يكون فيها مطابقاً لموصوفة، وذلك إذا كان بأل نحو: زيد الأفضل، والزيدون الأفضلان، والزيدون الأفضلون، وهند الفضلى، والهندات الفضليات، أو الفضل. وحالة: يكون فيها جائر الوجهين: المطابقة، وعدمها، ذلك إذا كان مضافاً لمعرفة، تقول: (الزيدان أفضل القوم) وإن شئت قلت: (أفضلا القوم) وكذلك في الباقي، وعدم المطابقة أفصح الله تعالى: ﴿ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦] ولم يقل احرصي بالياء: وقال الله تعالى: ﴿ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

ولا بينى ولا يقاس هو [اسم تفضيل] وهي: ما أفعله، وأفعل به وفعل، إلا من ثلاثي مجرد لفظاً، وتقديراً، تام متفاوت المعنى، غير منفي، ولا مبني للمجهول. مطابق، ولم يقل: (أكبر مجرميها)^(١). ولا بينى ولا يقاس هو [اسم تفضيل] وهي: ما أفعله، وأفعل به،

(١) عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى:

٧٦١هـ، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: القاهرة

(١٣٨٣) ط ١١ ص ٢٤٠ - ٢٤١.



وفعل، إلا من ثلاثي مجرد لفظاً، وتقديراً، تام متفاوت المعنى، غير منفي، ولا مبني للمجهول.^(١)

هذه الصيغة وردت في القرآن الكريم في موضعين الأول: قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨] هذا أمر من الله ﷻ لنبيه ﷺ أن يطلب أهمّ مطلبين، وهما: طلب المغفرة، وسؤال الرحمة، وأنّ يتوسّل إليه ﷻ بأفضل التوسّلات، وهو التوسّل بأسمائه الحسنى المتضمنة للصفات العُلا، إيداناً بأن الدعاء بما فيه من المطالب العُلا من أهمّ الأمور التي ينبغي أن يعتني بها الداعون العناية الكبرى، إذ أمر به^(٢) من قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بمن عداه من العباد؟

رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (الغفر إذا أُطلق معناه: محو الذنب، وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يُسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال)^(٣): أي يا رب استر عليّ ذنوبي، وتجاوز عنها بعضوك، وارحمني بأن تُسدّدي، وتوفّقني في الأقوال، والأفعال، وفي تقديم المغفرة قبل الرحمة من باب التخلية قبل التحلية، فبالمغفرة يزول المكروه، وبالرحمة يحصل المطلوب من النعم الدنيوية والدينية.

ثم ختم السؤال بخير الختام، بوصف كمال رحمته ﷻ التي وسعت الخلق كلهم أجمعين: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ أنت: ضمير الفصل الذي يفيد ثلاث فوائد: التوكيد، والحصر، والفصل بين الصفة والخبر.^(٤)

(١) ابن هشام، شرح شذور الذهب، تحقيق: عبد الغني الدقر الناشر: الشركة المتحدة للتوزيع - سوريا ص ٤١٨.

(٢) نوه شيخ الإسلام ابن تيمية بأن الدعاء الذي أمر به أفضل لنا مما فعله، ولم يأمر به، ثم ضرب أمثلة، انظر: مجموع الفتاوى، ٢٢ / ٢٦٦، فدل على أن الأدعية التي جاءت بصيغة الأمر أفضل من غيرها.

(٣) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٣٥٨.

(٤) تفسير سورة البقرة، لابن عثيمين، ج ١ ص ١٠٢.

وَحَتَمَ الدُّعَاءَ بِهَذَا التَّوَسُّلِ الْجَلِيلِ مَنَاسِبًا لِمَا طَلِبَ فِي أَوَّلِ الدُّعَاءِ مِمَّا لَا يَخْفَى، وَ﴿ خَيْرُ الرَّحْمَنِ ﴾ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِي الْمُضَافَةِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى وَزْنِ ﴿ خَيْرٌ ﴾ أَفْعَلٌ لِلتَّفْضِيلِ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَى عَظَمِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ، وَسَعَتِهَا لِكُلِّ شَيْءٍ.

فَهُوَ جَلٌّ وَعِلَاءٌ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَخَيْرَ الرَّاحِمِينَ، فَمَنْ كَمَالَ رَحْمَتَهُ ﷺ أَنَّهُ وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكُونِ الْعَجِيبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وَخَصَّ مِنْ رَحْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ خَوَاصَّ مِنَ الْعِبَادِ ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الَّتِي الْأُمَمُ الَّتِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنَالَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ الَّتِي فِيهَا السَّعَادَةُ فِي الدَّارَيْنِ، فَلْيَتَّبِعِ الرَّسُولَ ﷺ بِالْأَقْوَالِ، وَالْأَفْعَالِ، وَفِي كُلِّ الْأَحْوَالِ.

فَهَذَا الْإِرْشَادُ مِنَ اللَّهِ ﷻ بِمُلَازِمَةِ هَذَا الدُّعَاءِ الْمُبَارَكِ، لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الَّذِي يَتَمَنَّاهُ كُلُّ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ، لِذَا عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ نَظِيرَ هَذَا الدُّعَاءِ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ: حَيْثُ سَأَلَهُ ﷺ قَائِلًا: عَلَّمَنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي! فَقَالَ: (قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفُرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (١).

الثاني: وقوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

(١) البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، ومسلم، كتاب العلم، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، برقم ٢٧٠٥.

الرَّحِيمِ ﴿٨٢﴾ [الأنبياء] قال ابن القيم: ”جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته ﷻ، وشدة حاجته وهو فقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشف عنه بلواه، وقد جُرب أنه من قالها سبع مرات، ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره“^(١). وبرغم أن كلمات هذا الدعاء لا تحمل معنى الطلب، ولا نبرات الدعاء، لكنها من أبلغ أنواع السُّؤال، وقد سئل سفيان بن عيينة عن حديث رسول الله ﷺ: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»^(٢). وإنما هي ذكرٌ ليس فيه دعاء.



(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ، دار الكتب العلمية - بيروت ط٢، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣، الفوائد ج ١ ص ٢٠١.

(٢) حديث حسن: رواه مالك عن طلحة بن عبيد بن كريب مرسلاً (١/٢١٤-٢١٥ رقم ٣٢) وأخرجه الترمذي عن عمرو بن شعيب عن إبنه عن جده (٥/٥٧٢ رقم ٣٥٨٥) بلفظ: «خير الدعاء» و«خير ما قلت»، كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٥٠٣.

الخاتمة

الحمد لله الذي وفقنا لكتابة هذه الدراسة، الذي كان مجمل القول في المظاهر الدلالية والاشتقاقية للرحمة في القرآن الكريم. وهي تدل على ما تزر بها هذه المفردة من مظاهر دلالية واشتقاقية كثيرة، وما لها من قيم ومعان في الإسلام، وبيان دلالة كل صيغة من تلك الصيغ كدلالتها على المبالغة والثبوت، أو الاشتراك، وما أشبه ذلك، وذكر جماليات التعبير القرآني في العدول عن الصيغ القياسية إلى إحدى هذه الصيغ ومقارنتها بما ورد من نفس مادتها على الصيغة القياسية، من خلال هذه الدراسة توصلت إلى النتائج التالية:

١. الرحمن الرحيم، قيل دلالتها واحدة، نحو ندمان ونديم، وقيل: معناهما مختلف، فالرحمن أكثر مبالغة، وكان القياس الترقى كما تقول: عالم نحير، وشجاع باسل، لكن أردف الرحمن الذي يتناول جلائل النعم وأصولها بالرحيم، ليكون كالتتمة والرديف، ليتناول ما دق منها ولطف.

٢. من أبرز أسماء الله الحسنى اسما «الرحمن الرحيم» وهما أشهر الأسماء بعد لفظ الجلالة (الله)، والمؤمن بالقرآن كلما تلا كتاب الله

أو بدأ سورة منه، افتتحها بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» في مئة وثلاث عشرة سورة منه. وحسبنا أن يردد هذين الاسمين في صلاته المكتوبة ما لا يقل عن أربع وثلاثين مرة في اليوم، فهو كلما أدى ركعة قرأ فاتحة الكتاب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) [الفاتحة] وهي سبع عشرة ركعة في الصلوات الخمس المفروضة على المسلم في يومه

٣. كان الدعاء بالرحمة قاسماً مشتركاً بين جميع الأنبياء والرسل بل وبين جميع الخلق منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا وإلى قيام الساعة.

٤. ليس المطلوب قصر الرحمة على من تعرف من قريب أو صديق، ولكنها رحمة عامة، تسع العامة كلهم، وأحاديث رسول الله تبرز هذا العموم في إسداء الرحمة، والحث على إفشائها وانتشارها. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس» متفق عليه.

٥. تطلق الرحمة ويراد بها ما تقع به الرحمة كإطلاق الرحمة على الرزق، والغيث، والجنة، والنبوة، والرحم: بكسر الحاء وغيرها من المعاني الكثيرة التي ذكرت آنفاً.



فهرس المصادر والمراجع:

١. إبراهيم أنيس، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبدالقادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، مؤسسة الصادق للنشر والتوزيع.
٢. ابن منظور، لسان العرب، ٧١١ هـ - ١٣١١ م) طبعة دار المعارف.
٣. ابن سيده: المخصص، ط١ مطبعة بولاق القاهرة، ١٣١٧-١٣٢١ هـ: ج١٧.
٤. أبو حامد الغزالي: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ط عام ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م، بعناية شركة زنيل للصناعات المحدودة، جدة، المملكة العربية السعودية.
٥. أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨ هـ ابن سيده المخصص: تحقيق خليل إبراهيم).
٦. أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم: صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ج٢.
٧. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير ابن كثير، ج٣.
٨. أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨ هـ) الزمخشري، أساس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
٩. أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر: ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
١٠. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ١٣ دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ قام بكتابه أبوابه وترقيم أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.



١١. أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي: اشتقاق أسماء الله، تحقيق د. عبدالحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان، ط٢: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
١٢. أحمد طاحون، الكوكب المنير في أدب النفس والضمير، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، جمهورية مصر العربية.
١٣. جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق عبدالعال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥م.
١٤. جمال الدين الفاكهي: شرح الحدود النحوية، تحقيق محمد الطيب إبراهيم، دار النفائس، بيروت، لبنان: ط١ ١٩٩٦م.
١٥. سليمة قدير، معنى الرحمة والثقافة لغة واصطلاحًا، الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد باكستان.
١٦. شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد الناشر: القاهرة (١٣٨٣) ط١١.
١٧. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٩، يوليو ١٩٨١.
١٨. عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ).
١٩. عبدالرحمن الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار العلم ط٥: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ج٢.
٢٠. فريد عوض حيدر، علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٢١. علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ) المخصص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢٢. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٢٣. محمد إسماعيل البخاري الجعفي، صحيح البخاري دار ابن كثير ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، ج ٥
٢٤. محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة الكويت، ج ٢٨
٢٥. محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، ط دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ج ٣
٢٦. التعبير القرآني د. فاضل السامرائي، بيت الحكمة، بغداد، ١٩٨٧.
٢٧. محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير الدار التونسية للنشر ج ٢٦.
٢٨. محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط ١: ١٩٨١.
٢٩. مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة التوفيقية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ج ١.
٣٠. الراغب الأصفهاني: مفردات غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط ٣، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٣١. الحموي، الشيخ تقي الدين أبو بكر علي المعروف بابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغياب الإرب، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط ٢ ١٩٩١م، ج ١.
٣٢. الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا: تفسير المنار، الهيئة المصرية للكتاب، ج ١.



• الدوريات

١. جريدة الرأي: جريدة يومية عربية سياسية تصدر عن المؤسسة الصحفية الأردنية، عبدالله حجازي، تاريخ النشر ١٧ / ١ / ٢٠١٢ م.
٢. جريدة المعرفة: جريدة يومية تصدر عن وزارة التعليم، المملكة العربية السعودية: (من مفاهيم الرحمة في القرآن) عمران نزال: تاريخ النشر ١٩ / ٨ / ١٤٣١ هـ - ٣١ / ٧ / ٢٠١٠ م.



بناء الرحمة في القرآن

إعداد:

الصالحة المرترجي

السنة الثانية من سلك الدكتوراه

الحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية

المغرب



مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه على جميع خلقه، وميزه بالعقل وشرفه بالدين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي كانت الغاية من إرساله إلحاق الرحمة بالعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء].

تعيش الإنسانية بسبب انحسار قيمة الرحمة في المجتمعات أنواعاً متعددة من المعاناة، كالعنف وانعدام الأمن والسلام وغيرها من مظاهر الشذوذ في الحياة والسلوك، والحديث عن قيمة الرحمة إنما ينبع من وجود الأمة في أزمة، وليس لهذه الأمة في أزمته من خلاص إلا باستصحابها للرؤية القرآنية.

إن قيمة الرحمة تتعلق ببناء الإنسان، وبمجال التدافع الحضاري في سعي المنظومة الغربية إلى عوامة القيم، التي من خلالها جردت الإنسان من إنسانيته، وهذا ما يدفع إلى العمل على تأصيل القيم الفطرية والأخلاقية والإنسانية، تلك القيم التي تدرك بالفطرة، ويستوعبها العقل، ويقرب بها المنطق، ويدعو إليها القرآن أكثر استيعاباً وإنسانية من تلك الأحادية النمطية، التي تحاول المنظومة الغربية تعميمها على الجميع.

ومما لا شك فيه أن الأمة الإسلامية تعاني تدهوراً حضارياً، جعلها

منسلخة عن قيمها ومتعلقة بقيم الآخر ومقولاته في إطار الجدلية القائمة بين التراث والحداثة، فمفهوم الرحمة التي تحاول الأمة الإسلامية استلهامه من الآخر بحمولته الفكرية الغربية متأصل في حضارتنا، لذا فمحاولة تقرير قيمة الرحمة أمر مطلوب من الناحية الشرعية والواقعية، خاصة في ظل هذه الأزمة التي تعيشها الأمة، علماً أن أزمته أزمة فهم، فهي تحتاج لمنهجية في التنزيل لاستخدامها في حل الإشكالات والأزمات التي تعاني منها الإنسانية، إذ أصبحت القسوة والعنف من سمات الحياة بسبب انحسار قيمة الرحمة.

ولعل المتتبع للحراك الثقافي العربي، يلاحظ أن حقل قيمة الرحمة شكل أحد أبرز الحقول المعرفية في الفترة المعاصرة، مما يؤشر على الأهمية الكبرى لتلك القيمة في البناء الإنساني والكوني.

ويضاف إلى أهمية الموضوع أن الرحمة هي محور الرسالة الخاتمة، والغاية العامة التي بعث النبي ﷺ لتحقيقها، الأمر الذي يستدعي بذل الجهود من الأمة لنشر ثقافة الرحمة، لدحض مزاعم من يظن أن الإسلام دين عنف وغلظة وشدة وإرهاب، ودفع الشبهات الموجهة للإسلام على أنه دين التعصب، والتأكيد على أنه دين التسامح والسلام، خاصة في ظل العولة التي هي أحد الأسباب الأساسية في انتشار العنف الذي يهدد الإنسانية ومستقبلها.

ومن أجل بناء العلاقات الإنسانية السليمة أقر القرآن قيمة الرحمة، التي تضي على العلاقات الإنسانية الهدوء والأمن والسلام، والتي في ظلها تنمو حقوق الإنسان وحرياته الأساسية.

وقيمة الرحمة لو تصالحت البشرية عليها إيماناً بها وإقراراً بأهميتها، لامتدت جسور التعايش والتفاهم بدل الصراع والتنافر.

ويأتي الاهتمام بقيمة الرحمة المستوحاة من القرآن الكريم على



رأس الاهتمامات المتداولة اليوم على أيدي الباحثين، وذلك لما وصلت إليه الإنسانية في الواقع المعاصر من تجاذب لرؤى متسلطة ومهيمنة عليها من أجل تحقيق سعادتها، وكون قيمة الرحمة متأصلة في الوعي الإنساني، وشاملة لكل قيم السلوك، فهي الحصن المنيع لحماية الإنسانية من مختلف الأخطار، خاصة في هذا العصر الذي استشرى فيه العنف بشتى أنواعه، كما أنها إطار منظم للحياة، ومشارك إنساني بين الأمة الإسلامية والغرب، قابل لأن يكون مدخلاً للحوار معه، لصيانة الإنسانية وإنقاذها من الضياع، لذلك ما أحوج الإنسانية في كل زمان ومكان، أن تستشعر معالم هذه الرحمة وتترجمها على أرض الواقع.

من هنا تأتي هذه الدراسة وما يرتبط بها من إشكالات، قصد اكتشاف مفهوم الرحمة في القرآن، وإبراز تجلياتها ودورها في البناء الحضاري. ولقد حصرت هذه الدراسة منهجياً في القرآن الكريم، من أجل الوصول إلى دراسة تصحيحية لمفهوم قيمة الرحمة، انطلاقاً من الوحي المؤسس والمستوعب والمحدد للمفاهيم، وبناء عليه، فما قيمة الرحمة في القرآن الكريم؟ وكيف يمكن طرح قيمة الرحمة على مستوى الحضارة العالمية الراهنة؟

الدراسات السابقة في الموضوع:

بعد البحث واطلاعي المتواضع على الدراسات القرآنية لم يقع نظري على دراسة قرآنية أفردت موضوع بناء الرحمة في القرآن برؤية كونية حضارية، وإنما وردت الرحمة متعلقة بمواضع أخرى مركبة، وفي أبواب تضمنت الأخلاق الإسلامية أهمها:

- خلق المسلم لمحمد الغزلي.
- أصول الإيمان والإسلام لوهبة الزحيلي.
- حضارة النبوة رحمة للعالمين لعمر عبيد حسنة.

فجاءت هذه الدراسة لتبين أن من تجليات الرحمة في القرآن التنوع والاختلاف.

أهداف الدراسة:

- التأكيد على أن القرآن الكريم هو المحدد للمفاهيم والمستوعب لها.
- الدعوة إلى التراحم في الواقع المعاصر، الذي انتشر فيه العنف بكل أنواعه.
- التأكيد على مركزية الرحمة بوصفها خلاً لتجاوز إشكالات الواقع المعاصر، وإبراز قيمتها في البناء الحضاري.

منهج البحث:

والمنهج الذي سأتبعه في هذه الدراسة، هو منهج استقرائي تحليلي وصفي ومقارن، والذي من سماته:

- المداخلة الكاشفة للنصوص واستبطان مدلولاتها.
- عرض الأفكار وتحليلها.
- مقارنة نسق الموضوع المعرفي ونقده وتقويمه، في ضوء مناهج وتصورات مشابهة أو مناقضة.
- وانطلاقاً من الإشكالية التي أثارها أعلاه، فقد جاءت الدراسة تتضمن مقدمة ومحورين وخاتمة.
- المحور الأول: ويتضمن مفهوم الرحمة في اللغة والقرآن والاصطلاح.
- المحور الثاني: ويتضمن بعض تجليات الرحمة في القرآن، بالتركيز على أن التنوع والاختلاف رحمة.



المحور الأول مفهوم الرحمة في اللغة والقرآن والاصطلاح

يُعدُّ المفهوم المفتاح الأساس لكل باب من أبواب المعرفة، كما أشار إلى ذلك الشاهد البوشيخي بقوله: «المفهوم هو أساس الرؤية، والرؤية نظارة الإبصار، التي تريك الأشياء، كما هي بأحجامها وأشكالها وألوانها الطبيعية، أو تريكها على غير ما هي: مصغرة مكبرة محدبة أو مقعرة»^(١).

أولاً: الرحمة في اللغة

تجمع المعاجم اللغوية على أن مفهوم الرحمة مأخوذ من مادة (رح م): «الراء والحاء والميم أصل واحد، يدل على الرقة والعطف والرأفة»^(٢)، وفي لسان العرب لابن منظور "الرحمة: الرقة والتعطف والمرحمة مثله، وقد رحمته وترحمت عليه وتراحم القوم، رحم بعضهم بعضاً... قال عكرمة في قوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة، أي عطفًا وصنعًا»^(٣). وفي التعريفات للجرجاني: الرحمة «هي إرادة إيصال الخير»^(٤).

وبهذا، فالرحمة في اللغة تجمع على معنى واحد، وهو الرقة والعطف وإيصال الخير.

- (١) نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، الشاهد البوشيخي، فاس ط ١، ٢٠٠٢م، ص: ١٧.
- (٢) مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مج ٥، دار الجيل، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ص: ٤٩٨.
- (٣) لسان العرب ابن منظور، مادة «رحم»، مج ٦ ط ٤، ٢٠٠٥ ص: ١٢٤ ونفس المعنى وارد في مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي طبعة محققة، مكتبة لبنان ١٩٨٦ م، ص: ١٠٠.
- (٤) التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني مكتبة لبنان، طبعة جديدة ١٩٨٥ م، ص: ١٥.

ثانياً: مفهوم الرحمة في القرآن

قبل أن أتطرق للموضوع، لا بد من الإشارة إلى أن المصطلح عنوان المفهوم، كما يؤكد على ذلك الشاهد البوشيخي بقوله: إن "المصطلح الإسلامي في أصله القرآني خصوصية ومفهومية غير قابلة للتغيير والتبديل، وذلك حسب الطريقة التي استعمل بها اللفظ في القرآن الكريم"^(١).

فالمفهوم في القرآن الكريم قد نظم نظماً بديعاً، في نسق تجلي في الرؤية القرآنية الشاملة في قوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ففي الاستعمال القرآني لمادة (رح م)، فقد وردت ٣٣٩ مرة، وإذا أضفنا إليها البسمة التي في مقدمة سورة الفاتحة، باعتبارها آية عند بعض العلماء، فإنها تكون ٣٤٠ مرة، وقد وردت بصيغ مختلفة، بصيغة الفعل والاسم والمصدر:

| عدد ورودها في القرآن | مادة «رح م» | عدد ورودها في القرآن | مادة «رح م» |
|----------------------|-------------|----------------------|-------------|
| ٣ | رحمتك | ٤ | رحم |
| ٥ | رحمتنا | ١ | رحمته |
| ٢٥ | رحمته | ١ | رحمنا |
| ٢ | رحمتي | ١ | رحمه |
| ٦ | الراحمين | ١ | رحمناهم |
| ٥٧ | الرحمن | ١ | ترحمون |
| ٩٦ | الرحيم | ١ | ترحمني |

(١) نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، الشاهد البوشيخي، دراسات مصطلحية: ٣، ص: ٣٠.

| عدد ورودها في القرآن | مادة «رحم» | عدد ورودها في القرآن | مادة «رحم» |
|-------------------------|------------|-------------------------|------------|
| ٢٠ | رحيما | ١ | يرحم |
| ١ | رحماء | ١ | يرحمنا |
| ٤ | أرحم | ٢ | يرحمكم |
| ١ | بالرحمة | ١ | سيرحهم |
| ٩ | الأرحام | ١ | ارحم |
| ٢ | أرحامكم | ٣ | ارحمنا |
| ١ | أرحامهن | ١ | ارحمهما |
| ١ | رحما | ٨ | ترحمون |
| | | ٧٩ | رحمة |

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤] قال رشيد رضا في تفسير المنار: «فمن فضله وإحسانه أن امتن عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة والصفح عما يستحقونه من المؤاخذة والعقوبة»^(١)، وفي تفسير البغوي "فلولا فضل الله عليكم ورحمته «يعني بالإمهال والإدراج وتأخير العذاب»"^(٢).

وفي سورة الأعراف قال ﷺ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] قال الطاهر ابن عاشور في التحرير والتوير: "ورحمة الله إحسانه وإيتاؤه الخير"^(٣)، وفي تفسير القرطبي "قيل أراد بالرحمة الإحسان"^(٤).

(١) تفسير المنار، رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر ط٢، ج. ١، ص: ٢٤٢.

(٢) تفسير البغوي، الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة للنشر والتوزيع، ج. ١، ص ١٠٢.

(٣) التحرير والتوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، مج ٤، ج. ٨، ص ١٥٢.

(٤) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج. ٧، ص ٢٠٦.

وقال ﷺ في سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: ”الرحيم الشديد الرحمة، والرحمة رقة تقتضي الإحسان للمرحوم“^(١) وفي تفسير الآلوسي ”رحيم بدفع الضرر عنهم وجلب المصلحة لهم“^(٢). وفي سورة الأحزاب قال تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: ”ورحمته بالمؤمنين تشمل إسداء النفع إليهم وإيصال الخير لهم بالأقوال والأفعال والألطف“^(٣)، وفي تفسير سيد قطب ”إشعار القلوب برحمة الله ورعايته وغايته بأمر الخلق وإرادة الخير لهم وهو الغني عنهم“^(٤). وبناء على ما تقدم فمفهوم الرحمة في الشرع مفهوم شمولي يقتضي التفضل والإحسان وإيصال الخير إلى الغير.

وخلاصة القول: إن مفهوم الرحمة في الرؤية القرآنية مفهوم شمولي، يطرح الأمن والاستقرار، ويحث على المنافسة في تحقيق المصلحة العامة، والمصلحة هي مقصد جامع لمقاصد الشريعة.

ثالثاً: الرحمة في الاصطلاح

وفي الاصطلاح «الرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الخلق، ويسعى لإزالتها، ويأسى لأخطائهم، فيتمنى لهم الهدى والرحمة في أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه، فإن

- (١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج ٥، ص ١١، ص ٧٣، م س.
- (٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي محمود شكري، دار إحياء التراث العربي، ج ١١، ص ٥٣.
- (٣) التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور، ج ٢٣، ص ٤٩، م س.
- (٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط ١٧، ١٩٩٢م، مج ٥، ج ٢٢، ص ٢٨٧١.



رحمته شملت الوجود، وعمت الملكوت، فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء أشرق شعاع الرحمة الغامرة»^(١).

والرحمة «تتجاوز الإسعاف بالحاجات إلى الإنماء للقدرات، أي أنها تتسع لما يدخل في باب زيادة الخير والتنمية والتقدم»^(٢).

وإجمالاً فقيمة الرحمة هي أساس البناء الاجتماعي، ومفعلته ومنطلق كل تعامل بشري، سواء مع ذاته أو مع غيره أو مع محيطه، وهي قيمة معيارية، تتوفر على سمات حضارية وخصائص إنسانية، تجعلها عالمية الأبعاد، وإنسانية التوجه، نافعة في الدارين معاً.



(١) خلق المسلم، محمد الغزالي، دار البيان الكويت، ص: ٢٥١، ٢٥٧.

(٢) روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي،

الدار البيضاء المغرب، ط٤، ٢٠٠٩م، ص: ٢٥١.

المحور الثاني من تجليات الرحمة في القرآن الكريم

أولاً: التنوع والاختلاف ضرورة ورحمة.

إن التنوع والاختلاف سنة كونية وضرورة بشرية، وهو «بين الناس أمر واقع ولن يرتفع، وكل أمل في القضاء عليه ومحوه فهو وهم وسراب... فليس أمامنا سوى أن نسلم به، ونحسن التعامل معه، والاستفادة منه، واختلاف الخلق ليس قدراً مستقلاً سلطه الله عليهم، بل هو جزء من طبيعتهم، ولازم من لوازمها»^(١) فاختلاف الناس طبيعي، وهو سنة كطبيعة خلقه ﷻ للكون والحياة "فالكون خلقه ربه الأعلى ﷻ مختلف الأنواع لقوله تعالى: ﴿الَّذِي تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾^(٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]، ولكن هذا الاختلاف الذي نبه عليه القرآن ليس اختلاف تضارب وتناقض، بل هو كما نؤكد دائماً اختلاف تنوع، بل نجد القرآن ينفي بعبارة صريحة ما بني عن التضارب في الكون في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣]^(٢)، فالتنوع والاختلاف ظاهرة طبيعية في حياة البشرية،

(١) التعدد التنظيمي للحركة الإسلامية ما له وما عليه، أحمد الريسوني، دار الكلمة ط: ١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص: ١٥.

(٢) الصوحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دراسة في فقه الاختلاف في ضوء النصوص والمقاصد الشرعية، يوسف القرضاوي، دار المعرفة، الدار البيضاء، (بلاط، ت) ص: ٦٩.

«كطبيعة الحياة، فهي أيضاً تختلف وتتغير بحسب مؤثرات متعددة، منها المكان والزمان. والاختلاف مع كونه ضرورة هو كذلك رحمة»^(١). لذلك «من العيب كل العيب أن يراد صب الناس كلهم في قالب واحد في كل شيء، وجعلهم نسخاً مكررة، ومحو كل اختلاف بينهم، فهذا غير ممكن، لأنه مخالف لفطرة الله التي فطر الناس عليها، وغير نافع لو أمكن، لأنه لا نفع في مخالفة الفطرة»^(٢)، بل والقرآن يقر أصل الاختلاف في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(٣) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ^(٤) [هود: ١١٨-١١٩].

يقول سيد قطب: "لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد وباستعداد واحد... نسخاً مكررة، لا تفاوت بينها، ولا تنوع فيها، وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدره على هذه الأرض وليست طبيعة هذا المخلوق البشري الذي استخلفه الله في الأرض، ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته، هكذا اقتضت سنة الله، وجرت مشيئته"^(٥). وقال ابن عاشور في تفسيره: "أعقب ذلك بأن الاختلاف دائم بينهم، لأنه من مقتضى ما جبلت عليه العقول"^(٦).

وذهب بعض المفسرين في معنى هذه الآية إلى أن الله خلقهم «للاختلاف والرحمة»^(٧). والاختلاف المقصود الذي تتحقق به الرحمة هو اختلاف تنوع، الذي مصدره الإثراء والخصوبة، «فعلة الخلق وغايته اختلاف التنوع الذي به يكون الإغناء والإثراء والتبادل المعرفي والثقافي والنمو، والارتقاء والتنافس والتحريض الحضاري، فوجود (الأخر) من لوازم استمرار الحياة،

(١) نفسه ص: ٧٠.

(٢) الصحو الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط ١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص ٤٥.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، مج ٤، ج ١٢، ص ١٩٢٣، م س.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج ١٣، ص ١٩٠، م س.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار طيبة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ج ٤، ص ٣٦٣، م س.

وجدليتها وسننها في المدافعة والمنافسة والمغالبة الشريفة»^(١). وبما أن الاختلاف هو اختلاف تنوع، لا اختلاف تضارب وتضاد، كما أن «أمر التنوع في النص القرآني لا يتوقف عند هذا الحد، بل جاءت نصوص أخرى تؤكد عليه في أمر انقسام البشر إلى مجموعات بشرية، تشكلت في أمم أخرى في القبائل والشعوب، أي هي التشكيلات البشرية التي يوجهها النص القرآني إلى التعارف من أجل اللقاء، لا التصادم من أجل الجفاء والتناكر ﴿يَتَأَيَّمُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢) [الحجرات: ١٣]»^(٣)، إذ حقيقة التعارف هو أنه التعاون على المعروف وترك التعاون على المنكر»^(٤). والرحمة من مبادئها التعاون الذي به تتحقق المصالح كما تقدم.

فالحياة الإنسانية كلها قائمة على نهج التعارف القائم على التراحم، «إن هؤلاء البشر الذين [لا يزالون مختلفين] مأمورون بسبب اختلافهم بين ذكر وأنثى وشعوب وقبائل بالتعارف»، أي أن يفتح كل منهم على الآخر، وأن يحفظ مصالحه بالحسنى والعمل الصالح»^(٥). وفي هذا تحقيق لقيمة الرحمة، التي تتميز بها «حضارة الإسلام وفلسفته عن غيرها، باعتبار أن هذا التنوع والاختلاف والتباين، إنما هو سبيل التعايش والتعاون والتكامل والتعارف ﴿وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، فالأمين والأكرم والأفضل هو الأكثر عطاء وإحساناً، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾»^(٥). والإحسان من القيم التي تستبطنها قيمة الرحمة، فقد جاءت الأحاديث كثيرة حاثّة

- (١) حضارة النبوة رحمة للعالمين، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، ص: ٨٩.
- (٢) الإسلام والآخر، أسعد السحمراني، دار النفاثس، ط: ١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص: ١٢.
- (٣) الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبدالرحمن، ج: ١، ٢٠٠٥م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ص: ١٢.
- (٤) التسامح، ع: ١١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، فكرية إسلامية السنة الثالثة مقال عبدالرحمن السالمي لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، ص: ١٠.
- (٥) حضارة النبوة رحمة للعالمين، عمر عبيد حسنة، ص: ٩٠، م، س.



على الرحمة الشاملة، فقال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»^(١)، فالمسلمون يؤمنون أن الاختلاف سنة من سنن الله في الكون والناس، وآية من آياته الدالة على رحمته «فالاختلاف والتنوع والتميز آيات لمن يريد أن يتصف بالعلم، وبتميز الناس شعوباً وقبائل يتحقق التعارف والتآلف والتعاون بين المختلفين... وقد تكون هذه الاختلافات تعبيراً عن هويات متميزة، لكنها موجودة معاً في المجموعة الواحدة، أو الشخص الواحد في تناغم وانسجام»^(٢). والتنوع والاختلاف مقصد من مقاصد الرحمة، «وهذا التنوع والاختلاف إما أن يقرأ حضارياً على أنه نعمة لما يمكن أن يتحقق به من التكامل والتعارف والتثاقف والتلاحق والتعايش والتفاهم، الذي ينتج النمو والارتقاء وبناء المشترك الإنساني -وهنا تتجلى رحمته- وإما أن يقرأ بأبجدية خاطئة فيتحول إلى نقمة، ويشكل بؤرة للصراع والمواجهة والهيمنة والغاء الآخر»^(٣)، كما أكد على ذلك الكاتب اليهودي الأمريكي صامويل هنتجتون، الذي يتوقع تطور صدام الحضارات خلال العقدين الأول والثاني للقرن الحادي والعشرين»^(٤)، وهنتجتون هذا أهمل «أن قضية الحياة الدنيا وصيرورتها المبدعة تكمن في هذا التغير»^(٥). والتنوع والاختلاف، فإن الهدف من هذا التغير يجيب القرآن: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] إن هذا التغير والتدافع المركز في جبهة بني آدم، يقود إلى تحريك «الحياة نحو الأحسن، وتخطي مواقع السكون والفساد، ومنح القدرة للقوى الإنسانية الراشدة، كي تشد عزائمها قبالة

(١) صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم ٢٠١٣، ص ١٥٠٨.

(٢) إسلامية المعرفة، العدد: ٥٦، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص: ١٦، فتحي حسن مكايي القيم العالمية.

(٣) حضارة النبوة رحمة للعالمين، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، ص: ٦.

(٤) كتاب الأمة، الإسلام وصراع الحضارات، أحمد القديري، عدد: ٤٤، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص: ٥٦.

(٥) عماد الدين خليل المسلم والآخر: رؤية تاريخية، إسلامية المعرفة السنة التاسعة، عدد: ٣٣، ٢٤، صيف، وخریف ٢٠٠٢م، ص: ٩٢.

التحديات، وأن تسعى لتحقيق المجتمع المؤمن، الذي ينفذ أمر الله وكلمته في العالم»^(١)، عن طريق التعارف والتراحم الإنساني.

والذي جعل من الاختلاف أحد العوائق التي تعوق تقدم الأمة، هو التركيز على الاختلاف عوضاً عن منهج التعامل معه، «وظالما أننا سلمنا بحقيقة التنوع والاختلاف في الخلق، فيلزم عن ذلك تنوع الأديان والثقافات والأفكار والمذاهب والملل والنحل (تنوع الاختيارات)، ولولا وجود من لا يؤمن لما كان هناك داع لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والواقع دليل ذلك»^(٢). إن رؤية الاختلاف السلبي المادية هي وقود إذكاء روح التمييز والعداء، وهي المناخ والبيئة التي تجعل وجود الاختلاف والتنوع حرباً متقابلة، وبذلك يسهل الصراع والظلم والقسوة والاستعلاء والتسلط والعدوان في العلاقات الإنسانية بين الدول والأعراق والأمم، والتي بسببها ذاقت الإنسانية المعاصرة جرائم الاستعمار والحروب العالمية، التي تتهدد الإنسانية حتى اليوم بباقات اختراعات آلات الدمار الشامل بيد أنظمة عنصرية تسلطية لا تؤمن إلا بسياسات القوة»^(٣).

ولكن رحمة الإسلام وفلسفته هي «الرؤية الوحيدة التي أبرزت وأكدت وحدة الإنسان، وأكدت وأبرزت في كل الاختلافات، وعلى المستويات الإنسانية كافة معاني التنوع، وأبعاد التكامل في إطار الوحدة الإنسانية ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْفُؤًا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأُنْفُؤًا اللَّهُ الَّذِي نَسَاءُ لُونِ بِهِ، وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ

(١) عماد الدين خليل، المسلم والآخر، رؤية تاريخية، ص: ٩٣، م س.

(٢) حضارة النبوة رحمة للعالمين، عمر عبيد حسنة، ص: ٩١، م س.

(٣) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، د، عبد الحميد أبو سليمان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ط: ١، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، المعهد العالمي، للفكر الإسلامي ص: ٩٤.

بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ [الزخرف: ٣٢] وهي الفلسفة والرؤية الكونية التي ضبط وقع علاقاتها التكاملية في دوائر متداخلة»^(١)، ففي القرآن الكريم هناك نسق واتساق وزوجية وتكامل وتعارف وتنوع ورحمة، فهو «يتحدث عن الكون وكأنه بني على سنة الاتساق، في حين أن الفكر الغربي يستبطن الصراع بين الإنسان والآلهة في الفكر الإغريقي، وفي كل العلوم الاجتماعية والإنسانية تقريباً، فالصراع في هذا الفكر كلية وقانون يسعى إليه الكون، وكثير من الأمور لا يمكن تفسيرها من وجهة الفكر الغربي إلا من خلال قانون الصراع، في المقابل نجد في القرآن الكريم نسق الاتساق والزوجية والتكامل والتداول والتعارف وسنن التكوين والتفسير، فالكون كله مسخر يسبح، يسجد متسق في طريق عبادة الله ﷻ، أما الصراع في السنن الإلهية فهو صراع مؤطر... صراع يؤول إلى وفاق ينتهي ولا يتم تكريسه»^(٢).

وبهذا فهل قيمة الرحمة من القيم التي يقوم عليها نظام إنساني عالمي سلمي، يؤمن بوحدة الإنسان وتكامله وتعاونه في إطار التنوع والاختلاف؟ إن لقيمة الرحمة في التنوع والاختلاف دوراً أساسياً في التعايش الحضاري، «فالإسلام لم ير خطراً يتهدد دولته ومجتمعه من جراء إقرار صيغة للعيش المشترك بين معتقيه وبين غيرهم من أتباع الديانات الأخرى، بل قدم مثلاً حياً وتطبيقاً رائعاً لهذا المبدأ، يحق لنا نحن المسلمين أن نعتر ونفخر به على غيرنا من الأمم والشعوب، التي ما زال بعضها حتى اليوم يضييق عن الاعتراف بالآخرين، وبحقهم في ممارسة عقائدهم المخالفة»^(٣). فالإسلام رسالة رحمة وعطف على البشر كلهم، لقوله

(١) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، د. عبد الحميد أبو سليمان ص: ٩٤.

(٢) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها محمد هيشور ص: ١١، طبعة: ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

(٣) الاجتماع العربي الإسلامي مراجعات في التعددية والتنوير، السيد محمد حسن الأمين، ص: ٦٧، قضايا إسلامية معاصرة، «ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) [الأنبياء]، وهذا ما يميز «الرؤية الكونية القرآنية الإيمانية: أنها على العكس من الرؤية المادية العدوانية العنصرية الحيوانية، تجعل من الاختلاف والتمايز الإنساني والكوني رؤية توحيدية تكاملية، تتكامل فيها مختلف الكيانات، ويتألف فيه المشترك، ويفعل فيها المختلف إيجابياً، ليكون علاقات متداخلة متكاملة إيجابية توحيدية، هي لب الفطرة الإنسانية السوية، ومناطق وجودها واستخلافها في الأرض»^(١). ولا يكون ذلك إلا بتحقيق قيمة الرحمة التي يسعى إليها الإنسان، ويطلبها بفطرته رحمة وتعاوناً إنسانياً.

وقيمة الرحمة لها مركزيتها في البناء الحضاري بإقرارها الحق في الاختلاف، وبهذا فهل يمكن اعتبار الحق في الاختلاف أبعد من التسامح؟ جرى «إعلان سنة ١٩٩٥م الحق في الاختلاف وذلك باقتراح، يجعل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، المعلن من قبل الجمعية العمومية والأمم المتحدة في واحد كانون الأول ١٩٤٨، يبدأ بهذه العبارات: "إن كل الكائنات البشرية تختلف عن بعضها البعض، ومن ثم فهي متشابهة، تختلف في العرق واللون والجنس والثقافة والدين واللغة وغيرها من التعبيرات عن الإنسانية، التي تتجسد وتجعل الناس يتشابهون، كائنات لها موهبة التفكير، وكذلك إمكانية الفهم والإفهام. وانطلاقاً من هذا التفاهم المتبادل، الذي لا غنى عنه يجب أن يبدأ التأكيد على الحق في الاختلاف، مما يتأتى عنه احترام حقوق الآخرين التالية"^(٢)، وإذا ما ربطنا الموضوع هنا بما سلف، فقيمة الرحمة تراعي احترام حقوق الغير، سواء كان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو غير ذلك، وتجعل الحق في الاختلاف من مبادئها الأساسية، إذ الأصل في منح التراحم أن نمنح الحقوق لا أن نسلبها، وأن تدع المقابل يرضى لا أن

(١) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، عبد الحميد أبو سليمان، ص ٩٠، م. س.

(٢) مجلة التسامح صيف، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، العدد ٧، السنة الثانية، الحق في الاختلاف أبعد من التسامح، عاطف علي، ص: ٢٠١.

يسخط»^(١)، وهي قمة الرشد في المنهج القرآني، ولذلك «لا يكفي التسامح، يجب القبول باختلافات وتنوعات الآخر، واعتبارها بمثابة اختلافاتنا وتنوعاتها... فاحترام وفهم الاختلاف والتنوع يعني إغناء تنوعنا الخاص بهويتنا، بالنتيجة تغتني هويتنا بالتماس مع هوية الآخر، كما أن هوية الآخر تغتني من هويتنا»^(٢)، وذلك بالتراحم والتفاهم والاحترام المتبادل والإشكالية، فهل يتحقق حفظ التسامح في الاختلاف والتنوع بمبدأ الرحمة؟.

وهذا يدفع للبحث عن علاقة الرحمة بالتسامح، للرد على أعداء الإسلام الذين يصفونه بالعنف والتعصب والعنصرية.

ثانياً: التسامح رحمة.

إن مبدأ التسامح من مبادئ الرحمة التي دعا إليها الإسلام، وهو ضرورة لتحقيق الأمن والسلام في البشرية حتى تعيش الإنسانية جو الإخاء والتعاون على ما فيه الخير لها.

والمقصود بالتسامح في هذا الإطار، تسامح الإسلام ورحمته بالآخر المخالف له، وهو من أهم المباحث التي ينبغي ولوجها خاصة في ظل الواقع المعاصر، لأن التسامح "من خصائص دين الإسلام، وهو أشهر مميزاته، وإنه من النعم التي أنعم بها على أضعاده وأعدائه، وأدل حجة على رحمة الرسالة الإسلامية المقررة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، لقد أسس الإسلام للتسامح أسساً راسخة، وعقد له موثيق متينة، وفصل فصلاً مبيناً بين واجب المسلمين بعضهم مع بعض في تضامنهم وتوادهم من جهة ما يجمعهم من الجامعة الإسلامية، وبين حسن معاملتهم مع من تقتضي الأحوال مخالطتهم من أهل الملل الأخرى،

(١) قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لدولة قطر، ط: ١، محمد عبد الوهاب الخطيب، ١٤٢١ هـ.

(٢) مجلة التسامح ع: ٧، الحق في الاختلاف أبعد من التسامح عاطف علي ص: ٢٠١ م س.

وقاعدة هذه الأسس هي القاعدة الفكرية النفسية، وتلك هي أن القرآن وكلام الرسول ﷺ في مناسبات يعلم المسلمين أن الاختلاف ضروري في جلبة البشر، وأنه من طبع اختلاف المدارك وتفاوت العقول في الاستقامة. وهذا المبدأ إذا تخلق به المرء، أصبح ينظر إلى الاختلاف نظره إلى تفكير جبلي، تتفاوت فيه المدارك إصابة وخطئاً لا نظره إلى الأمر العدواني المثير للغضب قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]^(١)، وبهذا فهل بتطبيق قيمة الرحمة في التعامل مع الآخر بإقرار مبدأ الاختلاف يتم تحقيق التسامح؟.

إن الرحمة والتسامح من «المبادئ الأساسية التي قامت عليها السياسة الإسلامية التي رسمتها الشريعة الإسلامية في العلاقة بين الناس بعضهم مع بعض، وبصفة خاصة في تعامل المسلمين مع غيرهم، هذه الرحمة التي تمثل أصلاً من أصول التشريع الإسلامي، هي هدف الإسلام توجب مراعاة آدمية الإنسان... ومن أجل بناء العلاقات الإنسانية السليمة بين الأفراد وبين الجماعات، دعا الإسلام إلى التسامح المنطقي الذي لا ينطوي على استسلام للشتر، وإطلاق ليد الخارجين على النظام. ولقد وردت الآيات القرآنية موضحة أن دفع العداوة بالتسامح غير الدليل هو الذي يجلب المحبة والإخاء، ويضفي على العلاقات الإنسانية الهدوء والسلام والتشجيع على احترام الحقوق المتبادلة، وتجنب العمليات الانتقامية أو الثائرة، التي تدفع إليها الأحقاد، والتي في ظلها تهدد حقوق الإنسان وحرياته الأساسية»^(٢). قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٢٤].

فالتسامح يحقق التوازن والسلام والأمن النفسي المبني على الرحمة،

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، ط ٢، ٢٧هـ ٢٠٠٦م، ص ٢١٦/٢١٧.

(٢) مجلة التفاهم، قيم الإسلام وأخلاقيات الحرب والسلام، إبراهيم محمد العناني، ص: ١٩ م. س.

يقول الرسول ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(١) ولقد أكثر النبي ﷺ من الحث على الرحمة، فقال بعض الصحابة: كلنا رحيم يا رسول الله قال: «ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة الناس رحمة العامة»^(٢). رحمة عامة شاملة لجميع البشر، مهما تعددت أجناسهم، واختلفت مللهم، وذلك في إطار احترام متبادل يطبعه التسامح «وعندما يتحول التسامح إلى احترام متبادل، وهي صفة أكثر إيجابية، فإن نوعية العلاقات ترتقي بشكل واضح، ومن ثم فإن الاحترام المتبادل يشكل أساساً لإقامة مجتمع تعددي، وهو نوع المجتمعات الذي يمثله الحوار العالمي ذاته، لا يتميز بالاستقرار فحسب، بل باحترام تنوعه الذي يغنيه»^(٣).

وبما أن التسامح هو احترام حق التنوع والاختلاف، وهذا الأخير رحمة كما تقدم، فهل التسامح رحمة باعتباره واجباً أخلاقياً؟ ينبغي أن يكون الهدف من إقامة التسامح بين الثقافات والحضارات، هو إشاعة قيمة الرحمة بالمعنى الشمولي لها كما قرره الإسلام، حفظاً لقيمة الوجود على حد تعبير طه عبد الرحمن، وهو الذي يناقض التعصب والتطرف والصراع، ويؤمن بحق الاختلاف، لأن «التسامح يظهر مفعوله في المواقع، التي هي مظنة ظهور ضده، أعني التعصب»^(٤).

وبما أن قيمة الرحمة من القيم التي تعمم التسامح مع المسلمين وغير المسلمين، فهي «تعصم الحضارات من الطغيان والاستبداد والاستكبار في الأرض»^(٥).

- (١) سنن الترمذي باب ما جاء في رحمة الناس رقم الحديث ١٩٢٤، وقال: حديث حسن صحيح.
- (٢) أخرجه الهيتمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية، ط ١، ج ٨، برقم، ١٣٦٧١، ص ٢٤٢، وقال: رجاله رجال الصحيح.
- (٣) جيران في عالم واحد، نص تقرير لجنة إدارة شؤون المجتمع العالمي، ترجمة مجموعة من المترجمين، مراجعة عبدالسلام رضوان، عالم المعرفة، ع، ٢٠١، سبتمبر ١٩٩٥م، ص: ٧٢.
- (٤) نفسه.
- (٥) أصول النظام الاجتماعي، الطاهر بن عاشور، ص: ٢١٩، م س.

فاستبطان الرحمة للتسامح ليس ضعفاً أو تساهلاً، وإنما «إقرار بحقوق الإنسان العالمية والحريات الأساسية للآخرين، ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن يستخدم لتبرير الاعتداء على تلك القيم الأساسية، ويجب أن يمارس التسامح من قبل الأفراد والمجموعات والدول». (١) ففي التسامح تحقيق للرحمة التي هي من القيم المشتركة بين الأديان، لكن «لا نجد في السماحة مع المخالف في الدين أرجى ولا أعلى من هذا الأفق الذي وجدناه في شريعة الإسلام» (٢). لأن المبادئ «والقيم التي دعا إليها الإسلام التسامح مع غير المسلمين والتعامل معهم بروح إنسانية عالية، لا تتعصب ولا تحقد على من خالفها» (٣) فمبدأ التسامح يتناقض مع التعصب والصراع، باستيعابه وقبوله للآخر «اتساقاً مع احترام حقوق الإنسان، ولا تعني ممارسة التسامح القبول بالظلم الاجتماعي، أو نبذ أو إضعاف معتقدات المرء، بل يعني أن الشخص حر في تمسكه بمعتقداته، وفي الوقت ذاته يقبل تمسك الآخرين بمعتقداتهم، إنه إقرار حقيقة البشر في تباينهم الطبيعي من حيث المظهر والحالة واللغة والسلوك والقيم، لهم الحق في العيش في سلام وأن يكونوا كما هم» (٤).

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ [الممتحنة]، فالقرآن "لا ينهاهم عن البر والقسط إلى من ليسوا كذلك من المشركين، وهم أشد الناس عداوة للمؤمنين أيضاً، وأبعد عنهم من أهل

(١) ثقافة التسامح في ضوء التربية والدين، رشدي أحمد طعيمة، ومحمد عبدالرؤوف الشيخ، الطبعة ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠١ م، ص: ٢٤.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن، يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط٦، ٢٠٠٧ م، ص: ١٢٤.

(٣) نفسه، ص: ١٢٣.

(٤) ثقافة التسامح في ضوء التربية والدين، رشدي أحمد طعيمة ومحمد عبدالرؤوف الشيخ ص:

٣٤، م س.



الكتاب، ثم أكد ذلك بحصر النهي في الذين قاتلوهم في الدين، أي لأنهم مسلمون، وأخرجوهم من ديارهم، وساعدوا على إخراجهم منها، ولكنه خص هذا النهي بتوليهم ونصرهم، لا بمجاملتهم وحسن معاملتهم بالبر والإحسان والعدل، وهذا منتهى الحلم والتسامح، بل الفضل والكمال. ولا تنس أن هذه الآيات نزلت قبل فتح مكة، وكان المشركون في عنفوان طغيانهم واعتنائهم. وقد عمل (عليه السلام) يوم الفتح بهذه الوصايا، وقال: «أنتم الطلقاء»، وأحسن إلى المؤمن والكافر والبر والفاجر^(١). فهذا أساس خلقي عظيم وهو «أن يكون المسلم يضع الأشياء مواضعها، ويحكم لها بأوصافها، ولا يكون مندفعاً إلى جميع العوارض التي تعرض له بإحساس ودافع متحد لا يستطيع مخالفته، فالإسلام دعا الناس إلى الوحدة في دين الفطرة وأراهم محاسنها، ولكنه لم يدع أتباعه إلى مناوأة من أعرض عن الدخول في تلك الوحدة واختار لنفسه الحالة الناقصة»^(٢). لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والتسامح من مظاهر رحمة الحضارة الإسلامية، إذ «بقية أسس التسامح حاصلة بوصايا الإسلام بحسن معاملة المخالفين في الدين، ليهذب من الإحساس الذي ينشأ عن المخالفة حتى لا يتجاوز اعتقاد المسلم كمال حاله إلى أن يكون عدوًّا وحنقًا وبغيضًا لأهل الأديان من جهة المخالفة في الدين»^(٣)، وفي رأي جون جاك روسو «أن الذين يفرقون بين عدم التسامح المدني وعدم التسامح الديني يخطئون، فإن هذين النوعين من عدم التسامح لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فمن المستحيل العيش مع أناس يعتقد بأنهم مالكون، فحبهم يعني كره الله الذي يعاقبهم. فلا بد قطعاً من إرجاعهم إلى الدين القويم أو من تعذيبهم، ففي كل مكان يقر فيه عدم التسامح الديني، يكون من المستحيل أن لا يترك بعض الأثر المدني،

(١) تفسير المنار، رشيد رضا، ص ٢٧٩، م س..

(٢) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور ص ٢١٧، م س.

(٣) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، ص: ٢١٧، م س.

وبمجرد أن يصدر له هذا الأثر، فإن صاحب السيادة لا يبقى صاحب سيادة حتى في الأمور الزمنية، فمنذئذ يصبح الكهنة هم السادة، والملوك مجرد موظفين عندهم، والآن... ينبغي التسامح مع جميع الأديان التي تسامح مع غيرها، بقدر ما لا تتطوي عقائدها على شيء مضاد لواجبات المواطن، ولكن كل من يجرواً على القول: لا سلام مطلقاً خارج الكنيسة يجب أن يطرد من الدولة^(١) وفي هذا تأكيد على مبدأ التسامح الإنساني كقيمة من قيم الرحمة برغم اختلاف المرجعيات والأيدولوجيات.

فالتسامح ليس أثراً من آثار الرحمة فحسب، بل هو «مرحلة حضارية ومدنية يبلغها لجماعة بشرية، حينما نتجاوز موروث التخلق والانحطاط الحضاري الذي نعانيه، والتسامح الذي ندعوا لأن يسود حياتنا الثقافية لا يعني إنهاء جدلية الصراع الاجتماعي والثقافي، وإنما يعني العمل على تنظيم هذه الجدلية، فبدل أن تكون كابحة للتطور الثقافي والإبداع الفكري، تكون من أسباب التطور الثقافي واطراد المعرفة، ولا تتوفر وسيلة متقدمة نظرياً وأخلاقياً لتنظيم هذه الجدلية، أفضل من التسامح القائم على نبذ الأحكام المطلقة ونسبية الحقيقة والمعرفة»^(٢). ولا مجال لذلك إلا في ظل الإسلام، إذ «لم يحفظ التاريخ أن أمة سوت رعاياها المخالفين لها في دينها برعاياها الأصليين في شأن قوانين العدالة ونوال حظوظ الحياة بقاعدة: لهم ما لنا وعليهم ما علينا، مع تخويلهم البقاء على رسومهم وعاداتهم، مثل أمة المسلمين فحقيق هذا الذي نسميه التسامح بأن نسميه العظمة الإسلامية»^(٣).

ومن أبرز مظاهر التسامح الذي ساد الحضارة الإسلامية عبر العصور

- (١) العقد الاجتماعي جان جاك روسو، ترجمة: ذوقان، دار القلم بيروت، ط١، ١٩٧٣م، ص: ٢١٢.
- (٢) الإسلام والغرب وحوار المستقبل، محمد محفوظ، ط: ٢، ٢٠٠٠م، ص: ١٤٩.
- (٣) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، ص: ٢١٩ م.س.



أن «الإسلام يعدُّ اليهود والنصارى أهل ديانة سماوية، حتى وإن لم يكن هذا الاعتبار متبادلاً وعلى الرغم من أن عدم الإيمان، بنبوة محمد ﷺ وهو عندنا أمر عظيم وشأن خطير، بل هو أمر فارق، فإن الإسلام قد استوعب هذا الخلاف، لا بالتهوين عن أمره، أو المهادنة العقدية له، ولكن بما رسمه في باب المعاملات من تعاليم تسمح بالتواصل والتراحم برغم خلاف المعتقد»^(١). وتكمن الرحمة في تاريخ الأديان في « تنوير العقل بحقيقة تاريخية شديدة الوضوح، وهي أن التسامح في الإسلام، هو عقيدة ثابتة وسلوك راق، بل هو منهج حياة طبقه المسلمون في حياتهم الخاصة والعامة، فكان تعاملهم مع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى، مثلاً ربيعاً عز نظيره للتعايش. وهو الأمر الذي يؤكد بما لا يرقى إليه الشك أن المسلمين رواد التعايش، وأنهم يملكون، وفي كل الأحوال استعداداً ذاتياً ليتعايشوا مع من يرغب من أهل الأديان والشرائع والملل والعقائد، في أن يتعايش معهم من دون أن يكون هذا الاستعداد تفريطاً في خاصية من خصائص هويتهم، أو تخلياً عن معتقد من معتقداتهم، أو تنازلاً عن حق من حقوقهم، وإنما هو تعايش يخدم أغراض إنسانية سامية، من خلال التفاهم والتعاون والعمل المشترك في الميادين التي تحقق هذه الأغراض»^(٢).

فلذلك يحق القول: إن التسامح من تجليات الرحمة على البشرية في تنظيم الحياة، ومن ثم في تحقيق التعايش الحضاري.



(١) الحوار من أجل التعايش، عبدالعزيز بن عثمان التويجري، دار الشروق، ط١، سنة ١٩٩٨، ص: ٨٣.

(٢) نفسه ص: ٨٦.

الخاتمة

يمكن إجمال أهم نتائج الدراسة في النقاط التالية:

- إن قيمة الرحمة في القرآن هي أساس البناء الاجتماعي، ومفعلة ومنطلق كل تعامل بشري، سواء مع الإنسان أو مع غيره أو مع محيطه، وهي أساس العمران بتوفرها على سمات حضارية وخصائص إنسانية، تجعلها عالمية الأبعاد وإنسانية التوجه.
- مثلت ضميمتا "التنوع والاختلاف" إحدى المجالات التي امتدت فيهما قيمة الرحمة ونمت، لأن الرحمة عنصر مهم لإقرار السلام، وهي من القيم القادرة على إنقاذ البشرية من هذه الحروب، التي تهدد العالم في كيانه، كما أن التنوع والاختلاف رحمة لما يسهم به في البناء الحضاري، فهو سنة كونية وسبيل إلى التعارف المفضي للتعاون والتعايش.
- إن التسامح من تجليات الرحمة باعتباره من إحدى المجالات الفعلية الذي تتجسد فيه.
- إن قيمة الرحمة التي تعد في مقدمة الأسس والمبادئ العامة التي

تحكم العلاقات والسلوك الإنساني، تستبطن قيمًا أخرى، فهي أشمل من التضامن الذي تسعى الحداثة الغربية إلى تعميمه، كما أنها أشمل من التسامح، لأنه قد يكون في التسامح ما يخفي في ثناياه الشر، أما التراحم فهو تحقيق المصلحة للغير بكل ما يتعلق بالخير.

- قيمة الرحمة أساسية في عملية صناعة الحضارة، فالإنسانية بدون رحمة تعيش عيشة الشقاء.
 - قيمة الرحمة قادرة على إخراج الإنسانية من الأزمة، التي تهدد العالم في إنسانيته، فبها يتحقق صلاح الكون.
- توصيات:

١. لابد من التشبث بقيمة الرحمة كأداة لإقامة أسس التعايش والتفاهم والسلام.
 ٢. أن على الإنسان التشبع بقيمة الرحمة، وإظهار آثارها على السلوك، لأن نسق أي قيمة لا يظهر إلا من خلال ترجمته، سواء على المستوى الاجتماعي أو الحضاري.
 ٣. الوعي بأن المنقذ من هذه الأزمة يجب أن ينطلق من بعد كوني، الذي يتمثل في الرؤية القرآنية بإعادة قراءة النص وفهمه مع مقتضيات الواقع.
- والله من وراء القصد، وهو يهدي إلى سواء السبيل.



فهرس المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- ١. الاجتماع العربي الإسلامي مراجعات في التعددية والتنوير، السيد محمد حسن الأمين، قضايا إسلامية معاصرة، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- ٢. الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق ط. ٥. ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ٣. الإسلام والآخر، أسعد السحمراني، دار النفايس، ط: ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ٤. الإسلام والغرب وحوار المستقبل، محمد محفوظ، ط: ٢، ٢٠٠٠م.
- ٥. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- ٦. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع.
- ٧. التعدد التنظيمي للحركة الإسلامية ما له وما عليه، أحمد الريسوني، دار الكلمة ط: ١، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.
- ٨. التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، طبعة جديدة ١٩٨٥م.
- ٩. تفسير البغوي، الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة للنشر والتوزيع.
- ١٠. تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ١١. تفسير المنار، رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر ط ٢.
- ١٢. ثقافة التسامح في ضوء التربية والدين، رشدي أحمد طعيمة، ومحمد عبدالرؤوف الشيخ، الطبعة ١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠١م.



١٣. جيران في عالم واحد، نص تقرير لجنة إدارة شؤون المجتمع العالمي، ترجمة مجموعة من المترجمين، مراجعة عبدالسلام رضوان، عالم المعرفة، ع، ٢٠١، سبتمبر ١٩٩٥م.
١٤. حضارة النبوة رحمة للعالمين، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
١٥. الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبدالرحمن، ج: ١، ٢٠٠٥م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب.
١٦. الحوار مع الغرب آلياته، أهدافه، دوافعه. د سليمان الخطيب، أميمة عبود، منى أبو الفضل. الطبعة: ١، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، دار الفكر دمشق.
١٧. الحوار من أجل التعايش، عبدالعزيز بن عثمان التويجري، دار الشروق، ط١، سنة ١٩٩٨.
١٨. خلق المسلم، محمد الغزالي، دار البيان الكويت.
١٩. روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط٤، ٢٠٠٩م.
٢٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المعاني للآلوسي محمود شكري، دار إحياء التراث العربي.
٢١. الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، د، عبدالحميد أبو سليمان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ط: ١، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، المعهد العالمي، للفكر الإسلامي.
٢٢. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، مكتبة المعارف الرياض، ط١.
٢٣. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها محمد هيشور، طبعة: ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٢٤. الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
٢٥. الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دراسة في فقه الاختلاف في ضوء النصوص والمقاصد الشرعية، يوسف القرضاوي، دار المعرفة، الدار البيضاء، (بلاط، ت).
٢٦. صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
٢٧. العقد الاجتماعي جان جاك روسو، ترجمة: ذوقان، دار القلم بيروت، ط١، ١٩٧٣م.
٢٨. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٧، ١٩٩٢م.
٢٩. قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لدولة قطر، ط١، محمد عبدالوهاب الخطيب، ١٤٣١هـ.
٣٠. كتاب الأمة، الإسلام وصراع الحضارات، أحمد القديري، عدد: ٤٤، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٣١. كشاف اصطلاحات الفنون محمد علي التهاوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق لطفي عبدالبديع.
٣٢. كيف نتعامل مع القرآن، يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط٦، ٢٠٠٧م.
٣٣. لسان العرب ابن منظور، مادة "رحم"، مج ٦ ط٤، ٢٠٠٥ ص: ١٢٤ ونفس المعنى وارد في مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي طبعة محققة، مكتبة لبنان ١٩٨٦م.
٣٤. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر سليمان الهيتمي، دار الكتب العلمية، ط١.
٣٥. مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام



محمد هارون، مج ٥، دار الجيل، ط ١، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م.
٣٦. نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، الشاهد البوشيخي،
فاس ط ١، ٢٠٠٢ م.

• المجالات:

١. إسلامية المعرفة، العدد: ٥٦، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.
٢. إسلامية المعرفة السنة التاسعة، عدد: ٣٣-٣٤، صيف، وخريف
٢٠٠٣ م.
٣. مجلة التسامح صيف، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م، العدد ٧، السنة الثانية.
٤. مجلة التسامح، ع: ١١، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
٥. مجلة التفاهم العدد ٣٧ السنة العاشرة صيف ٢٠١٢ م / ١٤٣٣ هـ.



ختم الآيات بالرحمة تأصيل ودلالات

إعداد:

د. خالد حسن أبو الجود



المحرمات

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن نبينا محمداً ﷺ
رسول الله.

أما بعد ...

الرحمة، كلمة ربانية، تجذب القلوب والعقول، اهتم بها الإسلام،
وقررها الكتاب الكريم في عدة مواضع بلغت نحو ٢٦٨ موضعاً، وقد
وردت بعدة صيغ، فورد بصيغة الاسم في أكثر المواضع، وورد بصيغة
الفاعل في ١٤ موضعاً.

ولفظ الرحمة يدل على الرقة والعطف والرأفة، والرحم والمرحمة
والرحمة بمعنى، والرحم علاقة القربى، وورد لفظ الرحمة في القرآن
على عدة معان:

ولفظ (الرحمة) في القرآن ورد على عدة معان، نستعرضها تالياً^(١):

• الرحمة التي هي (صفة) الله ﷻ، تثبت له على ما يليق بجلاله
وعظمته، من ذلك قوله ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]،

(١) بصائر ذوي التمييز ٥٥/٣.

وقوله ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٢٣]. و(الرحمة) بوصفه (صفة) لله ﷻ هي الأكثر وروداً في القرآن الكريم.

• الرحمة بمعنى (الجنة)، من ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، أي: يطمعون أن يرحمهم الله، فيدخلهم جنته بفضل رحمته إياهم.

• الرحمة بمعنى (النبوة)، من ذلك قوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، قال علي بن أبي طالب ﷺ: يختص برحمته: أي: بنبوته، خصَّ بها محمداً ﷺ. وهذا على المشهور في تفسير (الرحمة) في هذه الآية. ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨]، أي: نبوة ورسالة.

• الرحمة بمعنى (القرآن)، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، ف (الرحمة) في هذه الآية القرآن، وهذا مروى عن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة.

• الرحمة بمعنى (المطر)، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، قال الطبري: و(الرحمة) التي ذكرها جل ثناؤه في هذا الموضع: المطر^(١)، ومن هذا القبيل قوله ﷻ: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٥٠].

• الرحمة بمعنى (النعمة والرزق)، من ذلك قوله ﷻ: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ [الزمر: ٣٨]، قال الشوكاني: الرحمة: النعمة والرزق^(٢). ومن هذا القبيل قوله عز من قائل: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ١٠٠]، قال البيضاوي: أي: خزائن رزقه^(٣)، وسائر نعمه. ومنه قوله ﷻ: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢].

(١) تفسير الطبري ٤٦٧/١٧.

(٢) فتح القدير ١٠٧/١.

(٣) تفسير البيضاوي ١٦٣/٢.

• الرحمة بمعنى (النصر)، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، قال القرطبي: أي: خيراً ونصراً وعافية.

• الرحمة بمعنى (المغفرة والعتق)، من ذلك قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، أي: أنه ﷺ يقبل من عباده الإنابة والتوبة. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، أي: لا تيأسوا من مغفرته وعتقه.

• الرحمة بمعنى (العطف والمودة)، من ذلك قوله ﷺ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، قال البغوي: متعاطفون متوادون بعضهم لبعض، كالولد مع الوالد^(١). ونحو هذا قوله ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، أي: مودة، فكان يواد بعضهم بعضاً.

• الرحمة بمعنى (العصمة)، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣]، قال ابن كثير: أي: إلا من عصمه الله تعالى^(٢).

• الرحمة بمعنى (الثواب)، من ذلك قوله ﷺ: ﴿إِنَّ رَحِمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] قال سعيد بن جبیر: الرحمة ها هنا الثواب.

• الرحمة بمعنى (إجابة الدعاء)، من ذلك قوله ﷺ: ﴿ذَكَرْتُ رَحِمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢]، قال الشوكاني: يعني إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد^(٣).

(١) تفسير البغوي ٦/٨٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٣٩٤.

(٣) تفسير فتح القدير ٣/٣٧٩.

على ذلك فالرحمة من الألفاظ العامة والشاملة، التي يدخل معناها في كل نفع يعود على الإنسان في دنياه وآخرته، والقرآن يؤكد على أهمية هذه الصفة الجميلة، وهذا الاسم الرائع بذكر هذه الكلمة في أواخر الآيات تذييلاً لها، ليؤكد معنى، ويبين قيمة معينة، أو ليعلل قضية، ومن هنا أتت أهمية هذه الكلمة التي جاءت لتحاول تجلية هذه القضية، ألا وهي: لماذا التذييل بالرحمة في كثير من الآيات القرآنية؟ وما هي أنواع الرحمة التي جاءت في أواخر آيات الكتاب المبين.

ولتجلية هذه القضية جاء هذا البحث في مدخل ومبحثين:
مدخل: في معنى الآية وتذييل الآيات، وفوائد مستتبطة من التذييل.
المبحث الأول: رحمة الله الواردة في ختام الآيات، وقد جاء في مطلبين:

المطلب الأول: في ورودها اسماً

والمطلب الثاني: في ورودها وصفاً.

والمبحث الثاني: معاني الرحمة في ختام الآيات، وجاء في مطلبين:

المطلب الأول: ورودها عامة

والمطلب الثاني: في ورودها خاصة.

وأتبعنا ذلك بخاتمة، تبين أهم نتائج البحث.

وأخيراً أسأل الله الكريم الرحيم أن يوفقنا لإخراج هذه الورقة كما يحب ويرضى، والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.



مدخل

القرآن الكريم كتاب الله ﷻ، يمتاز عن كل كلام سبقه أو جاء بعده، وذلك بمجيئه على صورة آيات مفصلة، لها طابعها الخاص في الاتصال والانفصال، وفي الطول والقصر، وفيما يظهر من الائتلاف والاختلاف، قال تعالى: ﴿كَتَبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢].

والآية القرآنية هي الوحدة التي بني منها القرآن، والفواصل هي النهايات التي تذييل بها الآيات القرآنية^(١).

والفاصلة القرآنية تتعدد ألوانها بعدد أي القرآن، فكل فاصلة مقطع من البيان، ونغم من الألحان، وآية من آيات الإعجاز في اتصالها بالآية وانفصالها عنها، وفي توازنها أو استقلالها بذاتها^(٢).

العلاقة بين الفاصلة وما قبلها من الكلام: أمر لا معدل عنه، وإلا اختل نظام الكلام، وهذه العلاقة تنحصر في أربعة أشياء:

التمكين: بأن يمهد للفاصلة قبلها تمهيداً تأتي به الفاصلة ممكنة في مكانها، مطمئنة في موضعها، متعلقة معناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً، بحيث لو طرحت اختل المعنى واضطرب الفهم.

التصدير: وهو أن يتقدم لفظة الفاصلة بمادتها في أول صدر الآية أو

(١) الفاصلة في القرآن: ٢٨٥.

(٢) إعجاز القرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/٢١٥.

في أثنائها أو آخرها، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

التوشيح: وهو أن يرد في الآية معنى يشير إلى الفاصلة حتى تعرف منه قبل قراءتها .

الإيغال: وهو أن ترد الآية بمعنى تام وتأتي الفاصلة بزيادة في ذلك المعنى كقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فإن الكلام تم عند ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠]، ثم احتاج إلى فاصلة تناسب قرينة الكلام، فلما جاء بها أفاد معنى زائداً^(١).

والعلاقة بين الفاصلة والتذييل:

والمقصود بالتذييل: أن يأتي بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول، تحقيقاً لدلالة منطوق الأول أو مفهومه، ليكون معه كالدليل، ليظهر المعنى عند من لا يفهم، ويكمل فهمه^(٢).

وقسم العلماء التذييل على قسمين:

- قسم يخرج مخرج المثل السائر، بأن يكون مستقلاً بإفادة المراد، فيكون جائز الاستعمال على الانفراد، مثل قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ويصلح مثلاً للعبارة والتأسي.
- وقسم لا يخرج مخرج المثل، لعدم استقلاله بإفادة المراد، وتوقفه على ما قبله^(٣).

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن ١/٩٦، الفاصلة في القرآن: ٢٩١.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/٦٨، الفوائد المشوق: ١٢١.

(٣) الفوائد المشوق: ١٢١.

والملاحظ أن العلماء برغم أنهم يعرفون الفاصلة بأنها كلمة آخر الجملة، ولكنهم عند الاستشهاد للفاصلة يلحظون الجملة بكاملها، وينظرون إلى المعنى كله، فالفاصلة تستمد تحديد معناها مما قبلها ومما بعدها.

وهذه فوائد من ذكر الأسماء الحسنى والصفات العلى في آخر الآيات، نقدمها لتبين لنا مقصد صفة الرحمة واسم الله الرحيم فيما لا نفسره من آيات، نقدمها في هذا البحث لضيق المقام⁽¹⁾:

أولاً: قد يذكر ﷺ الحكم ولا ينص على نفس الحكم، بل يذكر من أسمائه الحسنى ما إذا علم ذلك الاسم علمت آثاره.

ثانياً: قد يأتي بلفظة (كان) في أواخر الآيات: لتحقيق المضمون لا لتدل على المضي.

ثالثاً: يظهر ﷺ أفعاله ويبسط آثاره ثم يستخرج من أفعاله وآثاره تلك الأسماء الإلهية.

رابعاً: يقرن الترغيب بالترهيب، والإنذار بالتبشير، مثل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

خامساً: تأتي الفواصل مشتملة على الأسماء الحسنى للحمل على المقررات السابقة، والحث على التمسك بها أمراً ونهياً.

سادساً: قد تأتي الفاصلة للتأكيد والتقريب لمضمون ما سبقها من المقاصد والأغراض بطريقة التذكير بالأسماء والصفات.

سابعاً: يأتي بالأسماء في آخر الآيات، لتدل على ظهور تلك الأسماء في مضمون ما تقدمها من الكلام.

(1) انظر في تقرير هذه القواعد: الأسماء الحسنى ومناسبتها للآيات التي ختمت بها من أول سورة المائدة إلى آخر سورة المؤمنون، محمد مصطفى أيدين، رسالة ماجستير: ٥٩.

ثامناً: في اقتران اسمين كريمين معنىً خفياً، وهو حصول وصف جديد لله ﷻ من اقترانهما.

تاسعاً: قد تأتي الأسماء للتبنيه على أن الأسماء المتعلقة بشؤون الحياة وتنظيمها ليست أموراً دنيوية، بل هي أحكام إلهية تدخل في مفهوم العبادة.



المبحث الأول رحمة الله الواردة في ختام الآيات

وردت الرحمة في كتاب الله في ختام الآيات بصورة الاسم أو الصفة، وقد جاءت مفردة أو مقترنة بغيرها، وسنفصل هذا المبحث في مطلبين فيما يلي

المطلب الأول ورودها اسماً

وردت الرحمة اسماً في صورتين: إما مقترنة مع غيرها، وإما مفردة:
أولاً: ما جاء مقترناً مع اسم آخر:

وقد جاء مقترناً مع البر، ومع التواب، ومع الرحمن، ومع العزيز،
وسنبين ذلك كما يلي:

• مقترنة مع البر الرحيم:

وقد جاءت مرة واحدة في سورة الطور الآية: ٢٨، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا
كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

والبَرُّ: هو المحسن المطلق، الذي منه كل إحسان، وبره ﷻ بعباده إحسانه

إليهم في الدنيا والآخرة، فهو الذي شمل الكائنات بره، وهباته، وكرمه، فلا يستغني مخلوق عن إحسانه طرفة عين^(١).

والرحيم: صاحب الرحمة العامة والخاصة:

فالعامة: كما هي مذكورة في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وهي رحمة يشترك فيها البر والفاجر، وأهل السماء وأهل الأرض، والمكلفون وغيرهم.

والخاصة: رحمته للمتقين الطائعين، حيث قال: ﴿فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وهذه الرحمة التي يطلبها الأنبياء وأتباعهم، تقتضي التوفيق للإيمان والعلم والعمل.

فلما ذكر ﷻ في الآية السابقة فضله وإحسانه ومنه عليهم، وهو وقايتهم وحفظهم من النار، فذكر هنا علة ذلك وهو الدعاء،.. ذكر العلة لذلك والدليل عليه بأسلوب الجملة الإسمية المؤكدة بـ (أن) التحقيقية الحاملة لأسلوب القصر بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ بأنه هو البر والمحسن على الناس وعلينا، وذلك لأنه رحيم، فيرحم عباده من جميع الوجوه، ولما كان البر سبباً للرحمة قدمه على ﴿الرَّحِيمُ﴾، وأخّر ﴿الرَّحِيمُ﴾ لتقتضي زيادة الإحسان، إذ لا يماثله أحد في بره وإحسانه ورحمته، وذكر بهذا الأسلوب ليبدل على المراد بأدق وجه، فإن البر هو الدال على الإحسان، وأن الرحمة مزيد الإنعام بعد البر والإحسان.

ووقعت جملة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ موقع التعليل، وضمير الفصل لإفادة القصر، وهو لقصر صفتي البر والرحيم على الله ﷻ، وهو قصر

(١) المقصد الأسنى: ١٢٨.



ادعائي للمبالغة، لعدم الاعتداد ببر غيره، ورحمة غيره بالنسبة إلى بر الله ورحمته^(١).

• مقترنة مع التواب:

كما في البقرة: ٣١، ٣٧، ٥٤، ١٢٨، ١٦٠، والتوبة: ١٠٤، ١١٨.

وكلها جاء في إطار الأمر من الله بالتوبة كما في قوله ﷻ، أو طلب التوبة من العبد، أو بيان أهمية التوبة وسنأخذ مثالين لضيق المقام:

فالمثال الأول: من سورة البقرة: ﴿فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣١]:

فالله ﷻ لما ذكر قبل ﴿الرَّحِيمُ﴾ ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، وذكر نتيجة ذلك لأنه ﷻ ألقى إليه الكلمات، فتاب تقتضي انتهاءها بالتواب، والتواب يقتضي الرحمة فلذا قرن بينهما، فذكر الرحيم الدال على الرحمة علة لما قبله بأنه ﷻ تاب على آدم ورجع عليه بالرحمة، والتذليل بالتواب الرحيم: تعليل للجملة السابقة وهي ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ والتواب صيغة مبالغة وهو الكثير القبول لتوبة التائبين، وعقبه بـ ﴿الرَّحِيمُ﴾ لأن ﴿الرَّحِيمُ﴾ جار مجرى العلة لـ ﴿التَّوَّابُ﴾، إذ قبوله التوبة من عباده ضرب من الرحمة بهم^(٢).

والمثال الثاني: في سورة التوبة الآية: ١٠٤ ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

ذكر ﷻ بأسلوب الجملة الاسمية المؤكدة الحاملة للحصر علة ودليلاً على ما ذكره من أنه يقبل التوبة، ويقبل الصدقات من عباده، فإنه ﷻ يقبل صدقات عباده، لأنه تواب فلا يعجل بالعذاب، وأنه

(١) التحرير والتوير ٥٨/٢٧.

(٢) التحرير والتوير ٤٣٩/١.

رحيم يرحم عباده، ويزيد أجورهم، وفيه ترغيب للتوبة والعمل الصالح، وتشريف للمؤمنين، فهو ﷻ بذاته يأخذ عنهم ويقبل توبتهم، فلما كان ﷻ الموصوف بالإكثار من قبول التوبة الرحيم لعباده كان التعقيب بـ ﴿التَّوَابُّ الرَّحِيمُ﴾ في غاية المناسبة^(١).

• مقترنة مع الرحمن:

وذلك في خمس آيات، موضوعها بيان توحيد ﷻ:

* ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٢].

* ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

* ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

* ﴿نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢-٣].

* ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

[الحشر: ٢٢].

ولضيق المقام أذكر مثالين لبيان الحكمة في جمعها معا في هذه الآيات:

المثال الأول في آية البقرة: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

[البقرة: ١٦٣].

فالحكمة فيها أنه ﷻ لما ذكر الألوهية لنفسه حصرها في ذاته، ونفاها عن غيره، فذكر في النهاية ﴿الرَّحِيمُ﴾ مع تقديم الرحمن عليها علة لما قبلها، فهو لا إله غيره ولا معبود، ولا ضار ولا نافع سواه، وذلك لأنه رحمن منعم على العباد بأسرهم مؤمنهم وكافرهم، فهو رحيم بهم يعطي لهم الأجر الجزيل بأعمالهم، فذكر الرحمن لأجل عموم رحمته، وتثنى بالرحيم ليبين خصوص رحمته.

ومن ناحية الوصفية فالرحمن والرحيم وصفان للضمير، أي المنعم بجلائل النعم ودقائقها، وهما وصفان للمدح، وفيهما تلميح لدليل الألوهية والانفراد بها، لأنه منعم، وغيره ليس بمنعم، وإن لم يكن في الصفتين دلالة على الحصر، لكنّ فيهما تعريض به هنا، لأن الكلام مسوق لإبطال ألوهية غيره، فكأنه يذكر الأوصاف المقتضية للألوهية، وقصرها عليه ﷻ، وذكر لفظ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إغاضة للمشركين، فإنهم أبوا وصف الله بالرحمن، وفيهما مزيد رد عليهم، لأنهم قالوا ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ (١).

والمثال الثاني في آية فصلت: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢-٣].

أنه ﷻ لما ذكر عظمة نزول القرآن، وذكر أنه تنزيل أي منزل من السماء، وليس مصنوعاً أو مختلفاً، فبيّن أنه نزل من رحمن يرحم به عامة عباده، أنزله للناس عامة رحمة بهم لهدايتهم، ثم أرفد بالرحيم وهو الرحمة الخاصة لعبادة.

ونكر تنزيل للتعظيم، وأثر الوصفين الرحمن والرحيم على غيرهما من الصفات لإيحاء إلى أن هذا التنزيل رحمة من الله لعباده، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن الرحمة صفة ذاتية لله ﷻ، وأن متعلقهما منتشر في المخلوقات (٢).

• مقترنة مع العزيز

في ثلاثة عشر موضعاً بثلاثة أساليب:

الأول: بأسلوب التوكيد، وفيه ثمان آيات: في سورة الشعراء ٩ مواضع: ٩١، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١ وكلها بلفظ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

(١) التحرير والتنوير ٧٦/٢.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣٠/٢٤.

والحكمة من ذلك أنه لما ذكر إهلاك الأقسام المكذبة، ذكر الوقائع بأسلوب الجملة الإسمية المؤكدة بـ (أن) وإضافة الرب إلى ضمير الخطاب، لتشريف النبي ﷺ، وقدم العزيز للمخالفين، فهذا لا يمنعه مانع عن إنفاذ أمره وإهلاك الأمم المكذبة، لأنه عزيز، والعزيز لا يستطيع أحد منع تصرفاته، وإهلاك الأقسام لا بد له من قوة، فاقتضى كلمة تدل على القوة والقهر والسلطان، فلذا ذكر ﴿الْعَزِيزُ﴾ قبل ﴿الرَّحِيمُ﴾، وذكر في النهاية ﴿الرَّحِيمُ﴾ ليبين أنه مع ذلك رحيم، ولو لم يكن كذلك لأهلك الجميع بذنوبهم. فالمكذبون خاصة لكثرة ذنوبهم لا يستحقون الإمهال، ولكنه أمهلهم برحمته، وآخر عنهم العذاب.

وسبب اقتران الاسمين ظاهر، لأن المقام مقام العزة والغلبة والرحمة أيضاً، فهو لما كان الإهلاك للمكذبين، كان الإمهال والنجاة للمؤمنين.

الثاني: أسلوب التوكيد والحصر في آية واحدة، قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٣].

والحكمة هنا بيينة: لأنه لما لن يستطيع أحد أن يدفع عن أحد شيئاً، ذكر الاستثناء عن عدم النصرة بأن ذكر من سينجو برحمة الله من العذاب، وذكر ذلك بأسلوب الجملة الإسمية، المؤكدة الدالة على الدوام، بأنه إنما ينجي من يرحمه الله، لأنه في حمايته، والله عزيز غالب، فلا يغلبه شيء، ولا يمنعه أحد من نفاذ أمره، وهو رحيم ومن رحمته نجاة المرحوم من العذاب.

وجملة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ استئناف بياني جواب مجمل عن سؤال السائل عن تعيين من رحم الله، أي أن الله عزيز لا يكرهه



أحد على العدول عن مراده، فهو يرحم من يرحمه بمحض مشيئته، وهو رحيم واسع الرحمة لمن يشاء من عباده، على وفق ما جرى به علمه وحكمته ووعد^(١).

الثالث: ما هو مجرد من أسلوب الحصر والتوكيد، وفيه أربع آيات: في سور الشعراء: ٢١٧ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾، وفي الروم: ٥، والسجدة: ٦، ويس: ٥.

وسنذكر الحكمة من سورة الشعراء، كمثال على هذا العنصر: وذلك أنه لما ذكر البراءة من العاصين، والدعوة تقتضي الإعانة والنصرة، فذكر تسليية للنبي ﷺ الأمر بالتوكل وذكر قبل ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ قوله ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ فذكر الوصفين لبيان من يتوكل، عليه بقوله ﴿ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾، فتوكلك وأمرك إليه، لأنه عزيز لا يغلب، ولا يمنعه مانع من إعانتك، وذلك لأنه رحيم مع كثرة عصيان العصاة، لا يعجل عذاب العصاة، ويعطي الأجر العظيم، وعلق التوكل بالاسمين ﴿ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾، فهو بعزته قادر على أن يغلب عدوه، وبرحمته يعصمه منهم رغم قوتهم^(٢).

ثانياً: ما جاء مفرداً:

كما في قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ ۙ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ ۝٢ ﴾ [الرحمن: ١-٢]. وذلك أنه ﷺ ختم السورة السابقة سورة القمر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ۝٥٥ ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥]، بين أن هذا الملك المقدر ليس بجبار، وإنما هو الرحمن ﷻ، وفيها من حسن البدء وروحة ختام الآية حيث لم يذكر في الآية إلا هذه الكلمة، ليبين أنه الرحمن أولاً وآخراً، ورحمته واسعة تسع الجميع.

(١) التحرير والتطوير ٢٥/٣١٢.

(٢) التحرير والتطوير ١٩/٢٠٤.

المطلب الثاني ورودها وصفا

وقد وردت أيضاً الرحمة بوصفها كصفة منفردة ومقترنة مع غيرها
كما يأتي:

أولاً: ما ذكر فيه الرحيم منفرداً:

ذكرت في ثلاثة مواضع: النساء: ٢٩، الإسراء: ٦٦، الأحزاب: ٤٣.

ولنأخذ الموضع الأول ليظهر المقصود: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا
أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

وحكمته: أنه لما ذكر تخفيف الأحكام، ذكر هنا بعض المنهيات التي تكون
سبباً لثقل العبء عليهم، فنهاهم عن أكل أموال الناس بالباطل، فذكر
العلة عن النهي بأن الأكل بالباطل يسبب القتل، وذكر الرحيم خاصة، لأنه
يخص المؤمنين في الآخرة، وذلك لأن رحمته الدنيوية عامة للكل، والرحيم
يشمل الرحمة الدنيوية والآخروية، فامتثال الأوامر واجتناب النواهي سبب
للرحمة الدنيوية من النعم وغيرها، والآخروية من الرضى ودخول الجنة^(١).

ثانياً: ما ذكر مقترناً مع غيره:

ذكرت صفة الرحمة مقترنة مع رب، ورؤوف وغفور، وها أنا أمثل لكل
ليتضح المقام:

• مقترنة مع رب:

جاء بهذه الصيغة في القرآن مرة واحدة في قوله ﷻ في سورة يس:

﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٥.

الرب هو المربي جميع عبادته بالتدبير وأصناف النعم، وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بأنواع النعم بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، وجعل الرحيم فاصلة، لأنه ﷻ لما ذكر لأهل الجنة السلام والسلامة من العذاب والتعب وغيرها من التكاليف، فذكر بأن هذا السلام ليس من شخص عام، بل من ذي العظمة والجلال الرب الذي رباهم في الدنيا بالتربية الجسمانية والروحية الخاصة، صار سبباً لدخولهم الجنة، ويكرمهم بلقائه، فجاء بلفظ ﴿رَحِيمٌ﴾ مع تقديم الرب ليتم المقصود، ويفصل ما أجمل.

وتتوین رب للتعظیم، فعدل عن إضافة ﴿رَبِّ﴾ إلى ضمير (هم)، واختار معه وصف الرب بالرحيم، لشدة مناسبة الإكرام والرضى عنهم بذكر أنهم عبدوه في الدنيا، فاعترفوا بربوبيته، فلذا تكرم عليهم ورضى عنهم^(١).

• مقترنة مع رؤوف:

وذلك في سبع آيات في: البقرة: ١٤٣، التوبة: ١١٧، النحل: ٤٧، الحج: ٦٥، النور: ٣٠، الحديد: ٩، الحشر: ٧.

ونذكر هنا الحكمة من ذكر الرؤوف الرحيم في ختام الآيات في آيتين ليتضح المقام بالمثال:

المثال الأول: قوله ﷻ في سورة النحل: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ

رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧].

ربنا ﷻ لما ذكر قدرته على العباد بأنه يستطيع أخذهم وتعذيبهم مع كونهم خائفين فله القدرة التامة، ولكن يؤخرهم ويمهلهم، وذكر قبل ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ والتخويف يقتضي الالتجاء، والالتجاء يحصل بالرحمة والمرحمة، فذكر علة ذلك وعدم الأخذ بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فهو ﷻ لا يأخذهم

(١) التحرير والتطوير ٤٤/٢٣.

بالعقاب مع أنه قادر على أخذهم وإهلاكهم، وذلك لأنه ربكم ومع الربوبية هو ﴿رءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ولهذا قد أمهلهم وتركهم في النعم مع أن أعمالهم تقتضي العذاب والأخذ.

وهو هنا فرع على الجملة الفعلية ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تفرع العلة على العمل، وحرف (إن) يفيد التعليل وفاء التفرع هنا مؤكدة، والتعليل لجميع المذكورات في الآية، كأنهم لما أمهلهم صاروا كالآمنين منه، بحيث يستفهم عنهم أهم آمنون من ذلك أم لا؟^(١).

والمثال الثاني: من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

والحكمة هنا: أنه لما ذكر نعمة الله من تسخير ما في الأرض للإنسان، وجريان الفلك في البحر للتجارة، وإمساك السماء أن تقع على الأرض بإذنه وقتما يريد، دل هذا على منتهى الرأفة والرحمة، فافتضى المقام ذكر الوصفين.

وذكر ذلك بأسلوب الجملة الإسمية المؤكدة، المذكور فيها لفظ الجلالة (الله) ظاهراً للتصريح بالقوة، ثم ذكر عامة الناس، وذكر التأكيد بأن والله الداخلة على (الرؤوف) فيها تمام رأفته ورحمته، فمن رأفته أنه منع السماء أن تقع على الأرض، ثم ذكر رحمته ليتبين زيادة إنعامه مع عصيانهم، ولم يقدر عليهم في الرزق مع قدرته على ذلك، فالرحيم وصف من الرحمة، وهي صفة تقتضي النفع للمحتاجين، والجمع بين الرأفة التي هي صيغة مبالغة تقتضي صرف القصر، مع الرحمة يفيد ما تختص به كل صفة، ويؤكد ما يجتمعان عليه^(٢).

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٨٧.

(٢) التحرير والتنوير ١٧/٢١٥.

• مقترنة مع غفور:

جاءت في (٤٢) موضعاً، منها:

- ❖ ١٢ موضعاً مسبوقه ب (إن) كما في البقرة: ١٧٣، ١٨٢، ١٩٩،
المائدة: ٣٤، ٣٩، الأنفال: ٦٩، التوبة: ٥، ٩٩، ١٠٢، الحجرات: ١٤،
المتحنة: ١٢، المزمل: ٢٠:

بعضها في إطار التوبة من الله، كما في:

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ٠ [المائدة: ٣٣-٣٤].

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ٠ [المائدة: ٣٨-٣٩].

وبعضها في إطار التخويف:

﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ٠ [المائدة: ٩٨].

وبعضها في إطار المنة، كما في قوله:

﴿ فَكُلُوا مِمَّا عَمِلْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ٠ [الأنفال: ٦٩].

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ إِلَّا إِنْهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ٠ [التوبة: ٩٩].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ

وَلَا يَزِينَنَّ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ وَفَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَعْفِرَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٢﴾ [المتحنة: ١٢].

❖ ٨ مواضع مسبوقه ب (فإن الله) البقرة: ١٩٢، ٢٢٦، آل عمران: ٨٩، المائدة: ٣، النحل: ١١٥، النور: ٥، المجادلة: ١٢، التغابن: ١٤.

منها: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوهُمْ^٤ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْتَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ^٥ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١١١﴾ فَإِن أَنْتُمْ أَقَانِ اللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١٩١-١٩٢].

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِن سَائِهِمْ تَرْبُصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٢٥-٢٢٦].

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٨﴾﴾ [آل عمران: ٨٦-٩٠].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ^٦ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ^٧ ذَلِكَمْ فِسْقٌ^٨ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَحْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا^٩ فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَحَبَّةٍ عَيْرٍ مُّتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالِدَمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ^{١٠} فَمَنْ أَضْطَرَّ عَيْرٍ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل: ١١٥].

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَأَجْلِدُوهُنَّ نَمْدِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ



شَهَدَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ [النور: ٤-٦].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١٢].

وبعضها في إطار العفو:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوَّالِكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

❖ ١١ موضعاً مسبوقة بـ (والله) البقرة: ٢١٨، آل عمران: ٣١، ١٢٩، المائدة: ٧٤، الأنفال: ٧٠، التوبة: ٢٧، ٩١، الحجرات: ٥، الحديد: ٢٨، الممتحنة: ٧، التحريم: ١

وبعضها في إطار رجاء الرحمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨]. ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]. ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨-١٢٩].

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتُوبَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفِيُّ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودةً والله قديرٌ والله غفورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٦-٧].

الأمْر بالتوبة:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٣-٧٤].

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِمَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْرِبِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧].

❖ موضع مسبوق بـ (فإنه) الأنعام: ٥٤، وهي قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا لَئِيْهَ لَمْ يَجْهَلْهُ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

❖ موضع مسبوق بـ (إن ربي) يوسف: ٥٣ وهو قوله:

﴿ وَمَا أَتَى نَفْسِيٰ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٰ إِنَّ رَبِّيٰ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣].

❖ موضع مسبوق بـ (فإنك) إبراهيم: ٣٦.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

❖ موضع غير مسبوق بشيء: النور: ٣٣.

﴿ وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَعَاوَهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَزَيِّنُوا عَلَى الْإِغْيَاءِ إِنْ أَرَدْنَا تَحْصِنًا لِنَبْتَغُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النور: ٣٣].

❖ موضع مسبوق بـ (فإنني) النمل: ١١.



﴿وَأَلِقَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا
يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

[النمل: ١٠-١١].

❖ موضع مسبوق بـ (من) فصلت: ٣٢.

وبعد هذا البيان القرآني نستطيع أن نجمع أساليب ﴿غَفُورٌ﴾ مع
﴿رَحِيمٌ﴾ في أربعة أساليب:

الأول: أسلوب التوكيد، وذلك في أربع وثلاثين آية: كما في البقرة:
١٧٣، ١٨٢، ١٩٩، ٢٢٦، المائدة: ٣، ٣٤، ٣٩، ٧٤، ٧٤، الأنعام:
٥٤، ١٥٤، ١٦٥، الأعراف: ١٥٣، ١٦٧.

مثال ذلك: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي
الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ
مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا
عَلَيْهِمْ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

حيث إنه لما ذكر حال المحاربين وجزاءهم قطع أيديهم أو
تصليبهم إلى آخر الجزاء، استثنى منهم الذين تابوا قبل القدرة
عليهم، فذكر الجملة الإسمية المؤكدة بأسلوب الجزاء بأنه لا
تثريب عليهم، لأن الله قد غفر لهم لأنه غفور، وغفر لأنه رحيم
بهم، فرحمهم وزاد أجرهم في الآخرة، ولم يذكر صفة أخرى،
لأن المقام مقام التوبة والمغفرة، وهو مقام يقتضي صفتي الغفور
والرحيم، وقدم الغفور، لأن الغفران سبب الرحمة.

الثاني: ما هو خال من أسلوب التوكيد، وذلك في ١٥ آية: كما في
البقرة: ٢٨٤، والنساء: ٣٥، والأنفال: ٧٠، والتوبة: ٢٧.

مثاله هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَدَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وحكمته هنا أنه لما ذكر أوصاف المؤمنين بالدوام الإيمان والهجرة والجهاد ذكر الرجاء، ورجاء الرحمة يتطلب كلمة تدل على الرحمة، لذا ذكر الجملة الإسمية المنتهية بالرحيم، تكميلاً لما سبق بأنهم إنما يرجون رحمة الله لغفرانه ورحمته على المسترحمين.

الثالث: أسلوب كان الاستمرارية مع التوكيد، وذلك في أربع آيات، كما في النساء: ٢٣، ١٠٩، ١٢٩، الأحزاب: ٢٤.

مثاله هنا: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

وذلك أنه ﷺ لما ذكر عدم القدرة على العدل بين النساء مع الحرص على العدل نهى عن الميل لواحدة، ذكر الجملة الشرطية قبل الرحيم بقوله ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾ [مریم: ٢] والإصلاح والتقوى سبب القرب والمغفرة، فلذا ذكر الجزاء هنا بأن الله غفور للمصلح ولأهل التقوى، وذلك لأنه رحيم.

الرابع: أسلوب كان الاستمرارية مجرداً عن التوكيد في سبعة مواضع: النساء: ٩٦، ١٠٠، ١٥٢، الأحزاب: ٥، ٥٩، ٧٣.

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦].

فإنه ﷺ لما ذكر الأجر للمهاجرين والمجاهدين بين هنا بأن هذه الدرجات منه ﷺ، والمغفرة والرحمة يدلان على الغفور



والرحيم، فكأنه ذكره علة لما سبق فهو **رَحِيمٌ** إنما يَغْفِرُ لَهُمْ وَيَرْحَمُ عَلَيْهِمْ، لأنه غفور ورحيم، وفيه ترغيب للتوبة والإنابة.

• مقترنة مع رؤوف:

❖ في أربعة مواضع: التوبة: ١١٧، ١٢٨، النور: ٢٠، الحشر: ١٠

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠].

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

❖ تواباً رحيماً في موضعين بالنساء: ١٦، ٦٤، وهما قوله تعالى:

﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَفَادُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء: ١٥-١٧].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

❖ في موضع من سورة الحجرات: ١٢ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢] .

والحكمة من إنهاء الفاصلة بهذا الاسم الكريم:

أنه ﷺ أمر بالاجتناب والتتحي عن الظن، لأن الظن هو الحامل للإثم، ثم بين بأسلوب التشبيه بشاعة الغيبة، ثم ذكر قبل النهاية الأمر بالتقوى، التي تفيد اجتناب المعاصي والترغيب في الطاعات، ذكر علة ما سبق بأسلوب الجملة الإسمية، المؤكدة الدالة على الاستمرار والدوام، كأنه ﷺ يقول: إنما يأمركم بالأوامر المذكورة، وينهاكم عن المنهيات، ويأمركم بالتقوى لتقربوا إليه وتصلوا حبلكم بحبله، لأنه تواب فيتوب عليكم ويستر عليكم، إذ هو رحيم، فيرحم عليكم بمزيد الأجر.

وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ للتذييل، لأن التقوى تكون بالتوبة بعد التلبس بالإثم، فقيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ وتكون التقوى ابتداءً، فيرحم الله المتقي، فالرحيم شامل للجميع^(١).



المبحث الثاني معاني الرحمة في ختام الآيات

وتأتي رحمة الله من حيث المعنى عامة، وخاصة، وسنعالج ذلك في
مطلبين:

المطلب الأول عامة

وتأتي الرحمة على معان مختلفة، فمن ذلك:

- الرحمة بالناس عامة المؤمن والكافر:

مثاله قوله تعالى: ﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ
فَضْلِهِ إِنَّهُ كَأَن يَكُم رَحِيمًا ﴾ [الإسراء: ٦٦].

بعد أن ذكر الناس جميعاً بأنه هو الرب الخالق، الذي سخر لهم
البحار، وجعل لهم السفن ليبتغوا من فضله، فوافق هذا الفضل التذليل
بالرحمة، وجملة: ﴿ إِنَّهُ كَأَن يَكُم رَحِيمًا ﴾ تعليل وتبنيه لموقع الامتتان،
ليرفضوا عبادة غيره، مما لا أثر له في هذه المنة^(١).

(١) التحرير والتوير ١٥/ ١٥٩.

• وتأتي في إطار طلب المغفرة:

﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [١٠٩] فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾

[المؤمنون: ١٠٩-١١١].

﴿ قُلْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوَأَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [١١٤] أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

[المؤمنون: ١١٤-١١٨].

في هذه الآيات طلب المغفرة من الله، فناسب معها التذليل بالرحمة، ولما كان لا يفضر حقيقة إلا هو، ولا يرحم حقيقة إلا هو، حسن التعبير بهذا التذليل.

• وتأتي لتعليم الخلق كيف تنال رحمة الله:

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [١٥٥] أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ [الأنعام: ١٥٥-١٥٦].
﴿ وَإِذْ أَقِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [يس: ٤٥].

وفي هذا يذكر الناس كافة بأن رحمته ستنتالهم إن هم أطاعوه، واتبعوا كتابه وخافوه، وخافوا يوم الحساب.

المطلب الثاني خاصة

هذا النوع من ختام الآيات بالرحمة، جاء ليبين العلاقات بين المؤمنين بعضهم ببعض، وبين الأنبياء وأتباعهم، وجاء على قسمين:

القسم الأول: بين المؤمنين بعضهم ببعض:

وهم أتباع الرسول الكريم ﷺ، فأمرهم بالتواصي بالمرحمة، ثم أمرهم بالصالحات والبعد عن السيئات:

أولاً: هم متواصون بالرحمة:

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البعد: ١٧]

فقد خص من أوصاف المؤمنين التواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة، لأن ذلك أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فالصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها، لأنها لا تخلو من كبح الشهوة النفسانية، وذلك من الصبر، والمرحمة ملاك صلاح الجماعة الإسلامية، قال الله ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، والتواصي بالمرحمة كناية عن اتصافهم بها، لأن من يوصي بالمرحمة هو الذي عرف قدرها، والتواصي بالصبر يدرّب النفس حتى تصل إلى رقة القلب، فتصل إلى الرحمة^(١).

ثانياً: مأمورون بالبعد عن القبائح:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٥٥] وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

[النور: ٥٥-٥٦].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٣٠] وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣٢].

(١) التحرير والتوير ٣٠/٣٥٥، التفسير المنير ٣٠/٣٥١.

﴿ وَإِنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَنِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩].

وذلك تذكيرا لهم لعمل الصالحات والبعد عن القبائح فرحمة الله قريبة من المحسنين، فجعل سبب الرحمة من الله ﷻ لهؤلاء العباد هو عمل الصالحات.

القسم الثاني: ما خص الله به أقواما معينين برحمته منهم:

وهو يخبر عن أنبياء الله ﷻ، فأخبر عن:

• يوسف عليه السلام:

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤].

﴿ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يُغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

[يوسف: ٩٢].

فإنه خير منكم ومن سواكم حافظا، وهو أرحم الراحمين، فلذا أكل أمر حفظه إلى فضله ورحمته ﷻ، ولا أعتمد في ذلك عليكم، فقد جربتم فما وجدت فيكم وفاء بوعده، ولا حفظا لعهد، فالله ﷻ يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم، فيجازي محسنهم، ويغفر لسيئهم، لأن رحمة الراحمين أيضا برحمته^(١).

(١) حدائق الروح والريحان ٩٩/١٤.

ثم لما عفا عنهم ذكر الصفة نفسها ليدل على أنه وحده أرحم الراحمين
عباده كلهم، ولا سيما التائب، فهو جدير بإدراك النعم بعد الإعاذة من النقم^(١).

• وعن أيوب عليه السلام:

﴿وَيُؤْتِكُ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا
لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ
لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ التعريض بطلب كشف الضر
عنه دون سؤال، فجعل وصف نفسه بما يقتضي الرحمة له، ووصف ربه
بالأرحمية تعريضاً بسؤاله، وكون الله ﷻ أرحم الراحمين، لأن رحمته
أكمل الرحمات، لأن كل من رحم غيره، فإما أن يرحمه طلباً للثاء في
الدنيا، أو للثواب في الآخرة، أو دفعاً للرقعة العارضة للنفس من مشاهدة
من تحقق الرحمة له، فلم يخل من قصد نفع لنفسه، وأما رحمته ﷻ
عباده فهي خلية عن استجلاب فائدة لذاته العلية^(٢).

• وعن موسى عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾
[الأعراف: ١٥١].

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ جواب عن كلام هارون، فلذلك فصلت، وابتدأ موسى
دعاه، فطلب المغفرة لنفسه تأديباً مع الله فيما ظهر عليه من الغضب،
ثم طلب المغفرة لإخيه، فيما عسى أن يكون قد ظهر منه من تقريط أو
تساهل في ردع عبدة العجل عن ذلك، وذكر وصف الإخوة هناك زيادة
في الاستعطاف، عسى الله أن يكرم رسوله بالمغفرة لإخيه، والإدخال في

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٠ / ٢١١.

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ١٢٧، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٢ / ٤٦٢.

الرحمة استعارة لشمول الرحمة لهما في سائر أحوالهما، بحيث يكونان منها، كالمستقر في بيت أو نحوه مما يحوي، فالإدخال استعارة أصلية، وحرف (في) استعارة تبعية، أوقع حرفه الظرفية موقع باء الملابس.

وجملة: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ تذييل، والواو للحال أو اعتراضية، وأرحم الراحمين الأشد رحمة من كل راحم، فذكرها هنا ختام رائع مناسب للآيات^(١).

• وعن نوح عليه السلام:

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ (٦٢) ﴿أَوْعِيْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٣)
[الأعراف: ٦٢-٦٣].

• وعن صالح عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥) ﴿قَالَ يَنْفُورُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٦) [النمل: ٤٥-٤٦].

وهؤلاء الأقسام ذكرهم الله بالرحمة تنبيهاً لهم، ليعلموا أن رحمة الله قريب من المحسنين، فيبادروا بالتوبة وعدم المعاندة^(٢).

وفائدة الترجي هنا: التنبيه على عزة المطلوب، وأن التقوى غير موجبة للرحمة، بل هي منوطة بفضل الله ﷻ، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه، ولا يأمن عذاب الله ﷻ^(٣).



(١) التحرير والتنوير ٩/ ١١٨.

(٢) اللباب في علوم الكتاب ٩/ ١٨٢،

(٣) تفسير حدائق الروح والريحان ٩/ ٣٨٦.

الخاتمة

بها نتائج البحث:

أولاً: الرحمة، كلمة ربانية، تجذب القلوب والعقول، اهتم بها الإسلام، وقررها الكتاب الكريم في عدة مواضع، بلغت نحو ٢٦٨ موضعاً.

ثانياً: جاءت الرحمة بصور مختلفة تدل على أهمية هذه الصفة، وأن الدين قائم عليها.

ثالثاً: التعريف بأسماء الله وصفاته، وأنه سبحانه الرحيم الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء.

رابعاً: الدراسات القرآنية تهتم بالأسماء والصفات، ولكنها دراسات منفردة، قائمة على الجهد الفردي، من أجل ذلك اقترح عمل جماعي يقوم بعمل موسوعة ضخمة للأسماء والصفات، التي ذكرت في القرآن، مع التركيز على خواتيم الآيات القرآنية وبيان معناها.

٢٤٣

خامساً: اقترح مجموعة من الرسائل العلمية المركزة عنونها خواتيم الآيات القرآنية دراسة وبيان، ويأخذ كل طالب مجموعة من

الآيات أو السور، وتدرس من الناحية اللغوية والبيانية، وغيرها من النواحي التفسيرية، بحيث تخرج موسوعة متفردة في موضوعها.



فهرس المصادر والمراجع:

١. الأسماء الحسنى ومناسبتها للآيات التي ختمت بها من أول سورة المائدة إلى آخر سورة المؤمنون، محمد مصطفى أيدين، رسالة ماجستير.
٢. إعجاز القرآن، عبد الكريم الخطيب.
٣. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، ت: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث.
٤. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ت: محمد أبو الفضل، دار التراث.
٥. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروزآبادي، ت: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط ٣ ١٩٩٦.
٦. التحرير والتوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.
٧. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء ابن كثير، ت: سامي سلامة، دار طيبة للنشر.
٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر.
٩. حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهري، دار طوق النجاة.
١٠. الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، دار عمار.
١١. الفاصلة في القرآن، د/ حسين نصار، نهضة مصر.
١٢. فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير.
١٣. الفوائد المشوق، ابن قيم الجوزية، دار التراث.

١٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار
الكتاب الإسلامي بيروت.



رحمة القرآن الكريم مكوناتها، وسبل استنزالها، واستثمارها تربوياً ودعواً

إعداد:

محمود بن عبد الجليل روزن



المقدمة

الحمد لله عظيم المنّ واسع المغفرة، كتب على نفسه الرحمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمداً عبده المصطفى ونبهه المجتبي، خاتم النبيين، والمبعوث رحمةً للعالمين، عليه أفضل الصلاة والسلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فقد وصف الله ﷺ القرآن بأوصافٍ كثيرة، وكلُّها يحمل من المعاني ما يُبين وجهاً أو أكثر من وجوه تفرّد القرآن وعظمته وإعجازه. وإنّ من أخصّ الصفات التي وُصف بها القرآن صفة الرّحمة، يدلُّ على خصوصيتها تكرر الوصف، وتنوع سياقاته بين أفرادها وقرّنها بغيرها من الصفات، وجعلها غاية التنزيل، وغاية القيام بحقوق التنزيل، وإسناد التنزيل إلى اسمي الرحمن والرحيم... إلى غير ذلك.

ولعلّ لهذه الصفة الجليلة أثراً كبيراً في الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، فلا يُضاهى به كلامٌ. ولا يُساميه بلاغٌ، يتلذذ به المؤمنون، ويخضع له الكافرون. فشأن بين تنزيل الرحمن الرحيم، وبين كلام من قصّاره شيء من جزءٍ من مئة جزءٍ من الرحمة التي أنزلها الله ﷺ.

ولمّا كان القرآن هو دستور الإسلام، ومنهج دعوته، ومصدر أخلاقه؛

فإنَّ اتصافه بالرحمة لمن أكبر مقومات صلاح شريعة الإسلام لكلِّ زمانٍ ومكان، فإذا عَلِمَ دعاةُ الإسلام ذلك كانوا متأهلين للتصدّي للجهاد به جهاداً كبيراً، والدعوة به، وتبليغه، والنصح له، وكانوا أقوم الناس بحقوقه.

أهداف البحث:

- وقد عقدتُ ذلك البحث لأربعة أهداف رئيسة؛ هي:
- الكشف عن معنى صفة من أخصّ صفات القرآن الكريم، وهي صفة الرحمة.
- بحث مكونات رحمة القرآن الكريم؛ لإثبات تفرُّده بجماعها، واختصاصه بلبابها.
- بيان السبل القيِّمة التي ينبغي على المسلم سلوكها لتحصيل رحمة القرآن الكريم.
- بيان كيفية استثمار رحمة القرآن تربوياً ودعويّاً، وتبسيط ذلك في صورة صالحة للتطبيق العمليّ.

منهج البحث:

أتبعت في سبيل تحقيق مقصود البحث عدة مناهج، فنهجتُ منهج الاستقراء باستهداء الوحيين - قدر الإمكان - مستخرجاً النصوص التي نوّهت برحمة القرآن صراحةً أو إشارةً، لفظاً أو معنىً، ثمَّ حللتُ تلك النصوص مستتبّطاً مكونات رحمة القرآن، وعمَلها في الإعجاز التأثيري له، وسبل استئزال تلك الرحمة، وكيفية استثمارها تربوياً ودعويّاً، ثمَّ بنيتُ من مضمّن ذلك نموذجاً تطبيقيّاً للتقويم والتعاهد.

والتزمتُ في سبيل ذلك عزو النصوص، وتخريج الأحاديث؛ فإن كان



الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بتخريجه منه، وإن كان في غيرهما عزوته اختصاراً؛ مبيّناً درجته، مسترشداً بأقوال أئمة هذا الفن قديماً وحديثاً، كما التزمت بعزو النقول؛ فإن كانت بنصّها ذكرت مصدرها، وإن كانت بتصرفٍ أشرتُ إلى ذلك، وإن كانت بمعناها قلتُ: يُنظر.

خطة البحث:

وإضافةً إلى تلك المقدمة، فقد نظمت البحث على تمهيدٍ، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وبيانها كما يأتي:

التمهيد؛ وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معنى الرحمة لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: وصف القرآن بالرحمة.

المبحث الأول: مكوّنات رحمة القرآن؛ وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: أنّ القرآن الكريم تنزيل من الرحمن الرحيم.

المطلب الثاني: أنّه منزل على الموصوف بالرحمة ﷺ.

المطلب الثالث: رحمة القرآن المُضمّنة في سائر أوصافه.

المطلب الرابع: رحمة القرآن المُضمّنة في خصائصه.

المبحث الثاني: سبل استئزال رحمة القرآن؛ وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: اتّباع القرآن.

المطلب الثاني: الاعتصام بالقرآن

المطلب الثالث: الاستشفاء بالقرآن.

المطلب الرابع: استماع القرآن والإنصات له .

المطلب الخامس: تلاوة القرآن ومدارسته .

المبحث الثالث: الاستثمار التربوي والدعوي لرحمة القرآن؛ وفيه
ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الاستثمار التربوي لرحمة القرآن .

المطلب الثاني: الاستثمار الدعوي لرحمة القرآن .

المطلب الثالث: نموذج تطبيقي مقترح لتقويم استثمار رحمة القرآن
وتعاهده، وقياس أثره .

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات .

والله أسأل أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه، وأن يغفر لنا ويرحمنا
ويتوب علينا، وأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء
همومنا وأحزاننا، وأن يجعلنا من أهل القرآن أهل الله وخاصته . آمين .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



تمهيد

المطلب الأول معنى الرحمة لغةً واصطلاحاً

الرحمة لغةً:

الراء والحاء والميم أصل واحدٌ، يدلُّ على الرِّقَّة والعطف والرأفة^(١). قال الراغب: «والرَّحْمَةُ رِقَّةٌ تقتضي الإحسان إلى المرَّحوم، وقد تستعمل تارة في الرِّقَّة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرِّقَّة، نحو: رَحِمَ اللهُ فلاناً. وإذا وصف به البارئ فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرِّقَّة»^(٢). والرحمة من صفات الله ﷻ قد تكون صفة ذات؛ فترجع إلى إرادة فيض الخير عموماً وخصوصاً، وقد تكون هي نفس الفيض والإنعام فتكون من صفات الأفعال^(٣).

والرحمة اصطلاحاً:

هي إرادة إيصال الخير^(٤). وقيل: الرحمة نحلةٌ ما يُوافي المرحوم في ظاهره وباطنه، أدناها كُفُّ الأذى، وأعلىها اختصاصُ الله ﷻ عباده المحسنين بالحسنى، وزيادة كشف الحجب، والنَّظر إلى الرحمن الرحيم^(٥).

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/ ٤٩٨).

(٢) المفردات (ص ٢٤٧).

(٣) ينظر: الأسنى في شرح الأسماء الحسنى (١/ ٦٨).

(٤) التعريفات (ص ١١٠).

(٥) يُنظر: التوقيف على مهمَّات التعاريف (ص ١٧٦).

المطلب الثاني وصف القرآن بأنه رحمة

وُصِفَ القرآن الكريم بأنه رحمةٌ في ستة عشر موضعاً، معظمها صريحٌ في أنّ الرحمة من صفة القرآن الكريم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَلَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإِيرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٢-٣].

وبعض هذه المواضع اختلف في المراد بالرحمة فيه، وإن كان الراجح أنّه القرآن؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، أو أنّ القرآن من جملة المراد بها؛ كقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٦].

وغالباً ما يقترن وصف القرآن بأنه رحمة بصفة أخرى، وذلك في ثلاث عشرة آية، وسوف نتناول -بإذن الله- مواضع ذلك الاقتران ودلالاته في محله من البحث.

وفي ثلاث آيات أفرد ذكر رحمة القرآن؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]؛ أي: أرسلناك بالقرآن المُخبر بما ذكر وبغيره؛ لرحمة عظيمة كائنة منّا لك وللناس^(١)، فإنك لم تشاهد قصص الأنبياء، ولا تليت عليك، ولكن أوحيناها إليك، وقصصناها عليك رحمة من

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٧/ ٥٢٤).



رَبِّكَ؛ لَتَنْذِرَ قَوْمَكَ وَتَعْرِفَهُمْ قَصَصَ مَنْ أَهْلِكَ بِالْعَذَابِ وَمَنْ فَازَ بِالثَّوَابِ^(١).
وهذا يقتضي أن ذلك الوحي رحمة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ١٦]، أي: إنما نزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك^(٢)، فالاستثناء منقطع، والمعنى: لكن ربك رحيم؛ فأنزل عليك القرآن^(٣)، وقال مقاتل: يقول: كان الكتاب رحمة، يعني: نعمة من ربك، حين اختصت بها يا محمد^(٤).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾^(٥) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ^(٦) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ^(٧) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(٨) [الدخان: ٢-٦].

وذهب الأخفش إلى أنه منصوبٌ على الحال، والمعنى: إنا أنزلناه أمرين أَمْرًا، وراحمين رَحْمَةً^(٩). وقال الزجاج: ويجوز أن يكون (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) مَفْعُولًا له، أي إنا أنزلناه رحمةً؛ أي للرحمة^(١٠).



- (١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/ ١٤٧)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٢٤١)، وفتح القدير، للشوكاني (٤/ ٢٠٣).
- (٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٦١).
- (٣) ينظر: معاني القرآن، للفراء (٢/ ٣١٣).
- (٤) يُنظر: تفسير مقاتل (٣/ ٣٥٩)، والتفسير البسيط، للواحيدي (١٧/ ٤٧٧).
- (٥) معاني القرآن، للأخفش (ص ٥١٦).
- (٦) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/ ٤٢٤).

المبحث الأول مكونات رحمة القرآن الكريم

تعددت جهات وصف القرآن الكريم بالرحمة، وإذا كان اعتبار واحدة منها كافياً في أن يُوصف القرآن الكريم بأنه رحمة، فإن اجتماعها يجعل صفة الرحمة من أخص صفات القرآن؛ بل أخصها.

ولم ينفرد القرآن الكريم عن الكتب السماوية ببعض تلك الجهات؛ ولكنه انفرد باجتماعها، وهذا يناسب كونه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه. وفيما يأتي بيان تلك المكونات.

المطلب الأول

أن القرآن الكريم تنزيلٌ من الرحمن الرحيم

إن من أهم جهات استحقاق القرآن الكريم صفة الرحمة: أنه تنزيل الله الرحمن الرحيم؛ يقول تعالى: ﴿يَسَّ ۝١ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦﴾ [يس: ١-٦]؛ أي: هو تنزيل، والمصدر بمعنى المفعول، عبّر به عن القرآن؛ بياناً لكمال عراقة في كونه منزلاً من عند الله ﷻ؛ كأنه نفس التنزيل، وإظهاراً لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية؛



بوصفه بالحكمة. والعزیز: الغالب بفصاحة نظم كتابه أوهام ذوي العناد، والرحيم: الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام أولي الرشد^(١). وفي تخصيص الاسمين الكريمين؛ المَعْرِبِينَ عن الغلبة التامة والرفاة العامة حثُّ على الإيمان ترهيباً وترغيباً، وإشعاراً بأن تنزيله ناشئ عن غاية الرحمة، ولأن ما اشتمل عليه القرآن لا يعدو أن يكون من آثار عزة الله ﷻ، وهو ما فيه من حمل الناس على الحق وسلوك طريق الهدى دون مُصانعة ولا ضعف، مع ما فيه من الإنذار والوعيد على العصيان والكفران، وأن يكون من آثار رحمته، وهو ما في القرآن من نَصَب الأدلة، وتقريب البعيد، وكشف الحقائق للناظرين، مع ما فيه من البشارة لمن رضي الله عنهم^(٢). وهو الذي أنزل كتابه، وحَفِظَه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم؛ فأوصلتهم إلى دار رحمته، ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: العزيز الرحيم^(٣).

وقال تعالى: ﴿نَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢-٣]. يخبر الله ﷻ أن هذا القرآن تنزيل من الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، ومن أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير؛ ما هو من أجل نعمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين^(٤).

وكونه تنزيلاً من الرحمن الرحيم دالٌّ على أنه نعمة عظيمة منه؛ لأنَّ الفعل المقرون بالصفة لا بد وأن يكون مناسباً لتلك الصفة، فكونه ﷻ رحماناً رحيماً صفتان دالتان على كمال الرحمة، فالتنزيل المضاف إلى هاتين

(١) تفسير النسفي (٣/٩٦).

(٢) التحرير والتشوير (٢٢/٣٤٧).

(٣) ينظر: تفسير السعدي (ص ٦٩٢).

(٤) ينظر: تفسير السعدي (ص ٧٤٤).

الصفيتين، لابد وأن يكون دالاً على أعظم وجوه النعمة، والأمر في نفسه كذلك؛ لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى والزمنى والمحتاجين، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية، فكان أعظم النعم عند الله ﷻ على أهل هذا العالم إنزال القرآن عليهم^(١). وفي ذلك إيماء إلى استحماق الذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب؛ بأنهم أعرضوا عن الرحمة، وأن الذين اهتدوا به هم أهل الرحمة^(٢).

وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١-٢]، لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والآخروية صدرها ﷻ باسم (الرَّحْمَن)، الدال على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل برّه، وواسع فضله. وخصّه من أسمائه الحسنی؛ إشعاراً برحمته بالكتاب، وعظيم إحسانه به، وقدم ما هو أصل النعم الدينية وأجلها، وأعلىها رتبة، وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، فإنه عماد الدين والنجاة لمن استمسك به، وهو منشأ الشرع، وأعظم الوحي، وأعز الكتب. وذكر أنه ﷻ علم القرآن، أي: علم عباده ألفاظه ومعانيه، ويسرّها عليهم، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها عباده، حيث أنزله قرآناً عربياً بأحسن ألفاظ، وأحسن تفسير، مشتملاً على كل خير، زاجراً عن كل شر^(٣).

وقال تعالى: ﴿طه ۝١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَىٰ ۝٢ إِلَّا نَذِيرَةً لِّمَنْ يَخْشَىٰ ۝٣ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ ۝٤ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ١-٥]، وفي رفع لفظ (الرحمن) عدة أوجه؛ أقواها: أنه خبر ابتداء

(١) التفسير الكبير، للرازي (٢٧/ ٥٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٣٠).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢٢/ ١٦٨)، وتفسير البيضاوي (٥/ ١٧٠)، والبحر المحيط (١٠/ ٥٤).

ونظم الدرر، للبقاعي (١٩/ ١٤٢)، وإرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٨/ ١٧٦)، وتفسير

السعدي (ص ٨٢٨).



مضمر؛ لأنه لما قال: (تنزيلاً ممن خلق) بينه، فكأنه قال: هو الرحمن^(١)، وكأنه قال: تنزيلاً من الرحمن الذي خلق.

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٠]؛ أي: لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك، وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن البليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، وأحاطت بهم نعمته، فما بهم من نعمة فمنه، فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم، وإنزال هذا القرآن المعجز الذي هو مناط المصالح الدينية والدينية عليهم^(٢). وإقامة الاسم المظهر (الرحمن) محل المضمر تنويه بأن هذا الوحي والإرسال والتكليف بالبلاغ ناشئ من تلك الرحمة^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٦]، وذكر الرحمن هو القرآن^(٤)، وإضافته إلى اسم الرحمن للإيدان بنزوله رحمة للعالمين^(٥). والقرآن أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمن قبلها فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والרגائب، ومن أعرض عنها وردّها فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبداً، وقبيص له الرحمن شيطاناً مريداً، يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمنيه، ويؤزّه إلى المعاصي أزا^(٦).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا

- (١) التفسير الوسيط (٣/ ٢٠٠)، والكشاف (٣/ ٥١).
- (٢) ينظر: الكشاف (٢/ ٥٢٩)، وتفسير البيضاوي (٣/ ١٨٧).
- (٣) ينظر: إرشاد العقل السليم (٥/ ٢١)، ومحاسن التأويل (٦/ ٢٨٣).
- (٤) ينظر: بحر العلوم (٣/ ٢٥٧-٢٥٨)، وتفسير الثعلبي (٨/ ٣٣٤)، والهداية إلى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٦٦٢)، والنكت والعيون (٥/ ٢٢٦)، والكشاف (٤/ ٢٥٢)، والداء والدواء (ص ٢٢٣)، والتحرير والتنوير (٢٥/ ٢٠٩).
- (٥) إرشاد العقل السليم (٨/ ٤٧).
- (٦) تفسير السعدي (ص ٧٦٦).

رَحِيمًا ﴿ [الفرقان: ٦٠]. ولعلَّ حكمة ختم هذه الآية الكريمة بالاسمين (غفورًا رحيماً) أنَّ قوله: (رحيماً) يعود إلى إنزال القرآن، وفيه الرَّحمةُ السائغةُ والنعمةُ السابغةُ؛ قال القاسمي: «إشارةٌ إلى علمه ﷺ بحالهم بالأولى، ومن مُقتضاهُ رحمتهُ إياهم بإنزاله؛ لزيادة حاجتهم، وافتقار أمثالهم إلى إخراجهم من الظلمات بأنواره. وفي طيِّه ترهيب لهم بأنَّ ما يسرونه من الكيد للنبي ﷺ؛ مع ما يتقولونه ويفترونه؛ لا يعزب عن علمه. فسيجزئهم عليه بزهور باطلهم ومحو أثرهم، وسموق حقه وظهور أمره»^(١).

وأما قوله (غفوراً) فيعود على ما تقدَّم من افتراءاتهم ومقولاتهم الساقطة؛ فكأنَّه إطماعٌ لهم في أنهم إذا تابوا غفر لهم ما فرط من كفرهم^(٢)، فهو إغراءٌ بالتوبة والإنابة، وإخبار بأنَّ رحمته واسعة، وأنَّ حلمه عظيم، وأنَّ من تاب إليه تاب عليه. وهم -مع كذبهم وافتراءهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا- يدعوهم ربُّهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، فهي كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ [المائدة ٧٣ - ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمَا لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلْحَرِيقٌ ﴿ [البروج: ١٠]﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِلُّ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿ [الحديد: ٩]. فإنزال الآيات البيِّنات التي أجلها القرآن ناشيءٌ عن رحمته ورأفته بهم.

(١) محاسن التأويل (٧/ ٤١٨).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٨/ ٨٣).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٩٤).



المطلب الثاني

أن القرآن الكريم منزلٌ على الموصوف بالرحمة

فُطر النبي ﷺ على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة؛ لتتكوّن مناسبةٌ بين رُوحه الزكية وبين ما يُلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة؛ حتى يكون تلقّيه الشريعة عن انشراح نفس؛ أن يجد ما يوحي به إليه ملائماً رغبته وخلقته^(١).

وقد صحَّ عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن خلق النبي ﷺ كان القرآن^(٢)، ومن أخصّ صفات القرآن أنه رحمةٌ، فطبيعيٌّ أن تكون الرحمة هي أخصّ صفاته ﷺ. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وانتصاب (رحمةً) على أنه حال من ضمير المخاطب، يجعله وصفاً من أوصافه ﷺ، فإذا انضمَّ إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة صار من قَصْر الموصوف على الصفة، وفيه إيماةٌ لطيف إلى أن الرسول ﷺ اتحد بالرحمة وانحصر فيها، ومن المعلوم أن عنوان الرسولية ملازم له في سائر أحواله، فصار وجوده رحمةً وسائر أكوانه رحمة. ووقوع الوصف مصدرًا يفيد المبالغة في هذا الاتحاد، بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله؛ كما قال ﷺ: «إنما أنا رحمةٌ مهداة»^(٣).

والراجع في هذه الآية الكريمة أنها على عمومها، فرحمته والنفع برسائته ﷺ حاصلٌ لعموم العالمين؛ أما أتباعه: فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة. وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عَجَّل قتلهم كان خيراً لهم

(١) التحرير والتنوير (١٧ / ١٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (ح ٧٤٦)؛ كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض.

(٣) التحرير والتنوير (١٧ / ١٦٦) بتصرف يسير، وانظر كلام الألباني في تصحيح حديث: «إنما أنا رحمة مهداة» في السلسلة الصحيحة (ح ٤٩٠).

من طول أعمارهم في الكفر؛ لأنَّ حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كُتِبَ عليهم الشقاء. وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته. وهم أقلُّ شراً بذلك العهد من المحاربين له. وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها. وأما الأمم النائية عنه؛ فإنَّ الله ﷻ رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ كَتَبَ لَهُ الرَّحْمَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ عَوفِيَ مِمَّا أَصَابَ الْأُمَّمَ مِنَ الْخَسْفِ وَالْقَذْفِ»^(٢).

فقد أرسل الله ﷻ نبيه ﷺ رحمةً لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم؛ فأماً مؤمنهم فإنَّ الله هداه به، وأدخله بالإيمان به، وبالعامل بما جاء من عند الله الجنة. وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء، الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله^(٣).

و(العالمون) جمع (عالم)، وهي لفضلة تُطلق على النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة، فيقال: عالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الحيوان... ونحو ذلك، فإن كان إطلاق (العالمين)، في قوله ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ بهذا الاعتبار، فإنه ﷻ رحمةً بالإنس والجن، وبالحيوان، إذ أحكمت شرعة الإسلام أحكاماً غير مسبوقة في معاملة الإنسان للحيوان، فأذنت في الانتفاع به في حدود الرحمة والإحسان، ونهت عن اللهو بما فيه تعذيب للحيوان واتخاذ رُوحه غرضاً، وعن عموم تعذيبه لغير أكله؛ فهذه امرأة دخلت النار

(١) ينظر: جلاء الأفهام (ص ١٨١).

(٢) تفسير مجاهد (ص ٤٧٦)، وتفسير الطبري (١٦ / ٤٤٠).

(٣) تفسير الطبري (١٦ / ٤٤١).

في هرة حبستها. ورغبت الشريعة في رحمته، وجعلت على سقيا كل ذي كبد رطبة أجراً؛ فهذا رجلٌ غفر له في كلبٍ سقاه... إلى غير ذلك؛ مما هو معلومٌ مستفيضٌ شهرةً وذكرًا^(١).

والنبي ﷺ رحمة في الدين وفي الدنيا، أما في الدين؛ فلأن الله ﷻ أخرج به من أراد من خلقه من الظلمات إلى النور، وهداهم به إلى صراط مستقيم، وإنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق؛ فلم يركن إلى التقليد والعناد والاستكبار، وكان التوفيق قريباً له^(٢). فالمؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها، والكفار ردُّوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمةً لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواءً لذلك المرض^(٣). ومثاله: أن يفجر الله عيناً غديقة، فيسقي ناسٌ زروعهم ومواشيهم بمائها فيفلحوا، ويبقى ناسٌ مفرطون عن السقي فيضيعوا، فالعينُ المفجرةُ في نفسها نعمةٌ من الله ورحمةٌ للفريقين، ولكن الكسلان محنةٌ على نفسه؛ حيث حرمها ما ينفعها^(٤).

وأما كونه ﷺ رحمةً في الدنيا؛ فلأنهم تخلصوا بسببه من الذل والقتال والحروب، ونصروا ببركة دينه^(٥).

ومن أعظم ما يظهر فيه هذا الشرف في عموم الرحمة وقت الشفاعة العظمى يوم القيامة^(٦).

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ؛ قال: كان رسول الله ﷺ يُسمي لنا

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٧/ ١٦٩-١٧٠).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٢٢/ ١٩٣).

(٣) ينظر: جلاء الأفهام (ص ١٨١).

(٤) الكشاف (٣/ ١٣٩).

(٥) ينظر: تفسير الرازي (٢٢/ ١٩٣).

(٦) نظم الدرر (١٢/ ٥٠٨-٥٠٩)، بتصرف يسير.

نفسه أسماءً، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقضي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»^(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قيل: يا رسول الله؛ ادع على المشركين. قال: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة»^(٢).

تلك رحمة رسول الله ﷺ بالمشركين؛ فلا شك أن الحاصل من هذه الرحمة للمؤمنين أكثر من غيرهم؛ لكون أثرها في الآخرة أظهر، ونفعها أعم وأدوم، والآخرة خير وأبقى. وقد جاء بهذا الاختصاص قوله تعالى: ﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

المطلب الثالث

رحمة القرآن المضمنة في سائر صفاته

وصف الله ﷻ القرآن الكريم بصفات عديدة، وكثير منها يتضمن أن القرآن الكريم رحمة، فضلاً عن وصفه بالرحمة كما تقدم. وسواء تلك الصفات التي اقترن ذكرها بالرحمة أو التي لم تقترن بها؛ فكلها دال على رحمة القرآن، فمثلاً: وُصِفَ القرآن الكريم بأنه نور، والنور هداية وبصيرة، والقرآن روح، والروح حياة للقلب، فلا شك من تضمن هذين الوصفين للرحمة، وإن لم يقترنا بها... إلى غير ذلك من الصفات التي لم يقترن ذكرها بصفة الرحمة في سياق واحد.

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٣٥٥)؛ كتاب الفضائل؛ باب في أسمائه ﷻ.

(٢) أخرجه مسلم (ح ٢٥٩٩)؛ كتاب البر والصلة والآداب؛ باب النهي عن لعن الدواب وغيرها.

وأما الصفات التي اقترن ذكرها بالرحمة في سياق واحد فتضمنت من معاني الرحمة ما انتظم به الاقتران، وحسن به البيان.

ولعل تدبر معاني تلك الصفات، وبيان تضمُّنها لمعنى الرحمة؛ يكشف عن مكنونات وصف القرآن الكريم بأنه رحمة، ويبيِّن وجه كونها من أخصِّ صفاته وأجلِّها.

١. اقتران الرحمة بالهدى:

مما يسترعي نظر المتأمل كثرة اقتران وصف القرآن بالرحمة بوصفه بالهدى، فإذا كان القرآن موصوفاً بأنه رحمة في ستة عشر موضعاً؛ فإن صفة الهدى قد اقترنت بها في عشرة مواضع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَأْتِي عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿ [النمل: ٧٦-٧٦]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿ [لقمان: ٢-٣]، إلى غير ذلك من الآيات التي يأتي ذكرها في سياق هذا المبحث؛ إن شاء الله.

وليس هذا الموضع الوحيد للتأمل؛ إذ عطف الرحمة على الهدى فيها جميعاً، فتقدَّم الهدى، ولم يفصل بينهما صفة أخرى في الآيات التي وُصف فيها القرآن بأكثر من صفتين. ولعل الحكمة أن الهدى متضمنٌ هدى الإرشاد والدلالة، وهدى التوفيق إلى حصول مقصود المرشد الدالِّ، والقرآن إرشادٌ ودلالةٌ، وهو صالحٌ لحصول المقصود إذا تلقاه المخاطبُ به بما يليقُ بحقه، وأخذه مقبلاً عليه، فإذا حصل ذلك كان له رحمة في الدنيا والآخرة، وهو تمام الرحمة، ولا ينالها إلا المؤمن، فكانت الرحمة مرتبةً على هدى التوفيق الذي هو مرتبٌ على هدى الدلالة والإرشاد. والخلاصة: أن القرآن رحمة للعالمين، من حيث هو إرشادٌ ودلالةٌ، ورحمة للمؤمنين، من حيث انتفاعهم بهداياته. والله أعلم.

٢. اقتران الرحمة بالبيان:

اقترن وصف القرآن الكريم بالرحمة بوصفه بالبيان في ثلاثة مواضع؛ فقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٥) **أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ** (١٥٦) **أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَى وَرَحْمَةً** ﴿[الأنعام: ١٥٥-١٥٧]؛ والظاهر أنَّ البينة هي القرآن، وهو الحجة الواضحة الدالة النيرة؛ حيث نزل عليهم بلسانهم وألزم العالم أحكامه وشريعته. والمعنى: فقد جاءكم ما فيه البيان وقطع الشبهات عنكم^(١). وقولهم: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾؛ أي: لا نعلم ما هي؛ لأنَّ كتابهم ما كان بلساننا، ولو أنزل علينا كتابٌ بلساننا لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ، فقطع احتجاجهم بهذا بأن قال: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَى وَرَحْمَةً﴾، وهو القرآن أنزل بلسانٍ عربيٍّ مبين. قال الرازي: «فإن قيل: البينة والهدى واحد؛ فما الفائدة في التكرير؟ قلنا: القرآن بينة فيما يُعلم سمعاً، وهو هدى فيما يُعلم سمعاً وعقلاً، فلما اختلفت الفائدة صحَّ هذا العطف»^(٢).
فهذا البيان الساطع والبرهان القاطع رحمةٌ بكشف الرِّيب، وحسم التردد عن طالب الحقِّ بأسبابه.

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. والتبيان اسمٌ في معنى البيان، وهو: البيان البليغ^(٣). فأوضح **ﷺ** أنَّ في الكتاب بيان كلِّ شيءٍ من الحلال والحرام والأمر والنهي، وسائر ما يفتقر إليه البشر في صلاح معادهم، وأصول صلاح معاشهم^(٤)؛ علمٌ ذلك من علمه، وجهله من جهله، وإنما يهتدي إلى هداياته

- (١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢/ ٣٠٧)، والبحر المحيط (٤/ ٦٩٧).
(٢) تفسير الرازي (١٤/ ١٨٧).
(٣) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/ ٢١٧)، والكشاف (٢/ ٦٢٨).
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٩٤-٥٩٥)، ومحاسن التأويل (٦/ ٤٠٢)، والتحرير والتبوير (١٤/ ٢٥٣).

مَنْ أَخَذَ بِأَسْبَابِهَا، وَلَمْ يَصِدَّهُ عَنْ طَلِبِهَا شَهْوَةٌ مُقْعَدَةٌ، وَلَا عَنْ قَبُولِهَا شِبْهَةٌ مُضْدَةٌ.

فهو مُبِينٌ أتمَّ تبيينَ بألفاظ واضحة ومعانٍ جلية، تُشَتَّى فِيهِ الْأُمُورَ الْكِبَارَ، الَّتِي يَحْتَاجُ الْقَلْبَ لِمُرُورِهَا عَلَيْهِ كُلِّ وَقْتٍ، فَتُعَادُ وَتُبْدَى بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَدَلَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ؛ لِتَسْتَقِرَّ فِي الْقُلُوبِ، فَتُثْمَرَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ بِحَسَبِ ثَبُوتِهَا فِي الْقَلْبِ. وَمِنْ بَيَانِهِ جَمْعُهُ فِي الْفِظِ الْقَلِيلِ الْوَاضِحِ مَعَانِيًا كَثِيرَةً يَكُونُ الْفِظُ لَهَا كَالْقَاعِدَةِ وَالْأَسَاسِ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ صَارَ حِجَّةَ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ كُلِّهِمْ. فَانْقَطَعَتْ بِهِ حِجَّةُ الظَّالِمِينَ، وَانْتَفَعَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ فَصَارَ هُدًى لَهُمْ؛ يَهْتَدُونَ بِهِ إِلَى أَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَرَحْمَةً يَنَالُونَ بِهِ كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا تَرْتَّبُ عَلَى صَلَاحِ الْقَلْبِ وَبِرِّهِ وَطَمَآنِينَتِهِ، وَتَمَامِ الْعَقْلِ الَّذِي لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَرْبِيَّتِهِ عَلَى مَعَانِي الْوَحْيِ، الَّتِي هِيَ أَجَلُ الْمَعَانِي، وَالْأَعْمَالِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، وَالرِّزْقِ الْوَاسِعِ وَالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَفِي الْآخِرَةِ بَنِيْلَ رِضَا اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، الَّتِي لَا يَعْلَمُ مَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ إِلَّا الرَّحِيمُ ﷻ (١).

وَالْبَيَانُ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْحُجَجِ، وَقَدْ يَخْتَصُّ بِالْمَسْمُوعِ مِنْهَا، فَتَبْقَى الْهَدَايَةُ أَعَمُّ مِنَ الْبَيَانِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ حُصُولُ أَثَرِ الْحُجَّةِ هُوَ غَايَتُهَا وَالْمَقْصُودُ مِنْ إِقَامَتِهَا، وَهُوَ مَا تَحْصُلُ بِهِ الرَّحْمَةُ - حَسُنَ عَطْفُ الرَّحْمَةِ عَلَيْهَا، ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ الرَّحْمَةُ سَبَبًا لِلْفَرَحِ وَالسُّكِينَةِ فِي الْعَاجِلِ، وَكَانَ حُصُولُهَا فِي الْعَاجِلِ لَا يَفِيدُ فِي ذَاتِهِ حُصُولُهَا فِي الْآجِلِ - وَهُوَ الْأَهَمُّ - حَسُنَ عَطْفُ الْبَشَرِيِّ الدَّالَّةِ عَلَى حُصُولِهَا فِي الْآجِلِ لِلتَّكْيِيدِ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الرَّحْمَةَ مُسْتَقَرَّةٌ فِي الْعَاجِلِ، وَدَائِمَةٌ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَحَدُ وَجُوهِ بَيَانِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ يُبَيِّنُ الْخِلَافَ وَيُفْصِلُ فِيهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ ﴾

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص ٤٤٧).

يُؤْمِنُونَ ﴿ [النحل: ٦٤]، والاختلاف في الحق مُنافٍ للرحمة، والجماعةُ رحمة؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٧﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وفيه نفي الرحمة عن المختلفين، وهو قول جمهور علماء السلف؛ قال ابن عباس: «إلا أهل رحمته، فإنهم لا يختلفون»^(١). ١. وقال الحسن: «الناس مختلفون على أديان شتى، إلا من رحم ربك، فمن رحم غير مختلفين»^(٢). ٢. وعن عكرمة: قال: «ولا يزالون مختلفين؛ ثم استثنى من الاختلاف من رحم»^(٣). ٣. وعن ابن المبارك: «إلا من رحم ربك؛ قال: أهل الحق ليس فيهم اختلاف»^(٤). وعن قتادة، قوله: «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك؛ فأهل رحمة الله أهل جماعة، وإن تفرقت دورهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت دورهم وأبدانهم»^(٥). وعن عمر بن عبدالعزيز أنه قرأ هذه الآية، فقال: «خلق أهل رحمته ألا يختلفوا»^(٦). وقال الإمام مالك: «الذين رحمهم لم يختلفوا»^(٧). وقال الزجاج: «لكن من رحم ربك؛ فإنه غير مخالف»^(٨).

ويمكن أن يُتزع هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَمُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٦-٧٧]، فلما فصل في الخلاف آمن منهم من قبل الحق، وتواضع للحجة، فكان له القرآن هدى ورحمة.

وقد قرن الله ﷻ تعليم القرآن بتعليم البيان؛ وأخبر عن فضله ورحمته بخلقه أنه أنزل على عباده القرآن ويسر حفظه وفهمه على

- (١) تفسير عبد الرزاق (٢٠٢ / ٢).
- (٢) تفسير الطبري (١٢ / ٦٢٣، ٦٣٤).
- (٣) تفسير ابن أبي حاتم (٦ / ٢٠٩٤).
- (٤) تفسير الطبري (١٢ / ٦٣٤).
- (٥) تفسير الطبري (١٢ / ٦٣٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦ / ٢٠٩٤).
- (٦) تفسير القرآن من الجامع، لابن وهب (١ / ٣١).
- (٧) تفسير القرآن من الجامع، لابن وهب (٢ / ١٣٤).
- (٨) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣ / ٨٣).

من رحمه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]؛ قال الحسن: يعني: النطق. وقال الضحاك وقتادة وغيرهما: يعني الخير والشر. وقول الحسن ها هنا أحسن وأقوى؛ لأنَّ السياق في تعليمه ﷺ القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشففتين؛ على اختلاف مخارجها وأنواعها^(١).

فنزول القرآن باللسان العربيّ رحمةً للمخاطبين به المنزل إليهم، وهم عموم الإنس والجنّ. ولا يبعد أن يقال: إنَّ نزوله بهذا اللسان العربيّ المبين أكثر رحمةً لعموم الإنس والجنّ؛ مما لو نزل لأحاديثهم بلسان كل قوم منهم. وإذا صحَّ ذلك ففيه تفضيلٌ للغة العرب على سائر اللغات. والله ﷻ أعلم.

ومن الرحمة بالتيبان أنَّ المعاني المجملة والقدر المفصل الذي لا يستقيم الإيمان إلا بفهمه، ولا تقوم دعائم التوحيد إلا على تبين مراده - لا يُعجز عن نقله إلى أي لسان بأبسط عبارة، وأتم معنى. ويبقى ما تميّز به اللسان العربي من خصائص تضمن الكشف عن مزيدٍ من المعاني للمستنبط الذي رُزق فهمًا أتم، ونظرًا أدق، قال الراغب: «ما من برهان ولا دلالة وتقسيم وتحديد يُنبئ عن كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله ﷻ قد نطق به، لكن أوردته ﷻ على عادة العرب؛ دون دقائق طرق الحكماء والمتكلمين؛ لأمرين: أحدهما: بسبب ما قاله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. والثاني: أنَّ المائل إلى دقيق المحااجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجلي من الكلام. فإنَّ مَنْ استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ما لم يكن مُلغزًا. فأخرج ﷻ مخاطباته في محااجة خلقه في أجلّ

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٨٩).

صورة تشتمل على أدق دقيق؛ لتفهم العامة من جليها ما يُقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الحكماء. ومن هذا الوجه: مَنْ كان حظه في العلوم أوفر، كان نصيبه من علم القرآن أكثر، ولذلك إذا ذكر الله ﷻ حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافتها إلى أولي العقل، ومرة إلى أولي العلم، ومرة إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين؛ تنبيهاً على أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها»^(١).

فهذه أنواعٌ من الرحمة، تضمَّنْها وصف القرآن، بأنه بيِّنة وتبيانٌ ومبينٌ؛ وملخصها:

- أن القرآن تبيانٌ لمصالح المعاش والمعاد.
- فالقرآن تبيانٌ للحلال والحرام والأمر والنهي، ولَمَّا كان الحلال طيباً في نفسه، والحرام خبيثاً في نفسه، كان في إبانة الحلال جلباً للمنفعة، وفي إبانة الحرام دفعاً للهلكة، وذلك محض الرحمة.
- أن في القرآن بياناً صالحاً لحسم مادة الخلاف المانع للرحمة، وفيه -للطالب الموفق- تطهيرُ المحلِّ من أعظم معوّقات استقرار الرحمة.
- أن القرآن نزل بلسان عربيٍّ مُبين، لا مشقّة في فهم هداياته، وتحصيل مُراد الله ﷻ منها لَمَنْ أخذ بأسباب الفهم، فهذه رحمةٌ وتيسيرٌ من الله على الخلق.

٣. اقتران الرحمة بالشفاء:

الشفاء هو ما يبرئ السَّقَم، ويُرجع الأخلاط إلى الاعتدال، والاستشفاء طلب الشفاء. وقد وُصِف القرآن بأنه شفاء في ثلاث آيات؛ اقترن في

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١ / ٢٧).



اشتتين منها بوصف الرحمة؛ يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

و«الموعظة»: القرآن؛ لأنَّ الوعظ إنما هو بقول يأمر بالمعروف ويزجر ويرقق ويوعد ويعد، وهذه صفة الكتاب العزيز؛ فيه مواعظ وحكم، تُذكر عقاب الله، وتخوُّف وعيده، وفيه شفاءٌ لما في الصُّدور من الشك والنفاق والخلاف والشقاق والغل والحسد والشح والجهل، يشفي به الله جهل الجهال؛ فيبُرى به داءهم، وذلك أنَّ داء الجهل أضرُّ للقلب من داء المرض للبدن، فالمزيل له أجلُّ شفاءً وأعظمه موقعاً، والقرآن بحمد الله مزيل للجهل، وكاشف لعمى القلب، وقال أهل العلم: لا داء أعظم من الجهل، ولا دواء أعزَّ من دواء الجهل، ولا طبيب أقل من طبيب الجهل، ولا شفاء أبعد من شفاء الجهل. والقرآن فيه هُدًى يهدي به الله من خلقه مَنْ أراد هدايته به، وفيه رحمةٌ للمؤمنين؛ خصَّهم بها؛ لأنهم المنتفعون بالإيمان؛ فيرحمهم وينقذهم به من الضلالة إلى الهدى، وينجيهم به من الهلاك والردى. وجعله تبارك وتعالى رحمةً للمؤمنين به دون الكافرين به، لأنَّ مَنْ كفر به فهو عليه عمى^(١).

يقول ابن عاشور: «وقد أوماً وصف القرآن بالشفاء إلى تمثيل حال النفوس بالنسبة إلى القرآن، وإلى ما جاء به بحال المعتلِّ السقيم، الذي تغير نظام مزاجه عن حالة الاستقامة، فأصبح مضطرب الأحوال خائر القوى، فهو يترقب الطبيب الذي يدبر له بالشفاء، ولا بد للطبيب من موعظة للمريض، يحذره بها مما هو سبب نشء علته ودوامها، ثم ينعت له الدواء الذي به شفاؤه من العلة، ثم يصف له النظام الذي ينبغي له سلوكه، لتدوم له الصحة والسلامة، ولا ينتكس له المرض، فإن هو انتصح بنصائح

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٩٣-١٩٤)، والبسيط، للواحي (١١/ ٢٢٨)، وتفسير السمعاني (٢/ ٣٨٩)، والمحرم الوجيز (٣/ ١٢٦)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٥٣)، ومحاسن التأويل (٦/ ٣٥).

الطبيب أصبح معافى سليماً، وحيي حياة طيبة، لا يعتوره ألم، ولا يشتكي وَصَباً. وقد كان هذا التمثيل لكمالهِ قابلاً لتفريق تشبيه أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها، فزواجِرُ القرآن ومواعظهُ يُشَبِّهُ بنصح الطبيب، وإبطالهُ العقائد الضالّة يشبه بنعت الدواء للشفاء من المضار، وتعاليمهُ الدينية وآدابه تشبّه بقواعد حفظ الصحة، وعبر عنها بالهدى، ورحمته للعالمين تشبه بالعيش في سلامة... ثم إن ذلك يتضمن تشبيه شأن باعث القرآن بالطبيب العليم بالأدواء وأدويتها، ويقوم من ذلك تشبيه هيئة تلقي الناس للقرآن وانتفاعهم به، ومعالجة الرسول إياهم بتكرير النصح والإرشاد بهيئة المرضى بين يدي الطبيب، وهو يصف لهم ما فيه برؤهم وصلاح أمرجتهم فمنهم القابل المنتفع، ومنهم المتعاصي الممتنع^(١).

ويقول تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، و ﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ ليست للتبويض؛ وإنما هي لبيان الجنس؛ كما قال ﷺ: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ [الحج: ٣٠]. فالقرآن كله شفاء، ولو كانت للتبويض لكان بعض القرآن شفاءً، وبعضه غير شفاء، وهذا لا يحسن. وقيل: المعنى: وننزل من جهة القرآن الشيء الذي فيه شفاء. ف(من) غير مُبْعَضَة؛ إذ القرآن كله شفاء للمؤمن في دينه، ليس بعضه شفاء وبعضه غير شفاء^(٢). وقيل: (من) للتبويض على معنى أن إنزاله إنما هو مُبْعَضٌ؛ فكأنه قال: ونزل من القرآن شيئاً شيئاً ما فيه كله شفاء^(٣)، وهذا معنى حسن. أمّا مَنْ جعلها تبويضيةً وذهب إلى أن بعض القرآن شفاءً، دون بعض، وهو الناسخ دون المنسوخ^(٤)؛ ففيه نظر؛ لأنَّ باب الناسخ والمنسوخ من أكثر ما يتمايز فيه المؤمنون عن

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢٠٢): باختصار يسير.

(٢) ينظر: معاني القرآن الكريم، للنحاس (٤/ ١٨٧)، والهداية في بلوغ النهاية (٦/ ٤٢٧٥)، والتفسير البسيط (١٣/ ٤٥٢-٤٥٣).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/ ٦٣٩-٦٤٠).

غيرهم ممن يتبعون متشابهه، أو يُسيئون القول على الله إذ شرَّع ونَسَخ، وأثبت ومحا، وأجمل وفصل، فهو شفاءٌ من أمراض الريبة والشك.

٤. اقتران الرحمة بالبصائر:

البصيرة عقيدة القلب، أو هي اسم لما اعتقد في القلب من الدين وحقيق الأمر، وقيل البصيرة: الثبات في الدين، وقيل البصيرة الفطنة. ويُقال للفراصة الصادقة: فراصة ذات بصيرة^(١).

وعرَّفها الجرجاني بأنها: قوة للقلب المنور بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها؛ بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها^(٢)، وقال ابن القيم: «البصيرة نورٌ يقذفه الله في القلب، يُرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل؛ كأنه يشاهده رأي عين، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل، وتضرُّره بمخالفتهم، وهذا معنى قول بعض العارفين: البصيرة تحقق الانتفاع بالشيء والتضرُّر به، وقال بعضهم: البصيرة ما خلصك من الحيرة، إما بإيمان وإما بعيان»^(٣).

فالبصيرة إذا ملكة يُستفاد منها تقويم المعروض على القلب تقويمًا يوافق مراد الشرع فيه، وتأنر صاحبها على العمل بمقتضاه، فهي ضمان حصول التوفيق بالانتفاع بالدلالة والإرشاد، ولعلها هي المشار إليها في قول النبي ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأئي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأئي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء؛ حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا؛ فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُربادًا كالكوز، مُجخياً لا يعرف معروفًا، ولا يُنكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»^(٤).

(١) ينظر: العين (١١٧/٧)، تهذيب اللغة (١٢/١٧٦-١٧٧)، والمحكم والمحيط الأعظم (٨/٣١٦).

(٢) التعريفات (ص٦٦).

(٣) مدارج السالكين (١/١٤٣).

(٤) أخرجه مسلم من حديث حذيفة ؓ (ح١٤٤)؛ كتاب الإيمان، باب بيان أن الإيمان بدأ غريباً وسيعود غريباً.

وقد اقترن وصف البصائر بوصف الرحمة في آيتين؛ وجاء مرتباً فيهما ثلاث أوصاف للقرآن، هي البصائر والهدى والرحمة؛ قال تعالى:

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقوله تعالى:

﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجنّة: ٢٠٠]. ولما كان القرآن سبباً لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، أطلق عليه اسم البصائر؛ فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب. فالقرآن بصيرةٌ بمعنى أنّ هداياته مفيدةٌ للبصيرة واليقين، لا يزال القلب تصقل فطرته بنور القرآن؛ حتى يعود أبيض لا تضره الفتن، ولا يشتهيه عليه الحقُّ والباطل.

ورحمة القرآن في أنّه بصائرٌ من جهتين؛ الأولى: أنّ اكتسابَ المرحوم بالقرآن البصيرة مُرشحٌ له المزيد منها؛ بما حصل له من ملكة في استبصار الحقِّ والتهيؤ له، واستبصار الباطل، والإعراض عنه؛ حتى يصير ذلك له خلقاً وسجيةً ينطبع عليها انطباعاً، بعد أن كان يتخلقها تكلفاً وتعملاً.

والجهة الثانية: في تنوع طرائق البصيرة على النظر والتأمل والسمع التدبّر والاعتبار والتفكير والادّكار... ونحو ذلك، فهذه طرقٌ متنوعةٌ تؤدي إلى البصيرة^(١).

ثمّ إنّ القرآن الكريم يدلُّ على موردين رئيسين للبصيرة، هما أصلٌ لكل ما سواهما؛ المورد الأول: كتاب الله المسطور: القرآن الكريم، والمورد الثاني: كتاب الله المنظور؛ الكون بكلِّ مَنْ فيه وما فيه، كما في قوله تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، والآيات في معناها كثيرةٌ. ولعلَّ هذا سرُّ مجيء لفظة (بصائر) جمعاً. والله أعلم.

(١) يُنظر في الفرق بين هذه الأنواع: مفتاح دار السعادة (١/ ٥٤٤-٥٤٥)، ووقف التدبّر معناه وأنواعه وأحكامه (ص ١٦-١٧).

وأما سُرُّ ترتيب الأوصاف الثلاثة أنَّ الناس متفاوتون في درجات العلوم؛ فمنهم من بلغ الغاية في علم التوحيد؛ حتى صار كالمشاهد، وهم أصحاب عين اليقين، ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر، وهم أصحاب علم اليقين، ومنهم المسلم والمستسلم، وهم عامة المؤمنين، وهم أصحاب حق اليقين. فالقرآن في حق الأولين السابقين بصائر، وفي حق المستدلين هُدًى، وفي حق عامة المؤمنين رحمة^(١). والله أعلم.

٥. اقتران الرحمة بالتفصيل:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]. أي: ولقد أنزلنا إلى هؤلاء الكفار المكذبين كتاباً مفصلاً؛ مبيناً فيه الحق والباطل، والحلال والحرام، والعقائد والشرائع، حتى يعرفه من تدبره، ويحتمل قوله: (فصلناه) أي: فصلناه فصولاً مرة بتعريف الحلال، ومرة بتعريف الحرام، ومرة بالوعد، ومرة بالوعيد، ومرة بحديث الأمم، أو (فصلناه) لم ننزله جملة واحدة؛ بل فرقناه في إنزاله، على قدر النوازل بهم؛ فيكون معرفة ما فيه من الأحكام إذا جاء منزلاً مفصلاً أهون وأيسر على الطباع من معرفة ما فيه إذا نزل جملةً. وقوله: (فصلناه على علم) أي: عالمين بما فصل فيه، من عقائد وأحكام ومواعظ وقصص فكان حكيماً قيماً غير ذى عوج، مبيناً لم يقع منا فيه سهو ولا غلط، أو (فصلناه على علم) أي: عالمين بما يصلح العباد من تشريعات وتكليفات، أو (على علم) منا أنَّ الخلائق لا تقوم بالإتيان بمثله؛ ليعلموا أنه منزل من عند الله. أو (على علم) منه بمن يصدقه ويتبعه، وبمن يكذبه ولا يتبعه.

(١) ينظر: تفسير الخازن (٣/ ٢٨٦).

وكلُّ وجه من الوجوه المتقدِّمة فيه معنَى من معاني الرحمة، فتفصيل الحلال والحرام رحمةً إرشاد، وجعله فصلاً مشتتةً على أنواع العلوم والمواعظ، رحمةً تنويع وتثنية، وإنزاله مفصلاً منجماً رحمةً تيسير، وتفصيله على علم رحمةً مراعاة المناسبة إذا كان بمعنى فصلناه على علم بما يصلح العباد، وإن كان بمعنى فصلناه على علم أنهم لا يأتون بمثله ففيه رحمةً تطمينٍ بصدق المرسل به، فلا يتركون نهياً للشبهات.

٦. اقتران الرحمة بالموعظة:

الوعظ والوعظة والموعظة: التذكير والنصح بما يرقُّ له القلب من خيرٍ ووعدٍ ووعيدٍ، وثوابٍ وعقاب^(١). وقال الراغب: الوَعْظُ: زجر مقترن بتخويف^(٢). وقال ابن عاشور: الأمر بفعل الخير وترك الشرِّ بطريقة فيها تخويف وترقيق، يحملان على الامتثال^(٣).

وقد اقترن وصف الموعظة بوصف الرحمة في آية واحدة؛ وهي قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، والقرآن مع كونه موعظةً فهو دعوة وتعليم وتشريعٌ باقٍ، خوطب به قوم لم يسبق لهم عهد بالتعليم والتشريع، فجاء على أسلوب مناسب لجمع هذه الأمور؛ بحسب حال المخاطبين، الذين لم يعتادوا الأساليب التدريسية، أو الأمالي العلمية، وإنَّما كانت هجيراًهم الخطابية والمقاولية، فأسلوب المواعظ والدعوة قريب من أسلوب الخطابة، وهو لذلك لا يأتي على أساليب الكتب المؤلفة للعلم، أو القوانين الموضوعية للتشريع، فأودعت العلوم المقصود منه في تضاعيف الموعظة والدعوة، وكذلك أودع فيه التشريع؛ فلا تجد أحكام نوع من المعاملات؛ كالبيع

(١) العين (٢/ ٢٢٨).

(٢) المفردات (ص ٨٧٦).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٠٨).

متصلاً بعضها ببعض؛ بل تلفيه موزعاً على حسب ما اقتضته مقامات الموعظة والدعوة؛ ليخفّ تلقّيه على السامعين، ويعتادوا علم ما لم يألفوه في أسلوب قد ألفتوه، فكانت متفرقة يَضمُّ بعضها إلى بعض بالتدبّر^(١). فلم يأخذهم القرآن بالموعظة التي تخاطب العاطفة المجردة كأسلوب القصّاص، ولا أخذهم بالحجج العقلية المحضة على طريقة الفلاسفة، وكلا السبيلين مُفضّ إما إلى إفراط أو تفريط، ولكن رحمة القرآن في وسطية موعظته، وتوّعها على خطاب العقل وتحريك العاطفة.

٧. اقتران الرحمة بالذكرى:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١]، فلما سألوا الآيات أخبرهم أنّ في القرآن كفاية لمن طلب الآيات على صدق الرسول ﷺ كما كانت الرسل قبله تأتي بالآيات، فأومأت الآياتان إلى وجهين من وجوه رحمة القرآن؛ الأول: أنّ وقوع الآيات قد يقترن بمجيء العذاب؛ كما حدث لثمود؛ قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتِنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]؛ والقرآن -مع كونه آية بيّنة- فقد جاء بالجملة برفع عذاب الاستئصال الذي تعرّض له جلُّ الأمم السابقة.

والوجه الثاني: كَوْنُ القرآن ذكراً، ذلك أنّ الآيات التي جاءت بها الرُّسل لم يشاهدها إلا مَنْ حضرها، فلم تتجدّد لهم بها الذكرى، ولم تحصل أصلاً لمن لم يحضرها إلا إخباراً، وإنما يكمن الإعجاز الموصّل إلى تمام اليقين في حضورها ومشاهدتها عياناً. وأما القرآن فتتجدّد به الذكرى

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ١٥٧).

لقارئه كلما قرأه، لا يزول ولا يخلق على كثرة الرد، ويحصل المقصود من كونه آية بيّنة لكل من بلغه؛ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ولهذا كان صالحاً لاستمراره رسالة خاتمة. وليست العبرة فيمن يُوعظ المرة والمرة، وإنما حصول الرحمة بدوام الذكرى، فإن المؤمن خلق مفتتاً نسياً؛ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ خَلِقَ مَذْنِبًا مُفْتَتًا، خَطَأَ نَسَاءَ» (وفي رواية: مفتتاً تواباً نسياً)، فإذا ذُكِرَ ذكر^(١)، فحصلت الرحمة للمسلم المتعاهد القرآن بالموعظة والذكرى.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]؛ أي: ولكن أوحينا إليك هذا القرآن المُخبر بهذه القصة وغيرها مما لم تشهده، ولم تحضره؛ لتذكر قومك وتندرهم بها فيتذكروا ويتعظوا ويهتدوا فتحصل لهم الرحمة^(٢).

٨. اقتران الرحمة بالبشرى:

البشرى: الإخبارُ بحصول أمرٍ سارٍّ أو بترقُب حصوله. وقد اقترن وصف القرآن بأنه رحمة بوصفه بالبشرى في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. والرحمة من جهة البشرى أنّها تقطع مادة القلق على ما هو آتٍ، ومن تمام الرحمة أن ينظر: المنعم بعين عقله في مآل نعيمه فيعلم أنه دائمٌ غير منقطع، فإن لم يتحقق له ذلك استحال نعيمه شقاءً؛ وذو العقل يشقى في النعيم بعقله، فالبشرى بدوام حصول الرحمة من تمام الرحمة. والبشرى رحمة في

(١) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (ص ٢٢٥ برقم ٦٧٤)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٨٢ برقم ١٠٦٦٦)، (١١/ ٣٠٤ برقم ١١٨١٠)، والبيهقي في الشعب (٩/ ٣٢٩ برقم ٦٧٢٢)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (ح ٢٢٧٦).

(٢) ينظر: محاسن التأويل (٧/ ٥٢٤).

العقبى آجلة محققة، إذ كان المُبشِّر صادقاً. وعليه؛ فإنَّ وصف القرآن بأنه ذكرى وبأنه بشرى قد استجمع فيوض الرحمة في امتدادها الزمني ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

٩. اقتران الرحمة بأن القرآن تصديق الذي بين يديه:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، ومعناه أن القرآن يُصدِّق الكتب التي قبله ويشهد عليها. وفي أنه تصديق لما بين يديه من الكتاب رحمة؛ لأنَّ خروج الكتب من مشكاة واحدة، أدعى للتصديق به، والإذعان له والإيمان به عند كل ذي عقل، وحين قرئ صدر من سورة (مريم) على النجاشي بكى حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: «إنَّ هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»^(١).

قال الراغب: «إن قيل: كيف يكون القرآن مُصدِّقاً لما بين يديه، وهو ناسخ لعامة أحكامه؟ قيل: تصديقه إياه تحقيقه أنه من جهة الله، ومطابقتها إياه، فيكونه داعياً إلى التوحيد وفعل الخير، ونحو ذلك، وإلى أنواع العبادات دون قدرها وهيكلها وكيف إيقاعها»^(٢).

١٠. اقتران الرحمة بالفضل:

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، قال ابن عباس وأبو سعيد الخدري ومجاهد: فضل الله القرآن،
(١) جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٦٣ - ٢٦٨ برقم ١٧٤٠)، وحسنه محققو المسند.
كما أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ١٧٩ برقم ٨١) مختصراً، وفيه: (عيسى) بدل (موسى).
(٢) تفسير الراغب (٢/ ٤١٠).

ورحمته أن جعلهم من أهل القرآن^(١). وهذا ظاهر؛ فإنَّ الفضل هو هداية الله التي في القرآن، والرحمة هي التوفيق إلى اتباع الشريعة التي هي الرحمة في الدنيا والآخرة^(٢). وقال جماعة: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام^(٣). وقيل: فضل الله الإسلام ورحمته القرآن، وقيل غير ذلك، ولا تدافع بين هذه الأقوال. والأظهر - والله أعلم - أن الكل صفةٌ لشيء واحد، لَعَوْد (فبذلك) على مجموع (بفضل الله وبرحمته)، وهو المذكور قبل في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وهو يدل على أنه يعني به القرآن أيضًا^(٤). وقوله (فبذلك) يفيد الحصر؛ أي: لا يفرحوا إلا بذلك، أو يجدر بالإنسان ألا يفرح إلا بذلك^(٥)، واختير للتعبير عنه اسم الإشارة لما فيه من الدلالة على التتويه والتعظيم، مع زيادة التمييز والاختصار^(٦).

والفضل تفضُّل وتفضيلٌ، فالتفضُّل في أنه ابتداءً من الله ﷻ، ولو شاء لم ينزله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ١٨٦]؛ أي: وما كنت ترجو أن ينزل عليك هذا القرآن، فتعلم الأنبياء والأخبار عن الماضين قبلك والحادثة بعدك، مما لم يكن بعد، مما لم تشهده ولا تشهده، ثم تتلو ذلك على قومك من قريش، إلا أن ربك رحمك، فأنزله عليك، فقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناء منقطع؛ لأنَّ النبي ﷺ لم يخامر نفسه رجاء أن يبعثه الله ﷻ بكتاب من عنده بل كان ذلك مجرد رحمة من الله ﷻ به واصطفاء له^(٧).

قال السعدي: «﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾؛ أي: لم تكن

- (١) تفسير الطبري (١٢/ ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧).
- (٢) ينظر: التحرير والتوير (١١/ ٢٠٥).
- (٣) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٩٧-١٩٨).
- (٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/ ٢٥).
- (٥) ينظر: تفسير الرازي (١٧/ ٢٦٩)، وتفسير البيضاوي (٣/ ١١٦-١١٧).
- (٦) التحرير والتوير (١١/ ٢٠٤).
- (٧) ينظر: معاني القرآن، للفراء (٢/ ٣١٣)، وتفسير الطبري (١٨/ ٣٥٢)، والتحرير والتوير (٢٠/ ١٩٤).



متحريراً لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً. ﴿الْأَرْحَمَةُ
مِنْ رَبِّكَ﴾ بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب الذي رحم به العالمين،
وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا
من قبل لفي ضلال مبين. فإذا علمت أنه أنزل إليك رحمة منه، علمت أن
جميع ما أمر به ونهى عنه؛ رحمةً وفضلٌ من الله، فلا يكن في صدرك
حرجٌ من شيء منه، ولا تظن أن مخالفه أصلح وأنفع^(١).

وكذلك لو شاء الله لذهب به بعد أن أوحاه إليه؛ كما في قوله تعالى:
﴿وَلَيْنَ شِدْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَيْنًا وَكَيْلًا﴾ (٨١) إِلَّا
رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٧]. بفضله أوحى إليه
قرآناً من صفته الرحمة؛ ليرحمه ويرحم بسببه ﷺ.

وقد جمع الله ﷺ الأمرين في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ
لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُونَكَ
مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٢]. فامتنت في أولها بحفظ الكتاب عليه
وصيانتته من أن يفتن عنه أو عن بعضه، وفي آخرها امتنت عليه بأن تفضل
عليه بابتدائه بإنزال الكتاب والحكمة، وهذا محض الفضل والرحمة.

وأما التفضيل بأن جعله مهيمناً على ما بين يديه من الكتاب، وفضل النبي
الذي أنزل عليه، وفضل الأمة التي أنزل إليها، وفضل منهم أهل القرآن ونسبهم
إلى نفسه؛ كما أخبر النبي ﷺ: «أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته»^(٢). وصور
تقديم حامل القرآن وتفضيله كثيرة ليس هذا محل بسطها. ومَن كانت تلك
منزلته فهو أدخل الناس في الرحمة، وأحراهم بتعشيبها إياهم.

(١) تفسير السعدي (ص ٦٢٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٩/ ٢٩٦ برقم ١٢٢٧٩)، وغيره، وصححه الألباني في صحيح الترغيب

(ح ١٤٣٢).

المطلب الرابع

رحمة القرآن المضمّنة في خصائصه

للقرآن الكريم خصائص اختصّ بها لم يضاهاه فيها كلامٌ، ولم يُسامه فيها بيانٌ، فمن ذلك أنّ الله ﷻ تكفّل بحفظه، ومنها أنّه يسّره للذكر، ومنها أنّ القرآن لا يخلق على كثرة الردّ. وفي هذه الخصائص وجوهٌ فريدةٌ من الرحمة، وفوق ذلك فهي بمثابة الضمان الربّاني لاستمرار تجدد رحمة القرآن الكريم، وفيها بيانٌ لكون الرحمة من أخصّ صفات القرآن، وأنّ تفرّده في ذلك الوصف من تفرّده بين الكتب السماوية الأخرى، وأنّه مهيمٌ في أوصافه، كما هو مهيمٌ في نفسه.

١. رحمة القرآن في يسره:

أنزل الله ﷻ القرآن رحمةً للعالمين، وبرحمته ﷻ جعله ميسراً؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: أربعة مواضع] وأولها آية ١٧]. قال الطبري: «فإنما سهلنا قراءة هذا القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد بلسانك، ليتذكر هؤلاء المشركون الذين أرسلناك إليهم بعبره وحججه، ويتعظوا بعبثاته، ويتفكروا في آياته إذا أنت تتلوه عليهم، فينبوا إلى طاعة ربهم، ويذعنوا للحق عند تبيينهموه»^(١).

وحصول البشري والذكرى والندارة عين الرحمة، مع كون الشيء الحاصل به ذلك يسيراً في فهمه، حاصلًا به كمال البيان، والعمل بمضمون وصاياهم يسيراً غير خارج عن طوق المخاطبين به المدعويين إلى هداة. كل ذلك من مقومات الرحمة التي يتّصف بها القرآن.

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٧٠).

ولو قُدِّرَ مثلاً -ولله المثل الأعلى- أنَّ أحد الملوك أرسل كتاباً إلى إحدى الجهات تكليفاً وتوجيهاً، فإذا شقَّ عليهم استبانة مقصوده وفهم مراده كان تكليفهم بما فيه أشدَّ مشقَّةً. وأما لو كان مضمونه واضحاً بيِّناً، ولكنَّ القيامَ بمُرادِه فوق طَوْقهم لا توفِّي به قدراتهم -لم يصحَّ أن يوصف هذا الكتاب بالرحمة، بل كان إلى الإعنات أقرب. أضف إلى ذلك أنَّ ثواب امتثال كتاب هذا المملك -بفرض إمكان استبانة مراده وطوق امتثاله- لا يضمنُ من الراحة إلا بقدر ما يملك ذلك المملك من أسبابها، ولا يضمن لها بقاءً إلا بقدر حياته أو حياتهم، فإذا مات أو ماتوا خرجوا عن رحمته. فلما كان القرآن الكريمُ يسيراً في قراءته، ويسيراً في استظهاره، وفي ذكره واستحضاره، ويسيراً في فهمه وتبيين مراده، وكان العمل بمضمون أوامره ونواهيه في طَوْق عموم المخاطبين به والمدعويين إليه، وكانت أخباره مما يشهد العقل الصحيح بصدقها، وكان امتثال الأمر والنهي وتصديق الخبر هو محض الإيمان الموصل إلى الفوز بالنعيم المقيم في جنَّة الخلد - صحَّ أن يوصف القرآن بأنه رحمةٌ.

٢. رحمة القرآن في تكفل الله ﷻ بحفظه:

إنَّ تكفلُ الله ﷻ بحفظ القرآن من أعظم الرحمة على هذه الأمة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿ [الإسراء: ٨٦-٨٧]، قال الزمخشري: «والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصدور والمصاحف؛ فلم نترك له أثراً، وبقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب، ثمَّ لا تجدُ لك بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً؛ إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك، كأنَّ رحمته أن تتوكل عليه بالردِّ، أو يكون على الاستثناء المنقطع؛ بمعنى: ولكن رحمةً من ربك تركته غير مذهب به. وهذا امتنان من الله ﷻ ببقاء

القرآن محفوظًا بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه، فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن هاتين المِنَتَيْنِ والقيام بشكرهما، وهما مِنَّةُ اللَّهِ عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره، ومِنَّةُ اللَّهِ عليه في بقاء المحفوظ»^(١).

فمن جهات رحمة القرآن الكريم أنَّ الله ﷻ قد تكفَّل بحفظه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ولو أوكله للبشر لحرفوه كما حَرَّفَ أهل الكتاب كتبهم، فيُحيلون رحمته مشقةً وعتناً؛ كما استحالَت الكتب السابقة بالتحريف، مع أنَّ تحريفهم لها -في الغالب- كان كمحاولة للتيسير بزعمهم؛ كلما أحدث الناس من الفجور باباً قننوا له نصّاً محرِّفاً ينسبونه -زوراً وبهتاناً- إلى الكتاب، وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله؛ وما هو من عند الله.

والعقل البشريُّ نسبيُّ؛ فقد يرى فلانُ شيئاً على نقيض ما يراه غيره، والعقل البشريُّ متغيِّر، فقد يرى الرأيَ اليوم ويرى نقيضه غداً. ومع هذين الوصفين -النسبية والتغيُّر- لا عصمةَ لفضيلة، ولا بقاءَ لمأثرة ولا مكرمة، فلا يؤمن أن يُعدَّ قسوةً ما هو في حقيقة الأمر رحمةً، وأن يُعدَّ يُسرّاً ما هو عينُ العسرِ ومادة العنتِ. فكانت عصمة هذا العقل النسبيِّ المتغيِّر في النصِّ المحكم الثابت المحفوظ من التحريف والتبديل.

٣. رحمة القرآن في كونه ينفي السامة، ولا يخلق على كثرة الردِّ:

إنَّ حاجة العباد إلى القرآن الكريم في أمر معاشهم ومعادهم لشديدة، وفاقتهم إليه ظاهرة. ولو كان مملولاً تكراره، ومموجاً في الأسماع ترداده؛ لتعارض ذلك مع كونه رحمةً، ولم يستقم وصفه بها. فكم من دواء هو مجلبةٌ لأدواء، وكم من ترياق مرِّ المذاق يستثقل المستشفى به ساعة تناوله بما لا يقل عن استثنائه لساعات المرض، بل ربَّما يزيد!

(١) الكشاف (٢/ ٦٩١) باختصار يسير.

ولكن العارفين بأثر القرآن يوقنون بنفيه السامة عن صاحبه، لا يملُّ بترداده، ولا يستثقل تكراره، ولا يخلق ما يناله منه من الفتح والفيض، فطرب له الأسماع، وتشغف به القلوب، فلا تزيده تلاوته إلا حلاوةً، ولا ترديده إلا محبةً، ولا يزال غضاً طرياً. وغيره من الكلام - ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغاً - يملُّ مع التردد، ويُعادى إذا أعيد؛ لأنَّ إعادة الحديث على القلب أثقل من الحديد، وكتابنا بحمد الله يُستلذُّ به في الخلوات، ويؤنسُّ به في الأزمان، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك؛ حتى أحدث أصحابها لها لحناً وطرقاً؛ يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها^(١).

وفي صفة القرآن عن عليٍّ عليه السلام يرفعه: «هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه»^(٢). وقوله: (ولا يشبع منه العلماء)؛ أي: لا يحيط علمهم بكنهه

(١) ينظر: الشفا (ص ١٧٢)، ومعتك الأقران (١/ ٢٤٤).

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي (ح ٢٩٠٦) كتاب ثواب القرآن؛ باب ما جاء في فضل القرآن، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات وإسناده مجهول. وفي حديث الحارث مقال». وضعفه الألباني في المشكاة (ح ٢١٢٨). كما أخرجه الدارمي (٢/ ٥٢٧ برقم ٢٣٢٢)، بسنده عن أبي البخري عن الحارث عن عليٍّ عليه السلام. وقال محققه: إسناده حسن. كما أخرجه بنحوه (٢/ ٥٢٦ برقم ٢٣٢١) من طريق أبي المختار الطائي عن ابن أخي الحارث عن الحارث، ومنه أخرجه الترمذي باللفظ المذكور. وأخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن إسحاق قال: وذكر محمد بن كعب القرظي، عن الحارث بن عبد الله الأعرور، قال: قلت: لأتينا أمير المؤمنين فلاسالنه عما سمعت العشيية. قال: فجننته بعد العشاء فدخلت عليه، فذكر الحديث، قال: ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أتاني جبريل، فقال: يا محمد: إن أمتك مختلفة بعدك. قال: فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟ قال: فقال: كتاب الله صلى الله عليه وسلم. به يقصم الله كل جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك - مرتين - قول فصل، وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن، ولا تفتني أعاجيبه، فيه نبأ ما كان قبلكم، وفصل ما بينكم، وخبر ما هو كائن بعدكم». وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف لضعف الحارث بن عبد الله الأعرور»، ثم هو منقطع، لقول محمد بن إسحاق: «وذكر محمد بن كعب القرظي»: فإنه لا تعرف له رواية عن محمد بن كعب القرظي، بل هو يروي في «السيرة» عنه بواسطة».

وأخرج الطبراني في الكبير (٨٤/ ٢٠) بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً الفتن، فعضمها وشددها، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا رسول الله: فما المخرج منها؟ فقال: «كتاب الله، فيه حديث ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم، من تركه من جبار قصمه الله، ومن تتبع الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذي لما سمعته الجن، قالت: «إنا سمعنا قرآنا عجبا» [الجن: ١] هو الذي لا تختلف به الألسن، ولا تخلقه كثرة الرد». وفي إسناده عمرو بن واقد: متروك

فيفقوا عن طلبه وقوف من شبع عن مطعوم؛ فإن الناظر فيه لا ينتهي إلى حدٍّ، إلا وهو بعد طالبٌ لحقائقه، باحثٌ عن دقائقه. وقوله: (لا يخلق على كثرة الرد) يبيِّن أنه غَضُّ جديدٌ أبداً^(١)، لا يزول رونقه ولذَّة قراءته، واستماعه عن كثرة ترداده على السنة التالين، وتكراره على أذان المستمعين؛ على خلاف ما عليه كلام المخلوقين^(٢).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إن هذا القرآن مآدبةُ الله، فتعلّموا مآدبة الله ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يعوجُّ فيقوم، ولا يزيغ فيستعيب، ولا تتقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات»^(٣).

وعنه رضي الله عنه أنه قال: «إن هذا القرآن، لا يختلف ولا يستثنى، ولا يتفه لكثرة الرد»^(٤).

ولعل في جملة تلك الآثار ما يشهد لكون القرآن لا يخلق على كثرة الرد، وهو مما يشهد به الواقع أيضاً، إذ إن العلماء ما انفكوا ينهلون ويعلمون؛ والقرآن غَضٌّ لا يغيض فيضهُ، ولا تتقضي عجائبه، ولا تنفد علومه وفوائده.

- (١) غريب الحديث لأبي عبيد (٥٦/٤).
- (٢) قوت المفتدي على جامع الترمذي (٧٢٩ / ٢).
- (٣) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (٤٣/١ برقم ٢٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٢٥/٦ برقم ٣٠٠٨)، والدارمي في السنن (٢٠٨٩/٤ برقم ٣٣٥٨)، والبيهقي في الشعب (٣٧١/٣ برقم ١٨٢٢) موقوفاً عن ابن مسعود، كما أخرجه الحاكم في المستدرک (٧٤١/١) برقم ٢٠٤٠ مرفوعاً، والموقوف أصوب. ومداره على أبي إسحاق الهجري وهو لين الحديث رفع موقوفات؛ كما في التقریب (ص ٩٤).
- (٤) رواه أحمد في المسند (٣٩٦/٦ برقم ٣٨٤٥)، وإسناده ضعيف لجهالة أحد رواه، وبقية رجاله رجال الشيخين. وقوله: (ولا يستثنى ولا يتفه): التفه: من تفه الطعام: إذا سنخ وتفه الطيب: إذا ذهب رائحته بمرور الأزمنة. والتشان: الإخلاق من الشن، وهو الجلد اليابس البالي؛ فالمعنى: هو حلو طيب لا تذهب طلأوته، ولا يبلى رونقه وطراوته بترديد قراءته؛ كالشعر وغيره. ويجوز أن يكون من تفه الثوب إذا بلى. ولا يتشان: تأكيداً له، ويجوز أن يكون من تفه الشيء: إذا قل وحقر، أي هو معظم في القلوب أبداً. وقيل: معنى التشان الامتزاج بالباطل من الشنائة، وهي اللبن المذيق. ينظر: الفائق في غريب الحديث (١/١٥٢).



ووصف الله ﷻ القرآن بأنه مَثَانٌ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًا﴾ [الزمر: ٢٣]؛ لأنه يُتَنَى في التلاوة؛ فلا يُعَلُّ، ولا يتفه، ولا يتشان، ولا يخلق على كثرة الرد^(١)، ولأنه مكرَّر الأغراض؛ فتكون مقاصده أرسخ في النفوس، وليسمعها من فاته سماع أمثالها من قبل. وفيه تنبيه على ناحية من نواحي إعجازه؛ وهي عدم الملل من سماعه، فكلما تكرَّر غرض من أغراضه زاده تكرُّره قبولاً وحلاوةً في نفوس السامعين. فتتوَّع أسلوب القرآن بين ذكر القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وثبَّت فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من حكمته ﷻ، وقد علِّم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وهي بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدا بسقي الماء تعرَّضت للتلف، وكلما تكرَّر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة - كذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله ﷻ عليه، ولو تكرَّر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعاً، ولم تحصل النتيجة منه^(٢).



(١) ينظر: الكشاف (٥/ ٣٠٠) والمحرَّر الوجيز (٤/ ٥٢٧).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص ٧٢٣). وقد توسَّع الباحث في الكلام عن أسباب كون القرآن الكريم ينفي السامة عن قارئه، ولا يُعَلُّ بتكريره، ولا يخلق على كثرة الرد، وأن القرآن الكريم منفرد بهذه الخاصية؛ في بحث: الضمان الرباني لتعاهد القرآن الكريم، منشور بمجلة تبيان للدراسات القرآنية: العدد التاسع عشر.

المبحث الثاني سبل استنزال رحمة القرآن الكريم

لعلَّ السؤال الذي يشغلُ فِكْرَ مَنْ وقف على تلك المعاني الجليلة لرحمة القرآن، وعرفَ جهاتها ومكوّناتها؛ هو: ما السبل القويمة لاستنزال تلك الرحمة القرآنية، واستجلابِ بركتها، واستمطار غيوثها؟ وللإجابة عن هذا السؤال نستهدي الوحيين، محاولين الوصول إلى منارات تلك السبل وعلاماتها.

المطلب الأول اتباع القرآن

بالجملة؛ فإنَّ أحقَّ الناس بالفوز برحمة القرآن الكريم والتعرُّض لها هم القائمون بحقوق القرآن، وهم أهل القرآن الراسخون في العلم به، المصدِّقون بأخباره، المراعون لأوامره، المرعّعون عن نواهيه.

قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، قال السعدي: «﴿وَهَذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم. ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمدُّ منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه، وما من شر



إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ فيما يأمر به وينهى، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله ﷻ أن تخالفوا له أمراً ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن اتبعتموه ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب، علماً وعملاً^(١).

وقال ابن عباس: «مَنْ قرأ القرآن فاتَّبِعَ ما فيه هداه الله من الضلالة في الدنيا، ووقاه يوم القيامة الحساب، وذلك أَنَّ الله ﷻ يقول: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]»^(٢).

المطلب الثاني الاعتصام بالقرآن

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾^(١٧٤) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ﴾ فسكِّدْ ظُهُمُ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥]؛ عن ابن جريج: ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِهِ﴾ قال: «بالقرآن»^(٣).

وقال ابن عطية: «وعد تبارك وتعالى المؤمنين بالله، المعتصمين به، والضمير في ﴿به﴾ يحتمل أن يعود على الله ﷻ، ويحتمل أن يعود على القرآن الذي تضمَّنه قوله تعالى: ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾. والاعتصام به التمسك بسببه وطلب النجاة والمنعة به، فهو يعصم كما تعصم المعامل»^(٤).

وقد أمرنا الله ﷻ بالاعتصام بالقرآن؛ فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وجمهور المفسرين على أن المراد بحبل

(١) تفسير السعدي (ص ٢٨٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (ح ٦٠٣٣).

(٣) فضائل القرآن، لأبي عبيد (١/ ٣٠٣).

(٤) المحرر الوجيز (٢/ ١٤١).

اللَّهُ الْقَرَّانُ الْكَرِيمُ، وَهُوَ الصَّوَابُ؛ لثبوتَهُ عَنِ الْمَعْصُومِ ﷺ؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعَظْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَإِنَّمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا؛ فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفْرُقُوا، وَأَنْ تَتَّصِحُوا مِنْ وِلَاةِ اللَّهِ أَمْرَكُمْ. وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلٌ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»^(٢).

وَفِي حَدِيثِ حُجَّةِ الْوُدَاعِ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابُ اللَّهِ»^(٣).

وَالِاعْتِصَامُ بِالْقُرْآنِ هُوَ ابْتِغَاءُ الْعِصْمَةِ، وَالِاسْتِمْنَاعُ بِجَوَارِ اللَّهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالْقِيَامِ بِحَقُوقِ الْقُرْآنِ. وَالِاعْتِصَامُ وَقَايَةُ، وَالشِّفَاءُ عِلَاجٌ، فَكَمَا كَانَ الْقُرْآنُ شِفَاءً؛ فَهُوَ وَقَايَةُ وَعِصْمَةٌ؛ وَقَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: «فَالِاعْتِصَامُ بِهِ نَوْعَانِ: اعْتِصَامٌ تَوَكَّلَ وَاسْتَعَانَ وَتَفَوَّضَ وَلَجَّ وَعِيَاذَ، وَإِسْلَامَ النَّفْسِ إِلَيْهِ، وَالِاسْتِسْلَامَ لَهُ ﷺ. وَالثَّانِي: اعْتِصَامٌ بِوَحْيِهِ، وَهُوَ تَحْكِيمُهُ دُونَ آرَاءِ الرِّجَالِ وَمُقَايِسَتِهِمْ، وَمَعْقُولَاتِهِمْ، وَأَذْوَاقِهِمْ وَكَشُوفَاتِهِمْ وَمَوَاجِدِهِمْ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ مَنْسَلٌ مِنْ هَذَا الِاعْتِصَامِ، فَالِدَيْنِ كُلَّهُ فِي الِاعْتِصَامِ بِهِ وَبِحَبْلِهِ، عِلْمًا وَعَمَلًا، وَإِخْلَاصًا وَاسْتِعَانَةً، وَمَتَابَعَةً وَاسْتِمْرَارًا عَلَى ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤).

وَقَالَ الْمَنَاوِيُّ: «وَالِاعْتِصَامُ بِهِ التَّمَسُّكُ بِآيَاتِهِ، وَالْمَحَافِظَةُ عَلَى الْعَمَلِ بِهَا... (وَلَا تَفْرُقُوا) بِحَذْفِ إِحْدَى التَّائِينَ، وَهَذَا نَفْيٌ عَلَى تَعْتَصِمُوا،

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (ح ١١١٠٤) وَقَالَ مُحَقِّقُو الْمُسْنَدِ: صَحِيحٌ بِشَوَاهِدِهِ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (ح ١٧١٥): كِتَابُ الْأَقْضِيَةِ: بَابُ النَّهْيِ عَنْ كَثْرَةِ الْمَسْأَلِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ...

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (ح ١٢١٨) كِتَابُ الْحَجِّ: بَابُ حُجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

(٤) مَدَارِجُ السَّالِكِينَ (٣/ ٣٠٣).

أي لا تختلفوا في ذلك الاعتصام، كما اختلف أهل الكتاب أو هو نهي عن أن يكون ما قبله من الخبر بمعنى الأمر، يعني اعتصموا ولا تفرقوا»^(١).

وبالنظر في مستويات حقوق القرآن؛ فإنَّ القائم بحقوق الرواية داخل في كنف الله ﷻ، موعودٌ بحفظه ووقايته، فمن ذلك أنَّ قراءة القرآن تقي من أعظم الشرور في دُور المرء الثلاث: الدُّنيا والقبر والآخرة، فأما في الدُّنيا فإنَّ أعظم أعداء الإنسان هو الشيطان الرجيم، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّ القرآن عصمةٌ من الشيطان؛ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ إنَّ الشيطان يَنْفِرُ من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: وكنتي رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقلتُ: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ - فذكر الحديث - فقال: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي؛ لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطانٌ حتى تصبح. فقال النبي ﷺ: «صدقك وهو كذوب؛ ذاك شيطان»^(٣).

وعن عقبه بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آياتٍ أنزلت الليلة، لم يُر مثلهنَّ قطُّ: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس»^(٤).

وعن معاذ بن عبدالله بن خبيب، عن أبيه، قال: كنت مع رسول الله ﷺ في طريق مكة، ومعه أصحابه، فوقعت علينا ضبابة من الليل حتى سترت بعض القوم عن بعض، فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «قل يا

(١) فيض القدير (٢/ ٢٠١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح ٧٨٠)؛ كتاب صلاة المسافرين؛ باب استحباب صلاة النافلة في بيته.

(٣) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه، وبهذا اللفظ في (ح ٣٢٧٥)؛ كتاب بدء الخلق؛ باب صفة إبليس وجنوده.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (ح ٨١٤)؛ كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب فضل قراءة المعوذتين.

ابن خبيب» فقلت: ما أقول يا رسول الله؟ فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] فقرأها، وقرأتها، ثم قال: «قل» فقلت: ما أقول؟ فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] وقرأها، وقرأتها حتى فرغ منها، ثم قال: «ما استعاذ، أو استعان أحدٌ بمثل هاتين السورتين قطُّ»^(١).

وأما أعظم الفتن التي قد يتعرّض لها الإنسان في الدنيا، فهي فتنة الدّجال؛ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «لقد أوحى إليّ أنكم تُفتنون في القبور مثل [أو قريب من] فتنة الدجال، يوتى أحدكم، فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن [أو المؤمنة] فيقول: هو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا، فيقال له: نم صالحاً، فقد علمنا إن كنت لمؤمناً، وأما المنافق [أو المنافقة] فيقول: لا أدري، سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته»^(٢).

فهذه فتنة الدّجال يُعصم منها من اعتصم بحفظ عشر آيات من سورة الكهف؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال»^(٣).

ومجرّد قراءتها عن ظهر قلب لا تُوجب لقارئها تلك الفضيلة؛ إذ قد يستظهرها مَنْ لا يقوم بحقّها، وها هو النوويّ يشرح الحديث؛ قائلاً: «فَمَنْ تدبّرها لم يُفْتَنَ بالدّجال»^(٤)، فجعل التدبّر مُرادفاً للحفظ أو مقصوداً به. وقال القاضي عياض موضحاً السرّ في تخصيص تلك الآيات: «لِمَا فِي قصة أصحاب الكهف من العَجَبِ والآيات، فَمَنْ عَلِمَهَا

(١) أخرجه أبو عبيد في الفضائل (٢/ ٧٩ برقم ٥٢٤) وإسناده صحيح.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه (ح ١٨٤)؛ كتاب الوضوء؛ باب من لم يتوضأ إلا من الغشي المُتَقَلِّب.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ح ٨٠٩)؛ كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب فضل سورة الكهف وآية الكرسيّ.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (٦/ ٩٣).

لا يستغرب أمر الدجال، ولا يفتن به»^(١)، فجعل العلم الموطئ للفهم مُرادفًا للحفظ. ولا يخفى أن العلم والتدبر سَلَّمَ العمل، فعَلِمَ أن المقصود بقوله (حَفِظَ) أي حَفِظَ الرواية عن ظهر قلب، وحفظ الدراية والفهم، وحفظ الرعاية والتطبيق والامتثال.

وأما حفظ العمل والرعاية، فصاحبه أحقُّ من وُعد بقوله ﷺ: «احفظ الله يحفظك»^(٢). فالعامل بالقرآن معصومٌ؛ لأن الله يحفظ من يحفظه، فعَلِمَ أن تمام العصمة في تمام القيام بحقوق القرآن.

والاعتصام طلبٌ للعصمة، وهذا الطلب يقتضي الأخذ بالأسباب، فيصحُّ أن يكون قولاً أو فعلاً، والفاعل أبلغ؛ لأنَّ فيه كمال الأخذ بالأسباب.

وأما عصمة القرآن للعبد في القبر، فيدلُّ عليه ما رواه ابن مسعود ﷺ مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر»^(٣)، ورواه موقوفاً، وهو في حكم المرفوع؛ قال: «يؤتى الرجل في قبره، فتؤتى رجلاه، فتقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل؛ كان يقرأ سورة الملك. ثم يؤتى من قبل صدره - أو قال بطنه - فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل؛ كان يقرأ في سورة الملك. ثم يؤتى من قبل رأسه؛ فيقول ليس لكم على ما قبلي سبيل؛ كان يقرأ في سورة الملك. فهي المانعة؛ تمنع عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب»^(٤).

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «سورة من القرآن ما هي إلا ثلاثون آية خاصمت عن صاحبها؛ حتى أدخلته الجنة، وهي تبارك»^(٥).

(١) إكمال المُعلِّم بفوائد مسلم (٣ / ١٧٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند عن ابن عباس (ح ٢٧٦٣)، والترمذي في (ح ٢٥١٦)؛ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع؛ باب (٥٩)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في المشكاة (ح ٥٣٠٢).

(٣) أخرجه ابن مردويه وأبو الشيخ في العظمة، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح ١١٤٠).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (ح ١١٤٠).

(٥) صحيح الجامع (ح ٣٦٤٤).

ويُصوّر النبي ﷺ مشهد صاحب القرآن في الآخرة؛ فيقول: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة، وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة». (١).

وبالجملة، فإن القرآن يعصم على العبد دينه، والدين هو عصمة أمر العبد؛ عن أبي هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر» (٢). فكان الاعتصام بالقرآن روايةً ودرايةً ورعايةً هو صلاح دين العبد، وهو عصمة أمره.

المطلب الثالث

الاستشفاء بالقرآن

من أجل سُبُلِ تحصيل رحمة القرآن أن يستشفى العبد بالقرآن من أمراض القلوب، ومن أمراض الأبدان، وقد مرَّ بنا أنَّ القرآن شفاءٌ لما في الصدور، وشفاءؤه من أمراض القلوب ظاهرٌ بيِّنٌ، قال ابن القيم: «فإنَّ القرآن كله شفاءٌ... فهو شفاءٌ للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله ﷻ من السماء شفاءً قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن» (٣).

- (١) أخرجه مسلم (ح ٨٠٤). كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة. والبطلة: السحرة.
- (٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٠)؛ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار؛ باب التعوذ من شرِّ ما عمل ومن شرِّ ما لم يعمل.
- (٣) الداء والدواء (٦/١).

وأما شفاؤه لأمراض الأبدان فيشهد له ما روته عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها»^(١).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: انطلق نضر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيّفوهم، فلدغ سيّد ذلك الحيّ، فسَعَوْا له بكل شيء؛ لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط؛ إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إنني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ: الحمد لله رب العالمين؛ فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبه، قال: فأوفوهم جُعَلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقساموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا؛ حتى نأتي النبي ﷺ، فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا. فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له، فقال: «وما يدريك أنها رقية؟»، ثم قال: «قد أصبتم؛ اقساموا واضربوا لي معكم سهماً»^(٢).

قال ابن القيم: «فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء، وأزاله، حتى كأن لم يكن. وهو أسهل دواء وأيسره. ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء. ومكثت بمكة مدةً تعتريني أدواء، ولا أجد طبيباً ولا دواء، فكنّت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً. فكنّت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً، وكان كثير منهم يبرأ سريعاً. ولكن ها هنا أمر ينبغي التقطن

(١) أخرجه البخاري (ح ٥٠١٦)؛ كتاب فضائل القرآن؛ باب فضل المعوذات.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في مواضع أولها (ح ٢٢٧٦)؛ كتاب الإجارة؛ باب ما يُعطى في

الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب.

له، وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره. فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفع، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإنَّ عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره. فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، وكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة، أثر في إزالة الداء»^(١).

المطلب الرابع

الاستماع والإنصات إلى قراءة القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، قال أبو حيان: «لمَّا ذكر أنَّ القرآن بصائر وهدى ورحمة أمر باستماعه إذا شرع في قراءته وبالإنصات، وهو السكوت مع الإصغاء إليه؛ لأنَّ ما اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرحمة حريٌّ بأن يُصغى إليه؛ حتى يحصل منه للمُنصِتِ هذه النتائج العظيمة، وينتفع بها فيستبصر من العمى ويهتدي من الضلال ويرحم بها والظاهر استدعاء الاستماع والإنصات إذا أخذ في قراءة القرآن، ومتى قرئ [عنده]»^(٢).

وقد يكون الخطاب في قوله: (فاستمعوا) للكفار؛ فترجى لهم الرحمة باستماعه والإصغاء إليه بأن كان سبباً لإيمانهم، وإن كان الخطاب للمؤمنين فرحمتهم هو ثوابهم على الاستماع والعمل بمقتضاه، وإن كان

(١) الداء والدواء (ص ٨-٩).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٦١).

للجميع فرحمة كل منهم على ما يناسبه ولعل باقية على بابها من توقع
الترجي، وقيل: هي للتعليل^(١).

وهذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يُتلى؛ فإنه مأمور بالاستماع
له والإنصات. والفرق بين الاستماع والإنصات أن الإنصات في الظاهر
بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له،
فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على
هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً،
وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدياً متزايداً، وبصيرة في دينه. ولهذا رتب
الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم
يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير^(٢).

وقال الليث: «يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن،
لقول الله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾
[الأعراف: ٢٠٤]، و(لعل) من الله واجبة»^(٣).

المطلب الخامس

تلاوة القرآن ومدارسته

في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «وما اجتمع قوم
في بيت من بيوت الله؛ يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم
السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(٤).

(١) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٦٢).

(٢) تفسير السعدي (ص ٣١٤).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٩).

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم (ح ٢٦٩٩): كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار؛ باب فضل
الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر.

وقوله: "وغشيتهم" في لغة العرب لا تستعمل إلا في شيء يشمل المغشي من جميع أجزائه وجوانبه، فعمل المعنى في هذا أن غشيان الرحمة لهم يكون بحيث يستوعب كل ذنوبهم، وأما قوله: «ونزلت عليهم السكينة» والسكينة: فعيلة من السكون، يقتضي المبالغة، وذلك أن أهل ذكر الله؛ على عقيب غشيان الرحمة لهم في ذكرهم لربهم؛ تنزل عليهم السكينة من الله، فلا ينزعجون لمخيف من دنيا؛ لعلمهم أنه لا يكون إلا تحت قدرة مذكورهم؛ فسكنوا واطمأنت نفوسهم بموعود الآخرة، استدلالاً على حصوله بتوفيق ربهم بأن جعل ذكره شعارهم وشغلهم؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] (١).

ومعنى: "حفتهم الملائكة" أي أحدقوا بهم، وأحاطوهم من كل جانب؛ فكأن الملائكة قريب منهم قريباً بالغاً، حتى لم تدع فُرجة تتسع لشيطان، فيستمعون القرآن ودراساتهم، ويحفظونهم من الآفات (٢).

وهذا الوعد الحق لمن تلا القرآن وتدارسه مُخلصاً، والتدارس قراءة بعضهم على بعض تصحيحاً لألفاظه أو كشفاً لمعانيه. ويمكن أن يكون المراد بالتدارس المدارس المتعارفة بتناوب القراءة، والأظهر أنه شامل لجميع ما يناط بالقرآن من التعليم والتعلم (٣).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وإلى جانبه حصان مربوط بشطَينين، فتغشته سحابة، فجعلت تدنو وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له فقال: «تلك السكينة تنزلت بالقرآن» (٤).

(١) ينظر: الإفصاح عن معاني الصحاح (٨ / ٥١).

(٢) ينظر: شرح الأربعين لابن دقيق العيد (ص ١٢١)، ومرقاة المفاتيح (١ / ٢٨٧).

(٣) ينظر: مرقاة المفاتيح (١ / ٢٨٧).

(٤) أخرجه البخاري في مواضع، وبهذا اللفظ في (ح ٥٠١١)، كتاب فضائل القرآن؛ باب فضل الكهف، ومسلم (ح ٧٩٥)؛ كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب نزول السكينة لقراءة القرآن.

وعن أسيد بن حضير رضي الله عنه أنه بينما هو ليلةً يقرأ في مربد، إذ جالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أيضاً، قال أسيد: فخشيت أن تطأ (يحیی)، فقمْتُ إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي، فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها، قال: فغدوت على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله؛ بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي، إذ جالت فرسي، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ؛ ابن حضير» قال: فقرأتُ، ثم جالت أيضاً، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ؛ ابن حضير» قال: فقرأتُ، ثم جالت أيضاً، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ؛ ابن حضير» قال: فانصرفت، وكان (يحیی) قريباً منها، خشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السُّرُج، عَرَجَت في الجو حتى ما أراها، فقال رسول الله ﷺ: «تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم»^(١).



(١) أخرجه مسلم (ح ٧٩٦): كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب نزول السكينة لقراءة القرآن.

المبحث الثالث

الاستثمار التربوي والدعوي لرحمة القرآن

من أجلّ وجوه إعجاز القرآن الكريم إعجازه التأثيري؛ يقول الخطابي: «في إعجاز القرآن وجهٌ آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى؛ ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس، وتشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيبُ والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتتزعج له القلوب، يجول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدوٍّ للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها؛ أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمة ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاةً، وكفرهم إيماناً»^(١).

وعدّ القاضي عياض^(٢) من أوجه إعجاز القرآن الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعزيبهم عند تلاوته؛ لقوة حاله وإدامة خطرهم، فالؤمن لا تزال روعته به وهيبة إياه مع تلاوته توليه

(١) إعجاز القرآن، للخطابي (ص ٧٠).

(٢) ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ص ١٦٩-١٧١).



انجذاباً، وتكسبه هشاشة؛ لئيل قلبه إليه، وتصديقه به؛ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّشْتَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. وهذا دالٌّ على أن هذا التأثير يمكن أن يعترني من لا يفهم معانيه، ولا يعلم تفسيره، وروي عن نصراني أنه مر بقارئ فوقف بيكي، فقيل له: مم بكيت؟ قال: للشجا والنظم.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة؛ عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ: ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي»^(١). ولعلَّ هذا الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم كامنٌ في صفاته، فتأثيره في روحانيته ونورانيته وعزته ورحمته وغير ذلك من صفاته المتفرّدة^(٢). فما على أهل القرآن إلا أن يستثمروا هذا التأثير في مقامي التربية والدعوة لتفتح لهم -ياذن الله- قلوب العباد.

وهناك حقيقتان ثابتتان حول الرسالة القرآنية؛ الأولى: أنها مادة التزكية والتعليم للمسلم صغيراً وكبيراً، وهذا ما أكده الخطاب القرآني مراراً؛ كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ونظائرها. والحقيقة الثانية أنها دعوةٌ علمية، لا تحدها

(١) أخرجه البخاري (ح ٤٨٥٤) كتاب التفسير؛ باب: سورة والطور؛ دون قوله: «وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي»، وأخرجه في كتاب المغازي (ح ٤٠٢٣) ولفظه: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»، كما أخرجه مسلم (ح ٤٦٣) كتاب الصلاة؛ باب: القراءة في الصبح.

(٢) بسطتُ تلك الفكرة في بحث: الضمان الرباني لتعاهد القرآن الكريم، ولا يتسع المقام لنقلها هنا.

حدود المكان ولا الزمان؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومهما كان المرثي أو الداعية عليماً بخصائص القرآن الكريم وصفاته، خبيراً بكيفية استثمارها تربوياً ودعويّاً؛ فإن الثمرة المرجوة لعمله أعظم كمّاً وكيفاً.

ولنضرب مثلاً يُقرب المقصود -ولله المثل الأعلى- لو أنّ منهنجاً تربوياً يتميز محتواه بأنه يُتيح لمدرسه ودارسه إمكانية تصميم طريقة تدريسية مفيدة ينعكس أثرها الإيجابي على قدرة المعلم على إيصال المادة العلمية، وقدرة المتعلمين على استيعابها وإحكامها، وقد عُلِمَ أنّ بعض المناهج الأخرى لا يتميز بذلك - فلا شك أنّ قدرة المعلم في الاستفادة من ذلك مرغوبة، والسعي في تحقيق هذه الفائدة محمودٌ. ولَمَّا كانت الرحمة من أخصّ صفات القرآن؛ كان المرثيون والدعاة جديرين أن يطلعوا على أبعادها ومكوّناتها ومعانيها، وأن يعلموا كيفية استثمارها تربوياً ودعويّاً. وأمّا أثر تحقق رحمة القرآن فيظهر في عدة أمور؛ من أهمّها جودة المخرجات التربوية والدعوية كيفاً وكثرتها كمّاً، مع الاقتصاد في الأوقات والأموال.

فالمقصود إذاً بالاستثمار التربوي والدعوي لصفة الرحمة أن يستفيد المرثيون والدعاة من كَوْن القرآن رحمةً؛ فيتعرّضوا بالأمور التي تستجلب هذه الرحمة؛ فيكون نزولها سبباً -بإذن الله- في تحقيق الأثر المنشود من التربية أو الدعوة.



المطلب الأول الأمور المعينة على الاستثمار التربوي لرحمة القرآن

التربية التي نعنيها - التي يُمكن أن نصلح عليها بالتربية الإسلامية - يُمكن أن نعرّفها بأنّها: «تبليغ الإنسان كماله البشريّ الشامل؛ على مُراد خالقه ﷻ». والكمال البشري المقصود يشمل كلّ المجالات التي يتفاضل فيها البشر: وجدانياً وعقلياً ومهارياً وبدنياً. وأمّا قولنا: على مُراد خالقه لأنّ الكمال البشريّ إذا تُركَ تحديده للفلسفات المتباينة والعقول المتفاوتة فقد يكون أمراً نسبياً؛ فما يراه البعض كمالاً قد يراه غيره عين النقص، وما يراه البعض انحطاطاً وسفولاً لا يليق ببني آدم المكرّمين المفضّلين على كثيرٍ من خلق الله، قد يراه البعض منتهى الكمالِ وغاية الإفضال.

وهذه التربية مصدرها القرآن، منه استمداد غاياتها ومقاصدها، وبه تأطير طرائقها ووسائلها. فإذا انطلقت السياسات التربوية من هذه القناعة لا يجد المرّبون صعوبةً في استنزال رحمة القرآن، واستجلاب بركته، والاستهداء ببيّناته في ترقية أنفسهم وأبنائهم وطلّابهم إلى الكمال البشري المنشود. ويتأكّد ذلك إذا كانت المؤسسة التربوية منوطةً بالتربية القرآنية: تحفيظاً، وتعليماً، وإقراءً، ونحو ذلك.

وهناك جملة من الأمور التي تُستنزَل بها رحمة القرآن، فإذا ما حرّص عليها القراء والمعلمون والمتعلمون القرآنيون؛ فإنّها تكون سبباً - بإذن الله - في نزول الرحمة. وفيما يأتي ذكر لها:

١. النية: وذلك بأن يُجدّد المرّبُ نيّته، فيكون من جملة ما ينويه بقيامه بحقوق القرآن: استنزال رحمته.

٢. تحزيب القرآن قراءةً واستماعاً.

٣. المحافظة على الأوراد القرآنية الموظفة، مستحضراً نية الاعتصام.
٤. الطهارة والوضوء عند تعليم القرآن ومدارسته: والخلاف في اشتراط الطهارة والوضوء للقراءة مشهور في مظانّه من كتب الفقه، وكتب آداب حملة القرآن، ولسنا بصد مناقشة هذه المسألة، ولكنّ المهمّ هو تحرير القدر المشترك المُجمع عليه، وهو أنّ الوضوء للقراءة أفضل من القراءة بغير وضوء، وهو مظنة تنزّل الملائكة على القارئ وحصول الرحمة. فليحرص المعلم على أن يكون طاهراً وهو يقرأ للتعليم والمدارسة، وليحرص على اقتداء طلابه به قدر الإمكان.
٥. الالتزام بطهارة المكان: ويلحق به طهارة المجلس والثوب، ونحو ذلك.
٦. الحرص على نظافة الفم؛ وعن عليّ عليه السلام أنّه أمر بالسواك، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ العبد إذا تسوّك، ثم قام يصلي قام الملك خلفه يستمع القرآن، فلا يزال عُجبه بالقرآن يديه منه؛ حتى يضع فاه على فيه، فما يخرج من فيه شيء من القرآن إلا صار في جوف الملك، فطهّروا أفواهكم»^(١).

٧. الاستعاذة والبسملة عند الشروع في القراءة: والاستعاذة حصنٌ من

(١) روي مرفوعاً وموقوفاً على عليّ عليه السلام: فأخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (ص ٤٣٥ برقم ١٢٢٥)، والبخاري في مسنده (٢/٢١٤ برقم ٦٠٣) وقال: «وهذا الحديث لا نعلمه يروي عن عليّ عليه السلام بإسناد أحسن من هذا الإسناد، وقد رواه غير واحد عن الحسن بن عبيد الله، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عليّ عليه السلام موقوفاً». قال الألباني (السلسلة الصحيحة ٢/٢١٥): «وإسناده جيد رجاله رجال البخاري، وفي الفضيل [بن سليمان] كلام لا يضر». كما أخرجه موقوفاً ابن المبارك في الزهد والرقائق (ص ٤٣٥ برقم ١٢٢٤)، وعبد الرزاق في المصنف (٢/٤٨٧ برقم ٤١٨٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/٣٨ برقم ١٦١)، وفي الشعب (٢/٣٨١ برقم ٢١١٦). وبالجملة: فقد صحّحه الألباني (السلسلة الصحيحة ح ١٢١٣)، وقال: وظاهره أنّه موقوف، ويحتمل أنه مرفوع. قلت: ومثله لا يقال بالرأي، فإذا صحّ موقوفاً فله حكم الرّفْع. والله أعلم.



الشیطان، وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، ومعناها: ألتجئ إلى رحمة الله وعصمته^(١).
وأما إسناد البسمة إلى الرحمن الرحيم، فهو من ألطف الإشارات إلى أن الرحمة أكثر ما يُرجى لقارئ القرآن، وأقرب ما يكون منه. والله أعلم.

٨. الالتزام بمدارسة القرآن: ولو آية من المتلو، وتحقق المدارس بتدارس حُكم تجويديٍّ فيها، أو بتدارس ما فيها من قراءات، أو السؤال عن معنى لفظة، أو ذكر المعنى الإجمالي لآية، أو ذكر فائدة متعلّقة بالآية، أو السؤال عن نظائرها القرآنية، أو مشابهاتها اللفظية... أو نحو ذلك من وجوه المدارس، وبما يتناسب مع سنّ الطلاب ومستواهم، ووقت جلسة القرآن ونظامها.

٩. الترتيل وتحسين الصوت بالقرآن: وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبيٍّ حسن الصوت بالقرآن، يجهر به»^(٢). وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنَّ من أحسن الناس صوتاً بالقرآن: الذي إذا سمعتموه يقرأ: حسبتموه يخشى الله»^(٣). ولازم هذا كله تنزُّل الرحمة على قارئ القرآن، وإجزال الثواب له، وقبوله وتقريبه، وخصوصاً إذا كان حسن الصوت به. والله أعلم.

١٠. التدبُّر والتفاعل مع المقروء بحضور القلب وسؤال الرحمة، والمغفرة،

(١) ينظر: تفسير الرازي (١/ ٧٠).

(٢) أخرجه البخاري بهذا اللفظ (٧٥٤٤)، كتاب التوحيد؛ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم الماهر بالقرآن مع الكرام البررة، ومسلم (ح ٧٩٢؛ كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن).

(٣) قال الألباني (أصل صفة الصلاة ٢/ ٥٧٥-٥٧٦): «هو حديث صحيح. جاء من وجوه مختلفة؛ مرسلًا وموصولًا». ثم أفاض في ذكر تلك الطرق؛ عن ابن عباس وابن عمر وجابر وعائشة رضي الله عنهن؛ ثم قال: «فهذه شواهد وطرق يقوي بعضها بعضاً؛ فهو صحيح أو حسن لغيره، ولعله لذلك جزم البخاري به؛ فعلقه في "أفعال العباد" (٨١) مجزوماً به».

والاستعاذة، والجواب والشهادة.... ونحو ذلك^(١). وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: «قمتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبدأ فاستاك، ثم توضعاً، ثم قام يصلي وقمتُ معه، فبدأ فاستفتح البقرة؛ لا يمرُّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمرُّ بآية عذاب إلا وقف يتعوذ...» الحديث^(٢).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «صليتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة؛ فافتتح البقرة؛ فقلتُ: يركع عند المائة، ثم مضى فقلتُ: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلتُ: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها؛ يقرأ مترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ...»^(٣).

قال السيوطي: «وتسنُّ القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، وبه تشرح الصدور، وتستتير القلوب... وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأمر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب»^(٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿تَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]؛ قال: «هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها»^(٥).

ومن لطائف اللغة ما أشار إليه الجوهري؛ بقوله: «والتلاوة سُمِّيَتْ

- (١) انظر لمزيد من التفصيل والتوضيح: «وقف التدبر معناه وصوره وأحكامه»: للباحث.
- (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٠٥/٣٩: ح ٢٣٩٨٠)، وأبو داود (٨٧٣)، والنسائي (ح ١١٣٢)، وغيرهم، وصححه الألباني في أصل صفة الصلاة (٥٠٩/٢-٥١٠).
- (٣) رواه مسلم (ح ٧٧٢)؛ كتاب صلاة المسافرين وقصرها؛ باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل.
- (٤) الإتيان (٦٧٨/٢).
- (٥) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٢١٨/١: برقم ١١٦٠)، وانظر: تفسير القرطبي (٢/٤٨٤).



أمنية؛ لأنَّ تالي القرآن إذا مرَّ بآية رحمة تمنَّاها، وإذا مرَّ بآية عذاب تمنى أن يُوقاه»^(١).

١١ . ١٢ . الدعاء والاستشفاء، وسيأتي تفصيلها في المطلب الثاني.

المطلب الثاني

الاستثمار الدعوي لرحمة القرآن

الداعية الحقُّ محتاجٌ لكلِّ ما من شأنه ترقيق القلوب واستمالتها، يودُّ لو أنَّ الحقَّ يصل إلى كلِّ أحدٍ، وينتفعُ به كلُّ إنسانٍ، فيترفق في التبليغ، ويتلطَّف في التبيين، ولا يدَّخر جهداً في سبيل تحقيق ذلك. وأعظمُ شيءٍ أثراً، وأحلاه بياناً هو القرآن؛ قال تعالى: ﴿لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، فإذا علم أنَّ الرحمة من أخصِّ أوصاف القرآن الكريم، تبصَّر بأمور فيها استنزال لرحمة القرآن، وتعرُّض لأثره البليغ. وبالأخذ بها يكتمل البناء العلمي والسلوكي للداعية، فإذا أخذها بحقها كان مرجوًّا أن يحصل له أثر رحمة القرآن بإذن الله، وأن يوضع له القبول في الأرض، فتفتَّح له قلوبُ العباد، وآفاقُ البلاد.

وفيما يأتي بيان بأهمِّ تلك الأمور:

(١-٤) النية، والمحافظة على حزه قراءة واستماعاً، والمحافظة على الأوراد القرآنية الموظَّفة بنية الاعتصام، والحرص على الطهارة قدر الإمكان. وقد تقدَّم ذلك.

٥ . التمكن من علم القرآن وتقديمه: فمن أولى مهمات الداعية أن يجعل علم القرآن على رأس العلوم ومقدِّمها، فالقرآن هو رأس العلم، فمن

(١) تهذيب اللغة (١٥/٥٣٤).

لم يأخذ بحظّه من علم القرآن فلا يتخيّل أن يُعدّ في العلماء. ولا يُبرِّز طالب العلم الشرعيّ، ولا يتأهّل في أيّ فرع من فروعه إلا بقدر ما ينهل من علم القرآن؛ إذ هو الأصل المُقدّم على غيره.

وعن حذيفة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة»^(١). قال ابن حجر: «قوله: "ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة" كذا في هذه الرواية، بإعادة (ثمّ)، وفيه إشارة إلى أنّهم كانوا يتعلمون القرآن، قبل أن يتعلموا السنن، والمراد بالسنن ما يتلقونه عن النبي صلى الله عليه وآله واجباً كان أو مندوباً»^(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إذا أردتم العلم فآثروا القرآن؛ فإن فيه علم الأوّلين والآخريين»^(٣).

وقد يبالغ بعض الدعاة في الاهتمام ببعض فروع العلم، وبعلم الجدل والمناظرة، وحسن الإلقاء ومهارات الاتّصال الفعّال بالمدعويين... وغير ذلك من الأمور؛ وهو في الوقت نفسه لم يضرب بسهم في علوم القرآن، ولا نقصد التقليل من أهمية العلوم والفنون المذكورة؛ ولكنّ مقصودنا أنّها ليست مادة الأساس لبناء الداعية، فقد كان علماء السلف يُوصون طلاب العلم أن يبدؤوا بالقرآن الكريم، يتعلّمون حروفه ومعانيه، فإذا رآوا أنّهم قد حصلوا من ذلك قدرًا كافيًا نقلوهم إلى التخصّص؛ قال ابن

(١) متفق عليه: البخاري (ح ٦٤٩٧)؛ كتاب الرقاق؛ باب رفع الأمانة، ومسلم (ح ١٤٣)؛ كتاب الإيمان؛ باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، وعرض الفتى على القلوب.

(٢) فتح الباري (١٣ / ٣٩).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢ / ٦٢٢-٦٢٣ برقم ٧٦٣)، والفريابي في فضائل القرآن (ص ١٨١-١٨٢ برقم ٧٨)، وأبو عبيد في الفضائل (١ / ٢٧٦ برقم ٧٩). كما أخرجه غيرهم. وبعض طرقه على شرط الشيخين.



عبدالبر: «طلب العلم درجات ومناقل ورُتَب؛ لا ينبغي تعديها، ومن تعدها جُملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدى سبيلهم عامداً ضلَّ، ومن تعدها مجتهداً زلَّ. فأول العلم حفظ كتاب الله ﷻ وتفهمه، وكل ما يعين على فهمه فواجب طلبه معه. ولا أقول: إنَّ حفظه كله فرضٌ، ولكني أقول: إنَّ ذلك شرط لازمٌ على مَنْ أحبَّ أن يكون عالماً فقيهاً ناصباً نفسه للعلم»^(١).

وقال النووي: «وينبغي أن يبدأ من دروسه على المشايخ، وفي الحفظ والتكرار والمطالعة بالأهم فالأهم، وأول ما يبتدئ به حفظ القرآن العزيز، فهو أهمُّ العلوم، وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن. وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما، اشتغالا يؤدي إلى نسيان شئ منه، أو تعريضه للنسيان»^(٢).

وقال ابن تيمية: «وأما طلب حفظ القرآن، فهو مُقدِّمٌ على كثير مما تسميه الناس علماً، وهو إما باطل أو قليل النفع. وهو أيضاً مُقدِّمٌ في التعلم في حق من يريد أن يتعلم علم الدين من الأصول والفروع، فإن المشروع في حق مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن فإنه أصل علوم الدين»^(٣).

ولا يستفيد الداعية من اتباع هذا المنهج علماً يستكثرُ به فحسب؛ وإنما يستفيد مما اختصَّ به القرآن من رحمةٍ تُفتحُ بها القلوب، وتُقدح بها الأبواب، ويُتحرى بها التوفيق، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَٰلِكَ لِرَحْمَةٍ وَذِكْرٍ

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٢٩).

(٢) المجموع (١/ ٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٥٤).

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ [العنكبوت: ٥١] أي: تتلوه وتقرؤه عليهم، وأنت لا تقرأ ولا تكتب، فكفاك ذلك لو عقلوا^(١). والمعنى: أو لم يكف هؤلاء المشركين يا محمد؛ القائلين: لولا أنزل على محمد ﷺ آية من ربه، من الآيات والحجج أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب يتلى عليهم؛ يقرأ عليهم؟ إن في هذا الكتاب الذي أنزلنا عليهم لرحمة للمؤمنين به، وذكرى يتذكرون بما فيه من عبرة وعظة^(٢). فانظر إلى موقع الرحمة من الآية الكريمة مؤكدة حافة بمن آمن به، وألقى السمع له وهو شهيد. وكان النبي ﷺ يُكثر قراءة القرآن في خطبه، لا سيما الجمعة، فعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله عنها قالت: «ما حفظت (ق) إلا من في رسول الله ﷺ، يخطب بها كل جمعة»^(٣).

ولا يعني الاكتفاء بالقرآن أن تترك السنة، فالسنة شارحة له ومفسرة، ومفصلة لمجملة. وقد صحت بذلك الآثار، وإنما المقصود أن يكتفى به في مقام الدعوة، وبما تبعه من سنة وعلم شرعي عن كثير من الكلام الفلسفي، والجدل العقيم الذي لا يُثمر علماً، ولا ينبني عليه عمل، وإنما قصار متعاطيه أن يتشتت في أودية الجدل، ويضل في غياهب المراء.

٦. إحكام الأدلة: وعلى قدر تحصيله لعلوم القرآن يتمكن من إحكام الأدلة القرآنية، وما اتصل بها توضيحاً وتفصيلاً. وإحكام الأدلة أربعة أركان؛ الأول: القدرة على إيراد الأدلة في مواطن الاستشهاد الصحيحة، والثاني: استيعاب أدلة المسألة، والثالث: إحكام الدليل ضبطاً واستحضاراً، والرابع: إحكام البيان عند إلقائها وعرضها.

(١) تفسير يحيى بن سلام (٢/ ٦٣٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٨/ ٤٢٨).

(٣) أخرجه مسلم (ح ٨٧٢) كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة. وانظر زاد المعاد (١/ ٤٢٣-٤٢٤).

وفي هذا استنزال للرحمة بالداعية والمدعويين؛ لأنَّ في إحكام الدليل عصمةً من سوء الفهم، وقطعاً للشبهات والريب، وحسماً للتردد والذبذبة بين الحقِّ والباطل. ففي إحكام الدليل عصمةٌ من الشبهات، وشفاءٌ من الشهوات.

٧. نبذ الخلاف في القرآن والإعراض عن الخوض فيه بغير علم:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِنَكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سَمَّى اللهُ، فاحذروهم»^(١).

وعن جندب رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «اقرأوا القرآن ما اختلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»^(٢).

والرحمة والخلاف المذموم لا يلتقيان، ولا يجتمعان في صعيدٍ واحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرَالُونَ مَخْلِفِينَ﴾ (١٨) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٦٦٥) كتاب العلم؛ باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن.

(٢) أخرجه البخاري في مواضع منها (ح ٥٠٦٠، ٥٠٦١)، باب اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم، ومسلم (ح ٢٦٦٧) كتاب العلم؛ باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن.

الزَّيغ، وسواءً كان الدعاء بعد: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] ممَّا دعا به الراسخون في العلم، فحكى الله قولهم، أو كان تعليمًا من الله ﷻ للمؤمنين أن يدعوا بهذا الدعاء^(١). فهو مما وفقَّ الله ﷻ إليه، وأراده للراسخين في العلم من عباده أهل القرآن، فسؤال الرحمة بعد التحفُّظ من الزَّيغ جارٍ على سَنَنِ الْحَقِّ؛ إذ قضى ﷻ برفع الرَّحمة عن أهل الاختلاف والزيغ.

والواجب على المسلمين عمومًا، والداعية خصوصًا، أن يتجنَّب المرء والشقاق والخلاف رجاء حصول رحمة القرآن، فينال المدعويين نصيبهم منها.

٨. الدعاء بالرحمة لنفسه وللمدعويين:

وينتزعُ مما سبق أن من أكد الأمور استنزالاً لرحمة القرآن الدعاء بها للنفس، وللمدعويين، ولعموم المؤمنين، وحبذا أن يلتزم الداعية نصَّ الآية فيدعو: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلْمِيعَادُ﴾ [آل عمران: ٨-٩]، ويلتزم النصَّ المأثور عن النبي ﷺ؛ قال «ما قال عبدٌ قطُّ؛ إذا أصابه هم أو حزن: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهب همي؛ إلا أذهب الله همه،

(١) قال ابن عطية (المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤): «يحتمل أن تكون هذه الآية حكاية عن الراسخين في العلم، أنهم يقولون هذا مع قولهم: «أمنًا به»، ويحتمل أن يكون المعنى منقطعًا من الأول لما ذكر أهل الزيغ وذكر نقيضهم، وظهر ما بين الحالتين؛ عقب ذلك بأن علم عباده الدعاء إليه في أن لا يكونوا من الطائفة الذميمة التي ذكرت، وهي أهل الزيغ».



وأبدله مكان حزنه فرحاً». قالوا: يا رسول الله؛ ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات؟ قال: «أجل، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»^(١).

فبدأ بإظهار غاية التذلل والصغار، ونهاية العجز والتسليم والافتقار، ثم توسل بأسماء الله الحسنى جميعها ما عُلِمَ منها وما لم يُعَلَم، وهي متضمّنة للاسم الأعظم، الذي لا تردُّ به دعوةٌ، فجعل كل ذلك مقدّمةً للرجاء، ووسيلةً لإجابة الدعاء بأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلبه. وقوله (ربيع قلبي) تحتمل معاني:

الأول: أن يكون المقصود زمان الربيع؛ لأنَّ الإنسان يرتاح قلبه في الربيع، ويستروح به، ويميل إليه، كما أنَّ الربيع سبب ظهور آثار رحمة الله ﷻ، وإحياء الأرض بعد موتها، كذلك القرآن سبب ظهور تأثير لطف الله من الإيمان والمعارف، وزوال ظلمات الكفر والجهل والهرم.

والثاني: أن يكون الربيع مكاناً، فهو منتزهٌ ومرعىٌ يُنتفعُ بأنواره وأشجاره وثماره المشبّه بها أنواع العلوم والمعارف وأصناف الحكم والأحكام واللطائف^(٢).

والثالث: الربيع: الجدول والنهر الصغير^(٣)، فتكون مادة القرآن للقلب، كمادة الجدول للزرع والنبات.

وعلى كل؛ فهو دعاءٌ أن يجعل قلبه مرتاحاً إلى القرآن، مائلاً إليه، راغباً في تلاوته وتدبّره، واستذكاره وتعاهده ومُدرّسته، وفهم معانيه، والعمل بأوامره، والازدجار بزواجه.

(١) أخرجه أحمد (ح ٣٧١٢)، وغيره، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح ١٩٩).

(٢) ينظر: الكاشف عن حقائق السنن (١٩١٠/٦)، ومشكاة المصابيح (٤٤٤/٨)، ومرقاة المفاتيح (١٧٠١/٤).

(٣) ينظر: لسان العرب مادة ر ب ع (٤٥ / ٤).

وكان مالك بن دينار يقول: «يا أهل القرآن؛ ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب، كما أن الغيث ربيع الأرض»^(١).

٩. الاستشفاء بالقرآن من الأمراض التي تعرض للداعية والمربي:

يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. ففي القرآن شفاء لما في الصدور من الشك والنفاق والخلاف والشقاق والغل والحسد والشح والجهل، يشفي به الله جهل الجهال؛ فيبُرى به داءهم، وذلك أن داء الجهل أضرُّ للقلب من داء المرض للبدن، فالمزيل له أجل شفاءً وأعظمه موقعاً، والقرآن بحمد الله مزيل للجهل، وكاشف لعمى القلب، وقال أهل العلم: لا داء أعظم من الجهل، ولا دواء أعزَّ من دواء الجهل، ولا طيب أقل من طيب الجهل، ولا شفاء أبعد من شفاء الجهل^(٢).

وأمرض القلوب لا تتحصر، يمكن أن يعرض للمُربي والداعية منها شيء غير قليل، فمن ذلك العُجب الذي قد ينتج عن كثرة الأتباع أو ظهور ثمره العمل، ومنها الجزع بعكس ذلك، ومنها ضيق الصدر بما يتعرَّض له من مشاق، والحزن على حال بعض المتعلمين والمدعوين من اللامبالاة، والانصراف عن الهداية، ومنها الغضب من تحوُّل بعض المتعلمين أو المدعوين إلى غيره، وانصرافهم عنه، فإن استجرى به هذا الداء استحال حسداً مذموماً... إلى غير ذلك.

ومن رحمة الله بعباده أهل القرآن الداعين إلى هديه: أن القرآن شفاء لما في الصدور من هاته الأمراض والأدواء، فلا يلبث قلب صاحبه أن يعود محلاً طاهراً صالحاً لحلول الرحمة به، ونزول السكينة فيه.

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٥٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٩٣-١٩٤)، والبسيط للواحدى (١١/ ٢٢٨)، وتفسير السمعاني

(٢/ ٢٨٩)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٥٢)، ومحاسن التأويل (٦/ ٣٥).

المطلب الثالث

نموذج تطبيقي مقترح لتقويم استثمار رحمة القرآن وتعاهده وقياس أثره

جاء هذا المطلب كمحاولة لتقريب مضمون البحث تطبيقياً وسلوكياً، فقد قمتُ باستخلاص هذا النموذج من المادة العلمية النظرية للبحث، بحيث يمكن الاسترشاد به في تقويم النفس وتعاهدها للوقوف على مدى تخلُّقها بالأخلاق والسلوكيات التي هي مظنة حصول رحمة القرآن الكريم.

وقد حرصتُ على إعداد هذا النموذج لعدة أسباب؛ من أهمها:

١. قناعتي بأنَّ المضمَّنَ النظريَّ الذي انتهى إليه البحثُ حريٌّ بنقله من حيز التنظير إلى حيز التطبيق.

٢. أنَّ استخلاص مكنون البحث مُجزأً في صورة سلوكيات بسيطة فيه تيسيراً لمن أراد العمل والافتداء.

أني لمستُ في نفسي استفادةً جمَّةً من تطبيق تلك السلوكيات على المستوى الشخصي، وعند تطبيقها على بعض حفظة القرآن الكريم^(١)؛ والله الحمدُ والمنَّةُ؛ فأردتُ أن يستفيدَ منها المسلمون كافةً، وخصوصاً من يعملون بحقل التربية القرآنية، وبحقل الدعوة الإسلامية.

وعليه؛ فيمكن أن يستفيد من هذا النموذج كلُّ مسلم حريص على القيام بحقوق القرآن، وفي المؤسسات التربوية لحثِّ الطلاب على انتهاز هذه السلوكيات، وقياس مدى اقتدائهم بمعلميهم، وتقويم الارتباط

(١) جديرٌ بالذكر أننا قد أجرينا تجربة مبدئية لاختبار هذا النموذج على مجموعة من الطلاب، وقد حصلنا -بفضل الله ﷻ- على نتائج مُبشرة. ونجري الآن تجربة منضبطة علمياً وإحصائياً، باستخدام نموذج مُطوَّر من النموذج الأوَّلي المقترح على مجموعة من الدارسين بأكاديمية تأهيل المحفِّظين، ومجموعة أخرى من طلاب الحلقات من أعمارٍ مختلفة. ولم أتطرق لذكر النتائج المتحصَّل عليها، لكونها خارج نطاق هذا البحث من جهة، ولكونها لم تكتمل بصورة نهائية مُحكَّمة من جهة أخرى. والله المستعان.

الإيجابي بين القيام بهذه السلوكيات، وبين المخرجات التربوية العلمية والعملية كمًّا وكيفاً؛ كمظهرٍ من مظاهر تأثير القرآن العظيم.
أولاً: النموذج الأولي المستخلص مُصمَّمًا في صورة تصلح للتقويم والتعاهد:

| م | السلوك | التقويم | | |
|----|--|---------|--------|------------|
| | | نعم | غالبًا | أحياناً لا |
| ١ | أستحضر نية استنزال رحمة القرآن عند الشروع في القيام بحق من حقوقه. | | | |
| ٢ | أستحضر نيّة الاعتصام بالقرآن عند الشروع في القيام بحق من حقوقه. | | | |
| ٣ | أستحضر نيّة الاستشفاء بالقرآن عند الشروع في القيام بحق من حقوقه | | | |
| ٤ | أحافظ على تحزيب القرآن قراءةً. | | | |
| ٥ | أحافظ على تحزيب القرآن استماعاً. | | | |
| ٦ | أحافظ على عرض ورد من القرآن بانتظام. | | | |
| ٧ | أحافظ على مدارس ورد من القرآن بانتظام. | | | |
| ٨ | أحافظ على تدبر ورد من القرآن بانتظام. | | | |
| ٩ | أحافظ على الأوراد القرآنية الموظفة بنية (اتباع السنة/ استنزال الرحمة/ الاعتصام/ الاستشفاء). | | | |
| ١٠ | أحرص على الوضوء قبل الشروع في القيام بحق من حقوق القرآن الآتية (الاستماع/ القراءة/ المدارس/ العرض/ التعلم/ التعليم/ التدبر). | | | |
| ١١ | أستوئق قبل الشروع في القيام بحق من حقوق القرآن الآتية (القراءة/ المدارس/ العرض/ التعلم/ التعليم/ التدبر). | | | |



| | | | | | |
|--|--|--|--|---|----|
| | | | | أحرص على نظافة المكان قبل الشروع في القيام بحق من حقوق القرآن الآتية (الاستماع/ القراءة/ المدارس/ العرض/ التعلم/ التعليم/ التدبر). | ١٢ |
| | | | | أحرص على الاستعاذة والبسملة قبل الشروع في التلاوة؛ مستحضراً معناهما. | ١٣ |
| | | | | أحرص على حسن الترتيل والأداء وتزيين الصوت عند التلاوة. | ١٤ |
| | | | | أحرص على التفاعل مع المقروء بحضور القلب وسؤال الرحمة والمغفرة والاستعاذة والجواب والشهادة والترديد ونحو ذلك. | ١٥ |
| | | | | أحرص على الدعاء بالمأثور فيما يتعلق بالقرآن. | ١٦ |
| | | | | أحرص على التمكن من علم القرآن وأقدمه على غيره من العلوم. | ١٧ |
| | | | | أحرص على إحكام الأدلة القرآنية في المواقف الدعوية؛ بالقدرة على إيراد الأدلة في مواطن الاستشهاد الصحيحة. واستيعاب أدلة المسألة، وإحكام الدليل ضبطاً واستحضاراً، وإحكام البيان عند إلقائها. | ١٨ |
| | | | | أحرص على استيعاب أدلة المسائل في المواقف الدعوية. | ١٩ |
| | | | | أحرص في المواقف الدعوية على إحكام الأدلة ضبطاً واستحضاراً. | ٢٠ |
| | | | | أحرص على إحكام البيان عند إلقاء الأدلة وعرضها في المواقف الدعوية. | ٢١ |
| | | | | أحرص على نبذ الخلاف في القرآن وترك المراء فيه. | ٢٢ |

| | | | | | |
|--|--|--|--|----|--|
| | | | | ٢٣ | أحرص على عدم اتباع متشابهاته المعنوية. |
| | | | | ٢٤ | أحرص - قدر الإمكان - على دعوة الناس وتعليمهم رحمة القرآن ومكوناتها وسبل استزنها. |

ثانياً: كيفية الاستخدام الأمثل للنموذج:

١. يقوم المُربّي أو الداعية بإعداد المادة العلمية لهذا البحث في صورة مُحاضرة أو دورة علمية، أو غير ذلك من الصُّور المناسبة لطبيعة الجمهور المستهدف، ثمَّ يُلقيها بإحدى طُرُق العرض المناسبة.
٢. بعد أن يتأكّد من استيعابهم لها نظرياً بدرجة مناسبة، وقبل أن يُطلعهم على نموذج التقويم والتعاهد - يطلب منهم استخلاص السلوكيات العملية، التي يُمكن من خلالها استثمار رحمة القرآن الكريم، وقد يستخلصون سلوكيات مناسبة غير موجودة بالنموذج؛ فليعمل على إضافتها بعد أن يتأكّد من تعلقها الواضح بالموضوع.
٣. يُعدُّ النموذج في صورته النهائية، ويقرؤه عليهم؛ موضِّحاً المراد بالمصطلحات التي قد تكون غامضةً على بعضهم؛ حتى يرى أنّهم قد علموا المطلوب تماماً، ويُناقشهم في الأسباب التي تُعين على المحافظة على القيام بكلِّ سلوكٍ منها، وكيفية علاج الأمور المثبطة عن ذلك.
٤. يقوم الدارسون بتقويم أنفسهم مبدئياً، ليعرف مدى التزامه الحالي بهذه السلوكيات. ويمكن حساب نسبته كميّاً بصورة تقريبية؛ بإعطاء ثلاث درجات على كلِّ إجابة ب (نعم)، ودرجتين على كلِّ إجابة ب (غالباً)، ودرجة على كلِّ إجابة ب (أحياناً)، ولا شيء للإجابة ب (لا).



٥. يقوم الدارسون بتعاهد أنفسهم كل فترة زمنية؛ ليُقوموا مدى التزامهم بهذه السلوكيات، ويقوموا الأثر الإيجابي الملموس الناتج عن الالتزام بها.



الخاتمة

أولاً: أهم النتائج:

- أ. صفة الرحمة من أخصّ صفات القرآن الكريم. وقد وُصف القرآن بأنه رحمة صراحة أو إشارة - في ست عشرة آية، أفردت في ثلاثٍ منها، واقتربت بعشر صفات أخرى في ثلاث عشرة.
- ب. تنوّعت جهات وصف القرآن الكريم بالرحمة، وإضافةً إلى الوصف الصريح والضمني؛ ويمكن تلخيص بعض وجوه رحمة القرآن التي توصل إليها البحث فيما يأتي:
 ١. أنه تنزيل من الرحمن الرحيم.
 ٢. أنه نزل على موصوفٍ بأنه رحمة للعالمين، وأنه رحمة للمؤمنين.
 ٣. أنه متضمّن للهدى والإرشاد الصالح لهداية مَنْ وُفق للأخذ بأسباب الهداية.
 ٤. أن مَنْ وُفق للأخذ بأسباب الهداية موعودٌ برحمة الله في الآخرة.
 ٥. أنه نزل بلسان عربيّ مبين.



٦. أنه واضح الدلالة بين المراد في جملته، فمن أخذ بأسباب فهمه لم يخفَ عليه معناه.

٧. أن المعاني المجملة والقدر المفصل، الذي لا يستقيم الإيمان إلا بفهمه، ولا تقوم دعائم التوحيد إلا على تبين مراده، لا يُعجز عن نقله إلى أي لسان بأبسط عبارة، وأتم معنى.

٨. أنه بيان كل شيء من الحلال والحرام والأمر والنهي، وسائر ما يفتقر إليه البشر في صلاح معادهم، وأصول صلاح معاشهم.

٩. أن الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، تُثنى فيه فتعاد وتبدي بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة؛ لتستقر في القلوب، فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب.

١٠. أنه مبين لمواضع الخلاف، حاكم فيه بما يرفعه وينفيه، فيحصل به الاجتماع لمن جعل الحق بغيته، ولم يتبع هواه. ومعلوم أن الخلاف والرحمة لا يجتمعان.

١١. أن حصول البصيرة به مُرَّشَّحٌ لصاحبه المزيد منها، فتتكوّن له ملكة في استبصار الحق والتهيؤ له، واستبصار الباطل، والإعراض عنه؛ حتى يصير ذلك له خلقاً وسجيةً ينطبع عليها انطباعاً، بعد أن كان يتخلّقها تكلفاً وتعملاً.

١٢. أنه بصائر بتنوع طرق الدلالات ومسالكها، بما يناسب اختلاف المخاطبين، وتفاوت ملكاتهم.

١٣. أنه فصولٌ مشتملةٌ على أنواع العلوم والمواعظ، ففيه رحمةٌ تنويع وتثنية.

١٤. أنه نزل مفصلاً منجماً، ففيه رحمةٌ تيسير.

١٥. أنه فُضِّلَ على علم بما يُصلح العباد، ففيه رحمةٌ مراعاةً المناسبة. إذا كان بمعنى فصلناه على علم بما يصلح العباد.

١٦. أنه فُضِّلَ إعلامهم أن لا يأتون بمثله، ففيه رحمةٌ تظمين بصدقِ المرسل به، فلا يتركون نهباً للشك في صدقه.

١٧. أنه موعظةٌ متنوّعةٌ على خطاب العقل والعاطفة، فلا يحصل بها إفراطٌ ولا تفريطٌ.

١٨. أنه عصمةٌ من رءوس الآفات والفتن.

١٩. أنه شفاءٌ من أمراض القلوب والأبدان.

٢٠. أنه ذكرى، وغيره الآيات التي جاءت بها الرُّسل، لم يشاهدها إلا مَنْ حضرها، فلم تتجدد لهم بها الذكرى، ولم تحصل أصلاً لمن لم يحضرها إلا إخباراً، وإنما يكمن الإعجازُ الموصل إلى تمام اليقين في حضورها ومشاهدتها عياناً. وأما القرآن فتجدد به الذكرى لقارئه كلما قرأه، فبقي ذكرى صالحة لكل زمان ومكان، وهو في هذا يختلف عن الآيات والمعجزات الأخرى.

٢١. أنه في كونه آيةً ومعجزةً يختلف عن المعجزات الأخرى، التي جاء بها الرسل في أنه لم يقع معه للمكذابين عذابٌ استتصال، على عكس المعجزات السابقة، التي كان يصاحبها غالباً وقوع العذاب والهلاك في الدنيا للمكذابين بها، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى.

٢٢. أنه بشري، ومن تمام الرحمة أن ينظر: المنعم بعين عقله في مآل نعيمه فيعلم أنه دائمٌ غير منقطع، فإن لم يتحقق له ذلك استحال نعيمه، شقاءً، فالبشرى بدوام حصول الرحمة من



تمام الرحمة. والبشرى رحمة في العقبى آجلة محققة، إذ كان المَبشِّر صادقاً.

٢٣. أنه تصديق لما بين يديه من الكتاب؛ لأنَّ خروج الكُتُب من مشكاة واحدة أدعى للتصديق به والإذعان له والإيمان به، فتحصل الرحمةُ بذلك.

٢٤. أنه تفضل من الله ابتداءً.

٢٥. أنه مفضل مهيمٌ على ما بين يديه من الكتاب، وأنَّ الله فضلَّ النبيَّ الذي أنزل عليه، وفضلَّ الأمة التي أنزل إليها، وفضلَّ منهم أهل القرآن ونسبهم إلى نفسه. ومَن كانت تلك منزلته فهو أدخلُ الناس في الرحمة، وأحراهم بتغشيتها إيَّاه.

٢٦. أنه ميسرٌ بلسان قارئه وتاليه.

٢٧. أنه ميسرٌ في حفظه واستظهاره واستحضاره.

٢٨. أنه ميسرٌ في تعاehده.

٢٩. أن العمل بمقتضاه يسيرٌ في الجملة على عموم البشر.

٣٠. أن القرآن لا يملُّ ولا يخلق على كثرة الردِّ، ولو كان كذلك لم يُضمن استمرار كونه رحمةً.

٣١. أن الله ﷻ قد تكفل بحفظه، ولو أوكل حفظه إلى البشر لكان فيه مشقة عليهم. ولو أوكله إليهم لحرفوه كما حرف من كان قبل من أهل الكتاب، فلم يضمن استمرار كونه رحمةً.

ت. من السبل القيِّمة لاستئزال رحمة القرآن واستجلاب بركته: القيام بحقوقه عامَّةً؛ باتِّباع أمره، واجتناب نهيه، والتصديق

بخبره، والنصح له... ونحو ذلك. كما أن هناك حقوقاً خاصةً تُستسقى بها رحمة القرآن؛ ككثرة تلاوته واستماعه، والاعتصام به، والاستشفاء به، ومدارسته.

ث. لَمَّا كانت الرحمةُ من الصفات التي يحصل بها التأثير القرآني - الذي هو أحد أوجه إعجازه - فإنه يُمكن استثمار رحمة القرآن تريبياً ودعويّاً من خلال الاهتمام بتصحيح النيّة واستحضار نيّة استنزال رحمته، والحرص على التأدّب بآداب تلاوته ومدارسته، والعكوف عليه فهماً وتدبُّراً، وتقديمه على غيره من العلوم، وإحكام أدلّته، والدعاء به، والاستشفاء به من الأمراض التي تعترض المريّ والداعية.

ج. اقترح الباحث نموذجاً أولياً لتقويم استثمار رحمة القرآن وتعاهده وقياس أثره.

ثانياً: أهم التوصيات:

- أوصي نفسي والمهتمين بعلوم القرآن وعموم المسلمين باستثمار هذه الصفة القرآنية الجليلة، وسلوك سُبُل استمطارها واستنزالها، واستثمارها تريبياً ودعويّاً في تزكية النفوس وتهذيبها، ودعوة الخلق إلى الحقّ.
- كما أوصي بالاهتمام بعقد الفعاليات العلميّة لبيان صفات القرآن الكريم وخصائصه، وتوضيح معانيها ودلائلها، وتقريب علمها وتطبيقها إلى العامّة والخاصّة.
- من الموضوعات العلمية التي مسّها الباحث في هذا البحث وغيره: ارتباط الإعجاز التأثريّ للقرآن الكريم بمجموعةٍ من صفاته،



ويقترح الباحث دراسة هذا الموضوع دراسة مفصلة على منهج هذه الدراسة. ويتوقع الباحث أن من شأن هذه الدراسة تفسير بعض جوانب الإعجاز التأثري للقرآن، وتيسير الاستمساك بمضمونها السلوكي والعملي.

- قدّم البحث نموذجاً للتقويم والتعاهد الشخصي، يقترح تطويره وتطويره في دراسات تجريبية مُحكّمة، ومحللة إحصائياً؛ لبيان الارتباط الإيجابي بين السلوكيات، التي يُرجى من خلالها استئزال رحمة القرآن، وبين المخرجات التربوية والدعوية العلمية والعملية كما وكيفاً.

هذا وما كان من توفيق فمن الله، وما كان من خطأ أو تقصير فمن نفسي وبذنبي، وأسأل الله الرحمن الرحيم أن يرحمنا، وأن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يتوب علينا، وأن يُبصرنا بالحق ويرزقنا اتّباعه، وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، وأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا، وجلاء همومنا وأحزاننا، وأن يجعلنا من أهل الله وخاصته. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



فهرس المصادر والمراجع:

١. الإتقان في علوم القرآن، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد، ١٤٢٦هـ.
٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - تفسير أبي السعود، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣. الأسنى في شرح الأسماء الحسنى، أبو عبدالله محمد بن أحمد ابن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ)، دار الصحابة للتراث؛ طنطا، ط ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
٤. إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت ٣٨٨هـ)، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد - د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط ٣.
٥. الإفصاح عن معاني الصحاح، يحيى بن هبيّرة الذهلي الشيباني، أبو المظفر، عون الدين (ت ٥٦٠هـ)، تحقيق: فؤاد عبدالمنعم أحمد، دار الوطن، الرياض، ١٤١٧هـ.
٦. إكمال المعلم بفوائد مسلم، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤هـ)، دار الوفاء، مصر، ط ١؛ ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٧. بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي (ت ٣٧٥هـ)، تحقيق: على معوض - عادل عبدالموجود - د. زكريا التوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١؛ ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.



٨. البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١؛ ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٩. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
١٠. تفسير ابن أبي حاتم؛ عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي (ت ٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
١١. تفسير ابن كثير؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ط ٢؛ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٢. تفسير البيضاوي، ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١؛ ١٤١٨هـ.
١٣. تفسير الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، (ت ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١؛ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
١٤. تفسير الخازن، أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد الشيعي المعروف بالخازن (ت ٧٤١هـ)، اعتناء: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١؛ ١٤١٥هـ.
١٥. تفسير الرازي - التفسير الكبير، فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، المطبعة البهية المصرية، ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.
١٦. تفسير الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، مُحَقَّق ومُنشور من أوَّل الكتاب حتَّى آخر سورة المائدة في عدة رسائل علمية في السعودية ومصر.

١٧. التفسير البسيط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، أصل تحقيقه في خمس عشرة رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، أشرفت على نشره عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ط ١؛ ٤٣٠هـ.
١٨. تفسير السعدي - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
١٩. تفسير السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني (ت ٤٨٩هـ)، ياسر بن إبراهيم، دار الوطن، الرياض، ط ١؛ ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٢٠. تفسير الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط ١، ٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٢١. تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، أبو محمد عبدالله بن وهب ابن مسلم المصري القرشي (ت ١٩٧هـ)، تحقيق: ميكلوش موراني، دار الغرب الإسلامي، ط ١؛ ٢٠٠٣م.
٢٢. تفسير القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١؛ ٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٢٣. تفسير النسفي، أبو البركات عبدالله بن أحمد النسفي (ت ٧١٠هـ)، تحقيق: يوسف علي بدوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط ١؛ ٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٢٤. تفسير مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ)، تحقيق: د. عبدالله محمود شحاته، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت. ط ١، ٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.



٢٥. تفسير عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ)،
دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت،
ط ١: ١٩٤١هـ.

٢٦. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ)،
تحقيق: عبدالسلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف
والترجمة، ١٣٨٤: ١٣٨٧هـ - ١٩٦٤: ١٩٦٧م.

٢٧. التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين عبدالرؤف المناوي (ت
١٠٣١هـ)، عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢٨. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبدالله النمري
القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الزيات-
دار ابن حزم، بيروت، ط ١: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٩. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، محمد
ابن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: شعيب
الأرنؤوط - عبدالقادر الأرنؤوط، دار العروبة - الكويت، ط ٢:
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٠. الداء والدواء، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت
٧٥١هـ)، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي - زائد أحمد النشيري،
دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط ١: ١٤٢٩هـ.

٣١. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد
ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي ببيروت، ط ٢،
١٣٩٩هـ.

٣٢. شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، تقي الدين
أبو الفتح محمد بن علي بن وهب، المعروف بابن دقيق العيد (ت
٧٠٢هـ)، مؤسسة الريان، ط ٦: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٣. شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣.
٣٤. شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.
٣٥. الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، القاضي أبو الفضل عياض ابن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٣٦. صحيح البخاري، الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دار ابن كثير؛ دمشق - بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٣٧. صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة ط١، ١٤١٢ - ١٩٩١.
٣٨. غرائب التفسير وعجائب التأويل، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم الكرمانى، ويعرف بتاج القراء (ت نحو ٥٠٥هـ)، دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن - بيروت.
٣٩. غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، ط١؛ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
٤٠. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، بترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار التقوى للتراث بالقاهرة، ٢٠٠٠م.
٤١. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط١؛



١٤١٤هـ.

- ٤٢ . فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد بن عبدالواحد الخياط، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ٤٣ . قوت المغتذي على جامع الترمذي، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: ناصر بن محمد الغريبي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٢٤هـ.
- ٤٤ . الكاشف عن حقائق السنن، شرف الدين الحسين بن عبدالله الطيبي (ت ٧٤٣هـ)، د. عبدالحميد هنداي، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، ط ١؛ ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ٤٥ . كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية؛ بيروت، ط ١؛ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٤٦ . كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي - د. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م.
- ٤٧ . لسان العرب، أبو الفضل ابن منظور، عناية وترتيب مجموعة من المحققين، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣-٢٠٠٣م.
- ٤٨ . مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- ٤٩ . المجموع شرح المهذب، أبو زكريا يحيى بن شرف الدين النووي (ت ٦٧٦هـ)، تحقيق وتكملة: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، المملكة العربية السعودية.
- ٥٠ . محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد القاسمي (ت ١٣٢٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية،

بيروت، ط ١؛ ١٤١٨هـ.

٥١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق ودراسة: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود- الشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٥٢. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ)، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٥٣. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٥٤. مدارج السالكين، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣؛ ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٥٥. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن علي بن سلطان محمد الهروي، الملا القاري (ت ١٠١٤هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ١؛ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٥٦. المسند، الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٥٧. معاني القرآن، أبو الحسن سعيد بن مسعدة المعروف بالأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، تحقيق: د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١؛ ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٥٨. معاني القرآن الكريم، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، مركز إحياء



التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ط ١؛ ١٤٠٨ هـ.

٥٩. معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت ٣١١هـ)، شرح وتحقيق: د. عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٦٠. معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٦١. معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٦٢. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

٦٣. نظم الدرر في تناسب الآيات والسُّور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٦٤. النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، اعتناء: السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية - مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

٦٥. الهداية إلى بلوغ النهاية، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني القرطبي (ت ٤٣٧هـ)، مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي؛ جامعة الشارقة، بإشراف أ. د. الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة؛ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية؛ جامعة الشارقة، ط ١؛ ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٦٦. وقف التدبر معناه وأنواعه وأحكامه، محمود بن عبدالجليل روزن، مكتبة العلوم والحكم، مصر، ط ١؛ ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.

٦٧. المفردات في غريب القرآن؛ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف
بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي،
دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، ط ١: ١٤١٢هـ.



علاقة الرحمة بمفهومَي القوة والعزة

إعداد:

د. مبروك بهي الدين رمضان
كرسي الأمير سلطان بن عبدالعزيز
للدراسات الإسلامية المعاصرة
كلية التربية - قسم الدراسات الإسلامية



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

إن رحمة الإسلام عظيمة وكبيرة وواسعة، وفي الوقت نفسه هي رحمة عاقلة، رحمة قوية واعية، تبصر الموطن المستحق لها، فتنتشر فيها، لا تسمح بهضم حقوق المسلم، فلا يكون قوياً شديداً بحيث يُنسى الناس سماحة الإسلام ووسطيته، فيكسر فرعاً طرياً أو يذل عقلاً بسيطاً، بل رحمة القوة هي التي تجعله يدافع عن حقه، كما تدافع الأم الحنون عن أولادها بشراسة إذا احتاجت إليها، فإذا لم تحتج إلى شراستها وقوتها كانت على أصلها من الرحمة والحنان، وهذا هو المسلم «قوي في رحمته، رحيم في قوته»، فلا يكون ضعيفاً مخذولاً، لأنه علموه أن هذه من آثار الرحمة، ولا كذلك يكون كحجر الصوان، لا ينفعه الماء إذا نزل عليه.

ولقد انفردت صفة الرحمة في القرآن الكريم بالصدارة، وبفارق كبير عن أي صفة أخلاقية أخرى، فجاءت صفة الرحمة بمشتقاتها ثلاث مئة وخمس عشرة مرة، مما يفسّر لنا أهميتها في منهج الإسلام.

إن الرحمة سمة هذا الدين في كل جانب من جوانب الحياة، في عقيدته وشريعته، في أخلاقه وعباداته، ومعاملاته وعقوباته، فهي رحمة

امتدت لتشمل الدنيا والآخرة، ولكل زمان ومكان، عندما يستشعر البشر معالم هذه الرحمة، وتترجمها إلى واقع حي في حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية...

كما أن الإسلام دعوة في سبيل الله بالرحمة، وفي الوقت نفسه دفاع عن الشريعة بالقوة، فالله ﷻ أرشد نبيه ﷺ إلى أهمية اللين وعدم الغلظة، لاجتماع الناس على الكلمة الحق، وفي الوقت نفسه قوة في الحق.

ولكن الخلل يتكون عند بعض المسلمين من كونه يتبنى مفهوماً واحداً أعجبه من جهة الإسلام، أو تحت ضغط الإرهاب والتخويف من الإسلام، فيعتقد أن تسليط الضوء على رحمة الدين هي الدعوة الحقبة بعيداً عن قوته وحزمه، وهذا خطأ فادح يؤدي إلى اختلال المفاهيم، وقلب موازين العدل، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران].

إِنَّ مِنَ الْقُوَّةِ ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ، وَرُسُوحُ الْقِيَمِ فِي الْفَرْحِ وَالشَّدَةِ وَالْحَزَنِ وَالْأَلَمِ، مَعَ الصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ، وَالْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

قال القرطبي^(١) (٦٧١هـ): "دَلَّتْ آيَةُ عَلَى أَنَّ كُفْرَ الْكَافِرِ لَا يَمْنَعُ مِنَ الْعَدْلِ مَعَهُ، ...".^(٢)

ومن وصايا النبي ﷺ: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، فأتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً...».^(٣)

ولقد فعل مشركو مكة برسول الله ﷺ ما فعلوا، آذوه، حاصروه، اتهموه،

(١) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، كنيته أبو عبدالله، ولد بقرطبة، وهو يُعد من كبار المفسرين، وكان فقيهاً ومحدثاً، ورعاً وزاهداً متعبداً، انتقل إلى مصر في شمال أسبوط حتى توفي ٦٧١هـ.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤٧٨/٦.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيره، ١٢٥٧/٣ برقم ١٧٢١.



كذبوه، أخرجوه، ثم شهروا سيوفهم ليقتلوه. وتمرّ السنون، ويعود رسولُ الله ﷺ إلى مكة فاتحاً، فلم ينتقم، ولم يفعل معهم، كما فعلوا معه ﷺ، لأن الرحمة والصفح والعفو عند المقدرة من سلسلة أخلاق الإسلام المتتابعة، وهي من عزة لا من ضعف، وهي رحمة القوة وقوة الرحمة.

وتأتي أهمية طرح دراسة تتناول علاقة القوة بالرحمة والعزة في الإسلام ضرورة ملحة، لبيان الخلل في فهم مدلولات الرحمة وعلاقتها بالقوة، لا سيّما في ظل الاتهامات الباطلة للإسلام، اتهامات تجمع بين النقائص في التشدد والغلظة والضعف والخور، من خلال (المنهج التحليلي)، ويتضمن (التفسير والنقد والاستنباط) في تأصيل مفهوم الرحمة، وتحليل بعض نصوصها المرتبطة بمفهوم القوة والعزة، لتوضيح مشكلاتها، وانكشاف مبهماتُها، لتبدو بصورة واضحة متكاملة، وعلاقتها بالقوة، ومتى تكون الرحمة قوة، والقوة رحمة، وعلاقتها بالضعف، مستندا فيها إلى الأصول والثوابت العلميّة المقرّرة للوصول إلى النتائج، التي يهدف لها البحث.

وإن كان هناك دراسات كثيرة طُرحت لتأصيل أخلاقيات الإسلام، ومن أبرزها (خلق الرحمة)، ومنها التي تضمنها الجهاد النبوي لأعداء الله، إلا أن الكثير منها قد انصب على إثبات أن الإسلام لم ينتشر بالسيف - وهو أمر مهم-، لكننا نرى من المهم إبراز جانب رحمة القوة، وقوة الرحمة، كونه أحد جوانب التوازن الفطري في الإنسان.

وجاء تناول موضوع "علاقة الرحمة بالقوة والعزة" مشاركة من كرسي الأمير سلطان بن عبدالعزيز للدراسات الإسلامية المعاصرة في مؤتمر الرحمة بجامعة الملك سعود، كلية التربية، قسم الدراسات الإسلامية، وذلك من خلال مقدمة مختصرة، ثم التعريف بمصطلحات العنوان، وعلاقتها بالموضوع، ثم مبحثين وخمسة مطالب، المبحث الأول: الرحمة في الإسلام

لا تعني الضعف، وفيه مطلبان: الأول: خطر الخلط بين الرحمة والضعف، والثاني: خطر تنزيل أحكام الضعف على الرحمة، المبحث الثاني: القوة في الإسلام لا تعني الشدة والتشدد والإرهاب. وفيه ثلاثة مطالب: الأول: الرحمة والإحسان قوة وعزة، والثاني: رحمة القوة في تطبيقات الدعوة، والثالث: قوة الرحمة في تطبيقات الجهاد. ثم تعقيب على بعض شبهات المرجفين حول غلظة الإسلام والمسلمين، ثم خاتمة تشمل على أهم النتائج والتوصيات، ثم فهرس الموضوعات المصادر والمراجع.

سائلًا الله ﷻ التوفيق والرشاد .

أولاً: التعريف بمصطلحات الموضوع:

١. الرحمة:

أ. تعريف الرَّحْمَةِ لغةً: «الرَّاء والحاء والميم أصل واحد، يدل على: الرقة والعطف والرافة، رحمه يرحمه، إذا رَقَّ له، وتعطف عليه، والرُّحْم والمرحمة والرَّحْمَة بمعنى^(١).

والرحمة: رِقَّة القلب وعطفه، وقد تطلق الرَّحْمَة، ويراد بها ما تقع به الرَّحْمَة، كإطلاق الرَّحْمَة على الرِّزْق والغيث.^(٢)

ب. تعريف الرَّحْمَة اصطلاحاً: تأتي الرحمة في استعمالات كثيرة منها: ”الرحمة رِقَّةٌ تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تُستعمل تارة في الرِقَّة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة،.. والرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الأدميين رقة وتعطف..“^(٣)، وهي: ”رِقَّة في النفس، تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه..“^(٤).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (رحم) ٣/٣٩٨.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، (رحم)، ٦/١٢٥.

(٣) مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني، (الرحمة)، ١/٣٤٧.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٦/٢١.



ويعرفها بعضهم بأنها: إرادة إيصال الخير^(١)، كما عُرفت بأنها: خُلق مركب من الود والجزع. ولا تكون إلا لمن تظهر منه لراحمه خلةً مكروهة، فالرحمة هي محبة للمرحوم مع جزع من الحال التي من أجلها رُحم^(٢).

قال ابن القيم^(٣) (٧٥١هـ): "إن الرحمة صفةٌ تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه وشقت عليها. فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس من شق عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك، فمن رحمة الأب بولده: أن يُكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلته رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفقه ويريحه"^(٤).

قال الكفوي^(٥) (ت ١٠٩٣هـ): "الرحمة حالة وجدانية، تعرض غالباً لمن به رقة القلب، وتكون مبدأً للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأ الإحسان"^(٦).

٢. القوة لغةً واصطلاحاً:

أ. تعريف القوة في اللغة: القوة من (قوى)، القوة نقيض الضعف، والجمع قُوى وقوى بضم القاف وكسرهما، ويكون ذلك في البدن والعقل، كما أن

(١) التعريفات، الجرجاني، ص ١١٠.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، ١٦٣/٦.

(٣) ابن قيم الجوزية (٦٩١هـ: ٧٥١هـ) من علماء المسلمين في القرن الثامن الهجري وصاحب المؤلفات العديدة، عاش في دمشق، ودرس على يد ابن تيمية الدمشقي، ولازمه قرابة ١٦ عاماً وتأثر به. انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، لأحمد بن عبد الوهاب النويري. ٢٦٥/٣٢.

(٤) إغاثة اللهفان، ابن القيم، ١٧٤/٢.

(٥) أيوب بن موسى الحسيني القريني الكفوي، أبو البقاء: كان من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء في (كفه) بتركيا، وبالقدس، وبغداد. وعاد إلى إستانبول، فتوفي بها، ودفن في تربة خالد. وله كتب أخرى بالتركية، انظر: الأعلام، للزركلي، ص ١٨٦-١٩٢.

(٦) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ص ٤٧١.

(القوة) هي الخصلة الواحدة من قوى الحبل، وقيل هي: الطاقة الواحدة من طاقات الحبل، أو الوتر، ويقال: ليس أي قوة أي: أي طاقة.^(١)

ب. تعريف القوة في الاصطلاح: لا تنحصر القوة في هذا نطاق ضيق ولا تحبس بين جدران الماديات، وإنما تشمل قوى هائلة، مادية، كما في تعريف ابن عاشور: "كمال صلابة الأعضاء لأداء الأعمال، التي تراد منها"^(٢).

ومعنوية لأنها: "مصدر الحركة والعمل، ومنه قوة الروح، وقوة الإرادة، وقوة التفكير"^(٣)، فهي: القوى الباعثة والفاعلة والعاقلة والمفكرة والحافظة والعقلية^(٤).

٣. العِزَّةُ لغةً واصطلاحاً:

أ. تعريف العِزَّةُ لغةً: عَزَّيْعُزٌّ وَعِزٌّ، وأصل المادة: (ع، ز، ن)^(٥)، عَزَّيْعُزٌّ: إذا اشْتَدَّ وَقْوِي، وبالكسر للمضارع: إذا قَوِيَ وامْتَعَّ، وبالضَّم: إذا غَلَبَ وَقَهَرَ. ويقال: عَزَّ فلانٌ، أي: صارَ عَزِيْزاً، أي: قَوِيَ بعد ذلَّة. وَعَزَّ الشَّخْص: قَوِيَ وَبَرِيَ من الذَّلِّ^(٦).

ب. تعريف العِزَّةُ اصطلاحاً: تنوعت تعريفات العِزَّة، وإن كانت تدور حول معانيها المترادفة، قال الراغب (٥٠٢هـ): "حالة مانعة للإنسان من أن يُغْلَبَ"^(٧)، وقال الغزالي (٥٠٥هـ): "من رزقه الله القناعة،

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ص ٣٧٨٧ والقاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ١٧١٠ ومختار

الصحاح، الرازي، ص ٥٥٨ والمصباح المنير، للفيومي، مادة: (قوى)، ١٨١/٢.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٠/٤٤.

(٣) انظر: المعجم الفلسفي لجميل صليبا: ٢: ٢٠٢-٢٠٣. دار الكتاب اللبناني. ١٩٨٢ م.

(٤) التعريفات، للجرجاني، ٢٣١-٢٣٢. وانظر التعاريف للمناوي، ٥٩٢-٥٩٣.

(٥) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: ٤/٣٨.

(٦) انظر: تاج العروس، للزبيدي: ١٥/٢١٩، الصحاح: للجوهري: ٣/٨٨، ومقاييس اللغة: لابن فارس:

٤/٣٨-٣٩. لسان العرب: لابن منظور: ٥/٣٧٤-٣٧٥.

(٧) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٢٣٣.



حتى استغنى بها عن خلقه، وأمدّه بالقوة، والتأييد حتى استولى بها على صفات نفسه، فقد أعزه الله في الدنيا، وسيعزه في الآخرة بالتقريب إليه^(١)، وقال الكفوي (١٠٩٤هـ) العزة: ”الغلبة الآتية على كلية الباطن والظاهر“ (وهذا في جناب الله تعالى)^(٢).

وقيل: العزّة: القوّة والغلبة والحميّة والأنفة^(٣)، وقيل: العزّة: التّابّي عن حمل المذلة، وقيل: التّرفّع عمّا تلحقه غضاضة^(٤).

والعزة في كلام العرب لا تخرج عن معان ثلاثة: (أحدها: بمعنى الغلبة، والثاني: بمعنى الشدّة والقوّة، والثالث: أن يكون بمعنى نفاسة القدر)^(٥).

٤. الضعف لغةً واصطلاحاً:

أ. تعريف الضعف لغة: الضاد والعين والفاء أصلان متباينان، يدل أحدهما على خلاف القوّة، ويدل الآخر على أن يزداد الشيء مثله. التي تدل على خلاف القوّة^(٦)، يقال منه: ضعف فهو ضعيف، والضعف بفتح الضاد لغة تميم، وبضمها لغة قريش، وقيل: الضعف (بالضم) في الجسد، والضعف (بالفتح) في الرأى والعقل، وقيل: هما معا جائزان في كل وجه^(٧).

ب. تعريف الضعف اصطلاحاً: الضعف وهن القوّة حساً أو معنى، وقيل: خلاف القوّة، ويكون في النفس، وفي البدن، وفي الحال^(٨)،

(١) المقصد الأسنى، الغزالي، ص ٤٧.

(٢) الكليات، الكفوي، ص ٦٣٩.

(٣) المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرين، ٥٩٨/٢.

(٤) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم؛ للسيوطي، ص: ٢٠٣.

(٥) زاد المسير في علم التفسير؛ لابن الجوزي: ١/١١٣ (بتصرف).

(٦) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، ٣/٣٦٢.

(٧) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ٩/٢٠٣، ٢٠٤، ط. بيروت، والصحاح، للجوهري: ٤/١٣٩٠،

والمصباح المنير، للفيومي، ١/١٢٧، مادة (ضعف).

(٨) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ص ٢٢٣، وانظر: كشاف اصطلاحات الفنون،

التهاوني، ٢/٨٨٧.

وقيل: الضعف ضد القوة في العقل والرأي، وبالضم في الجسم،
وبالكسر بمعنى المثل^(١).

ثانياً: علاقة الرحمة بالقوة والعزة والضعف:

تأتي علاقة هذه المصطلحات بموضوعنا كونها تمثل محور عناصره،
فقوة الحق لا تعني عدم الرحمة، ولقد جمع الله ﷻ بينهما، فقال تعالى:
﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فلا تمنع
الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن،
واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم، ونفعه عائدٌ إليهم^(٢).
وتأتي قوة الصدع بالحق بتوجيه مباشر، قال تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ
وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، فعندما يكون الأمر من الله فهو الرحمة
الكاملة، لأنه منهج الصلاح للناس جميعاً في الدنيا والآخرة.

إن الصدع بحقيقة هذه العقيدة؛ لا يعني الغلظة المنفرة، والخشونة!
كما أن الدعوة بالحسنى لا تعني الضعف، وكتمان جانب من حقائق هذه
العقيدة وإبداء جانب، وجعل القرآن عضين.. لا هذه ولا تلك.. إنما هو
البيان الكامل لكل حقائق هذه العقيدة، في وضوح جلي، وفي حكمة
كذلك في الخطاب، ولطف ومودة ولين وتيسير^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، فإن الغلظة لا تعني أنها طبع، ولكن
العدو يجد غلظة إن احتاج الأمر إلى غلظة. فإن لم يحتج الأمر إلى
غلظة؛ فلا بد أن يوجد في طبعك اللين والموادعة^(٤)، فإذا كان طريق القوة

(١) انظر: الكليات، للكفوي، ص ٥٧٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٢١٤-٢١٥.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢١٥٥/٤.

(٤) انظر: تفسير الشعراوي، الشعراوي، ١٣٩/٣.

وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً، لأن النبي ﷺ قال: "المؤمن القوي خَيْرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف" (١).

يقول العقاد (١٣٨٣هـ) (٢): "فكوني رحيماً هذا لا يعني أنني ضعيف، فالفرق بين الضعف والرحمة هو: أن الضعيف ترك حقه من ضعف ونفسه تريده وتتمناه وتم قهرها، فلا سبيل لها لأخذ حقها، والرحيم هو الذي تمكن من خصمه ثم عفا عنه رحمة به وشفقة على حاله، فالرحمة منبعها القوة، والضعف منبعه الجبن والهوان، وكون المسلم قوياً لا يستوجب أن يكون باطشاً، بل إن البطش يدل على النقص، بينما القوة هي حفظ النفس من العدو والتصدي له، ورفع الضعيف والدفاع عنه" (٣).



(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب الامر بالقوة وترك العجز، ٤/٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤.

(٢) عباس محمود العقاد، أديب ومفكر وصحفي وشاعر مصري، ولد العقاد في أسوان في، ١٣٠٦هـ، وتوفي في ١٣٨٣هـ، اشتهر بكتابه المتميزة ومن أشهرها العبقريات،، انظر: الموسوعة العربية، عبد الكريم محمد حسين، ص ٣٩.

(٣) عبقرية الصديق، العقاد، ص ٢٨.

المبحث الأول الرحمة في الإسلام لا تعني الضعف

إن الرحمة الشاملة الكاملة هي رحمة الله الغفور الرحيم، فقد عمت الكائنات جميعها، فما من موجود إلا وبرحمه الله يحيا، وفي ظلال هذه الرحمة الإلهية يعيش. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقال ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت، وإنها الدعوة للأوبة. دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال. دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله^(١)، دعوة لمن انحرف عن التوازن، فشط به هنا أو هناك، وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم.

ونتناول هذا المبحث من خلال مطلبين:

المطلب الأول خطر الخلط بين مفهومي الرحمة والضعف

إن صفة الرحمة من صفات الكمال، بخلاف الضعف، ولا نسلم بأن الضعف من معاني الرحمة، وإن ظن البعض ذلك لاقترانهما في حق كثير من الناس، مع أنهما متغايران من حيث الأصل، فليست الرحمة حناناً لا

(١) انظر: في ظلال القرآن، قطب، ص ٢٠٥٨.



عقل فيه، أو شفقة تتكرر للعدل والنظام، وإنما هي عاطفة ترعى الحقوق جميعها، تؤكد الانتصار على النفس، ونفي شبهات القسوة، كما أنها عز وقوة، قال رسول الله ﷺ «.. وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً..»^(١).
إن ادعاء أن الرحمة ضعف وخور، قول مردود نقلاً وعقلاً، وذلك من عدة وجوه:

أولاً: لأن الضعف والخوف مذموم من الأدبيين، والرحمة ممدوحة، وقد قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، وقد نهى الله عباده عن الوهن والحزن، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وندبهم إلى الرحمة، فقال النبي ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»^(٢) وقال ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»^(٣)، وقال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن»^(٤)، وقال ﷺ: «ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء»^(٥) وقال ﷺ: «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءُ»^(٦).

ومحال أن يقول قائل: لا ينزع الضعف والخور إلا من شقي! ولكن لما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور كما في رحمة النساء، ونحو ذلك، ظن الغالط أنها كذلك مطلقاً.

ثانياً: إذا كان الغضب غليان دم القلب بطلب الانتقام: فليس بصحيح

- (١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحياب العفو والتواضع، ٢٠٠١/٤ رقم / ٢٥٨٨.
- (٢) أخرجه الإمام أحمد، باب مسند أبي هريرة، ٣٧٨ / ١٣ - ٨٠٠١، وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٧٤٧٦ وابن تيمية في مجموع الفتاوى: ١١٧/٦.
- (٣) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ١٠/٨ - ٦٠١٢، ومسلم: في الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال، ١٨٠٨/٤ - ٢٣١٨.
- (٤) رواه الإمام أحمد، مسند عبد الله بن عمرو، ٣٣/١١ - ٦٤٩٤، وأبو داود، باب في الرحمة، ٢٨٥/٤ - ٤٩٤١، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٦٣٠/٢.
- (٥) رواه الترمذي، باب ما جاء في رحمة المسلمين، ٨٨/٣ - ١٩٢٤، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني: في صحيح الجامع رقم/ ٣٥٢٢.
- (٦) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾. ١٣٣/٩ - ٧٤٤٨.

في حق المسلم الصحيح، بل الغضب قد يكون لدفع المنافي قبل وجوده، فلا يكون هناك انتقام أصلاً^(١).

وإن كانت وصية رسولنا ﷺ «لا تغضب»^(٢)، فهي لا تعني أيضاً قبول الفواحش، ولهذا يذم من لا غيره له على الفواحش، ويذم من لا حمية له، يدفع بها الظلم عن المظلومين، ويمدح الذي له غيره، يدفع بها الفواحش، وحمية يدفع بها الظلم. وليعلم أن هذا أكمل من ذلك، فلا يغضب المسلم لنفسه، ولكن يغضب لغضب الله ﷻ ورسوله ﷺ.

وكيف لا يغار ويغضب المسلم والله ﷻ ورسوله ﷺ يغاران، قال ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»^(٣)، وقال ﷺ: «أتعجبون من غيره سعد؟! أنا أغير منه، والله أغير مني»^(٤).

ثالثاً: الرحمة ليست ضعفاً، وإنما هي غاية القوة، لأنها استعلاء على الحيوانية والبهيمية والظلمة الشهوانية، وكما أن القسوة جبن، فالرحمة شجاعة، ولا يؤتي الرحمة إلا كل شجاع كريم نبيل، ولا يشتغل بالانتقام والتكيل إلا أهل الصغار والخسة والوضاعة^(٥).

قال السعدي^(٦) (١٣٦٧هـ): وعلامة الرّحمة الموجودة في قلب

- (١) مجموع فتاوى، ابن تيمية، ٦/ ٢٣٩-٢٤٢ (بتصرف).
- (٢) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٨/ ٢٨-٦١١٦، ومسلم: في الفضائل، باب فضائل فاطمة، ٤/ ١٩٠٣-٢٤٤٩.
- (٣) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْرُقُوا الْفَوَاحِشَ﴾ ٦/ ٥٧رقم/ ٤٦٣، ومسلم: باب غيره الله تعالى، ٤/ ١١٤رقم/ ٢٧٦٠.
- (٤) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب من رأى مع امرأته رجلاً فقتله، ٨/ ١٧٣، رقم/ ٦٨٤٦، ومسلم: باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، ٢/ ١٣٦رقم/ ١٤٩٩.
- (٥) انظر: مفاهيم مغلوطة، الرحمة ضعف، د. مصطفى محمود، ص ٣٩ (بتصرف).
- (٦) انظر: السعدي، عبدالرحمن (١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ)، عبدالرحمن بن ناصر بن عبد الله. عالم ومفسر سعودي ولد في القصيم، السعودية. ترك عدة كتب نافعة، أبرزها تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، وكتبه قيمة محققة لا تخلو من الدخيل والغرائب. انظر: الموسوعة العربية، ص ١٢٩.



العبد، أن يكون محباً لوصول الخير لكافة الخلق عموماً، وللمؤمنين خصوصاً، كارهاً حصول الشر والضرر عليهم، فبقدر هذه المحبة والكرهية تكون رحمته^(١).

إن كل من له دراية بحقيقة القوة والعزة، وحقيقة الرحمة والإحسان: يعلم أنه لا تتعارض بين هذه الأحوال. فأين ما يمنع أن يكون القوي العزيز رحيماً محسناً؟! فهذه الحقيقة، لكن الخطأ أتى من جهة الخلط ما بين الرحمة والضعف، كما سبق بيانه، ونبين ذلك من خلال بيان خطورة تنزيل أحكام الضعف على الرحمة.

المطلب الثاني

خطورة تنزيل أحكام الضعف على الرحمة

نعم الضعف يتعارض مع القوة والعزة؛ لأنهما نقيضان، لكن الرحمة لا تتعارض معهما، إذ كنه الرحمة غير كنه الضعف، الرحمة: رقة القلب وحبه وتحركه بالإحسان، ناتج عن رجاء. أما الضعف: فجبن وخور، ناتج عن خوف وجزع. فشتان ما بينهما.

فالرحمة والإحسان عن قوة وعزة، أحسن منها عن ضعف وذلة، والضعيف يرحم، لكنك لا تدري، فلربما كان ضعفه سبب رحمته، وكثير من الضعفاء إذا تقووا انقلبوا جبابرة، لا يعرفون رحمة ولا إحساناً، فلم تكن رحمتهم إلا وصفاً عارضاً زال بزوال سببه، أما رحمة القوي العزيز فهو وصف لازم، وطبع وجبلة مستقرة، لا تغيرها الأحوال والتقلبات، وهكذا الإسلام يعلم وينشئ أفراداً: أقوياء، أعزاء، ورحماء.

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار، عبدالرحمن السعدي، ص ١٨٩.

ومع ذلك فالضعيف غير ممنوع من الرحمة، بل قد يرحم، لكن رحمته لن تكون كرحمة القوي، فأعظم الرحمة وأحسنها هي التي تكون عن قوة وعزة، فهذا ربنا جل شأنه: أعظم الراحمين، سمى نفسه ﴿الرَّحْمَنُ﴾، والرحمن هو الممتلئ رحمة، وسمى نفسه ﴿الرَّحِيمُ﴾، وكذلك: ﴿أَسَلَّمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾. وسمى نفسه جل وعلا: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، فهل أسماؤه جل وعلا متعارضة متناقضة؟ كلا، وحاشا، بل هذا الكمال عينه. كما أن فرقاً بين العفو بالرحمة وبين الذل، فالعفو: إسقاط حَقِّك جوداً، وكرماً، وإحساناً، مع قدرتك على الانتقام؛ فتؤثر الترك رغبة في الإحسان، ومكارم الأخلاق، بخلاف الذل، فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً، وخوفاً، ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشورى: ٢١] (١). ويتجلى الجمع بين الرحمة والقوة في أسماء الله ﷻ، إذ وصف نفسه جل وعلا بالرحمة، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، كما وصف نفسه جل وعلا بالقوة، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]، كما ارتبطت صفة القوة بالعزة.

ولا تناقض مع ذلك؛ لأنه يستعمل الشدة في أمر، ويستعمل الرحمة في آخر، إذن فمن الأولى أن يكون من أوجد الإنسان رحيماً وجباراً في الوقت ذاته، فهذه صفات تتكامل ولا تتناقض، وبتعدد آثارها في الكون، وفي أنفس الخلق على السواء.

إن المرأة التي يغشى عليها حين ترى جريحاً يتألم، ليست بأرحم على الجريح من الطبيب الذي يفتح جراحه ويزيده ألماً على ألمه، فالذين يزعمون أن الرحمة ضعف أو مرض، إنما يلتبس عليهم الأمر بين حالة

(١) انظر: الروح، لابن القيم، ص ٢٤١.



المرأة التي هي ضعف، وبين رحمة الطبيب التي هي قوة، لأنها حماية لضعف الآخرين^(١).

والرحيم الذي يقسو هنا لينفع بقسوته من لا تتفهم رحمته، إنما هو أرحم وأقدر على الرحمة، لأن رحمته لا تغلبه ولا تقوده غير واع ولا متدبر، حتى يصنع باسم الرحمة ما هو نقيضها، أو ما هو قسوة معيبة، فيما تنتهي إليه من الإيذاء.

وكفى بالرحمة أنها فتح إنساني في عالم الحياة، ترقى إليها الإنسان وحده بين المخلوقات الحية، وشابته فيها بمقدار ما صعدت بهم الطبيعة في مرتقاه.

وعندما يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]. إخبار من رب العالمين أن إرساله النبي ﷺ ما كان إلا رحمة للعالمين، فحصر سبب وعلة الإرسال في الرحمة؛ أي ليرحمهم بهذا النبي ﷺ: بما يدعو إليه من الدين، كما جعل الرحمة شاملة بقوله: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾، فلم تختص بالمسلمين وحدهم، بل عمت كل الخلق... فهل جاءت هذه الرحمة عن ضعف، أم جاءت من قوة وعزة.

وهل كان عفو النبي ﷺ عن الذين عادوه، وآذوه، وأخرجوه، وأخذوا ماله، هو وأصحابه، عندما أمكنه الله منهم ضعف أم دليل على أن الأصل هو الرحمة. إذ لو كان الأصل الانتقام لما عدل عنه، مع تمكنه من ذلك؟ إنها قوة الرحمة، وليست رحمة الضعف.

وهل كان إرجاء الحد على الغامدية التي جاءت معترفة بالزنا وترغب في تطهير نفسها، هل كان ضعفاً أم رحمة بالصغير حتى يفطم، ورحمة بالأُم حتى تراجع نفسها، فلما أصرت وأقيم عليها كانت توبتها رحمة بها،

(١) انظر: مجلة الرسالة، عباس محمود العقاد، العدد ٤٢٣، الرحمة قوة.

والحد عليها طهارة لها من ذنوبها .. هل كانت عن ضعف أم قوة الحق في الحدود، وقوة الرحمة في نفاذه؟.

يقول الرافي (١) (١٣٥٦هـ): "إن اللين في القوة الرائعة أقوى من القوة نفسها، لأنه يظهر لك موضع الرحمة فيها، والتواضع في الجمال أحسن من الجمال، لأنه ينفي الغرور عنه، وكل شيء من القوة لا مكان فيه لشيء من الرحمة، فهو مما وضع الله على الناس من قوانين الهلاك" (٢).



(١) مصطفى صادق الرافعي (١٢٩٨-١٣٥٦ هـ) عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب. أصله من طرابلس الشام، عاش ومات في مصر، أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به. وله الكثير من المؤلفات الأدبية الشهيرة. انظر: المنتخب من أدب العرب، ١/ ٥٥.

(٢) انظر: رسائل الأحزان، مصطفى صادق الرافعي، ص ١٢.

المبحث الثاني القوة في الإسلام لا تعني الشدة والتشدد والإرهاب

يتكون الخلل عند البعض من تبني مفهومًا حديًا جهة الإسلام، أو تبني فكرته تحت ضغوط (الميديا) لفكرة الإرهاب والتخويف من الإسلام، فيعتقد أن تسليط الضوء على رحمة الدين فقط هي الدعوة الحقة وحسب، بعيداً عن قوته وحزمه بالنفي المطلق عن القوة والحزم في الإسلام، وهذا يؤدي إلى اختلال المفاهيم، فالقوة: طلب الكمال من غير تكلف، وطلب اليسر من غير تقصير، وليس كل عنف جهاداً، وليس كل تشدد إسلاماً حتى لو تجلبب بجلباب الإسلام.

المطلب الأول الرحمة والإحسان قوة وعزة

سبق الإشارة إلى مفهوم العزة، ومن المهم هنا الإشارة إلى أن عزة المسلم هي التي ترتبط بالله ﷻ ورسوله ﷺ، فيعتز المرء بدينه ويرتفع بنفسه عن مواضع المهانة، فهو لا يريق ماء وجهه، ولا يبذل عرضه فيما يدنس، فيبقى موفور الكرامة، مرتاح الضمير، مرفوع الرأس، شامخ

العرين، سالمًا من ألم الهوان، متحررًا من رق الأهواء، ومن ذل الطمع، لا يسير إلا وفق ما يمليه عليه إيمانه، والحق الذي يحمله ويدعو إليه. (١)

ولأن الفهم الخاطئ قد يؤدي إلى انحراف خلقي، يَشِين طَبَعَ الإنسان وفطرته، يقول ابن القيم (٧٥١هـ) "وإذا انحرفت عن خلق العزة التي وهبها الله للمؤمنين؛ انحرفت إمَّا إلى كبرٍ، وإمَّا إلى ذُلٍّ، والعزة المحمودة بينهما" (٢).

إنَّ العزة أصل منشئها القوَّة والشدة، وأمَّا الذلُّ فمنشؤه الضعف والعجز (٣)؛ لأن الضعيف عاجزٌ والقوي قادر. (٤)، فالعزة تختلف عن الكبر من حيث الحقيقة، فصورة العزة تشترك مع الكبر في معنى القوة والشدة، وتختلف عنه في أمرين:

الأول: من حيث الدافع لهذه القوَّة والشدة والرفعة والمنعة؛ فالأول: إكرامُ النفس، وطلب مرضات الله ﷻ، والثاني: ازدراء الخلق، والتعالي عليهم، وإشباع رغبات النفس.

الثاني: أن العزة مقرونة بالعضو، والرحمة، والعدل، والإيمان، بخلاف الكبر: فإنه مقرونٌ بالتعالي، والظلم، والغرور. (٥)

قال تعالى: ﴿وَعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَنُذْلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فالله ﷻ هو المعز الحقيقي لمن يشاء إعزازه من البشر، بما يقيض له من الأسباب الموجبة للعض، كالقوة وحماية الذمار، ونصرة الحق، وكثرة الأعوان، ونفاذ الكلمة، وغير ذلك من الصفات التي تجعل الحاصل عليها عزيزًا.

(١) انظر: المهمة العالية، لمحمد الحمد ص ١٦٢ (بتصرف).

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، ٢/٣١٠.

(٣) تعني: منشؤها في قلب الإنسان؛ لا منشؤها من حيث الاستمداد أو المعطي لها.

(٤) وقد يقوى الضعيف، ويعجز القوي؛ ولكن الأصل ما ذكر.

(٥) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ١٠/٦٠٠.

قال القرطبي (٦٧١هـ): "فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر، ويدخل دار العزة، ولله العزة فليقصد بالعزة الله ﷻ والاعتزاز به فإنه من اعتز بالعبد أذله الله ومن اعتز بالله أعزه الله" (١).

فعن أبي هريرة (٥٧هـ) ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (٢). يقول النبي ﷺ لعقبة بن عامر (٥٨هـ) حين قال: يا رسول الله ﷺ، أخبرني بفواضل الأعمال؟ قال: يا عقبة: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك» (٣)، وفي رواية: «وأعرض عمن ظلمك» (٤).

وفي فتح مكة (٨هـ): قال ﷺ «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فقالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم. فقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم» وفي رواية: أنه قال لهم: «أذهبوا، فأنتم الطلقاء» (٥).

كان ﷺ يتمثل توجيه رب العزة له: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

وعندما اخطأ إخوة يوسف عليه.. فذاق بسببهم صنوفاً من المحن، وأنواعاً من الاضطهاد، عبودية ورق.. وسجن وظلم، وفرقة وشتات.. مع ذلك كله عندما تمكن منهم ما زاد إلا أن قال لهم: ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢].

يقول أنس (٩٣هـ) ﷺ: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه برد نجراني

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٢٣/١٤.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، ٢٠٠١/٤ رقم / ٢٥٨٨.

(٣) رواه الإمام أحمد، من حديث عقبة بن عامر الجهني، ٦٥٤/٢٨ رقم ١٧٤٥٢، وصححه إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم، ٨٥٩/٦.

(٤) رواه الإمام أحمد، من حديث عقبة بن عامر الجهني، ٥٧٠/٢٨ رقم ١٧٤٥٢، وصححه إسناده الألباني في صحيح الترغيب، ٣٣٩/٢.

(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، رزق الله، ص ٥٦٩.

غليظ الحاشية، فأدركه إعرابي فجبذه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ، وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعبء. (١)

عزة كونه رسول الله ﷺ، ويعلم الأعرابي أنه رسول الله ﷺ، وأن لديه ما يعطيه، وعفو فلم يؤاخذه بسبب جلافته وغلظه طلبه، وإحسان، فيأمر له بعبء.

ويقدم لنا رسول الله ﷺ صورة رائعة من صور العزة والإحسان في آن واحد، جسدها الصحابي عبدالله بن عبدالله بن أبي (١١هـ) وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه، فلا يدعه يدخل. تصديقاً لمقاله هو: ﴿لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضَ مِنْهَا الْأَذْلَ﴾ [المنافقون: ٨]، ليعلم أن رسول الله ﷺ هو الأعز، وأنه هو الأذل. ويظل يقفه حتى يأتي رسول الله ﷺ فيأذن له. فيدخلها بإذنه، ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز، ومن هو الأذل في الواقعة نفسها وفي الأوان ذاته.

ألا إنها لقمة سامقة تلك التي رفع الإيمان إليها أولئك الرجال، رفعهم إلى هذه القمة، وهم بعد بشر، بهم ضعف البشر، وفيهم عواطف البشر، وخوالج البشر.

وهذا هو من أجمل وأصدق ما في هذه العقيدة، حين يدركها الناس على حقيقتها، وحين يصبحون هم حقيقتها، التي تدب على الأرض في صورة أناسي، تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق. (٢)

وحينما اجتاحت موجة الحزن نفس أبي بكر (١٣هـ) ﷺ لما سمع من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب البرود والحملة والشملة، ١٤٦/٧ رقم / ٥٨٠٩ ومسلم: باب إعفاء من سأل بفحش، ٧٢٠/٢، رقم / ١٠٥٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، قطب، ٦ / ٣٥٧٨.

حديث الإفك، تلوكه بعض الألسن الأثمة، فتتال من ابنته عائشة أم المؤمنين (هـ) (٥٨هـ) ﷺ، آلى على نفسه أن يقطع عونه عن أولئك الجاحدين للفضل، ممن خاضوا في هذا الحديث الآثم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَيَصْفَحُوا أَلَّا تُحِبُّوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور] فغفا وأعاد العطاء ﷺ.

وعلى ضوء هذا التأسيس، يمكننا عرض أهم عناصر المطلب المتعلقة بفكرة عمومية الرحمة وشموليتها^(١).

المطلب الثاني

رحمة القوة في تطبيقات الدعوة

ربّى الإسلام أتباعه على حسن الخلق والرفق ولين الجانب وبشاشة الوجه التي تحبب صاحب الدعوة إلى الناس، وتقربهم منه، بخلاف الغلظة والعنف والخشونة في التعامل، فإنها تنفرهم منه، وتبغض الإسلام إلى قلوبهم، فيكون هذا الداعية الفظ الغليظ فتنة لهم لا رحمة. وتتجلى رحمة القوة في تطبيقات الدعوة في مواطن كثيرة، منها على سبيل المثال:

أ. التوازن الأخلاقي في رحمة القوة:

وهذا التوازن في الإسلام، فهو رحيم دون ضعف، متواضع بغير ذلة، محارب لا يفدر، سياسي لا يكذب، يستخدم الحيلة في الحرب، ولكن لا ينقض العهود والمواثيق، آمن خصومه بصدقه وأمانته، يجمع بين التوكل والتدبير، وبين العبادة والعمل، وبين الرحمة والحرب، وبين مهام الرسالة والأمور الشخصية.

(١) انظر: عموم الرحمة وعالمية الإسلام، أبو زيد المقرئ الإدريسي، ص ١٥/١٧.

ووجه العظمة يتجلى في الإسلام من خلال الموازنة، ضمن منظومة متناسقة متناغمة، تتشابك جميعها لتأدية أغراضها، فلا تتوسع صفة، أو تقوى على حساب أخرى، ولا تعمل إحداها ضد الصفة التي تقابلها.

الرحمة والرفق من أخلاق الإسلام والنبوة وآدابها، يمنح صاحبه الجمال، ويكسو أعماله به، ومن يحرمه حُرْم الخير كله. والرفيق من الناس هو كل هين لين قريب سهل، يألف الناس ويألفهم. قال ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير»^(١).

وعن عائشة (٥٨هـ) ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»^(٢).

وقال ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»^(٣).

والأحاديث والأخبار الواردة في الرفق لا حصر لها، ولم تقتصر على بني البشر من رجل وامرأة وطفل مسلم أم كافر، بل قد شملت كل الخلائق الحيوان والطير والشجر والجماد.

ولقد عايش العرب والعجم رحمة الإسلام، ورفقه بهم في الدعوة والمعاملة، كما أدركوا أنه رفق في عزة وكرامة، رفق ورحمة في قوة، لا عن ضعف وذلة، إنها رحمة من يقدر على الإقناع، ومن لا يقابل الجهل بالشدّة، بل بالحوار واللين وقوة البرهان وصدق الدعوة.

ب. من الرفق حسن الخطاب:

والآيات فيه كثيرة، منها: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ٤/٢٠٠٣ رقم/٢٥٩٢.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ٤/٢٠٠٣ رقم/٢٥٩٣.

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ٤/٢٠٠٣ رقم/٢٥٩٤.

يَقُولُوا أَلَيْهَا هِيَ أَحْسَنُ ﴿ [الإسراء: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ
إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المنكوت: ٤٦]، لأن اللين في الخطاب أدعى إلى إجابة
المدعويين أما المخاشنة لهم ربما تتفرهم عن الإجابة، أو أشد من ذلك من
وقوع التسابُّ والخصومة والعنف، وهو ما لا يرضاه الله. ولذلك أمر الله
رسوليه موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون بالرفق واللين في قوله:
﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [٤٤] [طه]، فإذا كان هذا رفق الله ﷻ
بمن يقول أنا الإله، فكيف رفقه جل وعلا بمن يقول لا إله إلا الله؟ إنها
رحمة الإسلام، التي لا تفرق بين أحد، لأنها رحمة عامة لكل البشر.

والقرآن الكريم يقرر بوضوح أن الخشونة والغلظة فتنة لا دعوة، فقد
خاطب الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا
الْقَلْبِ لَافْتَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
فهل يكون العفو إلا عن مقدره، والاستغفار إلا عن رحمة، والمشاورة
إلا عن تودد ومشاركة؟ ولا غرو أن نجد وصف حبيينا في كتاب ربنا، بأنه
أكثر الناس رفقاً، وألطفهم عشرة، يعفو عن المسيء، ويصفح عن المخطئ،
حتى وصفه مولاه ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ
مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة].

ج. قوة الرحمة في عالمية الدعوة:

إن بعث النبي رسلاً سفراء من أصحابه، وكتب معهم كتباً إلى الملوك،
يدعوهم فيها إلى الإسلام، قوة أم رحمة؟ أم قوة الرحمة ورحمة القوة؟
إنها رحمة بهم من تركهم في الضلال، وقوة في رحمة عند مخاطبة كل
هؤلاء الملوك والأباطرة والقياسرة، تؤكد أن الحق يمتلئ رحمة، متضمنة
القوة، إذ أرسله الله للناس كافة ورحمة للعالمين، فبعث إلى كل من: (قيصر
ملك الروم؛ وكسرى ملك فارس؛ والنجاشي ملك الحبشة، المقوقس ملك

الإسكندرية؛ وجيفر وعياد ابني الجلندي الأزديين ملكي عمان؛ وثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة؛ والمنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين؛ والحارث بن أبي شمر الغساني، ملك تخوم الشام، وجبله بن الأيهم الغساني، والحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن... واختلف جواب الملوك على كتب رسول الله ﷺ، فمنهم من آمن كالنجاشي، ومنهم من رد ردًا جميلاً كالمقوقس وهرقل، ومنهم من رد ردًا قبيحًا مثل كسرى الذي مزق الكتاب، وبعضهم قتل السفير. (١)

ويقول الإمام محمد أبو زهرة (٢) (ت ١٣٩٤هـ) في "العلاقات الدولية في الإسلام": "الأصل في العلاقات هو السلم... ولا يسمح الإسلام لأتباعه بالتدخل في شؤون الآخرين إلا لضرورة" (٣).

وهذه كلمة من المستشرق الإسباني جان ليك (١٨٣٢ - ١٨٩٧م) يقول فيها: "إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم بالسرعة نفسها التي نشروها بها سابقاً، إذا رجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حينما قاموا بدورهم الأول، لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع أن يقف أمام حضارتهم!!" (٤).

د. قوة الرحمة في تيسير الأحكام الشرعية:

وتتجلى رحمة الإسلام في يسر الأحكام الشرعية العملية، وهي خصيصة من خصائص التشريع الإسلامي، وصفة عامة للشريعة

- (١) انظر: زاد المعاد، لابن القيم، فصل في كتبه ورسله إلى الملوك، ج ١/ص ١١٩.
- (٢) محمد أحمد مصطفى أحمد المعروف بأبي زهرة، ولد في مصر، عالم ومفكر وباحث وكاتب مصري من كبار علماء الشريعة الإسلامية والقانون في القرن العشرين، توفي في ١٣٩٤هـ، انظر: نداء الإيمان، تاريخ الولوج، ص ١٠٢.
- (٣) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل، ص ٢٩.
- (٤) المستشرق الإسباني جان ليك، مستشرق أسباني، ولد ١٨٢٢م، وتوفي ١٨٩٧م، وكان شغوفاً بالكتابة واستطلاع التاريخ العربي، ومن كتبه كتاب (العرب)، انظر: كتاب العرب، ص ٤٣.



الإسلامية في أحكامها الأصلية التي تلزم المكلفين. قال الشاطبي^(١)
(٧٩٠هـ): "إن الشارع لم يقصد إلى التكليف بالشاق والإعانات فيه"^(٢).

والنصوص الدالة على ذلك كثيرة، كقوله ﷺ في بيان وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رَسُولَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ونصوص أخرى تبين ذلك صراحة كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا»^(٣) وقال ﷺ أيضاً: «إن الله ﷻ لم يبعثني معنتاً، ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً»^(٤)، ومن أنواع اليسر ما يسميه الأصوليون والفقهاء: اليسر التخفيفي، وهو ما وضع في الأصل ميسراً، غير أنه طرأ فيه الثقل بسبب ظروف استثنائية، وأحوال تخص بعض المكلفين، فيخفف الشرع عنهم من ذلك الحكم الأصلي، كأحكام المريض والمسافر وصلاة الخوف والمطر ونحوها^(٥)، وتفصيل ذلك يطول، والبحث يضيق عنه.

ومنه عن أنس (٩٣هـ) ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجاوز في صلاتي، مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»^(٦).

وانعقد الإجماع على عدم وقوع الحرج في التكليف، وهو يدل على عدم

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، من علماء الأندلس، كان من أئمة المالكية وشهد له العلماء بمآثره العديدة، انظر: الأعلام للزركلي، ص ١٧٦.

(٢) الموافقات، للشاطبي، ٢/ ١٢١.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ١/ ١٦، رقم/ ٣٩.

(٤) رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون... ٢/ ١١٠٤، رقم/ ١٤٧٨.

(٥) الموسوعة الفقهية الكويتية، مادة التيسير واليسر، ٣، ٢١١.

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، ١/ ١٤٣، رقم/ ٧٠٩.

قصد الشارع إليه، ولو كان واقعاً لحصل في الشريعة التناقض والاختلاف، وذلك منفي عنها، فإنه إذا كان وضع الشريعة على قصد الإعنات والمشقة، وقد ثبت أنها موضوعة على قصد الرفق والتيسير، كان الجمع بينهما تناقضاً واختلافاً، وهي منزهة عن ذلك.^(١)

هـ. قوة رحمة الإسلام في الوسطية أو الاعتدال والتوازن:

إن التوازن سمة الكون كله على اتساعه وضخامته، وهو سمة الإنسان السوي، الذي لم تتحرف فطرته، وسمة الإنسان الصالح المسلم، وثمره المنهج الموزون الذي وضعه خالق الكون، وخالق الحياة، وخالق الإنسان. والتوازن معنى واسع، يشمل كل نشاط الإنسان وطاقاته المتنوعة، فهو: "توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل، وطاقة الروح، توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته، توازن بين ضروراته وأشواقه، توازن بين الواقع والخيال، توازن بين الإيمان بالشهادة والإيمان بالغيب، توازن بين الفردية والجماعية، توازن في النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، توازن في كل شيء في الحياة"^(٢)

ولذلك يحرص الإسلام على تحقيق التوازن رحمة بالناس، واستدامته في كل صغيرة وكبيرة في حياتهم، وفي كل تشريع من تشريعاته، ويجعله سمة ثابتة وأصلية في منهجه، وهدف أساسي له يستتفر له كل طاقات الإنسان وقدراته^(٣)

و. قوة رحمة الإسلام في التسامح والعفو:

إن من معاني العفو: إسقاط الحق وترك المطالبة، يقال: عفوت عن فلان، إذا تركت مطالبته بما عليه من الحق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ

(١) انظر: الموافقات، الشاطبي، المسألة السادسة، ج ٢ / ص ١٢٢.

(٢) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ٢٩-٣٠.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٢١.



الغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ آل عمران: ١٣٤ ﴾، أي التاركين مظالمهم عندهم، لا يطالبونهم بها .

والعفو من معالي الأخلاق، وندب إليه الشرع، وحث عليه، والآيات والأحاديث في الترغيب بالعفو كثيرة، منها ما وصف الله به عباد الرحمن، فقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ فَاصِّحٌ فَاصِّحٌ الْجَمِيلِ ﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمَ فَمَا يَسْتَفْتِحُونَ ﴾ [الزخرف].

وخلاصة ذلك: إنها رحمة حقيقية، فلم تبق رحمة الإسلام مجرد تعاليم نظرية أو مواعظ جوفاء، بل ترجمها إلى الحياة العملية بدقة تدعو إلى التقدير، وتغري بالتدبر في أسرار هذا الدين العظيم، أما الصور والأمثلة في الإسلام فكثيرة جداً، وأحكامه تصدق أقواله، ولا تخالفها .

إن الرحمة التي ظهرت في كل أقوال وأعمال رسول الله ﷺ لم تكن رحمة مُتَكَلِّفَة، تحدث في بعض المواقف من قبيل التجمل أو الاصطناع، إنما كانت رحمة طبيعية تلقائية مُشَاهِدَة في كل الأحوال، برغم اختلاف الظروف، وتعدُّد المناسبات.. فترى رحمته ﷺ مع الكبار والصغار، مع الرجال والنساء، مع القريب والبعيد، مع الصديق والعدو.. مع البشر والحيوان والحجر، حتى يتعاطف مع جبل أُحُد، الصخر الأصم، ولا يريد للناس أن تتشائم منه لحدوث مصيبة للمسلمين عنده، ولا يريد لهم أن يكرهوه دون جريرة ولا جريمة، ومع جزع النخلة في مسجده، إنها رحمة عمومية شاملة، تشمل كل من يعيش على ظهر الأرض .

المطلب الثالث

قوة الرحمة في تطبيقات الجهاد "أمودجا"

إن نصوص الرحمة التي ذخر بها كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ تمثل أصلاً من أصول الإسلام، لا تعارض ولا تناقض نصوص القوة: القتال، والجهاد، وإرهاب العدو، وعلو الإسلام، والبراء من الكافرين، كما إن من مقاصد الشريعة من نظام الأمة أن تكون قوية مرهوبة الجانب مطمئنة البال^(١).

ومن مقاصد القوة بعناصرها وأنواعها وضوابطها، أن يتحقق للأمة الرحمة بالمؤمنين؛ فترحمهم وتكفلهم وتنصرهم في أي مكان كانوا، ولا تُسلمهم لعدو ولا معتد، والغلظة على المعتدين الظالمين الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق؛ فتردعهم، وتلجمهم، وتلزمهم غرزهم، بما توفر لها من مقومات شاملة للقوة، والله تعالى يقول: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، قال ابن كثير (٧٧٤هـ): "هذه صفات المؤمنين الكمل؛ أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعزراً على خصمه وعدوه"^(٢).

• إذا حصل على أنفسهم ظلم، فأولى بهم الصبر والإحسان، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٣٦].

• ويجب عليهم الوفاء، وعليهم الإثم إذا نقضوا، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية، لمحمد الطاهر ابن عاشور، ص ١٣٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣/ ١٣٦..



• ولا يبتدعون الكافرين بقتال ولا عدوان، بل بدعوتهم إلى الإسلام، فإن رغبوا البقاء على دينهم، فلهم ذلك، لكن لا يمنعون شعوبهم من سماع الإسلام، والدخول فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُقْبَلُ لَهُمْ عِنْدَ الْمُسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلُوهُمْ فِيهِ فَاِنْ فَتَلُوهُمْ فَاَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِيْنَ﴾ [البقرة: ١٩١].

• وإذا وقعت الحرب فعلى المسلمين أن يعاملوهم بأصل الرحمة حتى في المعركة، باجتناّب قتل الجريح، والضعيف، والشيخ، والمرأة، والطفل، ومن لم يقاتل، واجتناّب حرق المزارع، وهدم البيوت، وتخريب الممتلكات، وإذا وقعوا أسرى بأيديهم، فلهم أن يمنوا عليهم بالعمو والإحسان، قال ﷺ: «انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين»^(١).

ومن هنا يتبلور الفرق الجوهرى بين مفهوم الجهاد ومفهوم العنف، فإذا كان الأخير يعنى ممارسة الإيذاء والعدوان لأهداف مشروعة أو غير مشروعة. فإن الجهاد شرع من أجل دفع الظلم وردّ العدوان ومقاومة المعتدي. لذلك ووفق هذا المنظور، فإن حياة الأمة في جهادها. حيث إن الأمة التي لا تستكين على ظلم، ولا ترضى بالعدوان، فإنها أمة حية وقادرة على ممارسة الشهود الحضاري.

• ومن التوازن بين القوة والأخلاق في إظهار قوة الرحمة في العلاقات الدولية، لتؤكد أنه إذا كانت الحرب ضرورة، فلا يعنى الخضوع لغرائز الغضب والتعصب وإشباع نوازع الحقد والقسوة والأنانية. وإن سياسة الإسلام في الحرب كالمسلم، لا تجاف الرحمة، ولا تتفصل

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب الدعاء على المشركين، ٣/٢٧ رقم/ ٢٦١٤، وقال ابن حزم في المحلى: «لا يصح» وقال الألباني في ضعيف أبي داود «ضعيف» لكن لبعضه شاهد من حديث بريدة ﷺ، رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار، ٣/ ٢٢٤، وقال «صحيح».

عن الأخلاق، فالحرب لا تعني الفجور في الخصومة، ولا الجور في المعاملة، ولا الوحشية في القتال، ولا الانتقام والتشفي بعد القتال، كما قال ﷺ وهو يعلم المؤمنين، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [المائدة]، وإذا كان لا بد من الحرب، رداً لعدوانٍ أو دفعاً لفتنة، فلتكن حرباً تضبطها الأخلاق، وتحكمها الموازين، ولا تسيرها الشهوات والإحس، لتكن ضد الطغاة والمعتدين وذئاب البشر، لا ضد البراءة والمسلمين والمستضعفين، وهذا واضح في تشريع القتال في القرآن، ووجهته التي ارتضاها له عندما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة]، وبذلك غير الإسلام أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية قديمها وحديثها من النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوتر، وكبت الضعيف، وتخريب العمران، وتدمير البنيان، وهتك حرمان النساء، والقسوة بالضعاف والصبيان، وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد في الأرض، وهذا لا ينطبق على العرب، بل كان هذا حال الحروب عند الروم والفرس وجميع شعوب الأرض، بينما الحرب -في الإسلام- تتجه إلى تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية، وغايات محمودة، وتتقيد بأخلاق الرحمة وآداب الإنسانية.

ومظاهر وأدلة الرحمة كثيرة جداً، لكن المقصود: أنه إذا كانت الرحمة مطلوبة أولاً، وآخراً، وما بين ذلك، يعمل بها ابتداءً مع غير المسلمين، ويعمل بها حتى في حال الانتقام واسترجاع الحق، فهذا دليل على أنه أصل في الإسلام، ومن أخلاق المسلمين الأصلية، ثم ما يكون بعد ذلك



من جهاد، وقتال، وإرهاب للعدو، وبراء من الكافرين. فكل ذلك له ظرفه، وسببه، الذي لا ينافي الأصل، ولا يلغيه بحال.

إن نصوص الجهاد، وعلو الإسلام، والبراء: نصوص محكمة، قائمة، ماضية إلى يوم القيامة. لا يملك أحد أبداً نسخها، أو محوها، أو تعطيلها في هذا الزمن، أو تأويلها تأويلاً يبطل معناها. لا يملك أحد نفيها من أحكام الإسلام إلا في حالة واحدة: إذا استطاع محوها من القرآن. وهل يستطيع أحد أن يمحو شيئاً من القرآن؟^(١)

ولسنا بحاجة لأي شيء من ذلك، فليست عيباً نحتاج لطيه، ولا خطأ نسعى في تصحيحه، بل حق وعدل، فنصوص الجهاد والقتال والبراء إنما في حق المحاربين من الكفار، المحتلين البلاد، الذين اعتدوا وظلموا بغير حق، وسفكوا الدم الحرام، واستباحوا الأعراس والحرمان، وسلبوا الثروات والمقدرات، وتركوا الناس أذلاء محرومين، فهؤلاء الذين أزهبوا الناس، وروعوا الأمنين، والضعفاء، والصغار، والنساء، لا يظن بعاقل أن ينهى عن دفع أذاهم، وكف شرهم وعدوانهم، وتسمية هذه المقاومة والدفع (من البعض قصد التشويه) إرهاباً.

إن الفطرة، والعقل، والعرف، والشرع، وقوانين البشر.. كلها تجمع على أن للإنسان وللأمة كل الحق أن تدفع عن نفسها، وتسترد حقها بكافة الطرق، التي تضمن لها ذلك، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [المتحنة: ٨]، ومباشرة جاء التعقيب، وأردف جل وعلا التوجيه المباشر بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المتحنة: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

(١) انظر: إرهاب أم رحمة؟ د. لطف الله بن ملا عبدالعظيم خوجة، صيد الفوائد، ٩/٢٧٤١هـ.

الظالمِ أهلها وأجعل لنا من لدنك ولياً وأجعل لنا من لدنك نصيراً ﴿٧٥﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِيَّاهُ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿١١٠﴾ [البقرة].

فإذا كان القتال في حق المحاربين، دون غيرهم، فليس إذن هو الأصل، بل حالة مؤقتة ليست مستديمة، لأن الأصل لا بد أن يكون مستديماً، وهكذا هي الرحمة هي الأصل: مع المؤمن، وغير المؤمن.. للإنسان ولسائر المخلوقات.. في السلم، وحتى في الحرب: الرحمة حاضرة. في سائر الأوقات والأحوال، فما اتخذ صفة الاستدامة هو التحقيق بأن يكون أصلاً، دون ما اتخذ صفة المؤقت.

هذا هو فقه هذه النصوص، وهذا هو دين الإسلام، ثم إن أخل بعض المسلمين بشيء من هذا، فغلو في بعض أحكام الجهاد أو البراء، فجاهدوا في غير موضع الجهاد، وعاملوا المسلمين كالمحاربين، فهذه أخطاء لا تسلم منها أمة، فكل أمة لها تعاليم وقوانين، وفي كل أمة أفراد يسيئون فهم التعاليم وتطبيق القوانين، فلا يليق ولا يجوز إلصاق أفعالهم بتلك التعاليم، كما لا يجوز القول إن تلك التعاليم تتضمن تلك الأفعال والتطبيقات.

وهكذا ما يقع من بعض المسلمين من مثل تلك الأخطاء، ليس من الإسلام في شيء، كما أن طريقة البعض الآخر من المسلمين في إنكار فرائض: الجهاد، والبراء من المحاربين، وعلو الإسلام. كذلك ليس من الإسلام في شيء^(١).

والمتتبع لتاريخ الأمم والشعوب، يوقن أنه لم تعرف البشرية رحمة وإحسان في الحروب كالتي قام عليها المسلمون، وفاء بالعهد، وعدم الاعتداء، وعدم المثلة، والإحسان للأسرى، ويؤكد الله عز وجل على هذا

(١) انظر: إرهاب أم رحمة؟ د. لطف الله بن ملا عبد العظيم خوجة، صيد الفوائد، ٩/٤٢٧هـ.



الخلق العظيم بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا
الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل: ٩١]، فهو منهج
رباني، وخلق أصيل للمسلمين الحق. ويؤكد قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْتُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فلا اعتداء، ولا مثلة، ولا خيانة^(١).

ومن المواطن التي تتمثل فيها المعاني السامية لأخلاق الجهاد في سبيل
الله وآدابه كذلك ما يتعلق بمعاملة أسرى الحرب، فالإسلام دين يمنع قتل
الأسرى، بل ويأمر باتباع أكثر أساليب الرحمة والرفق معهم، والقرآن
الكريم يمتدح إطعام الأسير، والمسكين، واليتيم، بل ويعد ذلك عملاً من
الأعمال الصالحة، فيقول في محكم كتابه العزيز: ﴿ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْهٍ
مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان]، إنها الشريعة الإسلامية التي أقرت بحق
الأسير، قبل أن تصدعنا قوانين البشر بعبارات جوفاء لا تعمل بها.

ومن رحمة الإسلام أن يقدم حق الأبوين على حق الجهاد ولم يكن له أن
يجاهد تطوعاً إلا بإذنها، وذلك لقول رسول الله ﷺ: «ففيهما فجاهد»^(٢)؛
كما كانت وصية الخلفاء من بعده، ومنها قول عمر بن الخطاب (٢٣هـ) ﷺ
«اتقوا الله في الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب»^(٣) إنها
الرحمة والإحسان اللذان لا تعرفهما جيوش الغزو ومرترقة اليوم.

وهنا لا بد من التأكيد على أن أي جهاد يخرج عن المعاني السامية لأخلاق
وآداب الجهاد في الإسلام فهو جهاد مزعوم، إنما يندرج تحت مفهوم
الحرب، التي نراها اليوم بين الدول للسيطرة على مقدراتها الطبيعية، أو
كونها حرباً صليبية مقننة.

(١) الدعوة الإسلامية في عهدنا المدني، رؤوف شلبي، ص ٤٢٠.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد بإذن الأبوين، ٥٩/٤ برقم/

٣٠٠٤، ومسلم، باب بر الوالدين وأنها أحق به، ١٩٧٥/٤، برقم/ ٢٥٤٩.

(٣) الجهاد في الإسلام، محمد متولي الشعراوي، ص ١٧١.

إن هذه التربية أخرجت زرعها يانعاً، وأثمرت للبشرية أمة هي خير أمة أخرجت للناس، أمة رحيمة متسامحة مشفقة على البشرية حريصة على هدايتها، أمة شهد لها التاريخ ورموزه من غير المسلمين به في كتبهم وخواطرهم حول الإسلام، ومنها: يقول كاستري^(١): "إن المسلمين امتازوا بالمسألة وحرية الأفكار في المعاملات، ومحاسنة المخالفين"^(٢).

ويقول الفرنسي جوستاف لوبون^(٣): "إن القوة لم تكن عاملاً في نشر القرآن، وإن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لما كان يتّصف به المسلمون الغالبون من ضروب العدل، الذي لم يكن للناس بمثله عهد، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى، وقد عاملوا كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل المسلمين"^(٤).

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة^(٥): "إن الحكام المسلمين لم يزوجوا بأنفسهم في شؤون تلك الشعوب الداخلية، فبطريك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريك القسطنطينية عن العرب أنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف..

(١) الكونت هنري دي كاستري ((١٨٥٠ - ١٩٢٧) Cte. H. de Castries مقدم في الجيش الفرنسي، قضى في الشمال الإفريقي ردهاً من الزمن. من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب/١٩٠٥)، (الأشراف السعديون) (١٩٢١)، (رحلة هولندي إلى المغرب) (١٩٢٦)، وغيرها.

(٢) الإسلام خواطر وسوانح، الكونت هنري دي كاسترو، ص ٣٥، هنري دي كاستري «الإسلام خواطر وسوانح»، ترجمة أحمد فتحي زغلول، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة رقم ٩٧٨، القاهرة ٢٠٠٠.

(٣) غوستاف لوبون (١٨٤١-١٩٢١) هو طبيب ومؤرخ فرنسي، أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين امتدحوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية.

(٤) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص ١٢٨، ١٢٩.

(٥) من المستشرقين المنصفين الذين درسوا الحضارة العربية والإسلامية، وفهموا حقيقة الإسلام، وأشادوا به كدين عالمي صالح لكل زمان ومكان، وقد أصدرت عام ١٩٦٠م كتابها الشهير «شمس الإسلام تسطع على الغرب» توفيت في نوفمبر ١٩٩٩م.



لقد أعطى العرب لمن يعتنقون الإسلام من شعوب البلدان التي فتحوها حرية الديانة، وحریتهم كمواطنين..^(١)

هذه بعض شهادات الغربيين المنصفين على عدالة الإسلام، وهي شهادات تؤكد عظم مبادئ الإسلام وأخلاقه في الجهاد، ويؤكد على أن الجهاد رسالة كان فيها أخلاق الإسلام وسماحته من أقوى أسلحة المواجهة، وكثيراً ما كان المسلمون يكسبون المعارك من دون أن يجردوا أسلحتهم لهذا السبب.^(٢)



(١) شمس العرب تسطع على الغرب، للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكة، ص ٣٦٤.

(٢) الصراع ومتطلبات الحياة، محمد هادي كاظم، شركة المصطفى، ص ١٥١.

المبحث الثالث

بعض شبهات المرجفين حول غلظة وجفاء الإسلام وسلوك المسلمين، وبعض آليات الرد على الشبهات

بداية فإن أعداء الإسلام لا يدّخرون جهداً في إثارة الافتراءات والشبهات حوله، وهم يعملون عملاً منظماً، ومن خلال دراسات وخطط وتجارب وبحوث، حتى صار الافتراء على الإسلام علماً يُدرّس، كما هو الحال في كليات اللاهوت ومراكز التنصير، ويحظى المنصرون بتدريب مدروس في كيفية طرح الافتراء وإثارة الشبهات. ومن المهم الإشارة إلى النقاط الآتية:

١. أهداف إثارة الشبهات حول الإسلام:

فلا شك أن أعداء الدين ومعهم (الميديا) بشتى أنواعها يعملون لهدفين: الأول التشويش على العامة، والثاني: صرف همم الباحثين وكثير من العلماء والدعاة بالانشغال بالرد على الشبهات وتفنيدهم الواهية -باعتراهم- ووضعهم في خانة الدفاع، حتى لا يكون لهم الوقت والجهد في فضح خططهم وتحريفات كتبهم.

لذلك من المهم أن يكون الردُّ على افتراءات أولئك المرجفين علماً يدرسه المختصون وطلاب العلم؛ لا سيما المهتمون منهم بمقارنة الأديان، وكذلك

يدرسه كل المهتمين بمواجهة الحملات المسعورة، التي يشنها الأعداء لتشويه الإسلام، بحيث تخرج الردود على قدر كبير من الإجابة والإتقان، وتحقق المقصود منها؛ وهو إجهاد الفرية والقضاء على كل أثر لها.

٢. من الشبهات المثارة المتعلقة بموضوعنا:

ادعاء تناقض الإسلام في صفات الرحمة والشدّة.

ومضمون الشبهة هو: ادعاء بعض المشككين أن القرآن الكريم يتناقض بشأن صفات الرحمة والشدّة، وبين صفات العنف والتسامح، ومنها ما هو من صفات الله ﷻ، فكثيراً ما تجد آيات تصفه بأنه رحمن رحيم، أو غفور ودود، في حين تصفه آيات أخرى بأنه جبار متكبر، وأن بطشه شديد! وجهاً إبطال الشبهة:

١. تعدد الصفات الإلهية أدل على كمال الله ﷻ، وعلى تنوع آثارها في حياة المؤمن.

٢. إذا كان الجمع بين الصفتين المتعارضتين جائز في حق البشر بلا خلاف، فكيف يجوز في حق المخلوقين، ولا يجوز في حق الخالق؟ والرد على هذه الشبهة يطول، ولا يناسبه هذه المساحة المحدودة، لذا نشير فقط إلى أبرز عنصر دحضها:

أولاً: اختلاف صفات الله ﷻ وتعددتها أدل على قدرته وعنايته بالخلق، حيث تنقسم الصفات إلى ثلاثة أقسام: صفة كمال مطلق. صفة كمال مقيد. صفة نقص مطلق.

فصفة الكمال على الإطلاق؛ فهي ثابتة لله ﷻ كالعلم، والقدرة، والحياة، ونحو ذلك. وأما صفة الكمال المقيد، فهذه لا يوصف الله بها على الإطلاق إلا مقيداً، وأما صفة النقص على الإطلاق، فهذه لا

يوصف الله بها بأي حال من الأحوال، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والذي يقرأ الصفات الإلهية، ثم يخرج فيقول للناس: إن صفات الله عند المسلمين متناقضة، فقد شهد على نفسه بضعف العقل والتمييز.

ثانياً: أن البينة على المدعى، فعلى من ادعى ذلك أن يأتي هو بدليل لا أن يكلف خصمه بأن يأتي بضده، وأن العنف والإرهاب ليس مذموماً على الإطلاق، والتسامح ليس محموداً على الإطلاق، والإسلام يضع كل شيء في مكانه الصحيح، ووضع الندى في موضع السيف بالعلماء مضر كوضع السيف في موضع الندى.

ثالثاً: على من يرمون الإسلام بالعنف والإرهاب أن يقرؤوا كتبهم المقدسة (المحرفة) جيداً، ليدركوا أن التصور الإسلامي ينفرد وحده بهذا التكامل، ليؤكد ما فيه من شموخ وقوة، ومن عقلانية كذلك وصلاحية، لهداية الضمير والوجدان.

رابعاً: أن من غير المسلمين من المفكرين والمنصفين من يشهد للإسلام بالتوازن في كل صفاته وإن كنا لا نحتاج إلى شهادتهم، فمن ذلك: «إن الإسلام الذي نعرفه ونحترمه في أميركا، كما أنزل في القرآن الكريم، هو دين يعلم قيمة وأهمية الرحمة والتسامح والسلام، وأن الجماعة المسلمة الأميركية، وهي تضم اليوم الملايين من المؤمنين، تتميز بتنوعها تماماً كالجماعات المسلمة العديدة حول العالم»⁽¹⁾



الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد ..

جاء طرح هذا الموضوع لإبراز قضية مهمة في مفهوم الرحمة، كونها رحمة عامة لا تأتي من ضعف أو ذلة، ولكنها رحمة القوة والعزة، وقوة الرحمة والعزة، وبيان أن الخطاب القرآني للمسلمين بخصوص الرحمة ليس مصدر احتكار أو استعلاء، حيث ترد الرحمة مسندة إليهم في سياق الاشتراط عليهم بتصديق الأنبياء السابقين: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] وفي ذلك تنبيه منهجي من السقوط في عقدة الشعب المختار أو الاستعلاء العنصري أو الديني على الناس أو احتكار الرحمة بمنطق الطائفة وحرمان الخارج منها.

وقد جاء قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ليحدد الغاية من خلق سيد الخلق ومن بعثه بالهدى وتكليفه بالرسالة: إنها رحمة للعباد كل العباد، بلا تخصيص ولا استثناء!

إن النص القرآني العظيم يشير إلى أن هذه الرحمة قد كتبها ربنا

على نفسه، قال تعالى: ﴿كُنِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وفي جامع البيان: "قضى ﷺ أنه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وهذا من الله ﷻ استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة"^(١).

ومن افتتاح كتاب الله تعالى بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة]، واختتامه بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس]، وبينهما تسبح الآيات في فضاء من العالمية، لا يقتصر الإله على قوم، ولا يجعلهم شعبه المختار.

فلا عجب أن نجد كلمة ﴿النَّاسِ﴾ في معرض المخاطبة والتكليف والتوجيه والإنذار والتبشير تتكرر ٢٤١ مرة، كما أن كلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾ تتكرر ٧٣ مرة، غالبيتها الساحقة في معرض براءة الله من أن يكون إلها مخصوصاً لقوم محظوظين، لأنه رب العالمين^(٢).

إن الإسلام احترم الاختلاف الثقافي للشعوب، وتركها على ما هي عليه، ولم ينكر عليها إلا ما كان منكراً في الدين من إفساد أو ظلم، ولم يسع إلى تميميها ولا فرض عليها نموذجاً للعيش الخاص بالعرب، بالمقابل ضاق الاستعماري ومدعي الانفتاح بكل اختلاف، واعتبره مظاهر همجية ووحشية، وأكرهوا الشعوب التي احتلوها على تغيير دينها ولغتها وثقافتها وتقاليدها، تحت طائلة الإبادة؛ لنوقن أن دعوى العالمية في حضارتهم مجرد ادعاء، حين تمت تسميتها بالعوالم.

وعلى الأمة المسلمة أن نتخلص من عقدة (الآخر)، ومواجهة تحدياته بعلمية وموضوعية، وب عقل إستراتيجي، يقدم مصلحة الإسلام، والتخصص

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ١٥٤/٥.

(٢) انظر: أبو زيد المقرئ الإدريسي، عموم الرحمة، ص ٤٣ (بتصرف).

العميق في دراسته والاستفادة منه، قصد فهم علمي أعمق وأشمل⁽¹⁾، ليكون الانطلاق من منطق القوة، وقوة الرحمة، ومن عموم الرحمة وشموليتها، التي تستدعي قيم حفظ الكرامة الإنسانية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، التي ربطت بالآدمية فقط دون أي إحالة على صفة مميزة، مما يقتضي الارتقاء بالخطاب الإسلامي المعاصر إلى أفقه الإنساني والعالمي والكوني، من أجل تفعيل جاد لقيم الكرامة والعدل والحرية والشورى، لتأخذ مكانها المحوري في أسئلة النهضة والتحرر الحارقة ضمن رؤية إصلاحية حضارية شاملة، مركزها قيم الإسلام وحضارته ومناطقها الإنسان تحريراً وتكريماً وتفعيلاً، من قوة الرحمة ورحمة القوة.

وهكذا تتضح لنا ضرورة توفير القوة للأمة المسلمة، بأنواعها وعناصرها، ومن أبرزها هنا قوة الرحمة، التي تعني العزة والكرامة وعدم الضعف، ويجب أن تضبط الأمة هذه القوة بضوابطها الشرعية، التي أشرنا إلى ماهيتها في هذا البحث، حتى تحقق مقاصدها، فتحمي الدين، وتحفظ الأمة، وتحقق لها القيادة والريادة، وتحقق الرحمة بالمؤمنين ونصرتهم، والتصدي للمعتدين وتردعهم.

كما نوصي:

١. أن تكون دراساتنا عن الرحمة لتأكيد تأصيلها للحق من منطق الحق والعدل، لا منطق الدفاع ورد الشبهات.
٢. أن تتبنى دراساتنا العلمية في مواجهة (الآخر) من منطق علمي، لفضح ادعاءاتهم الواهية، وكشف وسائلهم وطرائقهم في النيل من الإسلام، الذي يقوم على: «رمتني بدائها وانسلت».

٣. الدعوة لجميع المؤسسات العلمية والتربوية لترسيخ المفاهيم

(1) انظر: جدل التأصيل والمعاصرة في الفكر الإسلامي، محمد المستيري، منشورات كارم الشريف، ص ٢٥.

الصحيحة حول الرحمة والعزة والقوة والكرامة من منطلقات الشريعة الإسلامية بمفاهيمها العلمية وحقائقها الواقعية المترجمة بالسلوك في شتى مناحي الحياة.

٤. أهمية التمسك بقوة في الإيمان، الذي يحرر الضمير والوجدان من كل عبودية لغير الله، ومعها القوة في الاستمساك بالحق، مهما كانت قوة ضغوط الباطل.

٥. أهمية امتلاك القوة في العلم الصانع للشخصية المثلى للإنسان، المبني على أسس التقوى، المثمر بالعمل، وبناء الإعلام النافذ إلى أعماق النفس، لبيان الحق والصدع به.

٦. أهمية القوة في الكشف عن الضعف النفسي في المجتمع، والتطهر منه؛ حتى تأخذ النفس طريقها إلى السمو الروحي، والعزة والكرامة.

والحمد لله رب العالمين.



فهرس المصادر والمراجع:

١. إرهاب أم رحمة؟ د. لطف الله بن ملا عبدالعظيم خوجة، جامعة أم القرى، نشر صيد الفوائد، ١٤٢٧/٩هـ
٢. الإسلام خواطر وسوانح، الكونت هنري دي كاسترو، ص ٣٥، ترجمة أحمد فتحي زغلول، ضمن المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥م.
٣. إغاثة اللفان من مصاديد الشيطان (ط. المجمع) ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزيز شمس، مصطفى بن سعيد إيتيم، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ١٤٣٢هـ
٤. بهجة قلوب الأبرار وقررة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، أبو عبد الله، عبدالرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بنحمد آل سعدي (ت ١٣٧٦هـ) المحقق: عبدالكريم بن رسمي آل الدريني، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط ١/ ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م
٥. تاج العروس من جواهر القاموس (ط الفكر) السيد مرتضى الزبيدي، دار الفكر، بيروت ط ١/ ١٤١٤هـ
٦. التحرير والتوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، دار سحنون، تونس. ١٩٩٧م.
٧. التعريفات، الجرجاني: علي بن محمد، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١/ ١٤٠٥هـ،
٨. التوقيف على مهمات التعاريف؛ للمناوي، محمد عبدالرؤوف، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط: دار الفكر المعاصر بيروت، ودار الفكر دمشق، أولى ١٤١٠هـ.

٩. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م.
١٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق عبدالرحمن ابن معلا اللويحق، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠ م.
١١. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق/هشام سمير البخاري، ط: دار عالم الكتب، الأولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣ م، الرياض.
١٢. جدل التأصيل والمعاصرة في الفكر الإسلامي، محمد المستيري، منشورات كارم الشريف، تونس، الطبعة الأولى ٢٠١٤.
١٣. الجهاد في الإسلام، محمد متولي الشعراوي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م،
١٤. الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل، دار البيارق بيروت، توزيع دار ابن حزم بيروت، ط ٢ / ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
١٥. حضارة العرب، غوستاف لوبون، (١٨٤١-١٩٣١) دار البيروني نشره في صيغة جديدة تضم النص الأصلي بالفرنسية والترجمة الإنكليزية، ودار العالم العربي، بيروت، ٢٠١٠م
١٦. خواطري حول القرآن الكريم (تفسير الشعراوي)، محمد متولي الشعراوي: أخبار اليوم، ١٩٩١م
١٧. الدعوة الإسلامية في عهدها المدني، رؤوف شلبي، منهجها وغاياتها، سلسلة موسوعة الدعوة الإسلامية، رقم ٣، الطبعة الأولى، دار القلم، دولة الكويت. ٢٠١٠م
١٨. رسائل الأحزان، مصطفى صادق الرافعي، مطبعة الهلال، مصر،



١٩. زاد المسير في علم التفسير، للإمام جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، بيروت. ط: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ.

٢٠. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م. ٢١. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقها وفوائدها (السلسلة الصحيحة)، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٢. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الرياض، ط١/ ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٢٣. شرح معاني الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك ابن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (ت ٣٢١هـ) عالم الكتب، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م

٢٤. شمس الإسلام تسطع على الغرب، للمستشرق الألمانية زيغريد هونكة، دار الجيل للطبع والنشر، ٢٠١٠م

٢٥. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧م.

٢٦. صحيح البخاري محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، دمشق بيروت؛ ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٢٧. صحيح الترغيب، وضعيف الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف؛ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٨. صحيح أبي داود، أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ) مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط الأولى، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م
٢٩. صحيح الجامع، أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين، المكتب الإسلامي موافق للمطبوع وهو مذيّل بالحواشي، الموسوعة الشاملة، (إلكتروني)
٣٠. صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨ م.
٣١. صحيح مسلم، مسلم بن حجاج؛ تحقيق: نظر بن محمد الفاريابي أبو قتيبة؛ الناشر: دار طيبة؛ ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٦ م.
٣٢. الصراع ومتطلبات الحياة، محمد هادي كاظم، شركة المصطفى، المنامة، مملكة البحرين، ط ١ / ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م،
٣٣. عبقرية الصديق، عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية؛ مصر، ١٩٥٠ م.
٣٤. عموم الرحمة وعالمية الإسلام، أبو زيد المقرئ الإدريسي، تحرير: سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط ١، ٢٠٠٩ م.
٣٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩ هـ.
٣٦. في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت ١٣٨٥هـ)، دار الشروق، بيروت، القاهرة الطبعة: ط ١٧ / ١٤١٢ هـ
٣٧. كتاب العرب، جان ليك، مستشرق أسباني، (١٨٢٢م - ١٨٩٧م)، مؤسسة الانتشار العربي، ترجمة ش البيطار، ٢٠١٠ م
٣٨. القاموس المحيط، لمجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٨، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م



٣٩. الكليات، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)
تحقيق/ عدنان درويش ومحمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة،
بيروت، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م،
٤٠. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن
منظور الأنصاري الرويفعي (ت ٧١١هـ) دار صادر، بيروت الطبعة:
الثالثة، ١٤١٤هـ.
٤١. مجلة الرسالة/العدد ٤٢٣ / عباس محمود العقاد، الرحمة قوة.
(مرقم آليا غير موافق للمطبوع).
٤٢. مجموع فتاوى شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن
عبدالحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ) تحقيق: عبدالرحمن
ابن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،
المدينة النبوية، السعودية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م
٤٣. المحلى بالآثار: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي
القرطبي الظاهري، دار الفكر، بيروت، د. ت.
٤٤. مختار الصحاح، للإمام زين الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر
ابن عبدالقادر الحنفي الرازي (ت ٦٦٦هـ)، تحقيق يوسف الشيخ
محمد، ط: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا،
الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
٤٥. مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: ناصر بن سليمان
السعوي، علي بن عبدالرحمن القرعاوي، وآخرون، دار الصمعي
للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.
٤٦. المسند، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق وترقيم:
الشيخ أحمد شاكر، طبعة مؤسسة قرطبة، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط
وعادل مرشد، وآخرون، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٤٧. المصباح المنير، الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير، صيدا: المكتبة العصرية، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٤٨. المعجم الفلسفي لجميل صليبا: دار الكتاب اللبناني. ١٩٨٢م.، ومجمع اللغة العربية. ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م
٤٩. المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرين، مجمع اللغة العربية، ط: دار الدعوة، مصر. د. ت.
٥٠. مُعْجَمُ مقاليد العلوم في الحدود والرسوم؛ للسيوطي، للإمام عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق د محمد إبراهيم عبادة، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
٥١. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط: دار الجيل، بيروت، ط١/ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
٥٢. مفاهيم مغلوطة، الرحمة ضعف، د. مصطفى محمود، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٢م
٥٣. مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٦١٣، طبعة دار القلم. دمشق، ١٤١٢هـ.
٥٤. مقاصد الشريعة الإسلامية. لمحمد الطاهر ابن عاشور. دار السلام. القاهرة. ٢٠٠٦م.
٥٥. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، طبعت مختلفة، من ١٤٠٤/ ١٤٢٧ هـ.
٥٦. الموافقات، للإمام إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط: دار ابن عفان، الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.



٥٧. منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، ط٤ / ١٤٠٠ ت.

٥٨. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن

القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي

(ت بعد ١١٥٨هـ) تحقيق: د. علي دحروج نقل النص الفارسي إلى

العربية، د. عبدالله الخالدي ترجمة: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان

ناشرون، بيروت ط١ / ١٩٩٦م

٥٩. موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، تأليف:

عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبدالله بن حميد،

ط: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الرابعة- د. ت.

٦٠. نهاية الأرب في فنون الأدب، لأحمد بن عبد الوهّاب النويري. تحقيق

فهم شلتوت. نشر دار الكتب المصرية بالقاهرة ط. الأولى ١٩٩٨.

٦١. الهمة العالية معوقات ومقوماتها، محمد بن إبراهيم الحمد، دار

القاسم، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.



عناية الإسلام بالرحمة في القرآن والسنة

إعداد:

د. رفيق أحمد أحمد محمد



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد: فإن موضوع الرحمة في الإسلام من المواضيع التي ركز عليها هذا الدين القويم، واعتنت به سنة النبي الكريم، الذي أرسله الله رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فالإسلام كله رحمة، والقرآن كله رحمة، ولذا نلاحظ أن جميع سوره ابتدأت بالبسملة، وفي ذلك دلالة على أن القرآن كله رحمة، وذلك لما فيه من الهداية، ويؤكد ورود الرحمة في البسملة باللفظين: (الرحمن الرحيم) أن الرحمة مقدمة على غيرها في الشريعة الإسلامية، ثم وردت هاتين الصفتين في سورة الفاتحة، وهي أول سورة في ترتيب المصحف، وكذلك هذه السورة تقرأ في كل ركعة من ركعات الصلاة المفروضة وهي سبع عشرة ركعة، بمعنى أن المسلم يكرر لفظ الرحمن الرحيم في اليوم الواحد ثمان وستين مرة في اليوم، يتذكر فيها العبد رحمة ربه.

ولم يكن هذا الاعتناء بصفة الرحمة في أول القرآن فحسب، بل كان كذلك في معظم السور القرآنية، وبشكل واضح وجلي، ولقد عمدت إلى

إحصاء ألفاظ الرحمة ومشتقاتها، فوجدت أنها وردت ثلاث مئة وخمسة وخمسين مرة، بينما ورد لفظ العذاب والعقاب ومشتقاتهما مائتان وثمان وأربعين مرة، وصفة الصبر تسعين مرة، مما يدل على انفراد صفة الرحمة عن غيرها، ومن هنا تظهر أهمية البحث في موضوع الرحمة في الإسلام.

أهداف هذه الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

١. بيان عناية القرآن والسنة بمفهوم الرحمة في الإسلام.
٢. إبراز مدى رحمة الله عز وجل بخلقه من خلال القرآن والسنة.
٣. الرد على من يرمون الإسلام ونبي الإسلام بالتطرف والإرهاب.
٤. حث المسلمين على الرحمة والتراحم والإخاء والمحبة فيما بينهم.

مشكلة البحث:

في هذا العصر وجد من أبناء الإسلام من أصابه الغموض في فهمه للإسلام، فظن أن الإسلام دين عنف وشدة وغلظة، وأنه لا بد أن يكون غليظاً حتى يظهر التزامه بالإسلام، فجاء هذا البحث ليثبت ويؤصل أنه لا تعارض بين الرحمة مع الآخرين وبين حزم الإنسان والتزامه بالدين، ووجود شبهات حول الإسلام بأنه دين الإرهاب والتطرف والتعصب وسفك الدماء، فكان هذا البحث ليؤكد أن الإسلام دين الرحمة والسلام والمحبة للناس أجمعين.

منهج البحث:

ستكون الدراسة بمشيئة الله ﷻ، نظرية، وطبيعة البحث تقتضي أن

يسلك الباحث منهج الاستقصاء للموضوع، وسوف يعتمد الباحث على المنهج الاستقرائي، بحيث يركز على مفهوم الرحمة، وما يتعلق به من خلال الآيات الواردة في القرآن والأحاديث الواردة في السنة، وترتيبها على حسب المطالب في الخطة.

خطة البحث:

تحتوي خطة البحث على تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: وقد شمل على تعريف الرحمة لغة واصطلاحاً.

المبحث الأول: رحمة الله بخلقه في القرآن والسنة.

المطلب الأول: ورود رحمة الله في القرآن.

المطلب الثاني: ورود رحمة الله في السنة.

المبحث الثاني: رحمة النبي ﷺ في القرآن والسنة.

المطلب الأول: ورود رحمة النبي ﷺ في القرآن.

المطلب الثاني: ورود رحمة النبي ﷺ في السنة.

المبحث الثالث: الحث على الرحمة بالخلق.

الخاتمة.

خلاصة البحث.

التوصيات.

المصادر والمراجع.



التمهيد

موضوع الرحمة من المواضيع المهمة في هذا العصر، ولهذه الأهمية كان هذا بعنوان «عناية الإسلام بالرحمة في القرآن والسنة»، وقبل الشروع في البحث نقف مع تعريف الرحمة لغة واصطلاحاً:

تعريف الرحمة لغة واصطلاحاً.

أولاً: الرحمة لغة:

يقول ابن منظور: الرحمة: الرقة والتعطف والمرحمة مثله، وقد رحمته، وترحمت عليه وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضاً والرحمة المغفرة والرحمة في بني آدم عند العرب: رقة القلب وعطفه، وقد تطلق الرحمة ويراد بها ما تقع به الرحمة، كإطلاق الرحمة على الرزق والغيث^(١).

وقال ابن فارس: والرحمة بمعنى الرحم: علاقة القرابة، ثم سميت رحم الأنثى رحماً من هذا، لأن منها ما يكون ما يرحم، ويرق له من ولد^(٢).

فابن منظور يرى أن الرحمة تطلق على العطف والرقة والمغفرة، وقد تطلق على الرزق والغيث، وأما ابن فارس فيرى أن الرحمة بمعنى الرحم، وتطلق على علاقة القرابة، والصحيح أنها تطلق على كل هذه المعاني.

(١) لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم الأفيقي المصري، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى: مادة (رحم)، ج ١٢، ص ٢٣٠.

(٢) مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن زكريا، اتحاد الكتاب العرب، الطبعة: ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢ م مادة (رح)، ج ٢، ص ٤٩٨.



ثانياً: الرحمة اصطلاحاً:

عرفها الراغب الأصفهاني بقوله: «الرحمة: رقة مقتضية للتعطف والتفضل، فمبدؤها الرقة التي هي انفعال، ومنتهاها: العطف والتفضل الذي هو فعل»^(١).

فالراغب هنا جعل الرحمة عطفاً ورقة، يتبعها أثر وفعل: كالمغفرة والعضو والمواساة والإطعام للجائع وغيرها.

وعرفها الشيخ ابن عاشور بقوله: الرحمة: اسم مصدر لصفة الراحم، وهي من صفات الإنسان، فهي: رقة في النفس تبعث على سَوق الخير لمن تتعدى إليه^(٢).

وقال المناوي: الرحمة: نحلة ما يوافق المرحوم في ظاهره وباطنه أدناه، كشف الضر، وكف الأذى، وأعلاه الاختصاص برفع الحجاب^(٣).

وقال الكفوي: هي حالة وجدانية، تعرض غالباً لمن به رقة في القلب، وتكون مبدأً للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأً الإحسان^(٤).

فهذه التعاريف السابقة للرحمة اصطلاحاً اتفقت على أن: الرحمة عاطفة، لها أثر، ويتبعها عمل.



(١) تفسير الراغب الأصفهاني، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد،، كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، تحقيق ودراسة: د. محمد عبدالعزيز بسيوني، ج١، ص٥٠.

(٢) التحرير والتوير، ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر، الطبعة التونسية، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧ م، ج٢٦، ص٢٤.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، محمد عبدالرؤوف، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، ص٣٦٠.

(٤) الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م، ص٤٧١.

المبحث الأول رحمة الله بخلقه في القرآن والسنة

المطلب الأول رحمة الله في القرآن

قضى الله ﷻ في القرآن أنه رحيم بعباده، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، فقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ولقد سمى الله نفسه الرحمن الرحيم، وأخبر أن رحمته وسعت كل شيء، وامتدحته الملائكة أنه وسع كل شيء رحمة وعلماً، فرحمة الله في القرآن تنوعت بين الاسم والفعل، فالاسم مثل الرحمن الرحيم، ورحيما، وأرحم، ورحمة، ورحمتي، ووردت بصيغة الفعل مثل: رحم، ويرحم، كما يأتي:

أولاً: لفظ الرحيم:

من أسماء الله ﷻ الرحيم، وقد ورد هذا الاسم في القرآن كثيراً، فقد ورد بداية كل سورة فيها بسملة، بمعنى ورد مئة وأربع عشرة مرة في البسملة، باستثناء سورة التوبة، فليس فيها بسملة، لكن في سورة النمل جاءت البسملة في بداية السورة، وجاءت ضمن آيات السورة في قوله



تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٢٠]، وورد ضمن آيات القرآن بال التعريف (الرحيم) ٣٣ مرة، وورد نكرة من غير أل (رحيم) ٦١ مرة، ولفظ (رحيمًا) ٢٠ مرة، أي بمجموع ٢٢٨ مرة، فهو أكثر الأسماء الواردة في مفهوم الرحمة، وقد قيل: إن الرحيم متعلق بالرحمة الخاصة للمؤمنين. قال الإمام الطبري: إن المعنى الذي في تسمية الله بالرحمن، دون الذي في تسميته بالرحيم: هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعض خلقه، إما في كل الأحوال، وإما في بعض الأحوال، فلا شك -إذا كان ذلك كذلك- أن ذلك الخصوص الذي في وصفه بالرحيم لا يستحيل عن معناه، في الدنيا كان ذلك أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً^(١).

يقول الشيخ الفوزان: والرحيم: ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]^(٢).

قال الشيخ البراك: «والمشهور في الفرق بينهما أن الرحمن يدل على الرحمة العامة، والرحيم يدل على الرحمة الخاصة بالمؤمنين، وقال بعضهم: الرحمن يعني في الدنيا والآخرة والرحيم يعني في الآخرة، وهذا قريب من الذي قبله، والحق أنه ﷻ الرحمن الرحيم في الدنيا والآخرة»^(٣).

وقال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله ﷻ، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، قال الله تعالى:

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٢٦.

(٢) شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، السعودية، ط ٢، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، ص ٥.

(٣) توضيح مقاصد العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، عبد الرحمن ناصر البراك، دار التدمرية، ط ٢، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ج ١، ص ٦٧.

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(١) ونحوه، قال بعض السلف: ويشكل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج:٦٥]، وقوله ﷻ في الحديث: «رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما»^(٢)، فالصواب إن شاء الله ﷻ ما قاله ابن القيم: أن الرحمن دال على الصفة القائمة به ﷻ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفة، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا، فتأمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧]، ولم يجيء قط رحمان بهم، فعلم أن رحمان هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، والرحمن الرحيم نعتان لله ﷻ^(٣).

وقد يستخدم لفظ رحيم في غير الله ﷻ لمن كثرت من الرحمة كما وصف الله نبيه ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

ثانياً لفظ أرحم:

أرحم صيغة تفضيل، قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥١]، أرحم الراحمين (الأشد رحمة من كل راحم)^(٤)، وقد ورد هذا اللفظ أربع

(١) شرح العقيدة الواسطية للفوزان، ج ٢، ص ٢.

(٢) من حديث: أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ: (ألا أعلمك دعاء تدعو به، لو كان عليك مثل جبل أحد دينا، لأداه الله عنك، قل يا معاذ اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير. رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطيهما من تشاء، وتمنع منهما من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك) أخرجه الطبراني في الصغير (١/٣٣٦، رقم ٥٥٨) بإسناد جيد، قال الهيثمي (١٠/١٨٦): رجاله ثقات. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/٧١): حديث حسن.

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض، ج ١، ص ١٥.

(٤) التحرير والتوير، لابن عاشور، ج ٩، ص ١١٨.



مرات في القرآن، فالله هو خالق الرحمة في المخلوقين، وما الرحمة التي فيهم إلا أثر ودليل على كمال رحمته ﷻ.

ثالثاً: لفظ (الرحمن):

ارتبط اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالرحيم في أغلب الأحيان، فارتبط به في البسمة، وقد ورد ١١٤ مرة فيها، وورد ٤٠ مرة ضمن آيات القرآن، فيكون لفظ الرحمن ذكر في القرآن بمجموع ١٥٤ مرة، وتعد سورة مريم هي أكثر السور التي ورد فيها لفظ ﴿الرَّحْمَنُ﴾، حيث ورد فيها ١١ مرة.

والرحمن اسم خاص لم يسم به غيره ﷻ، وهو مشتق من الرحمة على جهة المبالغة، وهو أشد مبالغة من الرحيم، يقول ابن كثير: قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، فذكر الاستواء باسمه الرحمن، ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(١)، فخصهم باسمه الرحيم. فدل على أن ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أشد مبالغة في الرحمة، لعمومها في الدارين لجميع خلقه، و﴿الرَّحِيمِ﴾ خاصة بالمؤمنين، واسمه ﷻ خاص لم يسم به غيره^(٢).

رابعاً: لفظ (الرحمة):

الرحمة ورد هذا اللفظ ضمن آيات القرآن ٦ مرات، ولفظ (رحمة) ٣٤ مرة، ولفظ (رحمتي) مرتين، ولفظ (رحمته ١٥ مرة)، ولفظ (رَحِمَ) وهو فعل ماضي ورد ٤ مرات، ولفظ (رَحِمَهُ) مرة واحدة، ولفظ (رَحِمَتَهُ) مره واحدة، وقد وردت الرحمة في القرآن بعدة معانٍ نذكر منها:

١. الرحمة التي هي صفة الله ﷻ، وهي أكثر ما ورد في لفظ الرحمة،

(١) شرح العقيدة الواسطية، للفرزاني، ج ٢، ص ٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، (اختصار وتحقيق) محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت -

لبنان، ط ٧، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م، ج ١، ص ٢٠.

مثل قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فالله رحيم بعباده، ورحمته واسعة سِعَتْ.

٢. الرحمة بمعنى النبوة وردت في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ [آل عمران: ٧٤] أي بنبوته، خص بها محمداً رضي الله عنه (١)، وقد وصف الله النبوة بالرحمة، لأن الأنبياء إرسالهم من الله رحمة بالناس وشفقة بهم، فمن أتبعهم نجا من النار، وهذا رحمة من الله.

٣. الرحمة بمعنى الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩] قال الإمام القرطبي عند تفسيرها: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أي بدخول الجنة (٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]، قال الجزائري: يرجون رحمة الله أي الجنة، وأنه غفور رحيم لغفور لذنوبهم رحيم بهم (٣).

فلن يوفق للعمل بالصالحات إلا من رحم ربك، ولن يدخل أحد الجنة إلا برحمته رحمته، فالجنة رحمة الله يدخل فيها من يشاء.

٤. الرحمة بمعنى النعمة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، ج ٢، ص ٦١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي، ج ١٥، ص ٢٩٦.

(٣) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبدالقادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج ١، ص ١٩٩.



فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [فاطر: ٢]،
قال الألوسي: في اختيار لفظ الفتح رمز إلى أن الرحمة من أنفس
الخزائن وأعزها منالاً، وتكبيرها للإشاعة والإبهام أي شيء يفتح
الله ﷻ من خزائن رحمته أي رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن
وعلم وحكمة إلى غير ذلك^(١)، وقد وصف الله النعمة بالرحمة، لأنه
ﷻ يرزق من يشاء بغير حساب، ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا
لعاقبهم وعذبهم، فبرحمته يرزقوا.

٥. الرحمة بمعنى المطر: كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ
الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ
لِلكَرَمَاتِ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧] قال الزمخشري في تفسيرها: بين
يدي رحمته أمام رحمته، وهي الغيث الذي هو من أتم النعم وأجلها
وأحسنها أثراً^(٢).

فنزول الغيث رحمة من الله مع ما قد يقع من المعاصي والمخالفات،
وهو دليل على صفة الرحمة للمولى بالإنسان والحيوان، قال تعالى:
﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم: ٥].

٦. الرحمة بمعنى النصر، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ
مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سَوْءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لِمَنْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٧] قال الخازن في تفسيرها: قل من ذا الذي
يعصمكم أي يمنعكم من الله إن أراد بكم سوءاً أي هزيمة أو أراد
بكم رحمة أي نصراً^(٣).

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني
الألوسي، ج ١٦، ص ٣٤٥.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر
الزمخشري الخوارزمي، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ج ٢، ص ١٠٥.

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي أبو الحسن، =

والنصر رحمة، لأنه لا يكون إلا بمشيئة القوي العزيز، كما قال تعالى: ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٥]، وقوله: ﴿وَمَا أَلْتَمَسُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، وربما آخر الله النصر رحمة بعباده للابتلاء، وليتخذ منهم شهداء كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

٧. الرحمة بمعنى الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، قال القرطبي في تفسيرها: قال أبو سعيد الخدري وابن عباس رضي الله عنهما: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام^(١)، فالإسلام رحمة للناس، لأنه جاء بكل ما هو صلاح خير، ودفع عنهم كل ما فيه فساد وضير.

٨. الرحمة بمعنى المودة والعطف، كما في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، قال الشيخ طنطاوي في تفسيرها: أي أنهم مع إخوانهم المؤمنين يتوادون ويتعاطفون^(٢).

٩. الرحمة بمعنى العصمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٢]، قال الفخر الرازي في تفسيرها: إلا ما رحم ربي، أي إلا وقت رحمة ربي، يعني أنها أمانة بالسوء في كل وقت، إلا في وقت العصمة^(٣)، وقوله تعالى:

= المعروف بالخازن تحقيق وتصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٥هـ، ج ٣، ص ٤١٧.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ٨، ص ٣٥٣.

(٢) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ج ١، ص ٣٩٢٤.

(٣) تفسير الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي أبو عبدالله فخر الدين، دار إحياء التراث العربي، ج ١، ص ٣٥٣٠.



﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] قال ابن عاشور: (إلا من رحم ربك)، أي فعصمهم من الاختلاف^(١).

وغيرها من المعاني، وربما نستطيع أن نقول: إن لفظ الرحمة قد شمل كل نعمة وخير في الدنيا والآخرة.

المطلب الثاني رحمة الله في السنة

وردت أحاديث كثيرة تدل على سعة رحمة الله ﷻ، لا نستطيع حصرها هنا لطبيعة البحث، ولكن نذكر أهمها، وهي كما يأتي:

لقد كتب الله على عرشه أن رحمته سبقت غضبه: فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش»^(٢).

فإن الله أرحم بنا من أنفسنا، بل أرحم من الأم بابنها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] قال البيضاوي عند تفسيرها: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي أمر ما أمر، ونهى عما نهى، لفرط رحمته عليكم، وقيل: معناه إنه كان بكم يا أمة محمد رحيمًا، لما أمر بني إسرائيل بقتل الأنفس ونهاكم عنه^(٣).

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ١٢، ص ١٨٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿١١٨﴾ فِي لَوْحٍ مَحْضُوظٍ ﴿١١٩﴾﴾ (١٦٠/٩ رقم: ٧١١٥)، واللفظ له، ومسلم مختصراً، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله ﷻ، (٢١٠٧/٤ رقم: ٢٧٥١)، وأحمد (٣٨١/٢ رقم: ٨٩٤٥).

(٣) تفسير البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٢، ص ٧١.

فمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته بطنها وأرضعته، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(١).

وقد أنزل الله رحمة واحدة، وآخر تسعا وتسعين رحمة ليوم القيامة، يرحم بها عباده، فمن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة)^(٢).

ولو علم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته، فمن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد)^(٣).

فالجنة لا يدخلها أحد إلا برحمة الله، يدخل من يشاء في رحمته، فمن أبي هريرة: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (احتجت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما بالي يدخلني الفقراء والضعفاء؟ وقالت النار: ما بالي يدخلني الجبارون والمتكبرون؟ فقال الله: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء، وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشياء، ولكل واحدة منهن ملؤها)^(٤).

- (١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، (٥ / ٢٢٣٥ رقم: ٥٦٥٣).
- (٢) ومسلم، كتاب التوبة باب في سعة رحمة الله صلى الله عليه وسلم وأنها سبقت غضبه، (٤ / ٢١٠٩ رقم: ٢٧٥٤).
- (٣) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله صلى الله عليه وسلم وأنها سبقت غضبه، (٤ / ٢١٠٨ رقم: ٢٧٥٢) وأخرجه الترمذي، بلفظ: (خلق الله مئة رحمة، فوضع واحدة بين خلقه، وعند الله تسع وتسعون رحمة). [ص: ٥٢١].
- (٤) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، (٤ / ٢١٠٧ رقم: ٢٧٥٥)، وابن حبان (٢ / ٤٣٢ رقم: ٦٥٦)، أبو يعلى (١١ / ٣٩٣ رقم: ٦٥٠٧)، وابن أبي الدنيا (١ / ٣٠ رقم: ١٩).
- (٤) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (١٦ / ٥١٩ رقم: ٧٤٧٧) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

وعن عائشة، عن النبي ﷺ قال: (سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحداً الجنة عمله) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة)^(١).

ومن رحمة الله بعباده أنه ﷺ يفرح إذا تاب العبد وأقبل على ربه، فإذا اقترب منه شبراً اقترب منه ذراعاً، وإن اقترب ذراعاً اقترب باعاً، وإن جاءه يمشي أتاه هرولة، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن اقترب إلي شبراً اقتربت منه ذراعاً، وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». ويروى عن الأعمش في تفسير هذا الحديث: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً»، يعني بالمغفرة والرحمة، وهكذا فسر بعض أهل العلم هذا الحديث. قالوا: إنما معناه يقول: إذا تقرب إلي العبد بطاعتي، وبما أمرت تسارع إليه مغفرتي ورحمتي^(٢).

وغيرها من الأحاديث الدالة على سعة رحمة الله وكرمه ومغفرته.



(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، (٩٨/٨ رقم: ٦٤٦٧) ومسلم، بغير لفظة (مغفرة)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله ﷺ، (٢١٧١/٤ رقم: ٢٨١٨).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله ﷺ، (٤/٢٠٦١ رقم ٢٦٧٥) والترمذي، (٥/٥٨١ رقم ٣٦٠٣).

المبحث الثاني رحمة النبي بالعالمين في القرآن والسنة

المطلب الأول رحمة النبي ﷺ في القرآن

أرسل الله محمداً ﷺ رحمة للعالمين للإنس والجن والحيوانات والنباتات، بل وحتى للجماادات، قال الغزالي: لقد أراد الله ﷻ أن يمتن على العالم برجل يمسح آلامه، ويخفف أحزانه، ويرثي لخطاياها، ويستमित في هدايته، ويأخذ بناصر الضعيف، ويقاقل دونه قتال الأم عن صغارها، ويخضد شوكة القوي، حتى يرده إنساناً سليم الفطرة، لا يضرى ولا يطفى.. فأرسل محمداً ﷺ، وسكب في قلبه من العلم والحلم، وفي خلقه من الإيناس والبر، وفي طبيعه من السهولة والرفق، وفي يده من السخاوة والندى، ما جعله أزكى عباد الله رحمة، وأوسعهم عاطفة وأرحبهم صدرًا»^(١)

إن إرسال محمد ﷺ كان رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، قال البيضاوي: لأن ما بعثت به سبب لإسعادهم، وموجب لصلاح معاشهم ومعادهم، وقيل: كونه رحمة للكفار، أمنهم به من الخسف والمسح وعذاب الاستئصال^(٢)، يقول الشيخ: الشعراوي في تفسير

(١) خلق المسلم، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط ١٠، ٢٠٠٥م، ص ١٩٠.

(٢) تفسير البيضاوي، ج ١، ص ١١١.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣] فحتى الكفار به نالهم شيء من رحمته (١)، فكان نعمة مزجاء ورحمة مهداة رحمة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، قال الألوسي في تفسيرها: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ ﴾ الخطاب للعرب ﴿ رَسُولٌ ﴾ أي رسول عظيم القدر ﴿ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم ومن نسبكم عربي مثلكم، ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ خبر مقدم و﴿ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ابتداء كلام أي يهمله ويشق عليكم عنتم، ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي على إيمانكم وصلاح شأنكم، لأن الحرص لا يتعلق بذواتهم، ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل: قدم الأبلغ منهما، وهو الرأفة، التي هي عبارة عن شدة الرحمة رعاية للفواصل، وهو أمر مرعي في القرآن، وهو مبني على ما فسر به الرأفة، وصحح أن الرأفة الشفقة، والرحمة الإحسان، وقد يقال: تقديم الرأفة باعتبار أن آثارها دفع المضار، وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع، والأول أهم من الثاني (٢).

قال القرطبي: قال الحسين بن الفضل: لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ، فإنه قال: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٥] (٣).

وأثنى الله على نبيه في آية أخرى باللين للمؤمنين، فقال: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِّنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، قال السعدي: أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن أنت

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي، ج ١، ص ٢٦٨٨.

(٢) روح المعاني، الألوسي، ج ٧، ص ٤١٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ٨، ص ٣٠١.

لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك^(١).

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]، قال الخازن عند تفسيرها: ورحمة أي هو رحمة للذين آمنوا منكم، وإنما قال ﴿مِنْكُمْ﴾ لأن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون، فبين الله ﷻ كذبهم بقوله إنه رحمة للمؤمنين المخلصين لا للمنافقين، وقيل في كونه رحمة لأنه يجري أحكام الناس على الظاهر ولا ينقب عن أحوالهم ولا يهتك أسرارهم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم يعني في الآخرة^(٢).

المطلب الثاني

رحمة النبي ﷺ في السنة

إن خلق الرحمة يعد جزءاً من مقومات دعوته ﷺ، كما وصفها الله بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فقد كانت دعوته رحمة، فهو رحمة للوجود بأسره مسلمه وكافره فقد أودى في بداية دعوته أذى شديداً، فصبر وتحمل رحمة بالناس روي عن عروة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حدثته: أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويح، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص ١٥٤.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ج ٢، ص ٢٧٧.

الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً^(١)، انظر إلى عظم رحمة النبي ﷺ على الرغم مما لاقى منهم، وورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة»^(٢)، وتتجلى رحمته يوم أحد، عندما خالف الرماة أمره رضي الله عنه، فانهزم المسلمون وأحاط المشركون بالنبي ﷺ، وكاد أن يقتل، فكسرت ربايعيته، وشج رأسه، وغطى الدم جسده، واستشهد عمه حمزة، ومثّل بجسده مع هذا كله كان يدعو لقومه بالمغفرة، وهنا تظهر حقيقة رحمته رضي الله عنه فمع شدة ما لاقاه يدعو لمن آذاه، فعن شقيق قال عبد الله: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»^(٣).

ولا يخفى على أحد موقفه رضي الله عنه من أهل مكة الذين طردوه منها وآذوه، عندما فتحها رضي الله عنه دخل مطأطأ رأسه متواضعاً فقال له أبو سفيان مسترضياً ما قاله إخوة يوسف ليوسف: ﴿ قَالُوا تَأَلَّوْا تَأَلَّوْا لَقَدْ أَتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ ﴾ [يوسف: ٩١].

قال: ﴿ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]^(٤)، قمة الرحمة مع قوته وقدرته على الانتقام وأخذ حقه ولكنه رحمة رضي الله عنه.

- (١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى، (٣/١١٢٠ رقم: ٣٠٥٩) ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (٣/١٤٢٠ رقم: ١٧٩٥)، وابن حبان في صحيحه (٤/٥١٦ رقم: ٦٥٦١).
- (٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، (٤/٢٠٠٦ رقم: ٢٥٩٩).
- (٣) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيِّمِ ﴾، (٣/٢٨٢ رقم: ٣٢٩٠).
- (٤) سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ج ٩، ص ١١٨، قال الشيخ الألباني: حديث حسن، ينظر، فقه السيرة، ص ٣٧٦.

فهو ﷺ رحمة في كل حياته وأحواله، فهو رحمة في جهاده، ورحمة في بيته وأهله، ورحمة على أتباعه وقومه، ورحمة على أعدائه، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل)^(١)، وعن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ أرحم الناس بالعيال، وكان له ابن مسترضع في ناحية المدينة، وكان ظئره قيناً، وكنا نأتيه، وقد دخن البيت بأذخر، فيقبله ويشمه^(٢)، وعن أبي عثمان قال: حدثني أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابنا لي قبض فائتنا. فأرسل يُقَرِّئُ السلام، ويقول: (إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب)، فأرسلت إليه تقسم عليه لئأتينها فقام ومعه سعد بن عباد ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فَرَفَعَ إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع، قال: حسبته أنه قال: كأنها شن، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: (هذه رحمة، جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)^(٣).

وتتضح رحمته ﷺ في تعامله مع من وقع في خطأ أو مخالفة، فعن أنس بن مالك قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ، إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه، قال: قال

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مباحثته ﷺ للأثم واختياره من المباح، أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرمانه، (٤/١٨١٤ رقم ٢٣٢٨).

(٢) الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩م، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج ١، ص ١٣٧، والألباني في السلسلة الصحيحة: (١٢٥/٥) صحيح.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ (يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه) (١/٤٣١ رقم: ١٢٢٤) ومسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، (٢/٦٣٥ رقم: ٩٢٣)، والبيهقي في الكبرى (٤/٦٥ رقم ٦٩٢١)، وأحمد في مسنده (٥/٢٠٥ رقم ٢١٨٣٧)، وعبد الرزاق في مصنفه (٣/٥٥١ رقم ٦٦٧٠).

رسول الله ﷺ: (لا تزرموه، دعوه) فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه، فقال له: (إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة وقراءة القرآن) أو كما قال رسول الله ﷺ قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماء، فشنه عليه^(١).

كان ﷺ رحيماً بأمته، يكثر الدعاء والبكاء من أجل الأمة، فعن عبد الله ابن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ: تلا قول الله ﷻ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، وقال عيسى ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَأَتُهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: (اللهم أمتي أمتي)، وبكى، فقال الله عز وجل: (يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟) فاتاه جبريل ﷺ، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: (يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك)^(٢)، وصدق الله، حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، لقد وصفه الله بأنه ﷺ رحمة للعالمين، حيث تتجلى هذه الرحمة في يوم الدين ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، ﴿يَوْمَ يُقَرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِهِ وَبَيْنِهِ (٣٦) لِكُلِّ أُمَّرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٢٤-٢٧] حتى الأنبياء يقولون: نفسي نفسي. إلا نبينا محمداً ﷺ يسأل الله الشفاعة، فيشفع في العالمين الأولين والآخرين، ففي حديث الشفاعة الطويل، وفيه: (أن الشمس تدنو من الخلق، فيشتد الموقف على الناس فيأتون، آدم ليشفع لهم، فيعتذر، ويقول: نفسي نفسي. فيذهبون إلى نوح، فيقول لهم مثل ذلك، ثم إلى إبراهيم، فيقول مثل ذلك،

(١) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات (١/٢٣٦ رقم: ٢٨٥).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته، وبكائه شفقة عليهم، (١/١٩١ رقم: ٢٠٢).

ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، فيقول لهم: (اذهبوا إلى محمد، فيأتوني، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق، فأتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: يا رب، أمي أمتي، فيقال: يا محمد، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى)^(١)، أبعد هذا كله يتهم النبي من قبل السفلة والزنادقة أنه إرهابي وجاء بالعنف والتطرف والقسوة.



(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، (١/١٨٤ رقم: ١٩٤)، أحمد (٢/٤٣٥، رقم ٩٦٢١)، والترمذي (٤/٦٢٢، رقم ٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٧٨، رقم ١١٢٨٦)، وابن أبي شيبة (٦/٣٠٧ رقم ٣١٦٧٤).

المبحث الثالث الحث على الرحمة بالخلق

حث النبي على الرحمة والتراحم، وأن أحق الناس بالرحمة هم الأرحام، فعن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعها الله)^(١).

وفي هذا الحديث ترغيب وحث على الرحمة، وقد جاء الترهيب من القسوة وترك الرحمة، فعن زيد بن وهب قال: سمعت جرير بن عبدالله: عن النبي ﷺ قال: (من لا يرحم لا يرحم)^(٢) واللفظ هنا عام، سواء رحمة الإنسان أو الحيوان.

وعن عبدالله بن عمرو، يرويه قال: ابن السرح - عن النبي ﷺ، قال: (من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا)^(٣).

فالمسلم الحق المهتدي بهدي رسول الله المقتدي بخلقه ﷺ يرحم الصغار، ويعرف حق الكبار، ويؤتي كل ذي حق حقه.

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣/٤ رقم: ١٩٢٤)، حسن صحيح، والألباني في السلسلة الصحيحة: (٢/٥٩٤ رقم: ٩٢٥)، صحيح.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، (٥/٢٢٣٩، رقم: ٥٦٦٧)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، (٤/١٨٠٨ رقم: ٢٣١٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٨٦/٤ رقم: ٤٩٤٣)، وأحمد (٢٢٢/٢ رقم: ٧٠٧٣)، وابن أبي شيبة (٨/٣٣٩ رقم: ٢٥٨٦٨) وأخرجه الحاكم عن أبي هريرة (٤/١٩٧، رقم: ٧٣٥٣) وقال: صحيح الإسناد، والبخاري في الأدب المفرد (١/١٢٩ رقم: ٣٥٤)، والألباني في صحيح الأدب المفرد، (١/١٤٧ رقم: ٣٥٤) وقال: صحيح.

فأين حقوق الإنسان وحقوق الحيوان من أمر الإسلام بالرحمة بالإنسان والحيوان فنبينا محمد ﷺ هو نبي الرحمة، وديننا هو دين الرحمة للبشرية جمعاء، بل للكون بأسره حتى الدواب والأنعام والطير والحشرات، أوجب الإسلام أن تعامل برحمة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال: (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض)^(١).

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: (بينما كلب يطيف بركية، كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فسقته، فغفر لها به)^(٢).

ففي الحديث الأول امرأة دخلت النار في هرة، لأنها نزع من قلبها الرحمة، والثانية دخلت الجنة بكلب سقته، لوجود الرحمة في قلبها. وفي هذين الحديثين: الحث على رحمة الحيوان وعدم أذيته، فالراحمون يرحمهم الرحمن، وربما برحمة إنسان أو حيوان يغفر الله ذنوب تكاثرت وبها النفوس كبّلت، ولهذا كانت وصية النبي بالبهائم رحمة بها، فعن سهل ابن الحنظلية قال: مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: (اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها، وكلوها صالحة)^(٣).

بل إن الإسلام يحث على الرحمة والإحسان، حتى في القتل والذبح، فعن شداد بن أوس، قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ، قال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته)^(٤).

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، برقم: (٢١٤٠)

(٢) ١٢٠٥/٣، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله ﷻ وأنها سبقت غضبه (٢١١٠/٤) رقم: (٢٦١٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، (٣٤٦٧)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥) صحيح.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٥٠)، وابن خزيمة في صحيحه، إلا أنه قال قد لحق ظهره (٢٥٤٥)، والألباني في الترغيب والترهيب، (٢٢٧٣).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة، (١٩٥٥).

وبمناسبة هذا الحديث تعد قضية ذبح الحيوان التي شرعها الله عز وجل من القضايا التي يثيرها أعداء الإسلام من منطلق الحقد، أو التشكيك في الشريعة الإسلامية، فعلى سبيل المثال جمعية رعاية الحيوان جعلت من الذبح اعتداءً وظلمًا ووحشية بالحيوان^(١)، فهم يصفون الإسلام والمسلمين بالوحشية والهمجية، ويزعمون أن الحيوان المذبوح يظل يرفس برجليه بعد الذبح من الألم إلى أن يموت، ويزعمون أن هذا فيه تعذيب للحيوان.

والعلم الحديث اليوم يثبت بما لا يدع شكًا عكس ما زعموا وخلاف ما تكلموا، أن الذبح هو أسرع طريق وأكثر إراحة للحيوان عند قصد أكله، فإن السكين الحادة والقطع السريع تعمل بمثابة أداة لقتل الألم اللحظي حين القطع، كما هي الأدوية قاطعة الإحساس بالألم فمراكز الإحساس بالألم تتعطل إذا توقف ضخ الدماء عنها لمدة ثلاث ثوان فقط، وهذا ما يحدث بالذبح، حيث إن مراكز الإحساس في الدماغ يصل الدم إليها عن طريق الوريد في العنق، وعند الذبح ينقطع الدم عن مراكز الإحساس، فلا يشعر بعدها بالألم^(٢)، فالقطع السريع للودجين والحلقوم والمريء معا وبصورة مفاجئة يليه حدوث نزف سريع يقطع الدم والأكسجين عن المخ، مما يجعل فقدان الإحساس لدى الحيوان سريعًا، ويلغي إحساس المخ لها، كما يحدث نوعًا من التخدير للألم مع بقاء نشاط وعمل المخ والقلب بصورة طبيعية، وذلك لإتمام عملية النزف خارجًا، مع ملاحظة أن شد الرقبة إلى الخلف عند القطع يساعد في القطع السريع والنزف الحاد، ولهذا شرع الذبح من الجهة الأمامية للعنق إلى الداخل^(٣)، فسبحان

(١) موقع صحيفة سبق، ٥/ ذو الحجة، ١٤٣٦هـ، <http://sabq.org>.
(٢) ينظر/ د. جواد الهدمي، الإعجاز العلمي بالذبح، بحث نشر في، موقع، المعهد العالمي للإعجاز القرآني، ٢٠١٠م، <http://www.iiquran.com> 20102.
(٣) ينظر/ د. العجرودي، محمد، إعجاز علمي وتشريعي بديع في ذكر اسم الله والتكبير عند تذكية

الله لن يكون هؤلاء الذين يزعمون أن الذبح وحشية وهمجية وتعذيب للحيوان أرحم من الذي أمر بالتذكية الخالق الرحيم، فالذبح إذن رحمة، وفيه حكمة، وليس كما يصور بأنه وحشية وهمجية، فأين الوحشية والهمجية؟ أهي في الذبح، أم في إماتة الحيوان بالصعق الكهربائي، أو الضرب، أو الخنق، أو غيرها من أنواع القتل؟ فالإسلام أحل الذبح، وحرّم كل ما سواه رحمة بالحيوان.

ومن رحمة الإسلام بالحيوان أن الله حرم اتخاذ ما فيه روح غرضاً يرمى، فعن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: (لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً)^(١).



الأضحية، موقع شبكة قوت القلوب، بتاريخ: ١٠/١٠/٢٠١٣م، <http://kootalkoloob.com/>.
(١) صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم، (١٥٤٩/٣، رقم ١٩٥٧)، وأخرجه الطيالسي (ص ٣٤١، رقم ٢٦١٦)، وأحمد (١/٢٨٠)، رقم ٢٥٢٢)، والنسائي في الكبرى (٣/٧٢، رقم ٤٥٢٢)، وابن ماجه (٢/١٠٦٢، رقم ٣١٨٧).

الخاتمة

في ختام هذا البحث لموضوع (عناية الإسلام بالرحمة في القرآن والسنة) أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت لإعطاء صورة واضحة عن عناية الإسلام بالرحمة، فإن أصبت فمن توفيق الله وفضله، وإن قصرت فمن تلقاء نفسي، والله المستعان، والحمد لله رب العالمين.

خلاصة البحث:

مما سبق يتضح أن الله قد سمى نفسه الرحمن الرحيم، وأن رحمته سبقت غضبه، ومن رحمته على عباده أن أكمل لهم الدين، وأتم عليهم النعمة بالإسلام، الذي هو دين الرحمة، فمن الظلم اتهامه بالإرهاب، وأنه يربي أتباعه على العنف، وهو على عكس ذلك، وأن الله قد اصطفى محمداً ﷺ أرسله ليكون رحمة للعالمين في الدنيا والآخرة، فهو نبي الرحمة حتى مع أعدائه، فالرحمة تعد في الإسلام أصلاً من الأصول في التعامل مع الخلق كافة، حتى في أشد الحالات في الجهاد، لا يزال التعامل بالرحمة هو الأصل، فدين الإسلام دين رحمة، ونبينا محمد ﷺ هو نبي الرحمة، والمسلمون هم دعاة الرحمة وأهلها.

التوصيات:

نوصي القائمين على هذا المؤتمر بترجمة هذه البحوث إلى اللغة الإنجليزية واللغة الملاوية والصينية، لتكون إن شاء الله طريقاً لدعوتهم للإسلام، وإزالة شبهة أن الإسلام دين التطرف والإرهاب.



فهرس المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: السنة النبوية:

١. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
٤. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي بيروت
٥. الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
٦. سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت.
٧. سنن النسائي الكبرى أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: د. عبدالغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٨. سنن البيهقي الكبرى أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٩. مصنف عبدالرزاق الصنعاني،: أبو بكر عبدالرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي- الهند، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.
١٠. مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ
١١. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م،
١٢. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت - ١٤١٢هـ.
١٣. المعجم الصغير للطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمير، المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
١٤. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
١٥. مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.



١٦. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
١٧. مسند الطيالسي، سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي، دار المعرفة - بيروت.
١٨. السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض.
١٩. صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الخامسة.

ثالثاً: التفسير:

١. تفسير الراغب الأصفهاني، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٢. التحرير والتتوير، ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر، الطبعة التونسية، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧م
٣. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
٤. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م
٥. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبدالقادر ابن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة،

٦. المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين
محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي.
٧. الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو
القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار إحياء التراث
العربي بيروت.
٨. لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن
إبراهيم بن عمر الشيعي أبو الحسن، المعروف بالخازن تحقيق
وتصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة:
الأولى - ١٤١٥هـ.
٩. تفسير البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي
البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٠. التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار المعارف، القاهرة،
مصر.
١١. تفسير الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي
المعروف بالفخر الرازي أبو عبد الله فخر الدين. دار إحياء التراث
العربي.
١٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي، أخبار اليوم، القاهرة، مصر،
١٩٩١م.
١٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن
ناصر بن السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة
الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
١٤. مختصر تفسير ابن كثير، (اختصار وتحقيق) محمد علي الصابوني،
دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان، ط٧، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.



رابعاً: العقيدة:

١. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.
٢. توضيح مقاصد العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، عبدالرحمن ناصر البراك، دار التدمرية، ط٢، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
٣. شرح الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، السعودية، ط٢، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

خامساً: علوم القرآن

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.

سادساً: اللغة والمعاجم

١. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر-بيروت، الطبعة الأولى.
٢. مقاييس اللغة، ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا، اتحاد الكتاب العرب، الطبعة: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٣. التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، محمد عبدالرؤوف، دار الفكر المعاصر، دار الفكر - بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٤. الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م.

سابعاً: كتب عامة ومواقع:

١. خلق المسلم، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة،

مصر، ط ١٠، ٢٠٠٥ م.

٢. موقع، المعهد العالمي للإعجاز القرآني، ٢٠١٠ م،

<http://www.iiquran.com>

٣. موقع شبكة قوت القلوب، بتاريخ: ٢٠١٢ م،

<http://kootalkoloob.co/>



مقصد الرحمة وأثره في حياة المسلم

إعداد:

حسين محمد المحيميد



المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، سبحانك لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، والمبعوث رحمة للعالمين، نبينا وقدوتنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن اتبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن معرفة مقاصد الشريعة لها أهمية عظيمة وفوائد جليلة، ففيها يعرف الإطار العام للشريعة، ويكون عند الباحث والمجتهد والفقهاء تصوراً كاملاً عن الإسلام وتعاليمه، وتتكون لديه النظرة الكلية الإجمالية لأحكامه وفروعه، وكذلك تعين الباحث على الترجيح بين الأحكام المتعارضة في الأدلة أو معرفة الأحكام للقضايا الجديدة.

وقد كان علم المقاصد علماً ممزوجاً بعلم أصول الفقه، إلى أن جاء العلامة الشاطبي، الذي مثل كتابه الموافقات نقلة نوعية في تاريخ علم المقاصد، فكتابه وإن كان ضمن كتابه الكبير الموافقات إلا أنه يصلح أن يكون كتاباً مستقلاً له مقدمته وخاتمته، كما يمثل الأستاذ الطاهر انبعاث علم المقاصد بعد رقدة طويلة، وبعده كثرت الدراسات والبحوث حول المقاصد وأثرها، وتمثل دراسة

بعض المقاصد الجزئية أو الكلية وأثرها في الأحكام، نقلة نوعية في تاريخ المقاصد، ومن هنا كان الدافع لهذا البحث، سعياً في إثراء هذا الجانب بمزيد من البحوث، فمعرفة مقصد الرحمة وأثرها في حياة المسلم له أهميته البالغة، لأن الرحمة هي السمة العامة للدين الإسلامي، ولنبيه ﷺ الذي وصفه الله ﷻ رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]، وفي هذا البحث سنكشف عن أثر هذا المقصد العظيم في الحياة الإسلامية.

مشكلة البحث:

تتحدد مشكلة البحث في إبراز العلاقة بين مقصد الرحمة، وهو مقصد عظيم، جاءت به الشريعة الإسلامية، وهي سمة من سمات النظام الإسلامي، وأثر هذا المقصد في شتى ضروب الحياة، في الحياة السياسية، وفي الحياة الاقتصادية، أو في تعامل المسلمين مع غيرهم.

أهداف البحث:

تهدف الدراسة إلى الكشف عن أثر مقصد الرحمة في حياة المسلم من خلال الإجابة على الأسئلة التالية:

١. هل للرحمة أثر في الحياة السياسية للمسلمين؟
٢. هل لمقصد الرحمة أثر أو آثار في الحياة الاقتصادية؟
٣. هل لمقصد الرحمة في الإسلام أثر في تعامل المسلمين مع غيرهم؟
٤. هل لمقصد الرحمة من أثر في دائرة الإفتاء؟

أسباب اختيار البحث:

لهذا البحث عدة أسباب، دعت الباحث للخوض فيه، ومنها:

١. العناية الشخصية للباحث بعلم المقاصد الشرعية.

٢. أهمية علم مقاصد الشريعة من بين العلوم الإسلامية، وحاجتنا إليه وحاجتنا إلى بناء الأحكام بنظرة مقاصدية تأخذ في الحسبان العصر الذي نعيش فيه.

٣. محاولة لإخراج علم المقاصد من الجانب الفردي الضيق إلى سعة المجتمع والدولة، وإعادة قراءته وصياغته في توازن وعمق، بما يتناسب مع التقدم الحاصل في القرن الخامس عشر الهجري الواحد والعشرين الميلادي.

٤. تحتل الدراسات التي تعد الشريعة الإسلامية نظاماً كاملاً، استوعب كل متطلبات الفرد المادية والروحية، مكانة مهمة في الأوساط الأكاديمية، وهذا الذي دفع الباحث إلى إثراء هذا الجانب والمساهمة فيه، وخاصة خلق الرحمة الذي يعد الميزة الكبرى للإسلام.

٥. محاولة لإبراز ما لمقصد الرحمة من أثر كبير في حياة المسلم، وخاصة الحياة السياسية منها، التي يخيل لبعضهم أنها بعيدة عن الأخلاق وعن الرحمة.

منهج الدراسة:

إن طبيعة هذا البحث تقتضي تداخل عدد من المناهج، ولذلك فإن الباحث جمع في هذه الدراسة بين الاستقراء والتحليل للنصوص المستقرأة، وكذلك المقارنة إن اقتضى ذلك الأمر:

١. أما المنهج الاستقرائي، ففي تتبع النصوص الشرعية وجمع النصوص ذات العلاقة بموضوع البحث.

٢. المنهج التحليلي، وذلك بتحليل النصوص المستقرأة، والوقوف على المعاني الدقيقة التي تحملها.

٣. المنهج المقارن، وذلك بالمقارنة بين نصوص المذاهب الشرعية المختلفة، وكذلك المذاهب الفكرية، كلما اقتضى الأمر ذلك.

خطة الدراسة:

وقد جاءت الدراسة مؤلفة من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة. المقدمة: وتتضمن أهمية الدراسة، ومشكلتها، وأهدافها، وأسبابها، ومنهجها.

التمهيد: وقد تضمن:

أولاً: تعريف المقاصد لغة واصطلاحاً.

ثانياً: تعريف الرحمة لغة واصطلاحاً.

المبحث الأول: في مقاصد الرحمة.

المطلب الأول: مقصد الرحمة في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: مقصد الرحمة في السنة النبوية.

المبحث الثاني: أثر مقصد الرحمة في حياة المسلم.

المطلب الأول: أثر مقصد الرحمة في الحياة السياسية.

المطلب الثاني: أثر مقصد الرحمة في الحياة الاقتصادية.

المطلب الثالث: أثر مقصد الرحمة في تعامل المسلمين مع غيرهم.

المطلب الرابع: أثر مقصد الرحمة في دائرة الإفتاء.

الخاتمة.

أهم المصادر والمراجع.



التمهيد

أولاً: تعريف المقاصد لغة واصطلاحاً:

١. معنى المقاصد لغة:

المقاصد جمع مقصد بكسر الصاد وفتحها، وهو جمع مقصور على السماع وتعود كلمة (المقاصد) إلى الفعل الثلاثي (قَصَدَ)، والمقصد هو مصدر ميمي واسم المكان منه، وهو على وزن (مَفْعَلٍ)، وهذا الوزن يستعمل حقيقة في الزمان والمكان والمصدر، فيكون لفظ (المقصد) إما في المصدر وهو القصد، أو في المكان المقصود، أو في زمان القصد، أو في الغاية المقصودة، مثل مقصدي من فعل كذا مساعدته، ونستطيع أن نجمع معاني الفعل قصد، ووروده في كلام العرب على النحو التالي:

الأول: القصد: العدل والوسط بين الطرفين، جاء في القرآن الكريم

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩] وكذلك ﴿وَمِنْهُمْ مَّقْصِدٌ﴾ [فاطر: ٢٢]

وفي الحديث «القصد القصد تبلغوا»^(١) أي عليكم بالتوسط في

الأمر في القول والفعل، والقصد في الشيء: خلاف الإفراط^(٢).

الثاني: الاعتماد والأتم وطلب الشيء وإتيانه، كما جاء في الحديث

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ٩٨/٨، تح: محمد زهير بن ناصر

الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط ١/٤٢٢ هـ.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تح: خليل مأمون شيخا، بيروت - لبنان، دار المعرفة،

ط ١، ٢٠٠١ م، ٢/٤٥٨ لسان العرب، ابن منظور، تصحيح أمين عبد الوهاب، ومحمد الصادق،

بيروت - لبنان، ط ٣/١٩٩٩ م، ١١/١٨٠.

«فقصدت لعثمان حتى خرج إلى الصلاة»^(١)، يعني طلبته بعينه وإليه، وقصدك أي تجاهك^(٢).

الثالث: استقامة الطريق، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] أي: على الله الطريق المستقيم، والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة^(٣). والقصد من الطريق: المستقيم الذي لا اعوجاج فيه^(٤).

الرابع: القرب، يقال بيننا وبين الماء ليلة قاصدة، أي هينة السير، كما جاء في الآية ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾ [التوبة: ٤٢] أي موضعاً قريباً سهلاً^(٥).

الخامس: الاعتزام والأمر والتوجه، وهذا المعنى هو الذي أرجع إليه علماء اللغة مادة القصد، واعتبروه أصلاً لها^(٦).

وهذا المعنى هو المتداول في الكلام كثيراً وهو المستعمل في كلام الأصوليين والفقهاء^(٧).

٢. تعريف المقاصد اصطلاحاً:

إن العلماء السابقين لم يحددوا تعريفاً مضبوطاً جامعاً مانعاً للمقاصد، برغم استعمال لفظ المقاصد في مؤلفاتهم، وربما يعود سبب غياب تعريف

- (١) رواه البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي ﷺ، ١٤/٥.
- (٢) لسان العرب، مرجع سابق، ١٧٩/١١: المصباح المنير، مرجع سابق، ص ٥٠٤.
- (٣) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، ١٧/١٧٤، مؤسسة الرسالة، ط ١/ ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- (٤) انظر: لسان العرب، مرجع سابق، ١٧٩/١١.
- (٥) جامع البيان، مرجع سابق، ١٤/ ٢٧١.
- (٦) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي، ت: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ط، ٤٣/٩.
- (٧) انظر: قواعد المقاصد عند الشاطبي، عبدالرحمن الكيلاني، دار الفكر - دمشق، ط ١/ ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، ص ٤٤.



واضح للمقاصد عبر القرون، إلى أن هذا المصطلح هو واضح المعاني عند العلماء ومن حولهم من أهل العلم^(١). وعلى كل لقد حاول كثير من العلماء والباحثين اختيار أحسن تعريف للمقاصد اصطلاحاً، فيعرفها الشيخ أبو حامد الغزالي^(٢): ”أما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة ودفع مضرة، ولسنا نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكن نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشارع، ومقصود الشارع من الخلق خمسة وهو: أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة“^(٣) فالإمام الغزالي فرق في تعريفه بين الوضع اللغوي للمصلحة والوضع الشرعي، فهي في الوضع اللغوي عبارة عن جلب المنفعة أو دفع المضرة، وأما في الوضع الشرعي فهي المحافظة على مقصود الشارع من الخلف الكائن في حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال^(٤) وعرفها ابن تيمية^(٥) بأنها: ”الغايات المحمودة في مفعولاته ومأموراته ﷺ، وهي ما تنتهي إليه مفعولاته

- (١) مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، يوسف أحمد محمد البديوي، دار النفائس، الأردن، ط١/ ٢٠٠٠م، ص٤٥.
- (٢) الغزالي، محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، فيلسوف، متصوف، له نحو مئتي مصنف، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلده، نسبته إلى صناعة الغزل، من كتبه (إحياء علوم الدين)، و(تهافت الفلاسفة) و(الاقتصاد في الاعتقاد) وغيرها كثير توفي سنة ٥٠٥هـ انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي تح: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١/ ٢٠٠٢م، ٦٢/١١، الأعلام، مرجع سابق، ٢٢/٧.
- (٣) المستصفي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي تح: محمد عبدالسلام عبدالشافعي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ١٧٤.
- (٤) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية، زين الدين بن محمد الرماني، دار الغيث للنشر والتوزيع، ط١/ ١٤١٥هـ، ص ٣٠.
- (٥) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، شيخ الإسلام في زمانه وأبرز علمائه، فقيه أصولي ومفتي الدين الحنيف وصاحب الآثار الكبرى في علوم الدين والفكر الإسلامي، تلقى العلم على والده وعلى مشايخ دمشق وظهرت عليه علامات النجابة منذ نعومة أظفاره، كان من أشد مفكري الإسلام نقداً للفلسفة وعلم الكلام بلغت مصنفاته مجلدات ضخمة ومن أهمها مجموع الفتاوى، والفتاوى الكبرى، ودرء تعارض العقل والنقل وغيرها كثير، انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان البرمكي تح: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط ١/ ١٩٧١، ٤/ ٢٨٦.

ومأموراته من العواقب الحميدة، التي تدل على حكمته البالغة^(١). وعرفها محمد الطاهر بن عاشور^(٢) بأنها: ”المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة“^(٣). وربما أستطيع أن أختار كل من تعريف الدكتور وهبة الزحيلي رحمته الله للمقاصد، وهو ”المعاني والأهداف الملحوظة للشارع في جميع أحكامه أو معظمها“^(٤) أما لماذا رجحت هذا التعريف فلأنه وصف المقاصد بالمعاني، وهذا يشمل المعاني الكلية التي تدور حولها أحكام الشريعة، وما يتفرع عنها من أحكام جزئية، والذي اقتضى أن يشمل هذا اللفظ كلا المعنيين، أنه قد حلي بالألف واللام، التي تفيد الاستغراق، وأيضاً بين التعريف أن الأحكام قد شرعت وسائل لإقامة هذه المقاصد، وأن هذه الأحكام في حقيقتها عبارة عن وسائل، لتحقيق غايات مرسومة من قبل الشارع.

ثانياً: تعريف الرحمة لغة واصطلاحاً:

١. تعريف الرحمة لغة:

الرحمة من الفعل رحمه يرحمه رحمة، وتدور مادة الفعل (رحم) على معنى الرقة والعطف والرأفة، يقول ابن فارس^(٥): ”الراء والحاء والميم

- (١) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني تح: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م ١٩/٢.
- (٢) محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودرسته بها، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات كثيرة، من أشهرها (مقاصد الشريعة الإسلامية) و(أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و(التحرير والتوير) في تفسير القرآن، توفي سنة ١٣٩٣ هـ انظر: الأعلام، مرجع سابق، ١٧٤/٦.
- (٣) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق ودراسة محمد الطاهر الميساوي، عمان-الأردن، دار النفائس، ط ٢/ ٢٠٠١ م، ص ٢٥١.
- (٤) أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر بدمشق، ط ٢/ ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ١٠٤٥/٢.
- (٥) أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، من أئمة اللغة والأدب أصله من قزوين، وأقام مدة في همدان، ثم انتقل إلى الري، فتوفي فيها، وإليها نسبته، من تصانيفه (مقاييس اللغة) و(جامع التأويل) في تفسير القرآن، و(النيروز) في نوادر المخطوطات، و(الاتباع والمزاوجة) و(الحماسة المحدث) و(كتاب الثلاثة) في الكلمات المكونة من ثلاثة حروف متماثلة، وله شعر حسن، توفي سنة ٣٩٥ هـ، انظر: الأعلام، مرجع سابق، ١٩٣/١.

أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك رحمه يرحمه، إذا رق له وتعطف عليه^(١). وقد تطلق الرحمة أيضاً ويراد بها ما تقع به الرحمة، كإطلاق الرحمة على النبوة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥] أي يختص بنبوته^(٢) وكإطلاقها على الرزق وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩] أي أذقنا الإنسان منا رخاء وسعة في الرزق والعيش^(٣).

٢. تعريف الرحمة اصطلاحاً:

عرفها الإمام ابن القيم^(٤) بقوله: "الرحمة صفة تقتضى إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها. فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك"^(٥). وقال الراغب الأصفهاني^(٦) في تعريفها: "والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رحم الله فلاناً. وإذا وصف به

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، تح: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ٤٩٨/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري، مرجع سابق، ٢٥٥/١٥، تاج العروس، مرجع سابق، ٢٢٩/٣٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري، مرجع سابق، ٢٥٥/١٥.

(٤) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرْعِيّ الدمشقيّ، أبو عبدالله، شمس الدين، من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء، مولده ووفاته في دمشق، تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، كان يحب الكتب كثيراً حتى إنه جمع منها عدداً عظيماً، وألف تصانيف كثيرة منها (إعلام الموقعين) و(الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) و(شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) و(كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء)، انظر: الأعلام، مرجع سابق، ٥٦/٦.

(٥) إغاثة اللهفان من مصاديد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تح: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٧٤/٢.

(٦) الحسين بن محمد بن الفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، من كتبه (محاضرات الأديباء) مجلدان، و(الذريعة إلى مكارم الشريعة) و(الأخلاق) ويسمى (أخلاق الراغب) و(جامع التفاسير) كبير، طبعت مقدمته، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره، و(المفردات في غريب القرآن) وحل مشابهاة القرآن و(تفصيل النشاطين) في الحكمة وعلم النفس، و(تحقيق البيان) في اللغة والحكمة، وكتاب في (الاعتقاد) و(أفانين البلاغة) توفي سنة ٥٠٢ هـ، انظر: الأعلام، مرجع سابق، ٢٥٥/٢.

الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الأدمين رقة وتعطف^(١). ويقول ابن عاشور أيضاً في تعريفها: "اسم الرحمة موضوع في اللغة العربية لرقة خاطر وانعطافه نحو حي بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والإحسان إليه، ودفع الضر عنه، وإعانتته على المشاق، فهي من الكيفيات النفسانية، لأنها انفعال، ولتلك الكيفية اندفاع، يحمل صاحبها على أفعال وجودية بقدر استطاعته وعلى قدر قوة انفعاله، فأصل الرحمة من مقولة الانفعال، وآثارها من مقولة الفعل، فإذا وصف موصوف بالرحمة كان معناه حصول الانفعال المذكور في نفسه، وإذا أخبر عنه بأنه رحم غيره فهو على معنى صدر عنه أثر من آثار الرحمة"^(٢) وعرفها الكفوي^(٣) فقال: "الرحمة: هي حالة وجدانية تعرض غالباً لمن به رقة القلب، وتكون مبدأً للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان، ولما لم يصح وصفه ﷺ بالرحمة لكونها من الكيفيات، وهي أجناس تحتها أنواع، فيما أن يتصف الباري بكل منها وهو محال، أو ببعضها المخصص فيلزم الاحتياج، أو بمخصص فيلزم الترجيح، أو لا يتصف بشيء، وهو المطلوب، لا جرم حمل على المجاز، وهو الإنعام على عباده، فرحمة الله مجاز عن نفس الإنعام، كما أن غضبه مجاز عن إرادة الانتقام"^(٤).



- (١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم الدار الشامية، دمشق بيروت، ط١/١٢٠١هـ، ص ٢٤٧.
- (٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة، ١٩٨٤، ١/١٦٩.
- (٣) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريني الكفوي، صاحب (الكليات) كان من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء في (كفه) بتركيا، وبالقدس، وببغداد، وعاد إلى إستانبول فتوفي بها، ودفن في تربة خالد، وله كتب أخرى بالتركية، توفي سنة: ١٠٩٤ م انظر: الأعلام، مرجع سابق، ٢/٣٨.
- (٤) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريني الكفوي، تح: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت، ص ٤٧١.

المبحث الأول في مقاصدية الرحمة

إن الإسلام هو دين الرحمة، وهي رحمة نابغة من الرحمة العظمى، رحمة الله ﷻ التي وسعت كل شيء: القريب والبعيد، المؤمن والكافر، الإنسان والحيوان، والرحمة هي سمة هذا الدين في كل جوانبه، في عقيدته وشريعته، في أخلاقه وعبادته، في معاملاته، وحتى في عقوباته أيضاً، ولكي نتبين مقاصدية الرحمة لابد أن نبحث في مقاصديتها في كل من القرآن والسنة، فهما المصدران الأساسيان في الإسلام:

المطلب الأول مقصد الرحمة في القرآن الكريم

لقد اهتم القرآن الكريم بصفة الرحمة اهتماماً بالغاً، حتى إنه لا تخلو صفحة من صفحاته إلا وفيها بعض آيات تصرح أو تشير إلى موضوع الرحمة الإلهية، ولا أدل على هذا من أن القرآن الكريم جعل الغاية العامة التي بعث بها النبي ﷺ هي الرحمة، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء] والقرآن الكريم أيضاً جعل شعاره وعنوانه الذي أمر المؤمنين أن يفرحوا من أجله هو الرحمة أيضاً، فقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ يَفْضَلِ

اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ، فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ [يونس] ويخبرنا القرآن أيضاً أنه ﷺ قد كتب الرحمة على نفسه، رحمة عامة بكل الخلق، يقول تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] يقول القرطبي^(١): "أي أوجب ذلك بخبره الصدق، ووعدته الحق، فخطوب العباد على ما يعرفونه من أنه من كتب شيئاً فقد أوجبه على نفسه"^(٢) ولا أدل على اعتناء القرآن بهذا المقصد العظيم، وتأكيده له من أنه ورد ذكر (الرحمة) في القرآن الكريم ومشتقاتها، نحو ثلاث مئة وخمس عشرة مرة، بين وروده بصيغة الاسم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٢٧] وبين وروده بصيغة الفعل كقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ١٤٩].

أما عن معنى (الرحمة) في القرآن الكريم فقد ورد على عدد من المعاني، ومنها:

- الرحمة التي هي (صفة) الله جل وعلا، تثبت له على ما يليق بجلاله وعظمته، من ذلك قوله ﷺ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، و(الرحمة) كصفة لله تعالى هي الأكثر وروداً في القرآن الكريم.
- الرحمة بمعنى (الجنة)، من ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، أي: يطمعون أن يرحمهم الله، فيدخلهم جنته بفضل رحمته إياهم^(٣).

(١) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبدالله، القرطبي: من كبار المفسرين. صالح متعبد. من أهل قرطبة. رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسبوط، بمصر) وتوفي فيها. من كتبه «الجامع لأحكام القرآن عشرون جزءاً، يعرف بتفسير القرطبي، و«الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» وكان ورعاً متعبداً، طارحاً للتكلف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية توفي سنة: ٦٧١ هـ، انظر: الأعلام، ٣٢٢/٥.

(٢) تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، ٤٣٥/٦.

(٣) تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م، ٣١٩/٤.

- الرحمة بمعنى (المطر)، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، يقول الإمام الطبري (١): "و" الرحمة" التي ذكرها جل ثناؤه في هذا الموضع، المطر" (٢).

كما وردت الرحمة بعدد كبير من المعاني في القرآن الكريم (٣)، ربما تتقاطع بأن الأصل في هذه الأشياء كلها هو الرحمة، ولولا الرحمة لما كانت هذه الأشياء.

المطلب الثاني

مقصد الرحمة في السنة النبوية

ليس هناك وصف أجل ولا أعظم، من وصف الله ﷻ لنبيه ﷺ في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] فقد كان ﷺ أرحم الناس بالناس، مؤمنهم وكافرهم، صغيرهم وكبيرهم، صحيحهم

(١) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر: المؤرخ المفسر الإمام، ولد في أمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها. وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى. له (أخبار الرسل والملوك) يعرف بتاريخ الطبري، و(جامع البيان في تفسير القرآن) يعرف بتفسير الطبري، و(جزء في الاعتقاد) و(القراءات) وغير ذلك. وهو من ثقاة المؤرخين، وكان مجتهداً في أحكام الدين لا يقلد أحداً، بل قلده بعض الناس، وعملوا بأقواله وآرائه. وكان أسمر، أعين، نحيف الجسم، فصيحاً توفي سنة ٢١٠هـ، انظر: الأعلام، ٦٩.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٤٩٢/١٢.

(٣) وردت الرحمة في القرآن الكريم بمعنى (النبوة)، من ذلك قوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، ووردت بمعنى (القرآن)، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] وبمعنى (المطر)، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وبمعنى (النعمة والرزق)، من ذلك قوله ﷻ: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، وبمعنى (النصر)، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧] وبمعنى (العطف والمودة)، من ذلك قوله ﷻ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وبمعنى (العصمة)، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتُمْ﴾ [يوسف: ٥٢]، وبمعنى (الثواب)، من ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، كما وردت أيضاً بعدة معانٍ أخرى.

ومريضهم، بل إن رحمته ﷺ تعدت ذلك إلى الحيوانات أيضاً، وقد أكد النبي ﷺ على مقصد الرحمة، واعتنى به في أقواله، فكان يمدح الرحماء، ومن فيهم هذه الصفة العظيمة، كما ترجم هذه الأقوال إلى أفعال، فكان دائماً رحيماً عطوفاً ﷺ، وسوف نتناول مقاصد الرحمة في السنة في أقواله وأفعاله ﷺ :

أولاً: تأكيد النبي ﷺ على مقصد الرحمة في أقواله:

لقد ثبتت عن النبي ﷺ أحاديث عديدة جداً تؤكد على مقصد الرحمة، وأن الرحمة هي من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية، ومنها على سبيل المثال:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض: يرحمكم أهل السماء»^(١) والمراد بأهل السماء الملائكة، ومعنى رحمتهم لأهل الأرض: دعاؤهم لهم بالرحمة والمغفرة، كما قال تعالى ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت أبا القسم الصادق المصدوق رضي الله عنه صاحب هذه الحجة يقول: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»^(٣) أي لا تسلب الشفقة على خلق الله، ومنهم نفسه، التي هي أولى بالشفقة والمرحمة عليها من غيرها، بل فائدة شفقتة على غيره راجعة إليها، لقوله تعالى

(١) رواه الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ماجاء في رحمة المسلمين، وقال عنه: حديث حسن صحيح، ٢٨٨/٣، ورواه البيهقي، أيضاً كتاب السير، باب ما على الولي في أمر الجيش، ٧١/٩، ورواه الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وقال محققه محمد فؤاد عبدالباقي صحيح لغيره، ٢٣/١١.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبدالرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ، ١٩٥/١٣.

(٣) رواه أبو داود كتاب الأدب، باب في الرحمة، وقال عنه الألباني حسن، ٢٨٦/٤، ورواه الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ماجاء في رحمة المسلمين، وقال عنه: حديث حسن صحيح، ٢٨٨/٣، ورواه البيهقي وزاد في آخره ثلاث مرات، ٢٧٨/٨، ورواه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال عنه المحقق: إسناده على شرط مسلم، ٣٧٨/١٣.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧] (إلا من شقي) أي كافر أو فاجر يتعب في الدنيا، ويعاقب في العقبى^(١).

وعن جرير بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»^(٢).

وعن جابر رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم لا يُرحم»^(٣). وتقديره من لا يكن من أهل الرحمة فإنه لا يرحم^(٤). وعن أسامة رضي الله عن النبي ﷺ قال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٥).

إلى غيرها من الأحاديث الكثيرة التي امتلأت كتب الحديث بها، تأكيداً منه ﷺ على هذا المقصد العظيم.

ثانياً: تأكيداً على مقصد الرحمة في أفعاله:

لم تبق رحمته ﷺ مجرد تعاليم نظرية ومواعظ ألقاها على الناس لم تلق ترجمة واقعية على الأرض، بل إن النبي ﷺ ترجمها إلى الحياة العملية، والأمثلة على ذلك من سيرته ﷺ كثيرة جداً ومنها مثلاً:

أن النبي ﷺ كان دائماً ما يخاف على أمته من كثرة العبادة، ومع أن الأمر مرغوب به، ومحمود، لكنه ﷺ كان يخشى على أمته من المبالغة في الأمر، لذلك كان كثيراً ما يعرض عن عمل من الأعمال كان يحبه، لخوفه من أن يفرض على أمته فيشقق عليهم.

(١) انظر: عون المعبود، مرجع سابق، ١٣/١٩٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، ٩/١١٥.

(٣) رواه البخاري، كتاب الآداب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ٨/١٠.

(٤) انظر: فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، ١٠/٤٢٩.

(٥) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، ٨/١٣٣.

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدع العمل، وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس، فيفرض عليهم»^(١).

ولذلك كان يقول دائماً: لولا أن أشق على أمتي لفعلت كذا أو لأمرتهم بكذا، ومن ذلك مثلاً:

قوله صلى الله عليه وسلم: «لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيأ، ثم أقتل، ثم أحيأ، ثم أقتل»^(٢) وقال أيضاً: «لولا أن أشق على أمتي أو على الناس، لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»^(٣) إلى غيرها الكثير من الأحاديث التي تدل على رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته، فهذا منهجه صلى الله عليه وسلم في كل سيرته العطرة، الرحمة بالأمة والعطف عليها، حتى إن رحمته صلى الله عليه وسلم تعدت المؤمنين إلى الكافرين، فقد صح أنه صلى الله عليه وسلم زار جاره الكافر عندما مرض^(٤) كما تعدت البشر إلى الحيوانات أيضاً، فهو يقرر أنه: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»^(٥) ويمثل فتح مكة البرهان العملي الواضح على رحمته وعفوه صلى الله عليه وسلم، فبعد أن عذبه القوم، وعذبوا المؤمنين في مكة، وبعد أن هجروهم من بلدهم مكة، وبعد أن منعوهم من إقامة دينهم في مكة، بعد هذا كله قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما ترون أني صانع بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «أذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٦).



- (١) رواه أبو داود، باب صلاة الضحى، ٢٨/٢، وقال عنه الألباني: صحيح.
- (٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان، ١٦/١.
- (٣) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة، ٤/٢.
- (٤) انظر: البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، ٩٤/٢.
- (٥) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: خمس من الدواب فواسق، يقتلن في الحرم، ١٣٠/٤.
- (٦) رواه البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب السير، باب فتح مكة حرسها الله صلى الله عليه وسلم، ١٩٩/٩.

المبحث الثاني أثر مقصد الرحمة في حياة المسلم

المطلب الأول أثر مقصد الرحمة في الحياة السياسية

إن لمقصد الرحمة آثاراً مهمة جداً في حياة المسلم عامة، إلا أن لهذا المقصد العظيم آثاراً مهمة جداً على الحياة السياسية للمسلمين بشكل خاص، وسنستعرض بعض هذه الآثار باختصار:

١. أثر مقصد الرحمة في اختيار رجال الدولة:

إن لمقصد الرحمة أثره الواضح في اختيار رجال الدولة، سواء أكانوا من مسؤولي الدولة بشكل عام، أم كان الخليفة نفسه، وهذا المعيار وهو الرحمة بالمسلمين أو الرعية بشكل عام، يجب أن يؤخذ بالاعتبار من قبل القائمين على اختيار رجال الدولة، وهذا لا يتنافى مع الصلابة في الحق^(١)، وهذا الأمر واضح في سيرته ﷺ، فهو الرحمة المهداة، وربما موقف اختيار أبي بكر ليصلي بالناس وما به من إشارة واضحة للمسلمين أنه الخليفة بعد رسول الله ﷺ من أهم المواقف التي تدلنا على هذا الأمر، وقد اعترضت ابنته سيدتنا عائشة على هذا الأمر لكون أبي بكر رجل رقيق القلب جداً، فلا يستطيع الوقوف في هذا الموقف، عن حمزة ابن

(١) انظر: إمامة الأمة، عبد السلام ياسين، دار لبنان للطباعة والنشر، ط١/١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ص ٨٢.

عبدالله، أنه أخبره، عن أبيه، قال: لما اشتد برسول الله ﷺ وجعه قيل له في الصلاة، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» قالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ غلبه البكاء، قال: «مروه فيصلي» فعاودته، قال: «مروه فيصلي، إنكن صواحب يوسف»^(١).

ومما يدل على ذلك مواقف كثيرة من سيرة الصحابة، وعلى وجه الخصوص سيرة سيدنا عمر بن الخطاب، فقد روي أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ استعمل رجلاً من بني أسد على عمل، فجاء يأخذ عهده، قال: فأتى عمر ﷺ ببعض ولده فقبله، قال: أتقبل هذا؟ ما قبلت ولدًا قط، فقال عمر: «فأنت بالناس أقل رحمة، هات عهدنا، لا تعمل لي عملاً أبداً»^(٢).

فتدل هذه الحوادث وغيرها، على أن النبي ﷺ والصحابة الكرام، كانوا يراعون أن يكون الخليفة أو رجل الدولة رحيماً بالمسلمين، عطوفاً عليهم، يرحم ضعيفهم، ويأخذ من قويمهم الحق، وينصفهم.

٢. أثر مقصد الرحمة في تعزيز المسؤولية السياسية:

وإن لمقصد الرحمة أثره الواضح في تعزيز المسؤولية السياسية، فمما هو معلوم أن الإسلام أناط بأولي الأمر مسؤوليات عديدة، ينبغي مراعاتها، فقد قال ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»^(٣)، وقاسي القلب، الذي لم يتحل بصفة الرحمة لن يكون رحيماً بالخلق، ومن ثم سيخل حتماً بمسؤوليته السياسية التي انيطت به، ولن يعمل لأجل المسلمين الذي تولى شأنهم، وأخذ العهد منهم على إصلاح أمورهم، وإن نظرة سريعة في سيرة سيدنا عمر بن الخطاب لتبين لنا هذا الأمر بجلاء، لا التباس فيه مطلقاً فسيدنا عمر بن الخطاب كان قاسي القلب جداً في الجاهلية، وكانت العرب

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، ١/١٣٧.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب ما على الوالي من أمر الجيش، ٩/٧٢.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ٥/٢.

تخافه، حتى إنه ضرب أخته وزوجها، ولكنه عندما أسلم أصبح يخاف على شاة في العراق أنها تتعثر، فيسأله الله ﷻ عن ذلك.

٣. أثر مقصد الرحمة في القتال والحرب:

إن لمقصد الرحمة آثارها الواضحة في حرب المسلمين مع عدوهم، ومع أن الموقف ليس فيه رحمة، كما يخيل للبعض إلا أن الإسلام هو دين الرحمة ومن أهم هذه الآثار:

أ. أثر مقصد الرحمة في الابتعاد عن الحرب:

مما لا شك فيه أن النبي ﷺ هو الرحمة المهداة، وقد شهد بهذا حتى أعداء المسلمين أنفسهم، ومن هنا كان النبي ﷺ أحرص ما يكون على إبعاد الناس عن الحرب والقتال، فالقتال كره عظيم كما وصفه الله ﷻ، وفيه إراقة للدماء، فمن رحمة الإسلام بالإنسانية كلها أنه كره الحرب والقتال، وهذه المواقف واضحة جلية في القرآن والسنة، فالله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] "فهذه الآية الكريمة من كتاب الله ﷻ تبرهن بشكل قاطع على حب المسلمين وإيثارهم لجانب السلم على الحرب، فمتى مال الأعداء إلى السلم رضي المسلمون به ما لم يكن وراء هذا الأمر ضياع حقوق المسلمين أو سلب إرادتهم"^(١) والذي يراجع القرآن الكريم يجد أن الأصل في التعامل مع الحرب هو تجنبها، وتقديم السلم ما استطاع المسلمون ذلك، فقد جاءت كلمة السلم بمشتقاتها في القرآن الكريم مئة وأربعين مرة، بينما جاءت كلمة الحرب بمشتقاتها ست مرات فقط.

(١) الرحمة في حياة الرسول، د. راغب السرجاني، رابطة العالم الإسلامي، المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرتة، ط١/ ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ص ٢٥٦.

للملوك إلا أثر عظيم من آثار الرحمة، خصوصاً أنه ﷺ صدر جميع رسائله بكلمة الرحمة «بسم الله الرحمن الرحيم» فمثلاً كتابه لهرقل عظيم الروم، وقد جاء في أوله: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين" (١). وقد أمر النبي ﷺ المسلمين بعدم تمنيه للقاء العدو فقال: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية» (٢). ومما يدل على هذا أيضاً أن النبي ﷺ كان يكره اسم حرب، فقد قال: «أحب الأسماء إلى الله عبد الله، وعبد الرحمن، وأصدقها حارث، وهمام، وأقبحها حرب ومرة» (٣).

وكان دائماً يحول هذا الاسم إلى اسم أفضل منه، فهو اسم يدل على القتال والحرب، وإراقة الدماء، وعدم الرحمة بالخلق، إلا إن فرض القتال على المسلمين، فالحرب إذاً لا بد منها.

ب. أثر مقصد الرحمة على المدنيين في الحرب:

تقوم الحرب عادة ولا تفرق بين أحد، لا تفرق بين المدني والمقاتل، ولا بين الرجل والمرأة، ولا بين الحر والعبد، فالحرب دائماً تقوم لسحق العدو، فهي تعمل لا لتخرجه من ساحة المعركة فقط، بل لتخرجه من ساحة الحياة كلها، إلا أن الإسلام برحمته العامة لم يكن كذلك قط، فهو رحيم حتى مع الأعداء، فلا يجيز الإسلام مطلقاً في الحرب التعدي على المدنيين، الذين لم يشتركوا فيها، ولا الشيوخ الكبار، ولا

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، ٤٥/٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار آخر القتال حتى تزول الشمس، ٥١/٤.

(٣) رواه أبو داود، كتاب الآداب، باب في تغيير الأسماء، وقال عنه الألباني: صحيح، ٢٨٧/٤.

الأطفال أو النساء أو العجزة، ولا المتسكين العباد، ولا العبيد الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً، وهذا الأمر واضح في وصاياهم ﷺ ووصايا صحابته للقادة، الذين كانوا يرسلونهم للحرب، فقد أوصى النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف، فقال له: «اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيه ﷺ»^(١)، وفي رواية ابن عباس ما يدل على أن هذه الوصية كانت دأبه ﷺ كلما بعث سرية أو أرسل جيشاً لملاقاة العدو، عن ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيشاً، وفي رواية ابن أبي أيسر قال: عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا بعث جيوشه، قال: «أخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع»^(٢). وكان النبي ﷺ ينهى عن قتل النساء عن نافع أن رسول الله ﷺ، رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة، فأنكر ذلك، ونهى عن قتل النساء، والصبيان^(٣).

ج. أثر مقصد الرحمة على الأسرى في الحرب:

إن الإسلام حث على الرحمة حتى مع أسرى العدو، الذين كانوا منذ قليل يقاتلون المسلمين، ويقتلون فيهم، ونهى عن تعذيبهم أو تجويعهم، كما نهى عن التمثيل فيهم أو تقطيع أعضائهم، فقد قال النبي ﷺ «فكوا العاني، يعني: الأسير، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض»^(٤).

هذا الأمر -الرحمة مع الأسرى- كان منهجه ﷺ، ففي غزوة بدر الكبرى، وهي أولى معارك المسلمين، وقد لقي المسلمون ما لقوا من تعذيب وتهجير من قبل المشركين، ولما استشار النبي ﷺ بشأنهم،

(١) رواه الحاكم في المستدرک، کتاب الفتن والملاحم، ٥٨٢/٤.

(٢) رواه أحمد، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ٤/٤٦١.

(٣) رواه مالك، کتاب الجهاد، النهي عن قتل النساء، والصبيان في الغزو، ٣/٦٣٥.

(٤) رواه البخاري، کتاب الجهاد والسير، باب فكك الأسير، ٦٨/٤.

أخذ برأي أبي بكر، لأنه أرحم من رأي عمر رضي الله عنه، إلى غيرها من المواقف والأحداث الكثيرة، التي تبرهن بما لا يدع مجالاً للشك: أن لمقصد الرحمة آثاره الواضحة في مجال الحكم والسياسية، هذه الرحمة طبقها النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام من بعده، فلا بد أن تأخذ بعين الحسبان في عصرنا الحاضر.

المطلب الثاني

أثر مقصد الرحمة في الحياة الاقتصادية

إن الاقتصاديات العالمية اليوم لا تعد القيم ولا الأخلاق في تعاملاتها مطلقاً، وتتميز بالنفعية (البراغماتية) البحتة، والبحث عن المصلحة دون أي اعتبار لوسائل الوصول إليها، أكانت أخلاقية أم لم تكن؟ إلا أن الاقتصاد الإسلامي يتميز عن بقية الاقتصادات العالمية بأنه اقتصاد القيم والأخلاق، التي لم يجد عنها في كل تشريعاته حتى المبنية منها على المصلحية كالتعاملات الاقتصادية، ومن أجل ما راعاه الإسلام في تشريعاته وفي جانب الاقتصاد أيضاً وكان له حضوره البارز خلق الرحمة، كيف ذلك والشريعة كلها مبنية على الرحمة في أصولها وفي فروعها.

ومن أعظم التطبيقات العملية التي يتبين فيها رحمة الإسلام بالناس عموماً في الجانب الاقتصادي هو تحريمه الربا، وجعله من الكبائر والمتأمل في تحريم الربا وتغليظ الحكم الشرعي فيه، وينظر في الوقت إلى عالمنا المعاصر وظروف الاقتصاديات المعاصرة يكشف رحمة الله صلى الله عليه وسلم ورسوله بالمسلمين بل بالبشرية جمعاء، ذلك لأن الربا يعتبر من أكبر المخاطر التي تهدد الاقتصاديات العالمية بشهادات كثيرة من علماء الغرب أنفسهم⁽¹⁾.

(1) انظر: التوجيهات النبوية ومعالم الرحمة في الاقتصاد والمعاملات، د. فارس مسدود، مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية، يونيو، ٢٠١٥.

وكذلك من أجل التطبيقات التي علمنا إياها رسول الله ﷺ التي يتبين بها رحمة الرسول ﷺ بأتمته توجيهه ﷺ أتمته للعمل وعدم الإتكال أو التواكل أو التسول، فإنه ﷺ يعلم أن الأمة التي لا تعمل ولا تجتهد أمة زائلة ومسيطر عليها، والأحاديث كثير في الحث على العمل والاجتهاد في الكسب منها مثلاً: «ما أكل أحد منكم طعاماً أحب إلى الله ﷻ من عمل يديه»^(١) وقال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، خير له من أن يسأل أحداً، فيعطيه أو يمنعه»^(٢) بل إن الإسلام جعل العمل عبادة لله ﷻ إن نوى به المسلم نية حسنة، إلى غيرها من التطبيقات الكثيرة التي تدل على رحمة الإسلام بالناس جميعاً، ومن التطبيقات الجليلة التي يضيّق المقام عن ذكرها وهي ركن من أركان الإسلام الزكاة، وكذلك هناك الأوقاف الإسلامية وغيرها الكثير.

أولاً: التأسيس الشرعي للرحمة في الاقتصاد الإسلامي:

١. من القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء] ومن مقتضيات الرحمة تحقيق المصلحة للعباد بجلب المنافع لهم ودرء المفسد عنهم، وهذا ما قاله الإمام العز بن عبد السلام^(٣): ”الشريعة كلها مصالح: إما درء مفسد أو جلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]؛ فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيراً يحثك عليه

(١) رواه أحمد، مسند الشاميين، حديث المقدم بن معدي كرب الكندي أبي كريمة، ٤١٨/٢٨.

(٢) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، ٥٧/٣.

(٣) عبدالعزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين الملقب بسليمان العلماء، فقيه شافعي ولد ونشأ في دمشق تولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي، ثم نفي إلى مصر، وتوفي بالقاهرة من كتبه التفسير الكبير وقواعد الأحكام في إصلاح الأنام وغيرها الكثير، انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، =

= عبد الحي بن أحمد العكري الحنبلي، حققه: محمود الأرنؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط ١/١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ٥٢٢/٧، الأعلام، الزركلي، ٤/٢١.

أو شرًّا يزعرك عنه، أو جمعاً بين الحث والزجر، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفسد حثاً على اجتناب المفسد وما في بعض الأحكام من المصالح حثاً على إتيان المصالح^(١) يقول الإمام مجاهد^(٢) في تبيان الرحمة في هذه الآية: ”من آمن بالله ورسوله تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسح والقذف فذلك الرحمة في الدنيا“^(٣).
ومن أجل الرحمة وأعظمها: الرحمة في الاقتصاد لأنه عصب الحياة، والقلب الذي تسيّر به الدنيا، وكذلك من تأصيلات مقصد الرحمة في الاقتصاد في القرآن الكريم التطبيقات الكثيرة، التي ذكرنا بعضاً منها، والتي ذكرت جميعها في القرآن الكريم، والتي تدل على رحمة الإسلام بالمسلمين بل بالناس كافة.

٢. من السنة النبوية:

قوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء»^(٤) ”فقد جعل النبي ﷺ الرحمة شرطاً لنيل رحمة الله ﷻ، فهي قيمة من قيم الإسلام، ومن هنا فقد أوجب الإسلام الرحمة بالخلق، فلا يجعل التاجر أكبر همه وغاية سعيه الحصول على أكبر قدر من الربح لخزائنه أو رصيده في المصرف، وإن كان ذلك على حساب جهود الناس“^(٥).

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام، راجعه وعلق عليه: طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، ١٤١٤هـ - ١٩٩١م، ١/١١.

(٢) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم، تابعي، مفسر من أهل مكة، أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات، يقف عند كل آية يسأله، فيم نزلت وكيف كانت؟ وتنتقل في الأسفار، واستقر في الكوفة مات سنة ١٠٤ هـ، انظر: الأعلام، ٣٧٨/٥.

(٣) تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر التابعي المكي، المحقق: الدكتور محمد عبدالسلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، ص ٤٧٦.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) معالم الرحمة في المعاملات المالية، د. محمد محمود طلافحة، من أبحاث المؤتمر الدولي، نبي الرحمة ﷺ، المنعقد في ٢٥، شوال، ١٤٣١هـ - ٤ أكتوبر، ٢٠١٠م، ص ٩٨٦.



ويقول ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»^(١)، فقد "رتب المحبة عليه ليدل على السهولة والتسامح في التعامل سبب لاستحقاق المحبة، ولكونه أهلاً للرحمة، وفيه فضل المسامحة وعدم احتقار شيء من أعمال الخير، فلعلها تكون سبباً لمحبة الله، التي هي سبب للسعادة الأبدية"^(٢).

إلى غيرها من الآيات والأحاديث، التي تؤصل لمقصد الرحمة في الحياة الاقتصادية، كما أن هناك تطبيقات كثيرة في السنة النبوية الإسلامية تدل على هذا المقصد العظيم من الناحية الاقتصادية وما الكفارات بأنواعها إلى أحد هذه التطبيقات الكثيرة.

ثانياً: أثر مقصد الرحمة في السلوك الاقتصادي للمسلم:

١. أثر خلق الرحمة على السلوك الاقتصادي للمسلم مع نفسه:

إن المسلم الذي يتحلى بخصلة الرحمة يشعر براحة في القلب وسكينة، وحسن التوكل على الله، وهذا يدفعه إلى الالتزام بأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية في معاملاته المالية والاقتصادية التي هي رحمة، ويكون سلوكه الاقتصادي متأثراً بهذه القيمة العظيمة، ومن أهم آثار هذا المقصد العظيم على المسلم ما يلي:

- الإيمان بأن الرزق مقدر من الله ﷻ، وعليه أن يأخذ بالأسباب المشروعة، ويتجنب غير المشروعة منها، ويؤمن بأن الغاية من الكسب هو التقوية على طاعة الله وأن يرضى ويقنع بما قدره الله له، وهذا رحمة.

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف، ٥٧/٣.

(٢) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ٥١٢/٣.

- أن لا يشق المسلم على نفسه، ولا يحملها ما لا تطيق، وذلك بالهرولة للحصول عن مزيد من الكسب وتكون الدنيا أكبر همه ومصدر شقائه، إن عدم تحميل نفسه ما لا يطيق رحمة.
- أن يحقق المسلم التوازن في حياته التعبدية والاجتماعية والاقتصادية، متأسيًا بوصية رسول الله ﷺ: «إن لربك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، وإن لأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه»^(١)، وهذا التوازن رحمة.

٢. أثر خلق الرحمة في السلوك الاقتصادي للمسلم مع أهله:

إن التزام أفراد الأسرة الزوج والزوجة والأولاد بخلق الرحمة فيما بينهم يحقق السكينة والمودة والمحبة، ويجب أن يكون ذلك شاملاً كل نواحي الحياة المعنوية والمادية، ولقد تبين أن من أسباب الشقاء والتعاسة والقلق في البيت المسلم هو السلوك غير السوي في المعاملات المالية والاقتصادية، وذلك عندما تطغى الماديات على الروحانيات، ولا يمكن تجنب ذلك الطغيان إلا من خلال التربية الروحية، التي تقود إلى التراحم الفعال بينهم، ومن نماذج السلوك الاقتصادي المشروع والمنشود للمسلم في بيته ما يلي:

- الرشد في تدبير شئون البيت، فهذا رحمة وسكينة وأمن، ومن الموجبات الشرعية لذلك تطبيق سلوك الشورى في إعداد ميزانية البيت، لأنها مسبار الود والحب والتربية السلوكية السليمة للأولاد.
- إعطاء الزوجة زكاة مالها لزوجها عند الحاجة من خلق الرحمة، لأن ذلك من قبيل الأقربون أولى بالمعروف، وهذا يقوي من رابطة التعاون على البر والتقوى.

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، ٢٨/٣.

- المتابعة والتقويم المستمر والمحاسبة على الكسب والإنفاق الحلال الطيب والادخار ليوم الحاجة من مسئولية أفراد الأسرة، وإذا ما حدث انحراف يجب سرعة علاجه، فهذا من قبيل الدين النصيحة من خلق الرحمة.

٣. أثر خلق الرحمة في السلوك الاقتصادي للمسلم مع المؤمنين:

يقول الله تبارك وتعالى في تصوير سلوكيات المؤمن مع أخيه المؤمن: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ويستنبط من هذه الآية أن من سمات الجماعة المؤمنة الرحمة، ولقد أكد رسول الله ﷺ على هذا في أقواله وأفعاله، وكذا فعل الصحابة الكرام، ومن صور ترجمة هذه الآية في الواقع الاقتصادي للمسلم مع أخيه المسلم ما يلي:

- تطبيق أسس ونظم التكافل الاقتصادي بين أعضاء الجماعة المؤمنة، فهذا رحمة وألفة، وأساليب ذلك الزكاة والصدقات والقرض الحسن والتبرع والهبة والوصايا والوقف وما في حكم ذلك.
- السماح في المعاملات لأنها تؤدي إلى توثيق الحب والتيسير، فالتسامح في المعاملات رحمة.
- الرحمة بالمدينين، وإعطائهم مهلة لوفاء ديونهم، ودون أخذ أي فوائد عليها فيه رحمة بالمؤمنين وبالمجتمع الإسلامي عامة.

٤. أثر خلق الرحمة في السلوك الاقتصادي للمسلم مع الوطن:

من خلق المسلم القيام بالوفاء بحقوق المجتمع التي شرعها الله، وأن يكون رحيماً بما فيه من مخلوقات ومن السلوكيات الاقتصادية للمسلم تجاه وطنه على سبيل المثال ما يلي:

- المحافظة على طهارة ونظافة المجتمع من التلوث الذي يسبب الأضرار، فلا ضرر ولا ضرار، وهذا رحمة بنفسه وأهله أولاً ورحمة بمن يسكن على أرض الوطن، بشراً كانوا أم من غيرهم.
- تجنب المعاملات غير المشروعة، التي تسبب الفساد في المجتمع، ومنها على سبيل المثال: الرشوة والاحتكار والغش والاحتيال والسرقة وكافة صور الاعتداء على المال العام والخاص، وهذا فيه رحمة للوطن، فإن هذه الأشياء تعيق تقدم المجتمع ومن ثم تعيق تقدم الوطن.
- إعطاء الزكاة والضرائب للدولة، فإن هذا فيه رحمة بالوطن عامة، فإن اقتصاد الدولة المعاصرة يقوم على عدد من الموارد، ولولاها لم تستطع هذه الدول أن تقوم بواجباتها تجاه الأفراد والمجتمع، وهذا رحمة بالوطن والمواطن.

المطلب الثالث

أثر مقصد الرحمة في تعامل المسلمين مع غيرهم

لم يشهد التاريخ فاتحاً مثل المسلمين، لقد شهد بهذا التاريخ نفسه، كما شهد به أعداء المسلمين قبل أصدقائهم، فقد شملت رحمة الإسلام في بوتقتها حتى الذين لم يؤمنوا به، ونظرة المسلمين إلى غيرهم أنهم قوم قد ضلوا الطريق، وأنه يجب على أخوهم الأكبر المسلم الذي جاءه وحي من الله علمه الطريق الصحيح أن يعلم ويرشد غيره بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالرفق واللين إلى هذا الطريق المستقيم، هذه النظرة التي ملؤها رحمة، جعلت آفاقاً من غير المسلمين يدخلون في الإسلام.

وفي حياة النبي ﷺ مواقف عظيمة جداً تشهد على هذا، فحينما ذهب إلى الطائف ولم يلق منهم معاملة حسنة خيره ملك الجبال أن يطبق

عليهم الأخشبين، ولكن رحمته ﷺ بهؤلاء الكفار، جعلت منهم بعد حين مسلمين مدافعين عن هذا الدين، ومن أهم آثار هذا المقصد العظيم على غير المسلمين:

١. حسن معاملة المعاهدين والذميين، وجعل لهم حقوقاً، فقد قال النبي ﷺ: «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»^(١).

٢. الوصية بالجيران، حتى ولو كانوا من غير المسلمين، يقول القرطبي: "الوصية بالجار مأمور بها مندوب إليها، مسلماً كان أو كافراً، وهو الصحيح، والإحسان قد يكون بمعنى المواسة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه"^(٢).

٣. عدم إكراه أحد من المشركين على الدخول في الإسلام، وهذا من رحمة الإسلام، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فدين الإسلام بين واضح جلي، دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحداً على الدخول فيه، فمن هداه الله للإسلام وشرح صدره، ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً.

٤. ومن صور سماحة الإسلام مع غير المسلمين، أنه أوجب على المسلمين سلوك العدل في التعامل مع غيرهم؛ ولم يجعل عدم دخولهم في الإسلام سبباً في ظلمهم أو خيانتهم، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيَّ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

(١) رواه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجار، ١٧٠/٣، وقال عنه الألباني: صحيح.

(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١٨٤/٥.

إلى غيرها كثير من آثار الرحمة في تعامل المسلمين مع الكفار، هذه الآثار وغيرها الكثير تبرهن بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام كان رحيمًا حتى مع الذين لم يؤمنوا به ديناً منزلاً من رب العالمين، فهل يصح أن يقال: إن الدين الإسلامي هو دين إقصائي؟؛ أو أنه دين يدعو إلى التطرف، أو أنه يزرع الكراهية في نفوس أتباعه؛ فما تلك الادعاءات إلا زوراً وكذباً وبهتاناً على الدين العظيم، الذي ارتضاه الله ﷻ للبشرية جمعاء، وهل بعد هذه الرحمة من رحمة أخرى في الأديان السابقة؟.

المطلب الرابع أثر مقصد الرحمة في دائرة الإفتاء

لقد ذكر الفقهاء في كتبهم شروطاً للمفتي، وكذلك للمستفتي، وبسطوا هذا الأمر في كتبهم، ومما ذكروا من شروط المفتي: الإسلام، والتكليف والعدالة في الأقوال والأفعال. يقول الإمام النووي: "شرط المفتي كونه مكلفاً مسلماً ثقة مأموناً متزهراً عن أسباب الفسق، وخوارم المروءة، فقيه النفس، سليم الذهن، رصين الفكر، صحيح التصرف والاستنباط، متيقظاً"^(١)، ومن أهم ما يجب على المفتي أن يتحلى به من الصفات الخلقية هو صفة الرحمة، فيحاول ما استطاع أن تكون فتواه تجلب التيسير للناس، وتجنبهم الحرج والضيق، وذلك ضمن إطار الشريعة الإسلامية، وقواعدها ومقاصدها وضوابطها، ويحاول أن يتمثل بقول النبي ﷺ: «إن هذا الدين يسر»^(٢). وبفعل النبي ﷺ فيما روت سيدتنا عائشة رضي الله عنها: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً»^(٣). وإذا كان الأمر

(١) آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، يحيى بن شرف النووي، المحقق: بسام عبد الوهاب الجابي، دار الفكر - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨، ص ١٩.

(٢) رواه النسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، الدين يسر، ١٢١/٨، وقال عنه الألباني: صحيح.

(٣) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، ١٨٩/٤.

في دائرة الاختلاف فلا يحاول أن يجبر الطرف الآخر على رأيه، حتى ولو كان يعتقد خطأ الطرف الآخر للأدلة التي ظهرت عنده، يقول ابن تيمية: "فهذه مسائل الاجتهاد التي تنازع فيها السلف والأئمة، فكل منهم أقر الآخر على اجتهاده من كان فيها أصاب الحق فله أجران، ومن كان قد اجتهد فأخطأ فله أجر، وخطؤه مغفور له، فمن ترجح عنده تقليد الشافعي لم ينكر على من ترجح عنده تقليد مالك، ومن ترجح عنده تقليد أحمد لم ينكر على من ترجح عنده تقليد الشافعي، ونحو ذلك"^(١).

وهناك تطبيقات كثيرة في فتاوى المتقدمين، راعوا فيها الرحمة للمسلم، وللمستفتي، مثلاً:

١. طلاق الغضبان، فقد ذهب جماهير العلماء من المالكية^(٢) والشافعية^(٣) والحنابلة^(٤) إلى وقوع طلاق الغضبان، إلا أن الإمام ابن القيم ذهب إلى عدم وقوعه على تفصيل عنده في درجات الطلاق. يقول ابن القيم رحمته: "والأدلة الشرعية تدل على عدم نفوذ طلاقه وعتقه وعقوده، التي يعتبر فيها الاختيار والرضا، وهو فرع من الاغلاق، كما فسره به الأئمة"^(٥).

٢. ومن التطبيقات أيضاً ما أفتي به الشوكاني^(٦) بجواز الجمع

(١) الفتاوى، مرجع سابق، ٤/٤٤٩.

(٢) انظر: مثلاً: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي، دار الفكر، دون طبعة ودون تاريخ، ٢/٣٦٦.

(٣) انظر: إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، أبو بكر (المشهور بالبكري) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، ص ٩/٤.

(٤) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده، المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، ٥/٣٢٢.

(٥) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان/ مكتبة فرقد الخاني، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م، ص ٣٩.

(٦) هو الإمام خاتمة محدثي المشرق وأثره، العلامة النظار الجهبذ القاضي محمد بن علي الشوكاني ثم الصنعاني ولد رحمته بصنعاء اليمن، وبها نشأ وقرأ القرآن، وجد واجتهد في الطلب، =

بجميع أشكاله لصاحب السلس والمستحاضة، يقول: ”ولهما
-المستحاضة وصاحب السلس- جمع التقديم والتأخير والمشاركة
بوضوء واحد“^(١).

إلى غيرها الكثير من التطبيقات التي راعى فيها العلماء الرحمة
للمستفتي، والتخفيف عنه، ومن هنا يظهر أهم آثار مقصد الرحمة في
دائرة الإفتاء، وهي:

١. يجب على المفتي أن يتحلى بالأخلاق الحميدة، فهو في مقام
عظيم، ومن أهم ما يجب أن يتحلى به الذي ينتصب للفتوى
الرحمة بالخلق والمستفتين.

٢. يجب أن يراعي المفتي في فتاويه مقصد الرحمة في المستفتين،
ضمن إطار أدلة الشريعة الإسلامية وضوابطها، ومقاصدها التي
راعتها.

٣. يجب على المفتي أن لا يأخذ فتواه من مذهب واحد محاولاً إجبار
الناس على هذا المذهب، ويجب عليه الاطلاع على ما قاله أئمة
المذاهب الأخرى في المسألة المراد الإفتاء فيها، محاولاً التوصل
إلى فتوى تجمع بين قوة الدليل والرحمة والتخفيف بالخلق.



= ومن أكبر مصنفاته في السنة وعلومها: نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار في ثمان مجلدات،
وهو من خير وأجمع ما ألفه المتأخرون في السنة وفقهها، وله أيضاً البدر الطالع بمحاسن من
بعد القرن السابع، والدرر البهية في المسائل - الفقهية وفتح القدير في التفسير، وكانت وفاته رحمته
سنة ١٢٥٥هـ، انظر: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات والمسلسلات، محمد
عبد الحَيّ بن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبدالحَي الكتاني المحقق: إحسان عباس، دار
الغرب الإسلامي - بيروت، ط ٢/ ١٩٨٢، ٢/ ١٠٨٢.

(١) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، الشوكاني، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ص ٩٣.

الخاتمة

ما أحوج الناس اليوم وقد تكالب الأعداء على أمتنا الإسلامية إلى التحلي بهذا الخلق العظيم خلق الرحمة، فإننا إن تحلينا به فسنستشعر معاني الجسد الواحد، الذي إذا مرض تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وفي نهاية البحث سأكتب أهم النتائج التي توصل إليها الباحث:

١. إن معرفة مقاصد الشريعة له أهمية كبيرة جداً في شتى مناحي حياة المسلم.

٢. إن لمقصد الرحمة أثره الواضح في الناحية السياسية، فله أثره في اختيار الحاكم وفي تعزيز مسؤوليته التي وكلت إليه، كما له أثره في اختيار رجال الدولة، فعلى المعنيين باختيارهم أن يراعوا أن يكون الموكل إليه مسؤولية سياسية موصوف بخلق الرحمة.

٣. إن مقصد الرحمة له أثره الواضح في الحرب، مع أن الموقف عادة لا يكون به رحمة، إلا أن الإسلام راعاه حتى في أحكام الحرب مع الأعداء فلا يجوز قتل المدنيين، ولا النساء والأطفال بأي حال من الأحوال.

٤. إن تفعيل خلق الرحمة في المعاملات الاقتصادية على مستوى الفرد، وعلى مستوى الأسرة، وعلى مستوى الوحدات الاقتصادية والاجتماعية والحكومية يقود ذلك إلى وجود المجتمع المتراحم،

والى وجود الحكومة الرحيمة بالرعية، ويكون من ثمار ذلك الخير والرفاهية والبركات.

٥. إن الإسلام قد راعى هذا المقصد العظيم حتى مع غير المسلمين، فقد حرّم الإسلام الاعتداء على المستأمنين، بل وجعل لهم حقوقاً يجب على الدولة الإسلامية الوفاء بها تجاههم.

٦. يجب على المفتي أن يتحلى بجميع صفات الأخلاق الحميدة، لكونه في موقع عظيم، ومن أهم ما يجب أن يتحلى به المفتي خلق الرحمة.

٧. يجب على المفتي أن يراعي في فتاويه مقصد الرحمة بالمسلمين ضمن إطار الشريعة الإسلامية وأدلتها المعروفة.

أهم التوصيات:

١. إن الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالواقع الإسلامي، ولا مجال لانفكاك الأخلاق عن الواقع العملي للمسلمين، وبناء عليه يوصي الباحث بإقامة مؤتمر يهتم بربط الأخلاق الإسلامية بواقع الأمة الإسلامية.

٢. إن أهم أسباب ضعف المسلمين وتفككهم، هو الابتعاد عن الأخلاق الإسلامية، التي قررها الكتاب والسنة، وبناء عليه يوصي الباحث بإقامة ندوة، تتعلق بأسباب ضعف المسلمين، وطرق معالجتها.

٣. إن الحياة الإسلامية السياسية ليست بعيدة عن الأخلاق كما يتصور البعض، وبذلك يوصي الباحث إلى دراسات أكاديمية وبحوث تتعلق بإبراز الأخلاق الإسلامية وتعلقها بالسياسة الشرعية.



فهرس المصادر والمراجع:

• القرآن الكريم:

• كتب التفسير:

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة، ١٩٨٤، ١/١٦٩.
٢. تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٣. تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر التابعي المكي، المحقق: الدكتور محمد عبدالسلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

• كتب الحديث والشروح:

١. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، د. ط.
٢. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرَةَ الترمذي، أبو عيسى، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨م.
٣. السنن الصغرى، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تح: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط٢/ ١٤٠٦-١٩٨٦.
٤. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي، تح: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١/، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٥. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبدالباقي بن

- يوسف الزرقاني، تحقيق: طه عبدالرؤف سعد، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٦. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط ١ / ١٤٢٢هـ.
٧. عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبدالرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ.
٨. فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبدالعزيز بن عبد الله بن باز.
٩. المستدرک على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، تح: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ / ١٤١١ - ١٩٩٠.
١٠. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، تح: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١ / ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
١١. موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
١٢. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تح: خليل مأمون شيخا، بيروت - لبنان، دار المعرفة، ط ١ / ٢٠٠١م.



• كتب الفقه:

١. إعانة الطالبين على حل أفاض فتح المعين، أبو بكر (المشهور بالبكري) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٢. إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان/ مكتبة فرقد الخاني، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٣. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي، دار الفكر، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٤. السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، الشوكاني، دار ابن حزم، الطبعة الأولى.
٥. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
٦. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، الفيومي، أحمد بن محمد المقري، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٤م.
٧. مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده، المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

• كتب الأصول والمقاصد:

١. أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر بدمشق، ط ٢/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٢. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، راجعه وعلق عليه: طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، ١٤١٤هـ - ١٩٩١م.

٣. قواعد المقاصد عند الشاطبي، عبدالرحمن الكيلاني، دار الفكر - دمشق، ط ١ / ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
 ٤. مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق ودراسة محمد الطاهر الميساوي، عمان-الأردن، دار النفائس، ط ٢ / ٢٠٠١م.
 ٥. مقاصد الشريعة الإسلامية، زين الدين بن محمد الرماني، دار الغيث للنشر والتوزيع، ط ١ / ١٤١٥هـ.
 ٦. مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، يوسف أحمد محمد البدوي، دار النفائس، الأردن، ط ١ / ٢٠٠٠م.
 ٧. المستصفي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي تح: محمد عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، ط ١ / ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
 ٨. الموافقات، الشاطبي، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط ١ / ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
 ٩. نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط ٢ / ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- كتب التاريخ والتراجم:
١. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط ١٥ - أيار / مايو ٢٠٠٢م.
 ٢. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي تح: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط ١ / ٢٠٠٣.
 ٣. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحق بن أحمد العكري الحنبلي، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبدالقادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط ١ / ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.



- ٤ . شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، علق عليه: عبدالمجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ١ / ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- ٥ . فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، محمد عبّ الحّيّ بن محمد الحسنی الإدريسي، المعروف بعبدهحي الكتاني المحقق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط ٢ / ١٩٨٢.
- ٦ . نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا.
- ٧ . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد بن خلکان البرمكي تح: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط ١، ١٩٧١.

• كتب اللغة والمعاجم:

- ١ . تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزبيدي، ت: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ط.
- ٢ . لسان العرب، ابن منظور، تصحيح أمين عبدالوهاب، ومحمد الصادق، بيروت - لبنان، ط ٣ / ١٩٩٩م.
- ٣ . المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم الدار الشامية، دمشق بيروت، ط ١ / ١٤١٢هـ.

• كتب أخرى:

- ١ . إمامة الأمة، عبدالسلام ياسين، دار لبنان للطباعة والنشر، ط ١ / ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٢. آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، يحيى بن شرف النووي، المحقق: بسام عبدالوهاب الجابي، دار الفكر - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨.
 ٣. الرحمة في حياة الرسول، د. راغب السرجاني، رابطة العالم الإسلامي، المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرتة، ط١/١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
 ٤. فقه الزكاة، الدكتور يوسف القرضاوي، بيروت- لبنان، مؤسسة الرسالة، ط٢٤، ٢٠٠٠م.
- **المجلات والدوريات:**
١. التوجيهات النبوية ومعالم الرحمة في الاقتصاد والمعاملات، د. فارس مسدود، مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية، يونيو، ٢٠١٥.
 ٢. معالم الرحمة في المعاملات المالية، د. محمد محمود طلافحة، من أبحاث المؤتمر الدولي، نبي الرحمة ﷺ، المنعقد في ٢٥، شوال، ١٤٣١هـ - ٤ أكتوبر، ٢٠١٠م.
- والحمد لله رب العالمين.



موجبات الرحمة الإلهية وموانعها دراسة قرآنية

إعداد:

د. حسن عبد الجليل العبادلة

أستاذ مشارك في علوم القرآن الكريم

كلية السلط للعلوم الإنسانية

الأردن - جامعة البلقاء التطبيقية



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي وصف نفسه بالرحمن الرحيم، ولم يقصر رحمته على المؤمنين، بل قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وشاء أن تكون تحية دين الإسلام سلاماً مقروناً بالرحمة في الدنيا، وجعل زيادة نعيمه سلاماً منه على أهل الجنة، قال تعالى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. والصلاة والسلام على سيد الأنام رسول دين الإسلام، ذي الخلق العظيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، المُرسَل من الله رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وعلى آله الطاهرين، وصحابته المتقين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإننا نشهد في هذه الحقبة ظهور جماعات تنتهك الحرمات، وتقتل وتمثل وتروّع دون أي رحمة باسم الإسلام، يلوون أعناق النصوص، ليستشهدوا على قبيح أفعالهم بالقرآن، ومن هنا تظهر أهمية هذا البحث، الذي أظهر فيه أوجهاً من موجبات الرحمة الإلهية وموانعها دراسة في آيات القرآن. واخترت هذا الموضوع لما له من أهمية بالغة في

توضيح الصورة الحقيقية لرحمة الإسلام. وسبقني في الحديث عن هذا الموضوع عدد من الباحثين، إلا أنني لم أعمد على أي دراسة سابقة. بل بذلت كل جهدي في دراسة أصيلة في آيات القرآن الكريم. معتمدا المنهج الاستقرائي التحليلي في هذه الدراسة؛ حيث جمعت آيات القرآن الكريم وصنفتها، ودرستها، معتمداً على كتب التفسير والحديث والمصادر الأخرى. وقسّمت البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة؛ تحدثت في المقدمة عن أهمية الموضوع، وسبب اختياره، والمنهج المتبع في البحث. وتحدثت في المبحث الأول عن معنى الرحمة في اللغة والاصطلاح، وعن دلالات الرحمة في الآيات القرآنية، وأشارت إلى أقسام الرحمة الإلهية. وخصصت المبحث الثاني لبيان موجبات الرحمة الإلهية في الآيات القرآنية. أما المبحث الثالث فخصصته لبيان الأسباب التي تحول دون شمول العبد بالرحمة الإلهية. وأشارت في الخاتمة إلى أهم النتائج والتوصيات. سائلاً الله السداد والتوفيق.

ومتوجهاً بالشكر للقائمين على هذا المؤتمر الدولي الكبير، لاستنهاضهم الهمم، وحثهم العلماء على بذل وسعهم، لتدارك الخلل الذي بدأ ينتشر بين المسلمين، فيما يزينه لهم الضالون، الذين يستمرئون التقوّل على الله، ويفتون لأنفسهم بأمور يستباحون بها المحرمات، ويهتكون أعراض الأستار، ويذلون الأحرار، ويقهرون ويروعون ويقتلون الأمنين. فجزاهم الله كل خير على سبقهم وجهدهم وحرصهم على هذا الدين الحنيف.

خطة البحث:

المقدمة

المبحث الأول: معنى الرّحمة وأقسامها

المطلب الأول: الرَّحْمَة لُغَةً.

المطلب الثاني: الرَّحْمَة اصطلاحاً.

المطلب الثالث: دلالات الرحمة في الآيات القرآنية.

المطلب الرابع: أقسام الرحمة الإلهية.

المسألة الأولى: رحمة دنيوية.

المسألة الثانية: رحمة أخروية في الحياة الآخرة.

المبحث الثاني: موجبات الرحمة الإلهية.

المطلب الأول: الإرادة الإلهية.

المطلب الثاني: الإيمان بالله والاعتصام به.

المطلب الثالث: تقوى الله.

المطلب الرابع: طاعة الله وطاعة الرسول.

المطلب الخامس: اتباع القرآن الكريم.

المطلب السادس: الإنصات والاستماع للقرآن.

المطلب السابع: إقام الصلاة.

المطلب الثامن: إيتاء الزكاة.

المطلب التاسع: الجهاد في سبيل الله.

المطلب العاشر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الحادي عشر: الإحسان.

المطلب الثاني عشر: الصبر.

- المطلب الثالث عشر: الاستغفار.
- المطلب الرابع عشر: الدعاء خوفاً وطمئناً.
- المطلب الخامس عشر: اعتزال الكافرين والبعد عن السيئات.
- المطلب السادس عشر: التوبة.
- المبحث الثالث: موانع الرحمة الإلهية.
- المطلب الأول: الكفر بالله.
- المطلب الثاني: الشرك بالله.
- المطلب الثالث: الكفر بالآخرة.
- المطلب الرابع: تكذيب الآيات والصد عن الدين.
- المطلب الخامس: القنوط من رحمة الله.
- المطلب السادس: الظلم.
- المطلب السابع: اتباع أوامر النفس والهوى.
- المطلب الثامن: اتباع الشيطان وعبادته.
- المطلب التاسع: الإجمام.
- الخاتمة.
- قائمة المراجع.



المبحث الأول معنى الرَّحْمَةِ وأقسامها

المطلب الأول الرَّحْمَةُ لُغَةً

الرَّحْمَةُ كلمة مشتقة من الجذر (رَحِمَ)، تدل على الرِّقَّة والتعطف والمغفرة، والمَرَحْمَةُ مثله، وِرْحِمُهُ رَحْمَةً وَمَرَحْمَةً. وَتَرَحَّمَ عَلَيْهِ أَي قَالَ: رَحْمَةً اللَّهُ عَلَيْهِ. وَتَرَاخَمَ الْقَوْمَ رَحِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَالرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ اسمان مشتقان من الرَّحْمَةِ، وَالرُّحْمُ وَالرُّحْمُ الرَّحْمَةُ أَيضًا. وَالرَّحِمُ عَلاَقَةُ الْقَرَابَةِ، وَالرَّحِمُ مِثْلُهُ، وَسُمِّيَتْ رَحِمُ الْأُنْثَى رَحِمًا، لِأَنَّ مِنْهَا يَكُونُ مَا يُرْحَمُ وَيُرْقُّ لَهُ مِنْ وَلَدٍ^(١).

المطلب الثاني الرَّحْمَةُ اصطلاحاً

تكاد تعريفات العلماء لمعنى الرحمة من حيث الاصطلاح لا تخرج عن المعنى اللغوي لهذه الكلمة، إلا أنهم فرّقوا بين رحمة الله ﷻ، ورحمة

(١) مختار الصحاح، الرازي ج ١ ص ١٠٠. وينظر لسان العرب، ابن منظور، ج ١٢ ص ٢٣٠. ومعجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج ٢ ص ٤٩٨.

سواء، نحو؛ قول الواحدي: ”معنى الرحمة في صفة الله تعالى: إرادته الخير والنعمة بأهله، وهي صفة ذات، وفي صفة أحدنا تكون رقة قلب وشفقة“^(١). وقول ابن منظور: ”الرَّحْمَةُ فِي بَنِي آدَمَ عِنْدَ الْعَرَبِ، رِقَّةُ الْقَلْبِ وَعَطْفُهُ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ: عَطْفُهُ وَإِحْسَانُهُ وَرِزْقُهُ“^(٢). وقول الراغب الأصفهاني: ”الرَّحْمَةُ رِقَّةٌ تَقْتَضِي الْإِحْسَانَ إِلَى الْمَرْحُومِ، وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ تَارَةً فِي الرِّقَّةِ الْمَجْرَدَةِ، وَتَارَةً فِي الْإِحْسَانِ الْمَجْرَدِ عَنِ الرِّقَّةِ، نَحْوَ رَحِمَ اللَّهُ فَلَانًا. وَإِذَا وُصِفَ بِهِ الْبَارِئُ فَلَيْسَ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْإِحْسَانُ الْمَجْرَدُ دُونَ الرِّقَّةِ، وَعَلَى هَذَا رُوي أَنَّ الرَّحْمَةَ مِنَ اللَّهِ إِنْعَامٌ وَإِفْضَالٌ، وَمِنَ الْآدَمِيِّينَ رِقَّةٌ وَتَعْطُفٌ“^(٣). وقول ابن عاشور: ”الرحمة: رقة خاطر وانعطافه، بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والإحسان إليه ودفع الضر عنه وإعانتته على المشاق... وأهل الإيمان إذا سمعوا أو أطلقوا وصفي الرحمن الرحيم لا يفهمون منه حصول ذلك الانفعال الملحوظ في حقيقة الرحمة في متعارف اللغة العربية، لسطوع أدلة تنزيه الله تعالى من الأعراض، بل إنه يراد بهذا الوصف في جانب الله تعالى إثبات الغرض الأسمى من حقيقة الرحمة، وهو صدور آثار الرحمة من الرفق واللفظ والإحسان والإعانة“^(٤).

وبيّن ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) أن المنافع التي تقتضيها الرحمة للمرحوم، لا يشترط فيها موافقة هوى النفس، فقال: ”الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد وإن كرهتها نفسه وشقت عليها“^(٥).

استناداً لما سبق أخلص إلى تعريف الرحمة الإلهية، فأقول: هي صفة إلهية ثابتة تستدعي دفع الضر وسوق الخير لمن كتب الله تعالى له الرحمة.

- (١) النَّقْسِيرُ البَسِيطُ، الواحدي، ص ٤٥٥.
- (٢) لسان العرب، ابن منظور، ج ١٢ ص ٢٣١.
- (٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب، ص ٣٤٧.
- (٤) التحرير والتوير، ابن عاشور، ج ١ ص ١٦٧.
- (٥) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية، ج ٢ ص ١٧٤.

المطلب الثالث

دلالات الرحمة في الآيات القرآنية

تعددت دلالات الرحمة في الآيات القرآنية الكريمة، ذلك أن كلمة الرَّحْمَة وردت في الآيات الكريمة، وأريد بها أسبابها؛ كإطلاق الرَّحْمَة على الغيث والرزق... ومن معاني الرحمة في الآيات القرآنية ما يأتي:

أ. الرسالة والنبوة والهداية: قال تعالى: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴾ [هود: ٦٣]، قال الطبري: ” وآتاني منه النبوة والحكمة والإسلام“^(١).

ب. النبي ﷺ: قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، ”بمعنى... وهو رحمة للذين آمنوا منكم“^(٢).

ت. الجنة: قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْغَضْتَ وَجُوهَهُمْ فَنفى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٧]، يقول مقاتل بن سليمان: ”يعني فني جنة الله“^(٣).

ث. اللطف والرأفة: قال تعالى: ﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. قال الطبري: ”فبرحمة الله يا محمد ورأفته بك وبمن آمن بك من

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ت ٣١٠، ج ١٢ ص ٦٣. وينظر تفسير القرآن، السمعاني ٤٨٩هـ، ج ٢ ص ٤٣٩.

(٢) جامع البيان، للطبري ج ١٠ ص ١٦٩. وينظر حجة القراءات، ابن زنجلة ص ٣٢٠. وإبراز المعاني، أبو شامة ج ٢ ص ٤٩٨.

(٣) تفسير مقاتل، الأزدي، ج ١ ص ١١٥. وينظر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي، ج ١ ص ٢٢٦.

أصحابك لنت لهم“^(١)، فرحمة الله بالنبى ﷺ تمثلت بلطف النبى ﷺ ورأفته ولين جانبه.

ج. الرزق ونعم الدنيا: قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾ [هود:٩٠] قال الطبري: ”يقول تعالى ذكره (ولئن أذقنا الإنسان منا) رخاء وسعة في الرزق والعيش، فبسطنا عليه من الدنيا -وهي الرحمة التي ذكرها تعالى ذكره في هذا الموضع- (ثم نزعناها منه) يقول: ثم سلبناه ذلك فأصابته مصائب اجتاحتها فذهبت به (إنه ليكفر كفور)، يقول: يظل قنطاً من رحمة الله آيساً من الخير“^(٢).

ح. تسخير الليل والنهار: قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣]. قال ابن الجوزي: ”أخبر أن الليل والنهار رحمة منه“^(٣). وقال ابن بطال: ”جعل السكون في الليل من النعم التي عددها على عباده، وقد سمى ذلك رحمة“^(٤).

خ. التخفيف في حكم القصاص بقبول الدية: قال تعالى: ﴿يَتَأْتِمُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَإِنْبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٨]. قال البخاري في تفسير قوله تعالى (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة): ”مِمَّا كُتِبَ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ“^(٥). وقال الشافعي: ”كان كُتِبَ عَلَىٰ

(١) جامع البيان، للطبري ج ٤ ص ١٥١.

(٢) جامع البيان، للطبري ج ١٢ ص ٧. وينظر تفسير القرآن، ابن أبي حاتم ج ٦ ص ٢٠٧.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي، ج ٦ ص ٢٣٨.

(٤) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ج ٣ ص ٤٩.

(٥) الجامع الصحيح المختصر، البخاري، حديث رقم ٤٢٢٨، ج ٤ ص ١٦٢٦. وينظر تفسير القرآن،

الصنعاني، ج ١ ص ٦٧.

أَهْلَ التَّوْرَةِ: أَنَّهُ مِنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ حُقَّ لَهُ أَنْ يُقَادَ بِهَا، وَلَا يُعْفَى عَنْهُ وَلَا تُقْبَلُ مِنْهُ الدِّيَّةُ، وَفُرِضَ عَلَى أَهْلِ الْإِنْجِيلِ: أَنْ يُعْفَى عَنْهُ وَلَا يُقْتَلَ، وَرُخِّصَ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِنْ شَاءَ قَتَلَ وَإِنْ شَاءَ أَخَذَ الدِّيَّةَ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا“^(١).

د . حفظ العبد من اجتناب الحق ومن الضلال واتباع الشيطان: قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، قال مقاتل بن سليمان: ”يعني ونعمته فعصمكم من قول المنافقين“^(٢). قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتَ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضَلُّوكَ وَمَا يُضَلُّونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣]. قال الثعلبي: ”ذلك أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد قد جئناك نبايحك على أن لا حشر ولا بعث ولا نكسر أصناماً بأيدينا على أن تمتعنا بالعرى سنة، فلم يجبهم إلى ذلك، وعصمه الله بمنه، وأخبره بنعمته عليه أنه في حفظه وكلماته، فلا يخلص إليه أمر يكرهه“^(٣).

ذ . التجاوز عن العقوبة: قال تعالى: ﴿فَالرَّبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وفي تفسير الطبري لهذه الآية قال: ”وإن أنت لم تستر علينا ذنبا، فتغطيه علينا، وتترك فضيحتنا به بعقوبتك إيانا عليه وترحمنا بتعطفك علينا وترك أخذنا به، لنكونن من الخاسرين، يعني لنكونن من الهالكين“^(٤). وقال السمرقندي: ”يعني إن لم تتجاوز عن ذنوبنا (لنكونن من الخاسرين) بالعقوبة“^(٥).

(١) الأم، للشافعي ج ٦ ص ٩.

(٢) تفسير مقاتل، الأزدي، ج ١ ص ٢٤٥. وينظر جامع البيان، الطبري ج ٥ ص ١٨٣.

(٣) الكشف والبيان، الثعلبي ج ٣ ص ٢٨٣-٢٨٤.

(٤) جامع البيان، الطبري ت ٣١٠، ج ٨ ص ١٤٤.

(٥) بحر العلوم، السمرقندي ج ١ ص ٥٢٤.

ر. النجاة من العذاب وصرف أسبابه: قال تعالى: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٤]، قال الماوردي: "فيه ثلاثة أوجه؛ أحدها: إن يشاء يرحمكم بالهداية، أو يعذبكم بالإضلال. الثاني: إن يشاء يرحمكم فينجيكم من أعدائكم، أو يعذبكم بتسلطهم عليكم، قاله الكلبي. الثالث: إن يشاء يرحمكم بالتوبة، أو يعذبكم بالإقامة"^(١).

المطلب الرابع

أقسام الرحمة الإلهية

يمكن أن تُقسَّم الرحمة الإلهية بالنظر إلى زمانها إلى قسمين، قسم دنيوي في حياة الإنسان الأولى، وقسم أخروي في حياته الآخرة، وهذا ما سأبحثه في المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى:

رحمة دنيوية؛ وتشمل خلق الإنسان وتهيئة الأرض للعيش فيها، وتقلب الليل والنهار، وتقدير الأرزاق وتأخير العذاب...؛ قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نَفَا لَأَسْقِنَهُ لِيلًا مِمَّنْ فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧]. قال الدينوري في تفسير هذه الآية: "فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحًا للثمرات، وأرواحًا للعباد، يتسمون منها، ويتقلبون فيها، وتجري بها مياههم، وتقد بها نيرانهم وتسير بها أفلاكهم. وقد تضرَّ بكثير من الناس في برهم وبحرهم، ويخلص ذلك إلى أنفسهم وأموالهم،

(١) النكت والعيون، الماوردي ج ٣ ص ٢٥٠.

فيشكوها منهم الشاكون، ويتأذى بها المتأذون، ولا يزيلها ذلك عن منزلتها التي جعلها الله بها، وأمرها الذي سخرها له من قوام عباده وتمام نعمته. ومثل الشتاء والصيف اللذين جعل الله حرهما وبردهما صلاحاً للحرث والنسل ونتاجاً للحب والثمر، يجمعهم البرد بإذن الله، ويحملها ويخرجها الحر بإذن الله، وينضجها مع سائر ما يعرف من منافعها، وقد يكون الأذى والضرر في حرهما وبردهما وسمائهما وزمهريرهما وهما مع ذلك لا ينسبان إلا إلى الخير والصلاح“^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ لَيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]. وفي تفسيرها قال ابن أبي زمنين: ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله بالنهار، وهذا رحمة من الله للمؤمن والكافر؛ فأما المؤمن فتتم عليه رحمة الله في الدنيا والآخرة، وأما الكافر فهي رحمة له في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب^(٢). والرحمة الدنيوية عامة تشمل جميع الخلائق، لا تخص المسلم دون غيره.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ أَمِنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]. وقال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَتُوْلَاءِ وَهَتُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]. قال الطبري: ”يقول تعالى ذكره: يمد ربك يا محمد كلا الفريقين من مريدي العاجلة ومريدي الآخرة الساعي لها سعيها وهو مؤمن في هذه الدنيا من عطائه، فيرزقهما جميعاً من رزقه، إلى بلوغهما الأمد واستيفائهما الأجل ما كتب لهما، ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات، وتفترق بهما بعد الورود المصادر؛ ففريق مريدي العاجلة إلى جهنم مصدرهم، وفريق مريدي الآخرة إلى الجنة مأبهم“^(٣).

(١) عيون الأخبار، ابن قتيبة ج ١ ص ٢. وينظر جامع البيان، الطبري ج ٨ ص ٢١٠.

(٢) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ج ٢، ص ٣٣٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ج ١٥ ص ٦٠.

المسألة الثانية:

رحمة أخروية في الحياة الآخرة؛ وتشمل قبول الشفاعة، وتكفير الذنوب، ومغفرة الخطايا، وإبدال السيئات حسنات، والنجاة من النار، ودخول الجنة...

وهذه الرحمة خاصة، لا تشمل جميع الخلائق، بل تخص بعض المكلفين دون غيرهم؛ وقد بيّن الله ﷻ في كتابه الكريم موجبات هذه الرحمة، وأمر المكلفين بالتزامها. وبيّن ﷻ موانع هذه الرحمة، ونهى المكلفين عنها، وهذا ما سأبحثه فيما يأتي سائلاً الله الرحمن الرحيم السداد والتوفيق.



المبحث الثاني موجبات الرحمة الإلهية

لما خلق الله ﷻ الخلق أمرهم بتوحيده وتزيهه، وإخلاص العبادة لوجهه الكريم، وبعث الله ﷻ الرسل بالشرائع مبشرين من امتثل أوامر الله ﷻ واجتنب نواهيه برحمة الله تعالى وحسن الجزاء، ومنذرين من خالف أوامر الله واتبع المحرمات بالحجب عن رحمة الله تعالى وسوء الجزاء، ومن أهم الأمور التي توجب رحمة الله ﷻ بعباده ما يأتي؛

المطلب الأول الإرادة الإلهية

هي صفة ثابتة كتبها الله ﷻ على نفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وروى البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ" (١).

والله ﷻ يختص بهذه الرحمة من يشاء من عباده، ويحجبها عن

(١) الجامع الصحيح المختصر، البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ فَوْقَهُمْ أَعْيُنٌ يَأْتِيهِمْ خِفَاطٌ﴾، حديث رقم ٧١١٥، ج ٦ ص ٢٧٤٥. وينظر صحيح مسلم، القشيري، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث رقم ٢٧٥١، ج ٤ ص ٢١٠٧.

يشاء، فله الأمر والحكم، لا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الفصص: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. ومثال اختصاص الله برحمته؛ ما رواه البخاري بسنده عن النبي ﷺ، قال: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمَشِي فَأَسْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي. فَمَلَأَ خَفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ [فَادْخَلَهُ الْجَنَّةَ]»^(١)، قالوا يا رَسُولَ اللَّهِ: وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قال: في كل كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»^(٢). يظهر في هذا الحديث الشريف أن السبب الرئيس في شمول هذا العبد برحمة الله ﷻ ودخوله الجنة هو سقياه للكلب. ومثال آخر رواه مسلم بسنده عن النبي ﷺ قال: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فُدِّلَ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا. فَقَتَلَهُ وَكَمَلَ بِهِ مِئَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فُدِّلَ عَلَى رَجُلٍ، فَقَالَ: أَنَّهُ قَتَلَ مِئَةً فَهَلْ لَهُ تَوْبَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، أَنْتَ أَرْضُ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا نَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَنَا تَائِبًا، مُقْبِلًا بقلبه إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا. وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، أَيُّهُمَا

(١) الجامع الصحيح المختصر، البخاري، باب المَاءِ الَّذِي يُغْسَلُ بِهِ شَعْرُ الْإِنْسَانِ، حديث رقم ١٧١، ج ١ ص ٧٥.

(٢) الجامع الصحيح المختصر، البخاري، باب فَضْلِ سَقْيِ الْمَاءِ، حديث رقم ٢٢٣٤، ج ٢ ص ٨٢٣. وينظر الموطأ، الأصبحي، باب جَامِعِ مَا جَاءَ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، حديث رقم ١٦٦١، ج ٢ ص ٩٢٩.

كَانَ أَقْرَبَ فَهِيَ لَهُ فَقَاسُوهُ، فَوَجَدُوهُ أَدْنَىٰ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَحَبَسَتْهُ بِهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، قَالَ قَتَادَةُ فَقَالَ الْحَسَنُ: ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَىٰ بِصَدْرِهِ»^(١). ولا يخفى على أحد أن الملائكة قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، فرحمة الله تعالى تداركت هذا العبد، لنيَّته الصادقة في التوبة، دون أن يفعل شيئاً من متطلباتها.

ومثال حجب رحمة الله؛ ما رواه البخاري بسنده عن النبي ﷺ، قال: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ، رَبَطَتْهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(٢). يظهر في هذا الحديث أن سبب حجب رحمة الله عن هذه المرأة، هو حبسها للقطعة. ومن الآيات القرآنية التي تظهر فيها صفة الرحمة الإلهية، ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ① ② الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ③
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ [الفاحة: ١-٢].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاللَّهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٢].
وقوله تعالى: ﴿يَخْضُصْ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٤].
وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١].
وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤]. وينبغي الإشارة إلى أن الرحمة مثل التسامح لا تكون من الضعيف إلى القوي، لأنه بذلك تشوبها ذلة ولا تكون رحمة. والرحمة الإلهية لا تكون إلا من القوي العزيز القادر للضعيف العاجز، وهذا ما بيَّنته العديد من الآيات القرآنية الكريمة، حيث سبقت

- (١) صحيح مسلم، القشيري، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله حديث رقم ٢٧٦٦ ج ٤ ص ٢١١٨.
وينظر صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ابن حبان، باب التوبة، حديث رقم ٦١١، ج ٢ ص ٣٧٦.
(٢) الجامع الصحيح المختصر، البخاري، باب حَمَسٍ مِنَ الدَّوَابِّ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْخَرَمِ، حديث رقم ٣١٤٠ ج ٣ ص ١٢٠٥. وينظر صحيح مسلم، القشيري، باب تَحْرِيمِ تَعَذِّيبِ الْهَرَّةِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْحَيَوَانَ الَّذِي لَا يُؤْذِي، حديث رقم ٢٦١٩، ج ٤ ص ٢٠٢٣.

صفة العزة فيها صفة الرحمة، ومن هذه الآيات؛ قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٢].

المطلب الثاني

الإيمان بالله والاعتصام به

الذين يصدقون بالله، ويقروون بوحدانيته، وما بعث به محمد ﷺ، ويتمسكون بالقرآن الكريم النور المبين، الذي أنزله الله ﷻ إلى نبيه الرحيم، سيدخلهم الله في رحمة منه وفضل، وسوف تنالهم رحمته، التي تجزيهم من عقابه، وتوجب لهم ثوابه وجنته وفضله^(١). فالإيمان والاعتصام بالله من موجبات رحمته تعالى، والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة منها؛

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرًا مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَتْ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَافِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَانًا غَيْرَ مَبْرُورٍ وَرَسُولٌ أَلَّا يَأْتِيَهُمْ لِقَاءُ اللَّهِ فِي رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ إِذْ هُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [التوبة: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

(١) جامع البيان، الطبري ج ٦ ص ٤٠.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ؕ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ [الجاثية: ٣٠].

المطلب الثالث تقوى الله

الذين اتقوا الله في الدنيا، وخافوا عقابه، فاجتنبوا لذلك معاصيه، وأدوا فرائضه، يوجب الله ﷻ لهم يوم القيامة رحمته^(١)، والآيات القرآنية الشاهدة على ذلك كثيرة منها؛

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَىٰ الْعَصْبُ أَخَذَ الْأَلْوَابُ فِي نَسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصَلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٩]. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِّن رَّحْمَتِهِ وَبَجَعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْفَرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

(١) جامع البيان، الطبري ج ١٦ ص ١٢٦.

المطلب الرابع

طاعة الله وطاعة الرسول

طاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم الذي امتدحه الله تعالى بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، من أعظم موجبات الرحمة الإلهية يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢]. يعني بذلك جل ثناؤه وأطيعوا الله أيها المؤمنون فيما نهاكم عنه من أكل الربا وغيره من الأشياء، وأطيعوا الرسول أيضا فيما أمركم به لترحموا فلا تعذبوا^(١).

المطلب الخامس

اتباع القرآن الكريم

صرّحت الآيات القرآنية الكريمة بأن اتباع القرآن الكريم، في كل ما فيه من عقيدة توحيد لله تعالى والعمل بأوامره واجتنب نواهيه من موجبات رحمة الله تعالى، ومن هذه الآيات؛ قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المنكبوت: ٥١]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْصُصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [٧٦-٧٧].

[النمل: ٧٦-٧٧].

(١) جامع البيان، الطبري، ج ٤ ص ٩١. وينظر تفسير مقاتل، الأزدي، ج ١ ص ١٩١. والكشف والبيان، الثعلبي ج ٣ ص ١٤٨.

المطلب السادس

الإنصات والاستماع للقرآن إقام الصلاة

الإنصات والاستماع للقرآن الكريم من موجبات رحمة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. قال المحاسبي في تفسير هذه الآية: "يعني لكي ترحموا، فجعل الاستماع بترك الكلام لَتَفْهَمُ كلامه تعالى، يوجب الرحمة قبل العمل بما يسمع"^(١). وقال الزمخشري: "ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة"^(٢).

المطلب السابع

إقام الصلاة

إقام الصلاة، والمحافظة على شروط صحتها، وأركانها، وسننها، من أهم موجبات الرحمة الإلهية، والآيات الدالة على ذلك كثيرة، منها؛ قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]. فسرها الإمام الطبري بقوله: "يقول تعالى ذكره: وأقيموا أيها الناس الصلاة بحدودها، فلا تضيعوها، وآتوا الزكاة -التي فرضها الله عليكم- أهلها، وأطيعوا رسول ربكم فيما أمركم ونهاكم... كي يرحمكم ربكم، فينجيكم من عذابه"^(٣).

وقوله تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَلْبُكَ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً

(١) فهم القرآن ومعانيه، المحاسبي ج ١ ص ٣٢١.

(٢) الكشاف، الزمخشري ج ٢ ص ١٨١. وينظر مفاتيح الغيب، الرازي، ج ١٥ ص ٨٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ج ١٨ ص ١٦١.

رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿ [الزمر: ٩].
قال ابن زنجلة في تفسير هذه الآية: "أي يا من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً أبشر"^(١) برحمة الله. ونقل الثعلبي بسنده عن ابن عباس قال: "من أحب أن يهون الله تعالى الموقف عليه يوم القيامة، فليره الله في سواد الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه"^(٢)، وتهوين الموقف يوم القيامة وجه من أوجه رحمة الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَنَّمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ [يونس: ٨٤-٨٧]

يظهر في هذه الآيات الكريمة أن قوم سيدنا موسى (عليه السلام) طلبوا من الله أن ينجيهم برحمته، فبيّن لهم الله ﷻ سبيل رحمة الله تعالى وهي إقامة الصلاة.

ونحو ذلك ورد في قصة ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَّتِهِ فَقَالَ لِي: «سَلْ» فقلت: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قال: «أو غير ذلك» قلت: هو ذاك قال: «فَاعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(٣).

(١) حجة القراءات، ابن زنجلة، ج ١ ص ٦٢١ .

(٢) الكشف والبيان، الثعلبي، ج ٨ ص ٢٢٥ .

(٣) صحيح مسلم، القشيري، حديث رقم ٤٨٩، ج ١ ص ٢٥٣. وينظر: سنن أبي داود، السجستاني،

حديث رقم ١٢٢٠، ج ٢ ص ٣٥. والمجتبى من السنن، النسائي، حديث رقم ١١٢٨، ج ٢ ص ٢٢٧ .

ومسند الإمام أحمد بن حنبل، الشيباني، حديث رقم ١٦٦٢٨، ج ٤ ص ٥٩ .

المطلب الثامن إيتاء الزكاة

إيتاء الزكاة من موجبات رحمة الله تعالى يوم القيامة، ويظهر ذلك جلياً في صفات الذين تشملهم رحمة الله تعالى في الآية الكريمة الآتية؛

قال تعالى: ﴿وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

وإن كانت هذه الآية الكريمة تتحدث عن قوم سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام إلا أن العبرة بعموم لفظ الآيات الكريمة، فإيتاء الزكاة دليل التقوى.

ومما يؤيد ذلك الأثر الذي رواه ابن ماجة بسنده عن النبي ﷺ قال: «إِسْبَاغُ الوُضُوءِ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلَّةُ الْمِيزَانِ، وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ مِلَّةُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالزَّكَاةُ بَرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمَعْتِقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا»^(١).

قال السيوطي: " ... معناه أنها حجة على إيمان فاعلها؛ فإن المنافق يمتنع منها، لكونه لا يعتقد بها، فمن تصدق استدل بصدقته على صحة

(١) سنن ابن ماجه، القزويني، باب الوُضُوءِ شَطْرُ الإِيمَانِ، حديث رقم ٢٨٠، ج ١ ص ١٠٢. قال الألباني: حديث صحيح. وينظر المجتبى من السنن، النسائي، باب وجوب الزكاة، حديث رقم ٢٤٢٧، ج ٥ ص ٥. وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، البستي، حديث رقم ٨٤٤، ج ٣ ص ١٢٢.

إيمانه، وقال في النهاية: البرهان: الحجة والدليل، أي أنها حجة لطالب الأجر، من أجل أنها فرض، يجازي الله به وعليه. وقيل: هي دليل على صحة إيمان صاحبها، لطيب نفسه بإخراجها، وذلك لعلاقة ما بين النفس والمال. وقال القرطبي: أي برهان على صحة إيمان المتصدق، أو على أنه ليس من المنافقين الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، أو على صحة محبة المتصدق لله تعالى، ولما لديه من الثواب، إذ أثر محبة الله وابتغاء ثوابه على ما جبل عليه من حب الذهب والفضة حتى أخرجته لله تعالى^(١).

المطلب التاسع

الجهاد في سبيل الله

لا يخفى فضل الجهاد والمجاهدين والشهداء على أحد من المسلمين، فالجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس من أوسع أبواب الرحمة الإلهية، وأعظم موجباتها، وهذا ما بيّنته الكثير من الآيات القرآنية الكريمة، منها؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]. قال السمرقندي: "أي ينالون جنة الله"^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلِئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مَنِ الْمُؤْمِنِينَ عَيَّرُوا أُولَى الضَّرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [١٥٠] درجته منه ومغفرة ورحمة وكان

(١) شرح السيوطي لسنن النسائي، السيوطي ج ٥ ص ٦.

(٢) بحر العلوم، السمرقندي، ج ١ ص ١٦٩.

اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿ [النساء: ٩٥-٩٦]. وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿ [التوبة: ٢٠-٢١].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ [البقرة: ٢١٨]. وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ [النحل: ١١٠].

المطلب العاشر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهمية بالغة في صيانة الدين والمحافظة على صلاح الأمة الإسلامية وصلاح أفرادها، فلا عجب أن جعله الله ﷻ باباً من الأبواب الموجبة لرحمته؛ قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ [التوبة: ٧١].

وجعل الله ﷻ إصلاح ذات البين الذي هو وجه من أوجه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من موجبات رحمته تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿ [الحجرات: ١٠].

المطلب الحادي عشر

الإحسان

موجبات رحمة الله تعالى، منها؛ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٢-٤].

فسر الطبري الآية الأولى بقوله: "يقول تعالى ذكره: إن ثواب الله الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدنيا قريب منهم، وذلك هو رحمته، لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته، وما أعد لهم من كرامته، إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم"^(١). وقال رسول الله ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٢). ونقل القشيري عدة أقوال في بيان حقيقة المحسن، فقال: "يقال: المحسنين عملاً والمحسنين أملاً، فالأول العابدون، والثاني العاصون. ويقال: المحسن من كان حاضرًا بقلبه غير لاه عن ربه، ولا ناسياً لحقه. ويقال: المحسن القائم بما يلزم من الحقوق. ويقال: المحسن الذي لم يخرج عن إحسانه بقدر الإمكان ولو بشطر كلمة"^(٣). وقال الواحدي: "هم الذين يطيعون الله فيما أمر"^(٤).

ولعل تفسير الرازي لمعنى الإحسان المذكور في الآية الكريمة أكثر دقة، حيث قال: "المحسن من صدر عنه مسمى الإحسان، وليس من شرط كونه محسناً أن يكون آتياً بكل وجوه الإحسان، كما أن العالم هو الذي له العلم، وليس من شرطه أن يحصل جميع أنواع العلم"^(٥).

- (١) جامع البيان، الطبري، ج ٨ ص ٢٠٧-٢٠٨. وينظر شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ج ١ ص ٤٧١
- (٢) الجامع الصحيح المختصر، البخاري، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، حديث رقم ٧٠١٠، ج ٦ ص ٢٧١١.
- (٣) لطائف الإشارات، القشيري، ج ١ ص ٣٢٨-٣٢٩.
- (٤) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي ج ١ ص ٣٩٨.
- (٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ج ١٤ ص ١١١.



المطلب الثاني عشر الصبر

الصبر خلق كريم؛ يحبس النفس عن الجزع^(١)، ويمنع من معالجة الانتقام^(٢)، ويوثق إيمان العبد بريّه، ويمنعه من اليأس والقنوط. "والصبرُ صبران، هما عُدَّتَانِ للإيمان: الصبر على طاعة الله وما أمر به، والصبر عن معصية الله جل ثناؤه وما نهى عنه"^(٣). وقد بيّنت الآيات القرآنية الكريمة أن الصبر من موجبات رحمة الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿وَلَنْبَلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٦]. قال القرطبي في تفسير هذه الآية: صبروا على أمر الله، والقيام بطاعته، واجتتاب معاصيه، فأدخلهم في الجنة^(٤).

المطلب الثالث عشر الاستغفار

الاستغفار؛ لجوء العبد إلى الله ﷻ، رجاء ستر ذنوب العبد، والتجاوز عن

- (١) مختار الصحاح، الرازي، ص ١٤٩.
- (٢) لسان العرب، ابن منظور، ج ٤ ص ٤٣٧.
- (٣) تهذيب اللغة، الأزهرى، ج ١٢ ص ١٢٠.
- (٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ج ١١ ص ٣٢٨. وينظر لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن ج ٤ ص ٣١٨.

خطاياها^(١). وخصَّ الجرجاني المغفرة بستر السيد القادر على من هو دونه، فقال: ”المغفرة هي أن يستر القادرُ القبيحَ الصادرَ ممن تحت قدرته، حتى إن العبد إن ستر عيب سيده مخافة عتابه لا يقال غفر له“^(٢). فالاستغفار إقرار من العبد بعبوديته وتوحيده وتنزيهه لله واعتراف بعظمته وقدرته، فلا عجب أن جعله الله ﷻ من موجبات رحمته، والآيات الدالة على ذلك كثيرة، منها؛ قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَنْقُورُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل:٤٦]، قال الطبري: ”ليرحمكم ربكم باستغفاركم إياه“^(٣). وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء:٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء:١٠٦]. وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَحِدِ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء:١١٠].

المطلب الرابع عشر الدعاء خوفًا وطمعًا

”الداعي لا يُقَدِّمُ على الدعاء، إلا إذا عرف من نفسه الحاجة إلى ذلك المطلوب، وأنه عاجز عن تحصيله، وعرف أن ربه تبارك وتعالى يسمع الدعاء، ويعلم الحاجة، وهو قادر على إيصالها إليه، ولا شك أن معرفة العبد نفسه

(١) لسان العرب، ابن منظور، ج ٥ ص ٢٥، وينظر مقاييس اللغة، ابن فارس، ج ٤ ص ٣١. والمحکم والمحيط الأعظم، ابن سيده ج ٢ ص ٤٢٤. وتهذيب اللغة، الأزهرى، ج ٢ ص ٧٣. ومختار الصحاح، الرازى، ج ١ ص ١٩٩. والصحاح في اللغة، الجوهري ج ٢ ص ٢١. تاج العروس، الزبيدي، ج ١ ص ٣٣٠٤. والمعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، ج ٢ ص ٢٢٣.

(٢) التعريفات، الجرجاني، ج ١ ص ٢٨٦.

(٣) جامع البيان، الطبري، ج ١٩ ص ١٧١.

بالعجز والنقص، ومعرفته ربه بالقدرة والكمال، من أعظم العبادات“^(١).
ولذلك جعل الله ﷻ الدعاء من موجبات رحمته، والآيات الدالة على ذلك
كثيرة، منها؛ قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ
لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [١٠٩] فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرًا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ
تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿ [المؤمنون: ١٠٩-١١١].

قال ابن كثير: ”أي فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي...
ثم أخبر تعالى عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين، فقال: ...إني
جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار“^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، وفي هذه
الآية الكريمة أمر إلهي واضح بوجوب الالتزام بالدعاء، ولا يكون الجزاء
على امتثال هذا الأمر إلا بالثمرة المرجوة، وهي الفوز برحمة الله تعالى؛
﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٦].

ولا بد من الإشارة إلى أن الرحمة الإلهية تتدارك الذي يلهج بالدعاء
صادقا قلبه في الدنيا والآخرة، ومن ذلك؛ قوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ
نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [٨٣] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا
بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿
[الأنبياء: ٨٣-٨٤].

المطلب الخامس عشر

اعتزال الكافرين والبعث عن السيئات

اعتزال الكافرين ومظاهر شركهم، والبعث عن الفواحش والمعاصي،
له أثر كبير في تطهير النفس وصفائها، والإخلاص، والاطمئنان في

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي ج ٨ ص ١٣٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج ٣ ص ٢٥٩. وينظر روح المعاني، الألوسي، ج ١٨ ص ٦٩.

العبادات، والتفكر في آلاء الله تعالى، ولهذا فهو من أبواب رحمة الله تعالى، وسبب من أسبابها؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزُّكُمْ وَمَا نَدَعُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَفِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ [مريم: ٤٧-٤٩]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوَّاؤُا إِلَى الْكَهْفِ بِنَشْرِكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا ﴿١٧﴾ [الكهف: ١٦-١٧].

قال الخطابي: "كانوا قومًا كرهوا المقام بين ظهراي أهل الباطل، ففروا من فتنة الكفر وعبادة الأوثان، فصرف الله تعالى عنهم شرهم، ودفع عنهم بأسهم، ورفع في الصالحين ذكركم... وقد اعتزل رسول الله ﷺ قومه قريشا لما جفوه وآذوه، فدخل الشعب، وأمر أصحابه باعتزالهم، والهجرة إلى أرض الحبشة، ثم تحول إلى المدينة مهاجراً حتى تلاحق به أصحابه، وتوافقوا بها معه، فأعلى الله تعالى كلمته، وتولى إعزازه ونصرته ﷺ. والعزلة عند الفتنة سنة الأنبياء، وعصمة الأولياء، وسيرة الحكماء والأولياء، فلا أعلم لمن عابها عذراً لاسيما في هذا الزمان" (١).

وسبق أن أوردت حديث النبي ﷺ في قصة الذي قتل مئة نفس ونشد التوبة، فكان سبب رحمته هجرته من أرض السوء، وفيه: "فَدَلَّ عَلَى رَجُلٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةَ فَهَلْ لَهُ تَوْبَةٌ قَالَ: نَعَمْ. مَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ أَتَتْ أَرْضٌ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ بَهَا نَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، فَأَعْبُدِ اللَّهَ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ. فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَأَخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ... فَقَبَضَتْهُ بِهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ" (٢).

(١) العزلة، الخطابي، ص ٨.
(٢) صحيح مسلم، القشيري، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم ٢٧٦٦، ج ٤، ص ٢١١٨.

قال ابن تيمية: "وأما اعتزال الناس في فضول المباحات وما لا ينفع، وذلك بالزهد فيه، فهو مستحب. وقد قال طاوس: نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيه بصره وسمعه. وإذا أراد الإنسان تحقيق علم أو عمل، فتخلّى في بعض الأماكن، مع محافظته على الجمعة والجماعة، فهذا حق كما في الصحيحين"^(١). روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله: «مؤمنٌ يُجاهدُ في سبيلِ اللهِ بنفسِه وماله». قالوا: ثم من؟ قال: «مؤمنٌ في شِعْبٍ من الشُعابِ يتقي الله، ويدعُ الناسَ من شرِّه»^(٢). وفي رواية مسلم: «قال: ثم رجلٌ معتزلٌ في شِعْبٍ من الشُعابِ»^(٣).

ولا يخفى على أحد أن مجانبة أهل الكفر والشرك والفتن، تقي المسلم من السيئات، قال تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

المطلب السادس عشر التوبة

من رحمة الله تعالى بعباده أنه لا يعجل لهم الحساب على معاصيهم وسيئاتهم، بل يترك لهم سعة بحسن الإمهال وجميل الأفضال ويفتح لهم باب التوبة، التي تبني على عدة أسس؛ أولها: إقرار العبد بذنبه، والندم عليه. ثانيها: رجوعه عن المعصية، وعزمه على الامتناع عنها. وثالثها: فعل

= وينظر: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ابن حبان، باب التوبة، حديث رقم ٦١١، ج ٢، ص ٢٧٦.

(١) كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام، ابن تيمية، ج ١٠ ص ٨.

(٢) الجامع الصحيح المختصر، البخاري باب أفضل الناس مؤمنٌ يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله،

حديث رقم، ٢٦٣٤، ج ٣ ص ١٠٢٦.

(٣) صحيح مسلم، القشيري، باب فضل الجهاد والرباط، حديث رقم ١٨٨٨، ج ٣ ص ١٥٠٢.

الصالحات. والتوبة وفق هذه الأسس من موجبات رحمة الله تعالى، وهذا ما دلت عليه العديد من الآيات القرآنية الكريمة، منها؛ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا إِبْجَهَلَةً ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال الرازي في تفسير هذه الآية: "أعلم أن هذا الكلام لا يتناول التوبة من الكفر، لأن هذا الكلام خطاب مع الذين وصفهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ فثبت أن المراد منه توبة المسلم عن المعصية. والمراد من قوله تعالى: ﴿إِبْجَهَلَةً﴾ ليس هو الخطأ والغلط؛ لأن ذلك لا حاجة به إلى التوبة. بل المراد منه، أن تقدم على المعصية بسبب الشهوة، فكان المراد منه بيان أن المسلم إذا أقدم على الذنب مع العلم بكونه ذنباً، ثم تاب منه توبة حقيقية، فإن الله تعالى يقبل توبته... وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا إِبْجَهَلَةً﴾ قال الحسن: كل من عمل معصية فهو جاهل، ثم اختلفوا فقيل: إنه جاهل بمقدار ما فاته من الثواب، وما استحقه من العقاب، وقيل: إنه وإن علم أن عاقبة ذلك الفعل مذمومة، إلا أنه آثر اللذة العاجلة على الخير الكثير الآجل، ومن آثر القليل على الكثير قيل في العرف إنه جاهل. وحاصل الكلام أنه وإن لم يكن جاهلاً إلا أنه لما فعل ما يليق بالجهال أطلق عليه لفظ الجاهل... وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾، فقوله تعالى: ﴿تَابَ﴾ إشارة إلى الندم على الماضي، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ إشارة إلى كونه آتياً بالأعمال الصالحة في الزمان المستقبل. ثم قال: ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهو غفور بسبب إزالة العقاب، رحيم بسبب إيصال الثواب الذي هو النهاية في الرحمة"^(١). وقال المبرد: "أي فوجب الرحمة له"^(٢).

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ج ١٣ ص ٢٩-٣٠. وينظر جامع البيان، الطبري ج ٧ ص ٢٠٨-٢٠٩. ولطائف الإشارات، القشيري، ج ١ ص ٢٩٧. والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، ج ٢ ص ٢٩. والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ٧ ص ٢٩.

(٢) المقتضب، المبرد ج ٢ ص ٢٥٧.

ومن الآيات الدالة على ذلك أيضا:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]. وقوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].
وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النمل: ١١].



المبحث الثالث موانع الرحمة الإلهية

من فضل الله ﷻ على عباده أن بيّن لهم طريق السوء، ونهاهم عن سلوكه، وحذرهم من أمور إن اقترفوها تؤدي إلى طردهم من رحمته تعالى، فلا يبقى لمن يرتكب هذه الأمور حُجَّة أو عذر في فعله. وفي المطالب الآتية سأحدث بإذن الله تعالى عن أهم الأمور المانعة لرحمة الله تعالى التي أظهرتها الآيات القرآنية الكريمة.

المطلب الأول الكفر بالله

ما من إثم يرتكبه الإنسان أعظم وأبشع من الكفر بالله تعالى، فهو نقيض الإيمان والشكر. وهو عصيان وجحود وكفران وإنكار لجميع النعم التي تحيط بالإنسان من كل جانب من جوانب حياته، وهذا فعل في غاية المكابرة والمعاندة. ”والكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جُحود، وكفر مُعاندة. وكفر نفاق. ومن لقي ربه بشيء من ذلك لم يغفر له، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ فأما كُفر الإنكار فهو: أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يُذكر له من التوحيد. وأما كُفر الجُحود فأن يعرف بقلبه ولا يقرب بلسانه،

فهذا كافرٌ جاحدٌ ككفر إبليس، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]. يعني كفر الجحود. وأما كفر المعاندة فهو: أَنْ يَعْرِفَ بقلبه وَيَقْرَ بلسانه، وَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَ. وأما كفر النفاق: فَأَنْ يَكْفُر بقلبه وَيَقْرَ بلسانه^(١). وجميع هذه الأوجه من الكفر تمنع العبد من أن تشمله رحمة الله تعالى، والآيات الدالة على ذلك كثيرة منها؛ قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ أَدْقَنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُنتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتَأْتِ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْبِئَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

المطلب الثاني الشرك بالله

والشرك بالله لا يقل جرمه وإثمه عن الكفر بالله تعالى، وقد صرّحت الآيات القرآنية الكريمة بأن الشرك يمنع صاحبه من أن تتداركه رحمة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

(١) تهذيب اللغة، الأزهرى، ج ١٠ ص ١١٠-١١١. وينظر: العين، الفراهيدي، ج ٥ ص ٣٥٦.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ
الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ
عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] وقال تعالى:
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا
صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

المطلب الثالث

الكفر بالآخرة

إنكار اليوم الآخر وعدم الإيمان بوجوده فرع من الإيمان بالله تعالى،
فمن آمن بالله آمن بيوم البعث والحساب، ومن كفر بالله كفر بالبعث
والحساب. فلا جرم أن الكفر بالآخرة من موانع رحمة الله تعالى،
والآيات الدالة على ذلك كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ
وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَاذْنُ مُؤَدِّنُ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ
يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ
وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾
الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا
مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءٍ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا
يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ



مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٦١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿هود: ١٨-٢٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبِّتُكَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ لَلْجُودِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٤-٧٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٤-٥].

وقوله تعالى: ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨].

المطلب الرابع

تكذيب الآيات والصد عن الدين

من الأسباب التي تحجب العبد عن رحمة الله تعالى، تكذيب الآيات، والكفر بها، والصد عن دين الله، والآيات الشاهدة على ذلك كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَايَتِ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ نَارُهَا نَارًا وَلَا تَكَذِّبُ يَتَايَتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا أَحْيَانُ الْدُنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٣٠].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[يونس: ٩٥].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿ [الكهف: ١٠٥-١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدَكُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١١٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ ﴿ [طه: ١٢٥-١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

المطلب الخامس

القنوط من رحمة الله

فتح الله ﷻ لعباده باب التوبة على مصراعية فقال جل جلاله: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. فالتائب إلى الله يقرب بقدرته وعظمته وجوده وكرمه. والقنوط واليأس من رحمة الله ﷻ لا تكون إلا ممن لم يقدر الله حق قدره، ولم يستقم إيمانه بالله، ولم يوحد الله حق توحيده، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، روى البخاري بسنده عن النبي ﷺ قال: «وثلاثة لا تسأل عنهم: رجل نازع الله رداءه، فإن رداءه الكبرياء وإزاره عزه، ورجل شك في أمر الله، والقنوط من رحمة الله»^(١).

(١) الأدب المفرد، البخاري، باب البغي، حديث رقم ٥٩٠، ص ٢٠٧.

لذلك عدَّ بعض العلماء القنوط من رحمة الله من الكبائر؛ روى الطبري عن أبي الطفيل عن عبد الله قال: "الكبائر القنوط من رحمة الله، والإياس من روح الله، والأمن لمكر الله، والشرك بالله" (١). وقال محمد بن سيرين وعبدة السلماني: الإلقاء إلى التهلكة؛ هو القنوط من رحمة الله تعالى. قال أبو قلابة: هو الرجل يصيب الذنب، فيقول: قد هلكت ليس لي توبة. فييأس من رحمة الله، وينهمك في المعاصي، فنهاهم الله تعالى عن ذلك" (٢). ونقل ابن أبي الدنيا عن سليمان الخواص قوله: "رأيت جوامع الغنى في التوكل، ورأيت جوامع الشر من القنوط، والغني حق الغنى، من أسكن الله قلبه من غناه يقيناً، ومن معرفته توكلًا، ومن عطاياه وقسمه رضى، فذاك الغني حق الغنى وإن أمسى طاويًا، وأصبح معوزًا" (٣). قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

المطلب السادس الظلم

ما حرّم الله ﷻ على نفسه شيئاً مثل ما حرّم الظلم، روى مسلم بسنده عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبّادي إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً، فلا تظالموا...» (٤). فمرتكب الظلم يجترح إثماً عظيماً، ينافي فيه صفة العدل الإلهية، وينافي السنة الحكيمة الرحيمة، والفطرة السليمة والأخلاق الكريمة، فلا عجب أن جعل الله ﷻ الظلم مانعاً من الموانع التي تحول بين الظالم، وأن تتداركه رحمة الله تعالى، والدلائل القرآنية على ذلك كثيرة، منها:

- (١) جامع البيان، الطبري، ج ٥ ص ٤٠. وينظر مكارم الأخلاق، الطبراني، ج ١ ص ١٥٣.
- (٢) تفسير القرآن، البغوي، ج ١ ص ١٦٥.
- (٣) اليقين، ابن أبي الدنيا، ص ١٩.
- (٤) صحيح مسلم، القشيري، باب تحريم الظلم، حديث ٢٥٧٧، ج ٤ ص ١٩٩٤.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخْفَى عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٦ - ٨٨]، وقوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَنُهُمُ النَّارُ وَيُسَّ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَإِيمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۗ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نُجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَتَرْتَبُّهُمْ يِعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ حَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۗ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٢١].



المطلب السابع اتباع أوامر النفس والهوى

لا يخفى على أحد أن النفس مكمّن الشهوات، وهي على الدوام أمارة بالسوء، قال تعالى: ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣]، واتباعها في هواها وشهواتها يخرج الإنسان عن جادة الطريق، فتسوّل له النفس فعل الفواحش والمنكرات، قال تعالى: ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيهٖ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه: ٩٦]. والآيات القرآنية الشاهدة على أن اتباع أوامر النفس وشهواتها من الموانع التي تحول دون أن تتدارك رحمة الله تعالى بمتبّع النفس وشهواتها كثيرة. منها:

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿ فَلَا يُصَدِّقُكَ عَنهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ [طه: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١]. وقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [الروم: ٢٩].



وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجملة: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿أَمْنَ كَانَ عَلَىٰ يَنِينٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤].

المطلب الثامن اتباع الشيطان وعبادته

من رحمة الله ﷻ بعباده أن بيّن لهم حقيقة الشيطان الرجيم، وأظهرت آيات القرآن الكريم صفاته، وأفعاله، وأهدافه، وظهور عداوته للإنسان؛ فالشيطان كفور وعصي لربه ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَدِّلِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

والشيطان أخرج أبونا آدم وأمنا حواء عليهما السلام من الجنة، قال تعالى: ﴿يَبْنِي آدَمَ لَا يَفْنَنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ آبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سُوءَ تَهْمًا إِنَّهُ يُرِيكُمُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

والشيطان عدو ظاهر للعداء للإنسان، أمرنا الله ﷻ أن نتخذه عدواً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، و﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

والشيطان يتحين بالإنسان الفرص كي يوقعه في الزلل والخطيئة، قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَكَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [١٣١] لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا [١٣٢] وَلَا ضَلَمْنَهُمْ وَلَا مُمِيزَهُمْ



وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَمِ وَلَا مَرْمَهُمْ فَلْيَغْيِرْكَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ
يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١١﴾
يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١١٢﴾ أُولَئِكَ مَاؤُهُم جَهَنَّمُ وَلَا
يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿النساء: ١١٧-١٢١﴾.

والشيطان لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، والتقوُّل على الله ﷻ بغير
حق، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ
الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١١٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ
مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩]. وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا
خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١]

والشيطان يتخلى عن كل من يتبعه ويتبرأ من سيئاتهم التي ارتكبوها
بعد أن زينها لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ
لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى
عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿الأَنْفَال: ٤٨﴾. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ
اللَّهَ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا
أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ
وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فلا جرم أن عاقبة من يتبع الشيطان ويعبده من دون الله المنع من أن
تصله رحمة الله ﷻ؛

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ
مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ، وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾
[الحج: ٣-٤]. و﴿وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ

لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي
وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّسِقَ الْقَرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي
الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿[الزخرف: ٣٦ - ٣٩].﴾

وقال تعالى: ﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا
إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ
مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

المطلب التاسع

الإجرام

الإجرام لغة: فعل الذنوب والسيئات والشُرور، والمجرم الجاني والمذنب^(١). وتتوعد عبارات أهل التفسير في تحديد المقصود بالمجرمين في الآيات القرآنية؛ فقال الماوردي: "والمجرم هو الكافر"^(٢). وقال ابن عطية: "المجرم الذي يجر الجرائر ويرتكب المحظورات"^(٣). وقال البقاعي: "المجرم من اكتسب سيئة كبيرة"^(٤). وقال ابن عادل: "هو المشرك، لأن الشرك أسرف الذنوب وأعظمها. قال ابن الخطيب: المجرم هو الآتي بالذنب العظيم، لأن المجرم فيه دلالة على العظيم، ومنه جُرم الشيء لعظمه ومقداره"^(٥). والذي

(١) كتاب العين، الفراهيدي، ج ٦ ص ١١٩. وينظر تهذيب اللغة، الأزهرى، ج ١١ ص ٤٦. والمحيط في اللغة، الطالقاني ج ٧ ص ١٠٠.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ج ٦ ص ٩٢. وينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ١١ ص ٢٢٧.

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، ج ٣ ص ٣٦٦.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، ج ٣ ص ٤٧١.

(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ج ١٨ ص ٨٨.

أطمئن له أن الإجرام اقتراف أسوأ الأفعال، ووصف الإنسان بالمجرم تجريد له عن إنسانيته وفطرته وتقبيح له على الأفعال الشنيعة التي يجترحها. والتي لا تقتصر على جانب واحد من جوانب السوء، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّةٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفَاعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨-٤٨].

فمن صدقت عليه هذه الصفة كان حقيقاً بأن تحجبه صفته عن رحمة الله تعالى. وهذا ما دلّت عليه العديد من الآيات القرآنية الكريمة، منها؛ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ١٤٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا نُفْتَحُ لَهُمْ أ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَانجَىٰ مِنْ نَشَأٍ وَلَا يَرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَعْشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥١]. وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وُرْدًا ﴿١٠٢﴾﴾ [مريم: ١٠٢]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه: ١٠٢]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٦]. وقوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوَدَّتْهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْحَىٰ وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٦-٤٨].



الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بفضل الصالحات، وأكمل الصلوات والتحيات على سيدنا محمد السَّميح الكَرِيم، والرحمة المهداة للعالمين وعلى آله الطيبين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبع نهجهم، واهتدى بهديهم، وسار على دربهم القويم إلى يوم الدين.

من أهم النتائج التي توصلت لها في هذا البحث ما يأتي؛

أولاً: تستخدم كلمة الرحمة في اللغة العربية للدلالة على معناها اللغوي المباشر، وللدلالة على آثار الرحمة. ووردت كلمة الرحمة في الآيات القرآنية الكريمة دالة على عدة معان منها: الرسالة والنبوة والهداية، والنبى ﷺ، والجنة، واللطف والرأفة، والرزق ونِعْمُ الدنيا، وتسخير الليل والنهار، والتخفيف في حكم القصاص بقبول الدية، وحفظ العبد من اجتناب الحق ومن الضلال واتباع الشيطان، والتجاوز عن العقوبة، والنجاة من العذاب وصراف أسبابه...

ثانياً: تقسم الرحمة الإلهية إلى قسمين: رحمة دنيوية تشمل جميع الخلائق، ولا تقتصر على المسلم دون غيره، ورحمة أخروية خاصة بالمؤمنين، ومن شاء الله ﷻ أن تشملهم رحمته.

ثالثاً: أكرم الله ﷺ المكلفين، وبيّن لهم موجبات هذه الرحمة، وحثهم عليها، ومنها: الإرادة الإلهية: الإيمان بالله والاعتصام به؛ تقوى الله؛ طاعة الله وطاعة الرسول؛ اتباع القرآن الكريم؛ الإنصات والاستماع للقرآن إقام الصلاة؛ وإيتاء الزكاة، والجهد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإحسان، والصبر، والاستغفار، والدعاء خوفاً وطمئناً، واعتزال الكافرين والبعد عن السيئات، والتوبة.

رابعاً: بيّن الله ﷺ الأفعال التي تحجب رحمته عن مرتكبيها، وحثّ المكلفين من ارتكابها، منها: الكفر بالله، والشرك بالله، والكفر بالآخرة، وتكذيب الآيات والصد عن الدين، والقنوط من رحمة الله، والظلم، واتباع أوامر النفس والهوى، واتباع الشيطان وعبادته، والإجرام...

وختاماً أوصي القائمين على هذا المؤتمر الدولي بمخاطبة ذوي الشأن لإقرار مادة الأخلاق الإسلامية، متطلباً إجبارياً، لجميع التخصصات في الجامعات العربية، لما لها من أثر بالغ في تهذيب النفوس، والعصمة من الانجرار في مزالق الدنيا والشيطان واتخاذ العنف والقتل واستباحة المحرمات سبيلاً في هذه الحياة. وأوصي طلبة العلم والباحثين بالاجتهاد في إظهار أخلاق الإسلام توصيفاً وتطبيقاً، لعل الله يجعلهم هداة مهديين إلى سواء السبيل. وفي الختام لا يسعني إلا أن أتوجه بجزيل الشكر للقائمين على هذا المؤتمر الدولي.

فهرس المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم
٢. إبراز المعاني من حرز الأمانى، أبو شامة. عبدالرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم الشافعي (ت٦٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٤٩هـ.
٣. الأدب المفرد، البخاري. محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي (١٩٤-٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط٣، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
٤. إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية. أبو عبدالله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة، ط٣، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
٥. الأم، الشافعي. محمد بن إدريس أبو عبدالله (١٥٠-٢٠٤هـ)، بيروت، دار المعرفة، ط٢، ١٣٩٣هـ.
٦. بحر العلوم، السمرقندي. نصر بن محمد أبو الليث (ت٣٦٧هـ)، تحقيق د. محمود مطرجي، بيروت، دار الفكر.
٧. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ)، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ط١، ١٤٢٠هـ.
٨. التعريفات، الجرجاني. علي بن محمد (ت٨١٦هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، بيروت، الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ.
٩. تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن. علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي (٧٢٥هـ) بيروت- لبنان، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.



١٠. التفسير البسيط، الواحدي. علي بن أحمد بن محمد النيسابوري الشافعي (ت ٤٦٨هـ) تحقيق: لجنة علمية، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٣٠هـ.

١١. تفسير الصنعاني، عبدالرزاق بن همام (ت ٢١١هـ)، تحقيق مصطفى مسلم، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٠هـ.

١٢. تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين. أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٣٩٩هـ)، تحقيق حسين عكاشة ومحمد الكنز، القاهرة، دار الفاروق الحديثة، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير. إسماعيل بن عمر الدمشقي أبو الفداء (٧٧٤هـ)، بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ.

١٤. تفسير القرآن، السمعاني. أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار (ت ٤٨٩هـ)، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، الرياض، دار الوطن، ط ١، ١٤١٨هـ.

١٥. تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، القشيري. أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري الشافعي (ت ٤٦٥هـ)، تحقيق عبداللطيف حسن، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٦. التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب، الرازي. محمد بن عمر بن الحسن التيمي (٥٤٤ - ٦٠٦هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٧. تفسير مقاتل بن سليمان، البلخي. أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء (ت ١٥٠هـ)، تحقيق أحمد فريد، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٨. التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب، الرازي. محمد بن عمر ابن الحسن التيمي (ت ٦٠٦هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
١٩. تهذيب اللغة، الأزهري. أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق محمد عوض مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ٢٠٠١م.
٢٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري. محمد بن جرير بن يزيد ابن خالد أبو جعفر (ت ٣١٠هـ)، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٥هـ.
٢١. الجامع الصحيح المختصر، البخاري. محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق د. مصطفى البغا، بيروت، دار ابن كثير واليامة، ط ٣، ١٤٠٧هـ.
٢٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي. محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبدالله (٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد عبدالعليم البردوني، القاهرة، دار الشعب، ط ٢، ١٣٧٢هـ.
٢٣. حجة القراءات، ابن زنجلة. أبو زرعة عبدالرحمن بن محمد (ت ٤٠٣هـ)، تحقيق سعيد الأفغاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
٢٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي. محمود شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي أبو الفضل (ت ١٢٧٠هـ)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٤، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٢٥. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي. عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٤٠٤هـ.
٢٦. سنن أبي داود، السجستاني. سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد عبدالحميد، دار الفكر.



٢٧. سنن ابن ماجه، القزويني. محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، وتحقيق: بشار عواد معروف، دار الجيل، ط ١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
٢٨. شرح السيوطي لسنن النسائي، السيوطي. جلال الدين عبدالرحمن (١١٨٤٩هـ)، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٢٩. شرح صحيح البخاري، ابن بطلال. أبو الحسن علي بن خلف البكري القرطبي (ت ٤٤٩هـ)، تحقيق ياسر بن إبراهيم، الرياض، مكتبة الرشد، ط ٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٣٠. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، الجوهري. إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٣١. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ابن حبان. محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤١٤هـ.
٣٢. صحيح مسلم، القشيري. مسلم بن الحجاج أبو الحسين النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٣٣. العزلة، الخطابي. أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم البستي (ت ٣٨٨هـ)، القاهرة، المطبعة السلفية، ط ٢، ١٣٩٩هـ.
٣٤. العين، الفراهيدي. الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: د. مهدي ود. إبراهيم، بغداد، دار ومكتبة الهلال.
٣٥. عيون الأخبار، ابن قتيبة. أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

٣٦. فهم القرآن ومعانيه، المحاسبي. الحارث بن أسد بن عبدالله أبو عبدالله (١٦٥-٢٤٣هـ)، تحقيق حسين القوتلي، بيروت، دار الكندي، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ.
٣٧. كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير، ابن تيمية. أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت٧٢٨هـ)، تحقيق عبدالرحمن محمد قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، ط٢.
٣٨. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ)، تحقيق عبدالرزاق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث.
٣٩. الكشف والبيان، الثعلبي. أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري (ت٤٢٧هـ)، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.
٤٠. اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل. أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي، تحقيق الشيخ عادل أحمد والشيخ علي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٤١. لسان العرب، ابن منظور. محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي (ت٧١١هـ)، بيروت، دار صادر، ط١.
٤٢. المجتبى من السنن، النسائي. أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن (٢١٥-٣٠٣هـ)، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٤٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية. عبدالحق بن غالب الأندلسي (ت٥٤٦هـ)، تحقيق عبدالسلام عبدالشافي، لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
٤٤. مختار الصحاح، الرازي. محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر (٧٢١هـ)،



تحقيق محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٤١٥هـ -
١٩٩٥م.

٤٥. المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده. أبو الحسن علي بن إسماعيل
المرسی (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق عبدالحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب
العلمية، ط ١، ٢٠٠٠م.

٤٦. المحيط في اللغة، الطالقاني. أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن
العباس (ت ٣٨٥هـ)، تحقيق محمد حسن آل ياسين، بيروت، عالم
الكتب، ط ١، ١٩٩٤م.

٤٧. مسند الإمام أحمد بن حنبل، الشيباني. أبو عبدالله (ت ٢٤١هـ)،
مصر، مؤسسة قرطبة.

٤٨. معالم التنزيل، البغوي. الحسين بن مسعود الفراء أبو محمد
(ت ٥١٦هـ)، تحقيق خالد العك ومروان سوار، بيروت، دار المعرفة،
ط ٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٤٩. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، تحقيق مجمع اللغة
العربية، دار الدعوة، إستانبول، ط ٢.

٥٠. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس. أبو الحسين أحمد ابن زكريا
(ت ٣٩٥هـ) تحقيق: عبدالسلام هارون، لبنان-بيروت، دار الجيل،
ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥١. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني. أبو القاسم
الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، تحقق: صفوان عدنان الداودي،
دار القلم الدار الشامية، دمشق - بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ.

٥٢. مكارم الأخلاق، الطبراني. أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن
مطير اللخمي الشامي (ت ٣٦٠هـ)، الجامع الكبير للتراث الإسلامي،
الإصدار الرابع



٥٣. المقتضب، المبرد. أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق محمد عزيمة، بيروت، عالم الكتب.
٥٤. موطأ الإمام مالك، الأصبحي. مالك بن أنس أبو عبدالله (٩٣-١٧٩هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، مصر، دار إحياء التراث العربي
٥٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي. برهان الدين أبو الحسن إبراهيم (ت ٨٨٥هـ)، تحقيق عبدالرزاق غالب المهدي، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م
٥٦. النكت والعيون (تفسير الماوردي)، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (٣٦٤ - ٤٥٠هـ)، تحقيق السيد ابن عبدالمقصود، بيروت، دار الكتب العلمية
٥٧. اليقين، ابن أبي الدنيا. أبو بكر عبدالله بن محمد (ت ٢٨١هـ)، الجامع الكبير للتراث الإسلامي، الإصدار الرابع



فهرس البحوث



• بحث: أسباب تحصيل رحمة الله في السنة النبوية.
د. نوال عمر باسعد.

- المقدمة ٧
- المطلب الأول: أسباب تحصيل رحمة الله متعدية النفع للناس ١٣
- المسألة الأولى: الرحمة بالخلق عامة ١٣
- المسألة الثانية: الاستحلال من المظالم ١٥
- المسألة الثالثة: تبليغ الأحاديث النبوية للناس ١٦
- المسألة الرابعة: الصبر عند الأذى ١٧
- المسألة الخامسة: السماح في البيع والشراء والقضاء ١٨
- المسألة السادسة: الصدقة على المحتاج ١٩
- المسألة السابعة: قول كلمة الحق ٢٠
- المسألة الثامنة: الحراسة في الجهاد ٢٠
- المسألة التاسعة: إعانة الوالد ولده على بره ٢١
- المسألة العاشرة: الحياء المحمود ٢٢
- المسألة الحادية عشرة: نصرة النبي ﷺ ٢٢
- المسألة الثانية عشرة: إيقاظ الأهل لقيام الليل ٢٤
- المسألة الثالثة عشرة: تغسيل المرأة زوجها وتكفينه ٢٥
- المسألة الرابعة عشرة: الاجتماع على تلاوة القرآن ومذاكرته ٢٥
- المسألة الخامسة عشرة: الحمد بعد العطاس ٢٧
- المسألة السادسة عشرة: عيادة المريض ٢٨
- المسألة السابعة عشرة: الإيثار وإكرام الضيف ٢٩
- المطلب الثاني: أسباب تحصيل رحمة الله متعدية النفع للنفس ٣٠
- المسألة الأولى: الصلاة قبل العصر أربعاً ٣٠
- المسألة الثانية: الصلاة على النبي ﷺ ٣٠
- المسألة الثالثة: الحلق والتقشير ٣١
- المسألة الرابعة: قيام الليل ٣٢
- المسألة الخامسة: المسارعة إلى الصلاة ٣٣
- المسألة السادسة: اللجوء إلى الله ٣٣
- المسألة السابعة: عدم مسح الحصى في الصلاة ٣٤



- المسألة الثامنة: الدعاء ٣٥
المسألة التاسعة: أزيمة تنزل الرحمات ٣٦
المسألة العاشرة: الخوف من الله ٣٨
المسألة الحادية عشرة: انتظار الصلاة على طهارة في المسجد ٣٩
الخاتمة ٤١



• بحث: الرحمة في القرآن المجيد - الاستغفار إنموذجاً.
د. محمد الأمين محمد سيلا.

- المقدمة ٥١
المطلب الأول: التعريف بمصطلحات البحث ٥٣
المطلب الثاني: استغفار الأنبياء والرسل ﷺ، وجاء ٥٩
المطلب الثالث: الاستغفار الوارد في القرآن الكريم من غير الأنبياء ٨١
الخاتمة ٨٨



• بحث: الرحمة وعلاقتها بزيادة الإيمان ونقصانه من خلال
السنة النبوية الصحيحة.
محمد أنور عزالدين علي الشيباني.

- المقدمة ٩٥
المبحث الأول: منزلة الرحمة وأثرها على العقيدة من خلال السنة
النبوية الصحيحة ٩٨
المطلب الأول: رسالة الدين للبشرية رسالة رحمة ٩٨
المطلب الثاني: إضاءات نبوية على عقيدة المؤمن وتأثرها بالرحمة ١٠٠
المبحث الثاني: آثار الرحمة في زيادة الإيمان ونقصانه وتطبيقاتها
من الآثار الصحيحة ١١٣
المطلب الأول: الإشارات النبوية لزيادة الإيمان ونقصانه وعلاقته
بالرحمة ١١٣

- المطلب الثاني: دراسة تحليلية تطبيقية لحديث النبي ﷺ: «أَتَاكُمْ
أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَلَيْنُ قُلُوبًا، وَأَرْقُ أَفْئِدَةً» ١١٧
الخاتمة ١٣٠



• بحث: المظاهر الدلالية والاشتقاقية للرحمة في القرآن الكريم.
د. محمد الحسن مختار بلال.

- المقدمة ١٣٧
المحور الأول: تعريف لفظي للدلالة والاشتقاق ١٤٠
المحور الثاني: معنى الرحمة لغة ١٤٢
المحور الثالث: بيان المعاني المتعددة للرحمة عند مفسري القرآن الكريم ١٤٦
المحور الرابع: مشتقات الرحمة في القرآن، وأثر ذلك في اتساع المعاني ١٥٧
الخاتمة ١٧٠



• بحث: بناء الرحمة في القرآن.
الصالحة المرتجي.

- المقدمة ١٧٩
المحور الأول: مفهوم الرحمة في اللغة والقرآن والاصطلاح ١٨٣
المحور الثاني: من تجليات الرحمة في القرآن الكريم ١٨٨
الخاتمة ٢٠٢



• بحث: ختام الآيات بالرحمة تأصيل ودلالات.
د. خالد حسن أبو الجود.

- المقدمة ٢١١

| | |
|-----|--|
| ٢١٥ | مدخل |
| ٢١٩ | المبحث الأول: رحمة الله الواردة في ختام الآيات |
| ٢١٩ | المطلب الأول: ورودها اسما |
| ٢٢٦ | المطلب الثاني: ورودها وصفاً |
| ٢٣٧ | المبحث الثاني: معاني الرحمة في ختام الآيات |
| ٢٣٧ | المطلب الأول: عامة |
| ٢٣٨ | المطلب الثاني: خاصة |
| ٢٤٣ | الخاتمة |



• بحث: رحمة القرآن الكريم مكوناتها، وسبل استنزالها،
واستثمارها تربوياً ودعواً.
محمود بن عبدالجليل روزن.

| | |
|-----|---|
| ٢٤٩ | المقدمة |
| ٢٥٣ | تمهيد |
| ٢٥٣ | المطلب الأول: معنى الرحمة لغةً واصطلاحاً |
| ٢٥٤ | المطلب الثاني: وصف القرآن بأنه رحمة |
| ٢٥٦ | المبحث الأول: مكونات رحمة القرآن الكريم |
| ٢٥٦ | المطلب الأول: أن القرآن الكريم تنزيلٌ من الرحمن الرحيم |
| ٢٦١ | المطلب الثاني: أن القرآن الكريم منزلٌ على الموصوف بالرحمة |
| ٢٦٤ | المطلب الثالث: رحمة القرآن المضمّنة في سائر صفاته |
| ٢٨٢ | المطلب الرابع: رحمة القرآن المضمّنة في خصائصه |
| ٢٨٨ | المبحث الثاني: سبل استنزال رحمة القرآن الكريم |
| ٢٨٨ | المطلب الأول: اتباع القرآن |
| ٢٨٩ | المطلب الثاني: الاعتصام بالقرآن |
| ٢٩٤ | المطلب الثالث: الاستشفاء بالقرآن |
| ٢٩٦ | المطلب الرابع: الاستماع والإنصات إلى قراءة القرآن الكريم |
| ٢٩٧ | المطلب الخامس: تلاوة القرآن ومدارسته |

| | |
|---|-----|
| المبحث الثالث: الاستثمار التربوي والدعوي لرحمة القرآن | ٣٠٠ |
| المطلب الأول: الأمور المعينة على الاستثمار التربوي لرحمة القرآن | ٣٠٢ |
| المطلب الثاني: الاستثمار الدعوي لرحمة القرآن | ٣٠٧ |
| المطلب الثالث: نموذج تطبيقي مقترح لتقويم استثمار رحمة | |
| القرآن وتعاهده وقياس أثره | ٣١٥ |
| الخاتمة | ٣٢٠ |



• بحث: علاقة الرحمة بمفهومي القوة والعزة.
د. مبروك بهي الدين رمضان.

| | |
|--|-----|
| المقدمة | ٣٣٧ |
| المبحث الأول: الرحمة في الإسلام لا تعني الضعف | ٣٤٦ |
| المطلب الأول: خطر الخلط بين مفهومي الرحمة والضعف | ٣٤٦ |
| المطلب الثاني: خطورة تنزيل أحكام الضعف على الرحمة | ٣٤٩ |
| المبحث الثاني: القوة في الإسلام لا تعني الشدة والتشدد والإرهاب | ٣٥٣ |
| المطلب الأول: الرحمة والإحسان قوة وعزة | ٣٥٣ |
| المطلب الثاني: رحمة القوة في تطبيقات الدعوة | ٣٥٧ |
| المطلب الثالث: قوة الرحمة في تطبيقات الجهاد "أنموذجا" .. | ٣٦٤ |
| المبحث الثالث: بعض شبهات المرجفين حول غلظة وجفاء الإسلام | |
| وسلوك المسلمين، وبعض آليات الرد على الشبهات | ٣٧٢ |
| الخاتمة | ٣٧٥ |



• بحث: عناية الإسلام بالرحمة في القرآن والسنة.
د. رفيق أحمد أحمد محمد.

| | |
|---------------|-----|
| المقدمة | ٣٨٩ |
| التمهيد | ٣٩٢ |



| | |
|---|-----|
| المبحث الأول: رحمة الله بخلقه في القرآن والسنة | ٣٩٤ |
| المطلب الأول: رحمة الله في القرآن | ٣٩٤ |
| المطلب الثاني: رحمة الله في السنة | ٤٠١ |
| المبحث الثاني: رحمة النبي بالعلمين في القرآن والسنة | ٤٠٤ |
| المطلب الأول: رحمة النبي ﷺ في القرآن | ٤٠٤ |
| المطلب الثاني: رحمة النبي ﷺ في السنة | ٤٠٦ |
| المبحث الثالث: الحث على الرحمة بالخلق | ٤١١ |
| الخاتمة | ٤١٥ |



• بحث: مقصد الرحمة وأثره في حياة المسلم.

حسين محمد المحيميد.

| | |
|---|-----|
| المقدمة | ٤٢٥ |
| التمهيد | ٤٢٩ |
| المبحث الأول: في مقاصدية الرحمة | ٤٣٥ |
| المطلب الأول: مقصد الرحمة في القرآن الكريم | ٤٣٥ |
| المطلب الثاني: مقصد الرحمة في السنة النبوية | ٤٣٧ |
| المبحث الثاني: أثر مقصد الرحمة في حياة المسلم | ٤٤١ |
| المطلب الأول: أثر مقصد الرحمة في الحياة السياسية | ٤٤١ |
| المطلب الثاني: أثر مقصد الرحمة في الحياة الاقتصادية | ٤٤٦ |
| المطلب الثالث: أثر مقصد الرحمة في تعامل المسلمين مع غيرهم | ٤٥٢ |
| المطلب الرابع: أثر مقصد الرحمة في دائرة الإفتاء | ٤٥٤ |
| الخاتمة | ٤٥٧ |



• بحث: موجبات الرحمة الإلهية وموانعها - دراسة قرآنية.
د. حسن عبد الجليل العبادلة.

| | |
|--|-----|
| المقدمة | ٤٦٧ |
| المبحث الأول: معنى الرَّحْمَةِ وأقسامها | ٤٧١ |
| المطلب الأول: الرَّحْمَةُ لُغَةً | ٤٧١ |
| المطلب الثاني: الرَّحْمَةُ اصطلاحاً | ٤٧١ |
| المطلب الثالث: دلالات الرحمة في الآيات القرآنية | ٤٧٣ |
| المطلب الرابع: أقسام الرحمة الإلهية | ٤٧٦ |
| المبحث الثاني: موجبات الرحمة الإلهية | ٤٧٩ |
| المطلب الأول: الإرادة الإلهية | ٤٧٩ |
| المطلب الثاني: الإيمان بالله والاعتصام به | ٤٨٢ |
| المطلب الثالث: تقوى الله | ٤٨٣ |
| المطلب الرابع: طاعة الله وطاعة الرسول | ٤٨٤ |
| المطلب الخامس: اتباع القرآن الكريم | ٤٨٤ |
| المطلب السادس: الإنصات والاستماع للقرآن إقام الصلاة | ٤٨٥ |
| المطلب السابع: إقام الصلاة | ٤٨٥ |
| المطلب الثامن: إيتاء الزكاة | ٤٨٧ |
| المطلب التاسع: الجهاد في سبيل الله | ٤٨٨ |
| المطلب العاشر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر | ٤٨٩ |
| المطلب الحادي عشر: الإحسان | ٤٨٩ |
| المطلب الثاني عشر: الصبر | ٤٩١ |
| المطلب الثالث عشر: الاستغفار | ٤٩١ |
| المطلب الرابع عشر: الدعاء خوفاً وطمئناً | ٤٩٢ |
| المطلب الخامس عشر: اعتزال الكافرين والبعد عن السيئات | ٤٩٣ |
| المطلب السادس عشر: التوبة | ٤٩٥ |
| المبحث الثالث: موانع الرحمة الإلهية | ٤٩٨ |
| المطلب الأول: الكفر بالله | ٤٩٨ |
| المطلب الثاني: الشرك بالله | ٤٩٩ |
| المطلب الثالث: الكفر بالآخرة | ٥٠٠ |



- المطلب الرابع: تكذيب الآيات والصد عن الدين ٥٠١
- المطلب الخامس: القنوط من رحمة الله ٥٠٢
- المطلب السادس: الظلم ٥٠٣
- المطلب السابع: اتباع أوامر النفس والهوى ٥٠٥
- المطلب الثامن: اتباع الشيطان وعبادته ٥٠٦
- المطلب التاسع: الإجماع ٥٠٨
- الخاتمة ٥١٠



